وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

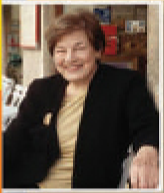

كاتبات وقصص

مختارات من القصص القصيرة المكتوبة باللغة الإنكليزية

مدونة أبو عبدو

ترجمة : محمد منير الأصبحي

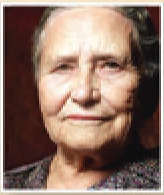

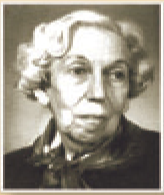

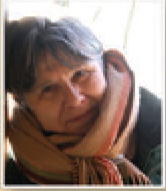

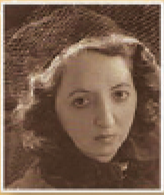

كاتبات وقصص

تصميم الغلاف
خالد يزبك

كاتبات وقصص

مختارات من القصص القصيرة
المكتوبة باللغة الإنكليزية

ترجمة : محمد منير الأصبحي

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٢ م

كاتبات وقصص : مختارات من القصص القصيرة المكتوبة باللغة الإنكليزية/ ترجمة محمد منير الأصبحي .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٢م .- ٤٦٤ ص؛ ٢٤سم.

(قصص مختارة؛ ٤)

١ - ٨٢٣,٠٠٨ أ ص ب ك ٢ - العنوان ٣ - الأصبحي
٤ - السلسلة

مكتبة الأسد

قصص مختارة

« ٤ »

m

في عام ١٩٧٥، عام المرأة، نشرت مجلة الآداب الأجنبية (السنة الثانية، العدد ١، تموز ١٩٧٥، ص ٥-٩٧) خمس قصص قصيرة لكاتبات أمريكيات[١] اشتركت في ترجمتها مع زوجتي الأستاذة رباب هاشم. ثم نشرت المجلة نفسها (السنة الثانية، العدد ٢، تشرين الأول ١٩٧٥، ص ٢٧٢-٢٩٢) تحت عنوان "من الأدب النسائي الإنكليزي المعاصر" ترجمتي لثلاث قصص لكاتبات إنغليزيات،[٢] ونشرت (السنة الثالثة، العدد الثالث، كانون الثاني ١٩٧٧، ص ٨٩-١١٤) قصتان من ترجمتي أيضاً للكاتبة الأمريكية يودورا ولتي.[٣] وقد وجدت آنذاك أن تلك القصص العشر تصلح نواة لكتاب يضم مجموعة أكبر من الأعمال القصصية النسائية. لكن ظروفاً معينة منعت تحقيق تلك الفكرة في ذلك الوقت، وها أنا أعود لتحقيقها الآن بعد أن قمت بترجمة ست عشرة قصة إضافية.

والقصص مرتبة هنا حسب التسلسل الأبجدي للأسماء الأخيرة للكاتبات.

---

(١) القصص هي: "حمى روماوية" (عدلنا العنوان هنا ليصبح "حمى رومانية") لإديث وارتون، و"جنازة النحات" لولا كيثر، و"جوردانز إند" لإيلين غلاسغو، و"التخلي عن الجدة وذرول" (عدلنا العنوان هنا ليصبح "هجران الجدة وذرول")، و"الزنجي الاصطناعي" لفلانري أوكونر.

(٢) وهي: "الضجة الصادرة عن حديقة الحيوانات" لجانيس إليوت، و"استدع لي من جديد اليوم الذي فات" لجين ستنبز، و"فعل مهيمن من الخلق، أو التدمير" لماغي رس.

(٣) "زيارة بدافع الصدقة" و"موت بائع متجول."

ولما كنتُ لا أؤمن بترجمة قصص عن الإنغليزية هي بالأصل مترجمة من لغات أخرى، فقد اقتصرت هذه المجموعة على أعمال مكتوبة بالأصل باللغة الإنكليزية. وقد حرصتُ على أن تشمل قصصاً لكاتبات من جنسيات مختلفة، ولكن من الطبيعي أن يكون للقصص الأمريكية والبريطانية النصيب الأكبر.

هناك من يقول إن الأدب القصصي والروائي قد يكون في جوهره أدباً نسائياً. ومن القائلين بذلك هـ. ل. منْكن H. L. Mencken (١٨٨٠-١٩٥٦)، أحد كبار النقاد الأمريكيين في القرن العشرين. فهو يقول في مقالته: "الرواية" (١٩٢٢) إن النساء هن جمهور الرواية الرئيسي، وهذه حقيقة يعرفها كل العاملين بالكتب، ولكنهن أيضاً – وهذا مالا يلاحظه الكثيرون حسبما يضيف منكن – قد شققن طريقهن إلى طليعة صف منتجي هذا النوع من الأدب، وهو النوع الوحيد – باستثناء الشعر الوجداني- الذي أحرزن فيه في رأيه تقدماً يذكر. وقد توقع أن يتزايد نجاح المرأة في الأدب الروائي.

ويعزي منكن هذا النجاح لأسباب قد لا توافقه غالبية النساء على بعضها وغالبية الرجال على بعضها الآخر. فهو يقول إن النساء لديهن استعداد طبيعي أفضل للعرض الواقعي. إذ إن اهتمامهن في رأيه ينصب على أمور ذات "جوهر موضوعي: السقوف والوجبات والأجرة والملابس وولادة الأطفال وتربيتهم." ويضيف أن المرأة أقل خيالاً ورومانتيكية من الرجل وأنها ترى الحياة بشكل أكثر حدة ومطالبها أكثر اعتدالاً فليس لديها أحلام بالنقود تفسد فهمها للحياة وتفكيرها.

وإذا كان من المحتمل أن تقابل تعليلات منكن أو بعضها بشيء من المعارضة، فإنه قد يكون من الصعب التصدي لفكرته الأساسية، وهي أن الرواية فن نسائي. قد يعترض البعض قائلين إن الأغلبية الساحقة من عمالقة هذا النوع من الأدب مؤلفة من الأدباء الذكور. ولا بد أن هؤلاء سيستشهدون بأسماء مثل دستويفسكي

وجويس وفوكنر وبروست وآخرون كثيرون. لكن مثل هذا الاعتراض هو نتيجة رؤية سطحية للتاريخ والواقع. إن علينا أن نأخذ بعين الاعتبار حقيقة أن المرأة في الغرب لم تستطع قبل القرن التاسع عشر أن تخترق بشكل جدي الطوق المفروض على كل ما أنتجته دور النشر منذ انتشار الطباعة، ذلك الطوق الذي كان يمنع المرأة من المساهمة العملية في الإنتاج الأدبي والفكري. ولئن بدا عدد النساء العاملات في حقل الأدب القصصي والروائي ضئيلاً بعض الشيء بالمقارنة المجردة مع عدد الرجال، فإن هذا العدد نفسه يبدو ضخماً إذا ما أخذنا القيود التي فرضت على المرأة عبر القرون الطويلة بعين الاعتبار. وإذا لاحظنا أن آثار هذه القيود لا يمكن أن تختفي خلال فترة زمنية قصيرة. ونحن نجد أيضاً أن الفارق العددي يتضاءل باستمرار مع مرور الزمن ومع تساقط الكثير من الحواجز والقيود.

ويمكننا من جهة أخرى أن نلاحظ أن بدء انطلاق المرأة الأدبي تواقت تقريباً مع بدء ازدهار الفن القصصي الروائي في أوروبا. فنحن نجد أن إنغلترا مثلاً أنجبت عدداً من الروائيات اللواتي تسلقن إلى قمة الإبداع في هذا الفن مثل جين أوستن والأخوات برونتي وجورج إليوت.

ولا يمكن لهذه المجموعة القصصية أن تطمح لأن تكون كافية لتمثيل الأدب النسائي القصصي المكتوب باللغة الإنجليزية. لكن الأمل هو أن توفر المجموعة متعة راقية لمحبي الأدب وبداية أو إضافة جيدة لدارسي الأعمال القصصية النسائية. وتغطي المجموعة قصصاً من القرن التاسع عشر حتى العقد الأول من القرن الحادي والعشرين.

وإذا كان القارئ يتوقع أن يجد في هذه القصص دراسة لعواطف المرأة وشخصيتها وطبيعتها، وأن يكون التركيز فيها على شخصيات نسائية فإن بعض هذه القصص ستكون عند ظنه. إذ إن المجموعة تضم قصصاً تكاد أن تخلو من شخصيات ذكورية، وتتناول علاقة المرأة بالرجل وعلاقة المرأة بالمرأة، أو تتناول مراحل معينة من حياة المرأة، من منظور أنثوي.

لكن سيكتشف القارئ أيضاً أن بعض القصص تتناول موضوعات اجتماعية وإنسانية ودينية أكثر شمولاً، وهذا أمر طبيعي، بل إن الشخصيات النسائية في بعضها شخصيات غير مباشرة أو ثانوية جداً.

وتصور القصص مجتمعات مختلفة، مثل مجتمع الطبقة الغنية في نيويورك وفي لندن، كما في قصتي "حمى رومانية" لإديث وارتون و"حفلة الحديقة" لكاثرين مانسفيلد؛ ومجتمع الغرب الأمريكي الذي تطغى فيه القيم المادية على القيم الجمالية والأحاسيس المرهفة، وما ينطوي عليه ذلك المجتمع من صراع بين العاطفة وما يعتبره الناس نجاحاً، بين الروح والمادة، كما في "جنازة النحات" لولا كيثر؛ والمجتمع الأرستقراطي الجنوبي الأمريكي وهو في طريق الزوال، في "جودانز إند" لإيلين غلاسغو؛ والمجتمع الصغير جداً في مخيم عمل ناء في كندا، في قصة ميفس غالنت "قلبي محطم"؛ والمجتمع الجامعي في نيجيريا، في قصة "الزنزانة رقم ١" لتشيمامندا نغوزي أديتشي.

وتعالج بعض القصص تجارب إنسانية أساسية، مثل تحدي الطبيعة الذي يواجهه طفل صغير لإرضاء نفسه في "عبر النفق" لدويس ليسنغ، أو المواجهة بين فتاة صغيرة وعجوزان بدأ الخرف يسيطر عليهما في قصة يودورا ولتي "زيارة بدافع الصدقة،" أو الانطلاق من الهموم الشخصية إلى تطوير مفهوم شامل للحب، كما في قصة كارسون مكَلَرز "شجرة. صخرة. سحابة،" أو أنانية الفرد التي تعميه عن تقدير الآخرين واحترام مشاعرهم، كما في قصتي سوزان هيل، وخاصة قصة "في المحمية" التي تذكرني بأنانية العالم الغربي وعجزه عن فهم المجتمعات الأخرى الأقل حظاً دون أن تكون أقل ثراء حضارياً وإنسانياً.

ويتناول عدد كبير من هذه القصص المواجهة مع الموت، فبعض القصص تنتهي بموت الشخصية الرئيسية إما بسبب المرض أو الكبر في السن. لكن قصصاً أخرى تصور مواجهة الإنسان مع الموت للمرة الأولى، ومن الطبيعي أن يكون من يخوض هذه التجربة طفلاً صغيراً أو فتاة شابة، كما في قصص "الأحياء" لماري

جوزفين لافن، و"حفلة الحديقة" لكاثرين مانسفيلد، و"حفلة الشاطئ" لشيرلي آن غراو. وفي قصص أخرى تكون أنانية الفرد هي السبب في موت شخص آخر.

وتختلف القصص أيضاً اختلافاً كبيراً في أسلوبها، الذي يتراوح من الأسلوب السردي التقليدي المألوف في القرن التاسع عشر في قصة "زوجان من مانشستر" لإليزابث غاسكل، إلى الأسلوب التجريبي في قصة "حدائق كيو" لفرجينيا وولف، حيث يصعب الحديث عن شخصيات أو عن حبكة، وحيث يشكل الإنسان فيها جزءاً من عالم الطبيعة، لا يزيد في أهميته عن الكائنات الأخرى.

ويمكن القول في الختام أن الكثير من القصص في هذه المجموعة وفي الأدب النسائي الغربي بشكل عام تبين أن المرأة في العالم الغربي لا تزال عرضة لاستغلال الرجل واضطهاده ونرجسيته، ولا تزال تعاني في كثير من الأحيان من الفراغ العاطفي والوحدة، بالرغم من كل التحرر والحرية والمساواة التي يدعيها ذلك العالم.

محمد منير الأصبحي

تشيمامندا نغوزي أديتشي

الزنزانة رقم ١ (١)

تشيمامندا نغوزي أديتشي كاتبة نيجيرية معاصرة، ولدت عام ١٩٧٧، وقد لقيت روايتها الأولى **الخطمي البنفسجي** التي نشرت عام ٢٠٠٣ استحساناً كبيراً من النقاد وفازت بجائزة أدبية للكتب الأولى. وفي عام ٢٠٠٩ نشرت مجموعة قصصية بعنوان **الشيء الملتف حول عنقك**، تتضمن هذه القصة.

أول مرة سُرق فيها بيتنا كان جارنا أوسيتا Osita هو الذي تسلق ودخل من نافذة غرفة الطعام وسرق جهاز التلفزيون ومسجل الفيديو وشريطي الفيديو "المطر البنفسجي" و"المُثير" اللذين عاد بهما والدي من أمريكا. والمرة الثانية التي سُرق فيها بيتنا كان أخي نامابيا Nnamabia هو الذي قام بتزوير اقتحام المنزل وسرق مجوهرات والدتي. حدث ذلك يوم أحد. كان والديّ قد سافرا إلى مسقط رأسيهما ليزورا أجدادنا، لذلك ذهبت أنا ونامابيا إلى الكنيسة وحدنا. كان يقود سيارة أمي الخضراء من طراز بيجو ٥٠٤. جلسنا معاً في الكنيسة كما كانت عادتنا، لكن لم يتسنّ لنا الوقت ليلكز أحدنا الآخر ونخنق ضحكاتنا حول قبعة بشعة أو قفطان

---

(١) هذه ترجمة قصة "Cell One" للكاتبة Chimamanda Ngozi Adichi. والقصة نشرت لأول مرة في عدد مجلة **النيويوركر** *The New Yorker* الصادر في ٢٩ كانون الثاني ٢٠٠٧.

مهترئ، لأن نامابيا غادر دون أي كلمة بعد عشرة دقائق. وعاد تماماً قبل أن يقول القسيس: "انتهى القداس، اذهبوا بسلام." كنت مستاءة قليلاً، إذ أنني تخيلت أنه ذهب ليدخن أو ليقابل إحدى الفتيات، بما أن السيارة كانت تحت تصرفه، لكن على الأقل كان من الممكن له أن يخبرني. توجهنا إلى البيت في السيارة صامتين، وحين أوقفها في مدخل السيارات الطويل الخاص بمنزلنا، تخلفت لألتقط بعض زهور الإكسورا ixora بينما كان نامابيا يفتح الباب. دخلت ووجدته واقفاً في منتصف الصالون.

قال: "لقد سُرِقنا."

تطلب مني الأمر لحظة لأستوعب منظر الغرفة. لكن حتى في ذلك الوقت شعرت بوجود صبغة مسرحية في الطريقة التي فتحت الدروج فيها إلى آخرها. أو ربما أنني ببساطة كنت أعرف أخي معرفة جيدة جداً. فيما بعد، حين عاد والديّ إلى البيت وبدأ الجيران يتوافدون ليقولوا **ندو** (آسفين) وليطقطقوا بأصابعهم ويرفعون أكتافهم ويخفضونها، جلست وحدي في غرفتي في الطابق العلوي وأدركت ما هو الشعور بالرغبة في التقيؤ في أحشائي: إنني أعرف أن نامابيا هو الذي فعلها. وأبي كان يعرف أيضاً. فقد أشار إلى أن أباجور النافذة فُتِح من الداخل وليس من الخارج (نامبيا يكون عادة أذكى من ذلك –ربما كان في عجلة لأن يعود إلى الكنيسة قبل انتهاء القداس)، وأن السارق عرف بالضبط أين توجد مجوهرات أمي: في الزاوية اليسرى الخلفية من صندوق معدني. حدق نامابيا بأبي بعينين مجروحتين وقال إنه قد يكون فعل أشياء شنيعة في الماضي، أشياء سببت الألم لوالديّ، لكنه لم يفعل شيئاً في هذه المسألة. خرج من الباب الخلفي ولم يعد إلى البيت تلك الليلة. أو الليلة التالية. أو الليلة التي بعدها. بعد أسبوعين أتى إلى المنزل، نحيلاً تفوح منه رائحة البيرة، وهو يبكي ويقول إنه آسف، وإنه رهن المجوهرات لدى التجار الهوسا في إنوغو Inugu، وأن المال كله قد نفذ.

سألته أمنا: "كم أعطوك مقابل مصاغي الذهبي؟" وحين أخبرها وضعت كلتا يديها على رأسها وصاحت: آه! آه! تشي م إيغوبو م! إلهي قد قتلني!" أردت أن أصفعها. طلب أبي من نامابيا أن يكتب تقريراً: كيف رهن المجوهرات، وكيف صرف النقود، ومع من أنفقها. لم أعتقد أن نامابيا سيذكر الحقيقة، ولا أعتقد أن أبي اعتقد أنه سيفعل ذلك، لكنه يحب التقارير، أبي الأستاذ الجامعي، كان يحب أن تُكْتَب الأشياء وتوثق بشكل لطيف. إضافة إلى ذلك، كان نامابيا في السابعة عشرة، وله لحية يعتني بها كل الاعتناء. كان في المرحلة بين المدرسة الثانوية والجامعة، وهو أكبر من أن يُضْرَب. فما الذي كان يمكن لأبي أن يفعله غير ذلك؟ بعد أن كتب نامابيا التقرير حفظه أبي في الخزانة الحديدية في مكتبه حيث يحتفظ بأوراقنا المدرسية.

"أن يستطيع إيذاء أمه بهذا الشكل!" كان آخر شيء قاله أبي حول الموضوع.

لكن نامابيا لم يقصد أن يؤذيها. لقد قام بفعلته لأن مجوهرات أمي كانت الشيء الوحيد الذي له قيمة في المنزل: تجميع للقطع الذهبية الخالصة استغرق حياة بأكملها. كما قام بها أيضاً لأن غيره من أبناء الأساتذة الجامعيين يقومون بفعل الشيء نفسه. هذا كان سبب السرقة في مدينتنا الجامعية الهادئة. الصبيان الذين نشؤوا وهم يشاهدون "شارع السمسم"(١) ويقرؤون إنيد بلايتون(٢) ويتناولون رقائق الذرة في وجبة الفطور ويدرسون في المدرسة الابتدائية الخاصة بالعاملين في الجامعة وهم يلبسون صنادل بنية، كانوا الآن يقطعون الشبك المانع للبعوض على نوافذ جيرانهم ويفتحون أباجورات النوافذ ويتسلقون ويدخلون ليسرقوا أجهزة التلفزيون ومسجلات الفيديو. كنا نعرف

---

(١) البرنامج التلفزيوني الذي عُرّب تحت اسم "افتح يا سمسم."

(٢) Enid Blyton : كاتبة بريطانية شهيرة في مجال أدب الأطفال. كتبت عدة سلاسل من الروايات الوجهة لمجموعات مختلفة من الأعمار.

اللصوص. ومع ذلك حين يتقابل أساتذة الجامعة أحدهم مع الآخر في نادي العاملين بالجامعة أو في الكنيسة، كانوا يحرصون على التحسر حول الحثالة من البلدة الذين يأتون إلى مدينتنا الجامعية المقدسة للسرقة.

كان السارقون من الصبيان هم الذين يتمتعون بالشعبية. كانوا يقودون سيارات آبائهم وأمهاتهم في المساء، ومقاعدهم مدفوعة إلى الخلف وأيديهم ممدودة لتصل إلى عجلة القيادة. كان أوسيتا جارنا الذي سرق جهازنا التلفزيوني قبل أسبوعين فقط من سرقة نامابيا، رشيقاً ووسيماً بطريقة لا تخلو من التأمل الحزين، وكان يمشي برشاقة القطط. كانت قمصانه دائماً مكوية بشكل نضر. وكنت أراقبه من فوق السياج، ثم أغمض عيني متخيلة أنه يسير نحوي، آتياً ليطالب بي على أنني ملك له. لكنه لم يلحظ وجودي قط. وحين سرق من بيتنا، لم يذهب والديَ إلى منزل الأستاذ إيوبي Ebube للمطالبة بإعادة أشيائنا. لكنهما عرفا أن السارق هو أوسيتا. كان أوسيتا أكبر من نامابيا بعامين؛ معظم الصبية السارقين أكبر من نامابيا وربما كان ذلك هو السبب في أن نامابيا لم يسرق من منزل شخص آخر. من المحتمل أنه شعر أنه لم يكبر بما يكفي، ليس مؤهلاً بما يكفي، للقيام بأي شيء أكثر جدية من مجوهرات أمي.

نامابيا يشبه أمي تماماً – بشرته بيضاء وعيناه كبيرتان، وله فم سخي ذو استدارة كاملة. حين كانت أمي تأخذنا إلى السوق، كان التجار يصيحون قائلين: "يا سيدتي، لم تضيعين بشرتك البيضاء على صبي وتتركين البنت سمراء بهذا الشكل. ماذا يفعل صبي بكل هذا الجمال؟" وكانت أمي تقهقه وكأنها تتحمل المسؤولية العابثة والسارة عن قسمات نامابيا. وحين قام نامابيا في سن الحادية عشرة بكسر زجاج صف المدرسة بحجر، أعطته أمي النقود لاستبداله ولم تخبر أبي. وحين أخذ بعد بضع سنوات مفتاح سيارة أبي وضغطه فوق لوح من الصابون ووجده أبي قبل

أن يتمكن نامابيا من أخذه إلى صانع للمفاتيح، أصدرت أصواتاً مبهمة حول كيف أنه كان يقوم بتجربة فقط وهي لا تعني أي شيء؟ وحين سرق أسئلة الامتحان من مكتب أبي وباعها لطلابه، صرخت في وجهه، لكنها بعد ذلك قالت لأبي أن نامابيا في الواقع في السادسة عشرة من عمره ويجب حقاً أن يعطى مصروفاً أكبر.

لا أدري ما إذا كان نامابيا شعر بتأنيب الضمير لسرقة المجوهرات. وكنت لا أستطيع دائماً من رؤية وجه أخي المهذب المبتسم معرفة كيف يشعر في الحقيقة. وأنا وهو لم نتحدث عن الموضوع، وكذلك لم يتحدث عنه والديّ. ورغم أن أخوات أمي أرسلن أقراطهن الذهبية لأمي، ورغم أنها اشترت سلسالاً ذهبياً جديداً من السيدة موزي Mozie – المرأة الفاتنة التي تستورد الذهب من إيطاليا – وبدأت تذهب إلى منزل السيدة موزي مرة كل شهر لتدفع لها بالتقسيط، فإننا لم نتحدث عما حصل لمجوهراتها. وكأننا من خلال التظاهر بأن نامابيا لم يفعل الأشياء التي فعلها يمكننا أن نعطيه فرصة للبدء من جديد. وكان من الممكن ألا تُذكر مرة أخرى لولا أنه جرى القبض على نامابيا بعد سنتين أثناء عامه الثاني في الجامعة.

في ذلك الوقت كان الموسم موسم الجماعات المتطرفة،(١) حيث انتشرت لافتات في جميع أنحاء الجامعة بحروف كبيرة: "**قل لا للجماعات المتطرفة.**" الأكثر شهرة كانت الفأس السوداء والقراصنة وقراصنة البحار. كانت في البداية جمعيات إخاء جامعية سليمة، لكنها تطورت، والآن كان الشبان الذين يبلغون الثامنة عشرة والذين أتقنوا المشية الشائعة في أشرطة فيديو الأغاني الكلامية rap videos يخضعون لطقوس سرية للدخول في العضوية تنتهي في بعض الأحيان بموت أحدهم على تل أوديم Odim. كما شاعت المسدسات

---

(١) الكلمة الإنجليزية هي cult، وهي تعني عادة فرقة دينية أو جماعة من المعجبين بشخص ما أو شيء ما، لكنها تعني أيضاً التمتع بشعبية كبيرة.

والولاءات التعذيبية. يكفي أن ينظر أحد الفتيان شزراً لفتاة يتبين أنها صديقة كابوني[1] من الفأس السوداء، لأن يُطعن ذلك الفتى في فخذه حين دخوله إلى كشك لشراء سيجارة. ويتضح أن الفتى من القراصنة، لذلك يمضي أحد رفاقه في المجموعة إلى مشرب بيرة ويطلق الرصاص على رِجْل أقرب عضو في الفأس الذهبية، ثم في اليوم التالي يطلَق الرصاص على عضو آخر في القراصنة ويسقط قتيلاً في قاعة الطعام، ويسقط جسده على أطباق من الألمنيوم مملوءة بالغري،[2] وفي ذلك المساء يُضرب عضو في الفأس الذهبية، وهو ابن لأستاذ في الجامعة، حتى الموت، ويتناثر الدم فوق جهاز الأقراص المدمجة الخاص به. كان الأمر ينم عن تفاهة وفراغ. وكان شاذاً إلى درجة أنه تحول بسرعة إلى وضع عادي. كانت الفتيات يبقين في غرفهن بعد دروسهن، والمحاضرون يرتجفون، وحين يعلو صوت الذبابة أكثر من المعتاد، يقفز الناس. لذلك استدعيتْ الشرطة. وقد ساروا بسرعة عبر المدينة الجامعة بسيارتهم الزرقاء من طراز بيجو ٥٠٥، وحملقوا بالطلاب، ومسدساتهم الصدئة تطل من نوافذ سيارتهم. عاد نامابيا من محاضراته وهو يضحك. ففي اعتقاده أن على الشرطة التصرف بشكل أفضل، فالجميع يعرفون أن فتيان الجماعات المتطرفة لديهم مسدسات أحدث.

راقب والديّ نامابيا بقلق صامت، وكنت أعرف أنهما هما أيضاً يتساءلان عما إذا كان في جماعة متطرفة. فقد تمتع فتيان تلك الجماعات بالشعبية، وكانت شعبية نامابيا كبيرة. كان الصبيان ينادونه بلقبه – "الشاذ!"[3] – ويصافحونه كلما مروا به، وكانت الفتيات، وخاصة اللواتي يتمتعن بشعبية،

---

(١) Capone : اسم رجل شهير من رجالات العصابات في الولايات المتحدة، ويبدو أن الاسم يستخدم للدلالة على زعيم الجماعة المتطرفة.

(٢) Garrie طبق من الطعام يتمتع بشعبية كبيرة في غرب أفريقيا.

(٣) The Funk . ليس المقصود هنا الشذوذ الجنسي، بل الشذوذ في اللباس وتسريحة الشعر والمظهر العام.

يعانقه عناقاً طويلاً حين يحييه. كان يحضر جميع الحفلات: المعتدلة في المدينة الجامعية والأكثر صخباً وجموحاً في البلدة، وكان من نوع فتى النساء الذي يكون في الوقت نفسه رجلاً للرجال، النوع الذي يدخن علبة روثمانز Rothmans في اليوم ويتمتع بصيت أنه يستطيع شرب صندوق كامل من بيرة ستار Star في جلسة واحدة. لكن كان يبدو أن أسلوبه يميل أكثر لمصادقة جميع فتيان الجماعات المتطرفة دون أن يكون واحداً منهم. ولست متأكدة ما إذا كان أخي يمتلك المطلوب – الجرأة أو عدم الثقة – للانضمام إلى إحدى الجماعات.

في المرة الوحيدة التي سألته فيها ما إذا كان ينتمي إلى مجموعة متطرفة، نظر إلي بدهشة، كما لو كان يجب أن أكون على معرفة لا تحيجني للسؤال، قبل أن يجيب: "بالطبع لا." وقد صدقته. وصدقه أبي أيضاً حين سأله. لكن تصديقنا له لم يحدث تغييراً كبيراً، لأنه كان قد قُبِض عليه بتهمة انتمائه إلى إحدى الجماعات.

والطريقة التي حدث فيها ذلك هي التالية. في يوم مفعم بالرطوبة، انتظر أربعة أعضاء في جماعة ما في مكمن وهاجموا أستاذة جامعية تركب سيارتها المرسيدس الحمراء. سحبوا مسدساً ووجهوه إلى رأسها، ودفعوها خارج السيارة، وقادوا السيارة إلى كلية الهندسة، حيث أطلقوا الرصاص على ثلاثة صبية كانوا يخرجون من المبنى. كان الوقت ظهراً. كنتُ أنا في قاعة دراسية قريبة، وحين سمعنا الطلقات كان محاضرنا أول من خرج مسرعاً من الباب. سمعنا صريخاً عالياً، وفجأة احتشد السلم بطلاب وطالبات لا يدرون إلى أين يجرون. في الخارج، كانت الجثث مسطحة فوق المرج. وكانت المرسيدس قد انطلقت مبتعدة بسرعة. أسرع الكثير من الطلاب بحزم حقائبهم، وتقاضى سائقو الأوكادا[1] ضعف الأجر المعتاد لنقلهم إلى موقف

(١) Okada : دراجة نارية تستخدم مثل سيارات الأجرة (التاكسي) في نيجيريا.

المركبات ليركبوا إحدى الحافلات. وأعلن نائب رئيس الجامعة إلغاء جميع الدروس المسائية وفرض على الجميع عدم الخروج من مبانيهم بعد التاسعة مساء. لم أجد حكمة كبيرة في ذلك، باعتبار أن إطلاق النار حدث في ضوء النهار المتلألئ، ومن المحتمل أن نامابيا لم ير الحكمة في ذلك أيضاً، لأنه في الليلة الأولى من منع التجول لم يأتِ إلى البيت. افترضتُ أنه أمضى الليلة عند أحد أصدقائه، فهو على كل حال لم يكن يأتي إلى البيت دائماً. لكن في الصباح التالي أتى شرطي ليخبر والديّ أن نامابيا قد قُبِض عليه في بار مع بعض فتيان الجماعات المتطرفة وهو في قسم الشرطة. صرخت أمي: "إيكوزيكوانا! لا تقل هذا!" قام أبي بشكر رجل الأمن بهدوء. توجهنا إلى قسم الشرطة في البلدة، وهناك كان أحد الشرطة يلوك رأس قلم قذر، وقال لنا: "تعنون صبيان الجماعات المتطرفة الذين قبض عليهم الليلة الماضية؟ لقد أخذوهم إلى إنوغو. قضية خطيرة جداً! يجب أن نوقف مسألة الجماعات المتطرفة هذه بشكل نهائي!"

عدنا إلى السيارة، وتملكنا جميعاً خوف شديد. كانت نسوكا Nnsuka المؤلفة من مدينتنا الجامعية البطيئة المعزولة والبلدة الأبطأ والأكثر انعزالاً مطواعة، فوالدي يعرف مدير الشرطة. لكن إنوغو مجهولة الهوية. وهناك يستطيع رجال الشرطة القيام بما اشتهروا بفعله حين يتعرضون للضغط كي يقدموا نتائج، وهو قتل الناس.

كان قسم شرطة إنوغو مجمعاً ممتداً بلا انتظام على الرمال. رشت أمي الشرطي الجالس إلى المكتب بالمال ورز الجولوف(١) مع اللحم، فسمحوا لنامابيا أن يخرج من زنزانته ويجلس معنا على مقعد تحت شجرة منجا. لم يسأله أحد عن سبب بقائه خارج البيت في الليلة السابقة. ولم يقل أحد أن الشرطة كانوا على خطأ حين دخلوا باراً وقبضوا على

---

(١) jollof rice . هذا أيضاً طبق شعبي منتشر في غرب أفريقيا.

كل الصبيان المتجمعين هناك، بمن فيهم الساقي. بدلاً عن ذلك، أصغينا إلى نامابيا وهو يتحدث.

قال: "لو أننا ندير نيجيريا مثل هذه الزنزانة، لاختفت مشاكلنا. الأمور منظمة. في زنزانتنا زعيم ومساعد له، وحين تدخل، عليك أن تعطيهما بعض المال. وإن لم تفعل تقع في مشكلة."

"وهل كانت معك أية نقود؟" سألت أمي.

ابتسم نامابيا، ووجهه أجمل من أي وقت مضى، بالرغم من لسعة الحشرة الجديدة التي تبدو وكأنها بثرة على جبينه، وقال إنه أدخل نقوده في مؤخرته بعد القبض عليه بوقت قصير. فقد كان يعرف أن الشرطة ستأخذها إن لم يخبئها، ويعرف أنه سيحتاجها لشراء السلام في الزنزانة. لفترة ما، لم يقل والديّ شيئاً. تصورت نامبيا يلف أوراق مالية من فئة المائة نيرا naira لتتخذ شكلاً رقيقاً كالسيجارة ويدخلها داخل جسمه. فيما بعد، ونحن في طريق عودتنا إلى نسوكا، قال أبي: "هذا ما كان يجب أن أفعله حين سرق مجوهراتك. كان يجب أن أحبسه في زنزانة."

أخذت أمي تدق من نافذة السيارة إلى الخارج.

سألتُ: "لماذا؟"

"لأن هذا قد هزَّه. ألم يمكنك أن تري؟" سأل أبي بابتسامة. لم أستطع رؤية ما ذكر. لقد بدا نامبيا لي في حال جيدة، وقد أدخل النقود في مؤخرته وما إلى ذلك.

كانت صدمة نامابيا الأولى هي رؤية أحد القراصنة يبكي. كان الصبي طويلاً وصلب العود، ويشاع أنه نفذ أحد حوادث القتل ومن المرجح أن يصبح كابوني في الفصل الدراسي القادم، ومع ذلك فها هو في الزنزانة ينكمش مرتعداً وينتحب بعد أن صفعه رئيس الشرطة صفعة خفيفة على قفا رأسه. أخبرني نامبيا هذا بصوت مبطن بكلا القرف وخيبة الأمل؛ كان الأمر وكأنه

أجبر فجأة على رؤية أن العملاق الذي لا يصدَّق[1] كان مطلياً بالأخضر فقط. وصدمته الثانية كانت المعلومات التي تلقاها عن الزنزانة رقم ١، أبعد زنزانة عن زنزانته. هو لم يرها قط، ولكن كل يومين كان رجال الشرطة يخرجون رجلاً ميتاً من الزنزانة رقم ١، ويتوقفون عند زنزانة نامابيا للتأكد من أن الجميع قد رأوا الجثة.

أولئك من الذين كانوا في الزنزانة وكان باستطاعتهم شراء علب دهان قديمة مملوءة بالماء، كانوا يتحممون صباحاً كل يومين. وحين كانوا يخرجون إلى الباحة، كان رجال الشرطة يراقبونهم وكثيراً ما يصيحون: "توقفوا عما تفعلون، وإلا ستذهبون الآن إلى الزنزانة رقم ١!" لم يكن بإمكان نامابيا تخيل مكان أسوأ من زنزانته، التي كانت مزدحمة إلى حد أنه في أحيان كثيرة كان يقف مضغوطاً إلى الجدار. وكان في الجدار شقوق تعيش فيها حشرات كوالي-كواتا kwali-kwata دقيقة الحجم؛ كانت لسعاتها عنيفة وحادة، وحين كان يصيح يهزأ منه نزلاء الزنزانة الآخرين. كانت اللسعات أسوأ خلال الليل، حين كانوا جميعاً ينامون على جوانبهم، قدم أحدهم عند رأس الآخر، لإفساح أحدهم مجالاً للآخر، ما عدا الزعيم، الذي كان ينعم بالنوم وظهره بأكمله على الأرض. كما كان الزعيم هو الذي يقسم صحني الرز اللذين كانا يُدخلان إلى الزنزانة كل يوم. كان نصيب كل شخص لقمتين.

أخبرنا نامابيا بهذا أثناء الأسبوع الأول. وقد تساءلت اثناء كلامه ما إذا كانت الحشرات على الجدار قد لسعت وجهه أم أن النتوءات المنتشرة على جبينه هي بسبب عدوى. كان يوجد عند رؤوس بعضها صديد بلون القشدة. وبين الحين والآخر، كان يحكها. كنت أريده أن يتوقف عن الكلام. فقد بدا أنه يستمتع بدوره الجديد، دور الذي يخضع للمعاملة المهينة، ولا يفهم مدى الحظ الذي يتمتع به من خلال سماح الشرطة له أن يخرج ويأكل من طعامنا، أو

---

(١) The Incredibe Hulk اسم لشخصية خيالبة في فيلم أمريكي.

مدى غبائه حين سهر وأمضى تلك الليلة في السكر، ومدى الشك حول فرص إطلاق سراحه.

كنا نزوره كل يوم في الأسبوع الأول. كنا نذهب بسيارة أبي الفولفو القديمة، لأن سيارة أمي البيجو لم تكن آمنة للسفر خارج نسوكا. عند نهاية الأسبوع لاحظت أن والديّ يتصرفان بطريقة مختلفة – بطريقة ليست واضحة أو فجة، ولكنها مختلفة. فأبي توقف عن حديثه الطويل المنفرد فور تجاوزنا نقطة التفتيش حول مدى أمية وفساد الشرطة. لم يعد يذكر اليوم الذي أخرونا فيه لمدة ساعة لأنه رفض رشوتهم، أو كيف أوقفوا حافلة كانت تسافر فيها ابنة عمي الجميلة أوغيتشي Ogechi واختاروها من بين جميع الركاب ووصفوها بالمومس لأنها كانت تحمل جهازي هاتف محمول، وطلبوا منها مبلغاَ كبيراً من المال مما اضطرها للركوع على الأرض تحت المطر وهي تتوسل إليهم أن يخلوا سبيلها. ولم تتمتم أمي أن الشرطة هم عرض من أعراض علة أكبر. بدلاً عن ذلك، أخذ والديّ يحافظان على الصمت. وكأنهما برفضهما انتقاد الشرطة سيجعلان بطريقة ما احتمال حرية نامابيا احتمالاً أكبر. كانت الكلمة التي استعملها رئيس الشرطة في نسوكا هي "حساسة." فإخراج نامابيا في اي وقت قريب سيكون مسألة حساسة، خاصة وأن مفوض الشرطة في إنوغو يجري مقابلات وهو مليء بالارتياح الظافر والاعتزاز حول القبض على أعضاء الجماعات المتطرفة. فمشكلة تلك الجماعات خطيرة، والكل يريد أن يبدو وكأنه يفعل شيئاً.

في الأسبوع التالي قلت لوالديّ إننا لن نذهب لزيارة نامابيا. فنحن لا نعرف كم سيطول هذا الأمر، ووقود السيارة كان باهظ الثمن إلى حد يمنعنا من ركوب سيارتنا ثلاث ساعات يومياً. إضافة إلى ذلك، فإن نامابيا لن يتعرض للأذى إذا دافع عن نفسه لمدة يوم.

قالت أمي إنه لا أحد يتوسل إليّ أن أذهب معهما – يمكنني الجلوس في البيت وعدم فعل أي شيء بينما يعاني أخي البريء. بدأت تسير متوجهة إلى السيارة، وركضتُ خلفها. حين صرت خارج البيت، لم أكن متأكدة حول ما يجب فعله، لذلك التقطت حجراً من قرب أجمة إكسورا ورميته على زجاج الفولفو الأمامي. سمعت صوت التكسر وشاهدت الخطوط الصغيرة تنتشر كالأشعة على العشب قبل أن أستدير وأندفع إلى الطابق العلوي وأقفل على نفسي في غرفتي. سمعت امي تصيح، وسمعت صوت أبي. أخيراً حل الصمت. لم يذهب أحد لرؤية نامابيا ذلك اليوم. وقد أدهشني هذا الانتصار الصغير.

زرناه في اليوم التالي. لم نذكر شيئاً عن زجاج السيارة، رغم أن الصدوع كانت منتشرة كالتموجات على جدول متجمد. سألنا الشرطي الجالس وراء الطاولة، وهو الشرطي اللطيف ذو البشرة الداكنة، عن سبب غيابنا في اليوم السابق – فقد اشتاق إلى رز الجولوف الذي تعده أمي. وتوقعت من نامابيا أن يسألنا ايضاً، بل وأن يبدي الانزعاج، لكنه بدا رصيناً على نحو غريب. ولم يأكل الرز كله.

سألته أمي: "ما المشكلة؟" وبدأ نامابيا يتحدث على الفور، وكأنه كان ينتظر أن يُسأل. لقد دُفِع برجل كبير السن إلى زنزانته في اليوم السابق – رجل قد يكون في منتصف العقد الثامن، أبيض الشعر، جلده متغضن غضوناً دقيقة، ويبدو عليه وقار من النوع القديم. كان ابنه مطلوباً بتهمة السرقة المسلحة، وحين لم يعثر رجال الشرطة على الابن، قرروا أن يحبسوا الأب.

قال نامابيا: "لم يفعل الرجل شيئاً."

قالت أمي: "ولكن أنت أيضاً لم تفعل شيئاً."

هز نامابيا رأسه وكأن أمنا لم تفهم. وفي اليوم التالي، كان أكثر قهراً. قل كلامه، ودار في معظمه حول الرجل العجوز: كيف أنه لم يستطع شراء

ماء للاستحمام، وكيف أن الآخرين سخروا منه واتهموه بأنه يخبئ ابنه، وكيف تجاهله الزعيم، وكيف بدا مرعوباً وضئيلاً بشكل مروع.

سألت أمي: "هل يعرف أين يوجد ابنه؟"

قال نامابيا: "إنه لم ير ابنه منذ أربعة شهور."

قالت أمي: "هذا خطأ بالطبع. لكن هذا ما يفعله رجال الشرطة دائماً. إن لم يجدوا الشخص الذي يبحثون عنه، فإنهم يحبسون قريبه."

قال نامابيا: "الرجل مريض. يداه ترتجفان حتى وهو نائم."

أغلق وعاء الرز والتفت إلى أبي: "أريد أن أعطيه بعض هذا الطعام، ولكن إذا أدخلته إلى الزنزانة، فسيأخذه الزعيم."

ذهب أبي وسأل الشرطي الجالس إلى الطاولة إن أمكن أن يُسمح لنا ان نرى الرجل الكبير المُسنّ الموجود في زنزانة نامابيا لبضع دقائق. كان الشرطي هو الفظ ذو البشرة الفاتحة الذي لم يشكر أمي قط حين تعطيه رشوة الرز والمال، والآن كشر في وجه أبي وقال إن من الممكن أن يفقد وظيفته للسماح حتى لنامابيا بالخروج ومع ذلك فها نحن نطلب شخصاً آخر! هل نعتقد أن هذا هو يوم الزيارات في مدرسة داخلية؟ عاد أبي وجلس وهو يتنهد، وبدأ نامابيا يحك بصمت وجهه المليء بالبثور.

في اليوم التالي لم يأكل نامابيا من الرز سوى النذر اليسير. قال إن رجال الشرطة رشّوا ماء ممزوجاً بالصابون على أرض وجدران الزنزانة، كما هي عادتهم، وأن الرجل الهرم الذي مضى عليه أسبوع دون استحمام نزع قميصه وأخذ يحك ظهره الذاوي بأرض الزنزانة المبتلة. بدأ رجال الشرطة يضحكون حين رأوه يفعل ذلك، وطلبوا منه أن ينزع جميع ملابسه ويمشي وكأنه في عرض في الممر خارج الزنزانة، وأثناء قيامه بذلك، ارتفعت أصوات ضحكهم وسألوه ما إذا كان ابنه اللص يعرف أن ردفي والده متضائلان إلى هذا الحد. كان نامابيا يحدق في الرز الأصفر البرتقالي وهو

يتكلم، وحين رفع عينيه، كانتا مليئتين بالدموع، أخي الدنيوي، وشعرتُ بحنان تجاهه ليس باستطاعتي وصفه لو طُلب مني ذلك.

حدث هجوم جديد في المدينة الجامعية بعد يومين – قطّع أحد الصبيان صبياً آخر بالفأس.

قالت أمي: "هذا جيد. الآن لا يمكنهم القول إنهم قد قبضوا على جميع صبيان الجماعات المتطرفة." لم نذهب إلى إنوغو ذلك اليوم؛ بدلاً عن ذلك ذهب والديّ لمقابلة رئيس الشرطة المحلية، وعادا بخبر سار. سيتم الإفراج عن نامابيا وساقي البار على الفور. فقد أصر أحد صبيان جماعة متطرفة خلال التحقيق أن نامابيا ليس عضواً. في اليوم التالي، غادرنا في وقت أبكر من المعتاد، بدون رز الجولوف. كانت أمي عصبية دائماً ونحن في السيارة، تقول لأبي "نِكوا يا! انتبه!" وكأنه غير قادر على رؤية السيارات التي تقوم باستدارات خطرة في المسار الآخر، لكن هذه المرة فعلت ذلك مرات كثيرة إلى درجة جعلت والدي يوقف السيارة على طرف الطريق قبل وصولنا إلى الميل التاسع ويسأل بحدة: "فقط أخبريني، من الذي يقود هذه السيارة؟"

كان شرطيان يجلدان رجلاً مستخدمين الكوبوكو[١] koboko حين دخلنا بالسيارة إلى قسم الشرطة. في البداية ظننت أنه نامابيا، ثم ظننت أنه الرجل العجوز من زنزانته. لكن الرجل لم يكن أياً منهما. كنت أعرف الصبي الملقى على الأرض الذي كان يتلوى ويصيح بعد كل جلدة. كان اسمه أبوي Aboy وله وجه قاتم قبيح كوجه كلب الصيد، وكان يركب سيارة لكزس ويتجول فيها في المدينة الجامعية، ويقال إنه من القراصنة. حاولت ألا أنظر إليه ونحن ندخل. أشاح الشرطي المناوب – الذي كانت على خده علامات قبلية والذي كان دائماً يقول "باركّكم الله" حين يستلم رشوته – بوجهه حين رآنا، وأدركت أن هناك شيئاً غير سليم. أعطاه والديّ المذكرة من رئيس الشرطة. لم يقم

(١) koboko : سوط طويل مرن مصنوع من جلد البقر أو ذيل الحصان.

الشرطي حتى بإلقاء نظرة سريعة عليها. قال لأبي إنه على دراية بأمر الإفراج، وإن ساقي البار قد أخلي سبيله بالفعل، ولكن بالنسبة للصبي يوجد بعض التعقيد. بدأت أمي تصرخ: "ماذا تعني؟ أين ابني؟"

نهض الشرطي، وقال: "سأدعو رئيسي ليشرح لكم."

هجمت أمي عليه وشدت قميصه: " أين ابني؟ أين ابني؟" شدها أبي وأبعدها عنه، ومسح الشرطي صدره بيده، وكأنها تركت عليه بعض الغبار، ثم دار وابتعد.

سأل أبي " أين ابني؟" بصوت هادئ وفولاذي جعل الشرطي يتوقف.

"لقد أخذوه من هنا ياسيدي."

أخذت أمي تصرخ: "أخذوه من هنا؟ ماذا تقول؟ هل قتلتم ابني؟ هل قتلتم ابني؟"

سأل والدي مرة أخرى: "أين ابننا؟"

"لقد قال رئيسي إني يجب أن أدعوه حين تأتون،" قال الشرطي ذلك، وأسرع هذه المرة ودخل من أحد الأبواب.

بعد أن ذهب انتابني ذلك الشعور بقشعريرة الخوف؛ أردت أن أجري وراءه وأن أشد قميصه كما فعلت أمي إلى أن يأتي بناماليا. خرج الشرطي الأعلى رتبة، وبحثت عن دليل في وجهه الخالي من أي تعبير.

قال لأبي: "يومكم سعيد يا سيدي."

سأل والدي: "أين ابننا؟" وأخذت أمي تتنفس بصوت عال.

"لا توجد مشكلة يا سيدي. كل ما في الأمر أننا نقلناه. سآخذكم إلى هناك على الفور." كان في تصرف الشرطي شيء عصبي؛ بقي وجهه خالياً من التعبير، لكنه لم ينظر في عيني أبي.

"نقلتموه؟"

"لقد وصلنا الأمر هذا الصباح. كان من الممكن أن أرسل شخصاً

جلستُ على المقعد الخلفي مع الشرطي، الذي فاحت يحضره، لكن ليس لدينا وقود للسيارة، لذلك كنت أنتظرك أن تأتي كي نستطيع أن نذهب معاً."

"ما السبب وراء نقله؟"

"لم أكن هنا يا سيدي. قالوا إنه أساء التصرف أمس فأخذوه إلى الزنزانة رقم ١، ثم مساء الأمس جرت عملية نقل لجميع نزلاء الزنزانة رقم ١ إلى موقع آخر."

"أساء التصرف؟ ماذا تعني؟"

"لم أكن هنا يا سيدي."

تكلمت أمي بصوت كسير: "خذوني إلى ابني! خذوني إلى ابني في هذه اللحظة!"منه رائحة كافور قديم بدا أنها بقيت وخلّدت في صندوق سيارة أمي. لم يتكلم أحد باستثناء الشرطي حين كان يدل أبي على الطريق. وصلنا بعد حوالي خمس عشرة دقيقة، وكان أبي يقود بسرعة جامحة. بدا المجمع المسوّر القديم مهملاً، وفيه بقع من العشب النامي أكثر مما ينبغي انتشرت فوقها زجاجات قديمة وأكياس بلاستيكية. لم يكد الشرطي ينتظر أن يوقف ابي السيارة قبل أن يفتح الباب ويخرج بسرعة، ومرة أخرى شعرتُ بقشعريرة تتملكني. كنا في جزء مهجور من البلدة، ولم تكن هناك لافتة تشير إلى أن هذا قسم شرطة. كان يفوح في الجو شعور غريب بالهجران. لكن الشرطي سرعان ما خرج ومعه نامابيا. هاهو إذن، أخي الوسيم، يمشي نحونا ويبدو أنه لا تغير قد طرأ عليه، إلى أن اقترب بما يكفي لأن تحتضنه أمي، فقد رأيته يجفل ويرجع إلى الخلف – وكانت ذراعه مغطاة بآثار ضرب تبدو طرية. وكان أنفه محاطاً بدم جاف.

سألته أمي: "لم ضربوك بهذا الشكل؟" التفتت إلى الشرطي: "لم يا ناس فعلتم هذا بابني؟ ما السبب؟"

رفع الرجل كتفيه. بدت وقاحة جديدة في طريقته في السلوك، فكأنه لم يكن من قبل متأكداً حول عافية نامابيا، لكنه الآن وقد اطمأن أمكنه أن يسمح لنفسه بالكلام. "لا تستطيعون تنشئة أولادكم تنشأة صحيحة – جميعكم الذين تعتبرون أنفسكم ذوي أهمية لأنكم تعملون في الجامعة – وحين يسيء أولادكم التصرف تعتقدون أنه لا يجب أن يعاقبوا. أنتم محظوظون أنهم أطلقوا سراحه."

قال ابي: "هيا نذهب."

فتح الباب وركب نامابيا، وتوجهنا إلى بيتنا. لم يتوقف أبي عند أي حاجز من حواجز الشرطة على الطريق، وفي إحدى المرات أشار شرطي إشارة تهديدية ببندقيته ونحن نمر بسرعة من جانبه. والمرة الوحيدة التي فتحت أمي فمها على الطريق إلى البيت كانت لتسأل نامابيا إذا كان يريد أن نتوقف لشراء بعض الأوبكا opka. لكن نامابيا اجاب بالنفي. وكنا قد وصلنا إلى نسوكا قبل أن يتكلم أخيراً.

"أمس سأل رجال الشرطة الرجل العجوز ما إذا كان يريد نصف سطل مجاني من الماء. قال نعم. لذلك قالوا له أن يخلع ملابسه ويسير عارضاً نفسه في الممر. كان معظم زملائي في الزنزانة يضحكون. وقال بعضهم إنه لا يجوز معاملة رجل كبير في السن على هذا الشكل." توقف نامابيا. "صرختُ في رجال الشرطة. قلت لهم إن الرجل العجوز بريء ومريض، وإن أبقوه هنا فلن يعرفوا مكان ابنه، لأن الرجل لم يكن حتى يعرف أين ابنه. طلبوا مني أن أخرس على الفور، وهددوا بأن يأخذوني إلى الزنزانة رقم ١. لم يعد ذلك يهمني، ولم أسكت. لذا جروني إلى الخارج وأخذوني إلى الزنزانة رقم ١."

توقف نامابيا عند هذه النقطة، ولم نسأله عن أيّ شيء آخر. بدلاً عن ذلك، تخيلتُه يصف الشرطي بالغبي الأحمق، الجبان الضعيف، ذي النزعة السادية، ابن الزنا، وتخيلتُ صدمة الشرطي – الزعيم يحدق وفمه مفتوح

ونزلاء الزنزانة الآخرين في حالة ذهول لجرأة الفتى القادم من الجامعة وتهوره. وتخيلت الرجل الهرم نفسه ينظر باعتزاز ويرفض بهدوء أن يخلع ملابسه. لم يقل نامابيا ما جرى في الزنزانة رقم ١، أو ما حدث في الموقع الجديد. كان من السهل جداً عليه، أخي الوسيم، أن يحول قصته إلى مسرحية مصقولة، لكنه لم يفعل.

جانيس إليوت

الضجة الصادرة عن حديقة الحيوانات [1]

جانيس إليوت ولدت في بريطانيا عام ١٩٣١ وتخصصت في اللغة الإنجليزية من كلية سينت آن Saint Anne في جامعة أكسفورد. عملت كصحفية لمدة ثماني سنوات في عدة صحف ومجلات منها السنداي تايمز Sunday Times ثم تركت عملها لتتفرغ للكتابة. نشرت ثماني روايات، حُوِّلت إحداها إلى فيلم سينمائي، وكتاب للأطفال. وهي أيضاً ناقدة أدبية وكانت تكتب مراجعات للأعمال الروائية لصحيفة السنداي تلغراف Sunday Telegraph.

من حيث أخذ يحفر في الليل، استطاع فيلكس Felix سماع حديقة الحيوانات. حين غادر الزائر الأخير بدأت الهمهمة؛ كانت هذه أصوات الحيوانات المألوفة الأصغر حجماً، متناقلة الإشاعات، ولكن عند منتصف الليل أصدرت الحيوانات الأكبر والأندر أصواتاً وتوقف فيلكس ليصغي للزمجرات

---

(١) هذه ترجمة قصة "The Noise from the Zoo" للكاتبة Janice Elliott. والقصة نشرت في مجموعة الكاتبة **الضجة الصادرة عن حديقة الحيوانات وقصص أخرى**. وقبلها كانت قد نشرت في كتاب:

Penguin Modern Stories 10. Judith Burnley, ed. Penguin Books, 1972.

وتأوهات الشكوى والضحك الجامح. بدا له هذا في البدء حديثاً هيستيرياً بين مجموعة من المصابين بداء السهر، وفيما بعد – حين تغلب عليه التعب وجموح الخيال – بدت الأصواتُ عاطفةَ الحيوانات، الصرخة اليائسة للأبرياء الشهداء. لم يكن يبالي بحدائق الحيوانات. فقد كانت الحيوانات تبدو له سجناء لا أمل لهم في إخلاء سبيلهم أو في الخلاص. والحيوانات التي لم تقع في الأسر بل ولدت هناك كانت مثل العميان المولودين بلا بصر. بالنسبة له، لو أنه كان وحشاً من الوحوش وكان له الخيار لفضّل الأسر، ولو فقط كي يكون لديه شيء يتذكره، يتحدث عنه في الليل.

استراح قليلاً وأخرج سندوتشاته وقارورته. ظهر شرطي من قلب العتمة. حبس فيلكس تنفسه. نظر الشرطي إلى المصباح الأحمر الخافت والرفش والحاجز المنخفض المحيط بالحفرة المتزايدة الكبر.

«ليلة جيدة للقيام بذلك. وحدك؟».

هز فيلكس رأسه بالإيجاب وقدم له بعض القهوة. شربا. تابع الشرطي سيره. ولكنه نظر أولاً من فوق الحاجز:

«لديك حفرة جيدة هناك."

حين انتهى فيلكس، قام بترتيب المكان وأخذ الرفش ولكنه ترك الحواجز والمصباح. سيزيح شخص ما على الأرجح هذه الأشياء في النهاية. أما الحفرة فقد كانت عميقة إلى حد كافٍ ولكنها ليست عميقة بحيث إذا سقط فيها طفل أو شخص غير منتبه يتعرضان للأذى. كان هذا هاماً. كان جزءاً من الخطة، مثلما كان أمراً لا أهمية له بالنسبة لفيلكس أن الحفرة ستردم عاجلاً أو آجلاً. أسرع إلى البيت وفي الساعة السابعة أيقظ زوجه أودري Audrey وقدم لها كوباً من الشاي.

قالت أودري للمرة العاشرة: «ماذا تقصد بحفرة؟».

قام أخوها جيرالد Gerald بتحريك الغليون بين أسنانه. «إنه يعني ما يقول يا أودري. حفرة.» اتجه إلى جانب الرصيف وصف السيارة. وأضاف: «هي حفرة.»

«هذا ما عنيته»، قال فيلكس.

لم تكن الحفرة قد حازت بعد على انتباه المسؤولين، أو إذا كان ذلك قد حدث، فقد افتُرض أنها حفرت لمنفعة عامة. فالمصباح والحواجز أعلنت حقها في الوجود. كان الصباح صباح يوم سبت جميلاً في الحديقة العامة. جلست بعض النساء قرب الحفرة على كراس ونادين أطفالهن ليبتعدوا عن الحافة. بصق متشرد في الحفرة. ضحكت فتاتان عليها. نظرت أودري إليها نظرة جانبية، كي لا يضبطها أحد. وضع جيرالد نفسه أمامها.

«إنها حفرة صغيرة تماماً».

«إنها كبيرة»، قالت أودري بحدة، «إنها كبيرة أكثر مما ينبغي».

أشرق وجه جيرالد: «أكبر مما ينبغي من أجل ماذا؟.»

«لا تشجعه»، أجابت بسرعة: «إنه مجنون».

«إذن»، كرر جيرالد، ملتفتاً إلى فيلكس، «من أجل ماذا؟.»

«لا لشيء.»

«لماذا؟.»

«لا لأي سبب.» تحاشى فيلكس النظر إلى الحفرة. كان مصمماً أن تكون بلا معنى. إذا نظر إليها فترة أطول مما يجب فقد تتحرك مشاعره بسببها، وكان واعياً لبعض خلجات الفخر بينما كان الناس يتوقفون ليحدقوا بها.

حين عادا إلى السيارة كانت أودري تنتظر متوترة، مستعدة للبكاء. وفي البيت، في غياب جيرالد، الذي غادرهما وهو يضحك ويهز رأسه، التفتت إلى فيلكس:

«كيف يمكنك أن تقوم بشيء كهذا دون أي سبب؟ هل أنت مجنون؟ ما الذي تأمل أن تربحه من ذلك؟.»

«لا شيء».

«ماذا إذن؟ هل تريد أن تتعرض للمتاعب؟.»

«بالتأكيد كلا...».

نظرت إليه نظرة هائجة شاحبة وبدأت تنتحب. «إذا أردت حفرة فقد كان بإمكانك أن تجعلها هنا!.»

أصابه القلق للمرة الأولى منذ فكَّر بالحفرة. بدأ يلحظ الخطر. مد يديه: «ألا ترين أنها لم تكن لتفي بالغرض؟ هنا في حديقتنا حيث نسكن، كانت ستعني شيئاً؟ ستكون ذات سبب، ذات عاقبة. جوهر الأمر هو انعدام الهدف، ذلك هو جمالها.» أخذ يفكر وأحضر لنفسه زجاجة بيرة وأخذها إلى الحديقة. لقد اختار حفرة لأنها فارغة، عديمة المعنى، الفعل المنعدم الحافز بشكل مثالي. لكن الشرطي وصفها بأنها جيدة وقالت أودري إنها كبيرة وجيرالد إنها صغيرة وهو نفسه تحدث عن الجمال. أخذ يتساءل. لأول مرة استحوذت الحفرة على اهتمامه، شعر بالرغبة في أن يجري ويحميها من الفساد، من التفسير. سيكون من الأفضل أن تردم. أسرع لينقذ حفرته.

قام بمخاطرة بذهابه في وضح النهار. لم يكن قد رمى أكثر من ملء نصف رفش من التراب حين ربتت السلطة – التي استيقظت أخيراً – على كتفه.

«لم أكن أريد إيذاء أحد. إنني لا أؤمن بالعنف. لقد أردت أن أثبت شيئاً».

«؟».

«أن فعلاً ما ممكن بحد ذاته دون حافز أو عاقبة. الراحة الناجمة عن شيء نقي لا يمكن أن يفسد. موضوعي، دون ماضٍ أو مستقبل. إنّ لدي عملاً محترماً، وأنا أحب زوجتي. وليس لها أية علاقة بهذا الأمر.»

لم تُملأ الحفرة في الحال. غدت في البداية مكاناً يذهب الناس إليه في الأمسيات المشرقة، حيث يستطيع الأطفال اللعب، ثم أصبحت تشبه ضريحاً. أقيمت حواجز أكبر بسبب خطر انهيار الجدران. قامت الشرطة بقياسها. ظهرت على شاشة التلفزيون. بدأ الناس يرمون فيها الزهور، بل وقطع النقود. وقفوا حولها في دوائر كما لو كانوا يتوقعون حدوث شيء. أصبحت بقعة شهيرة يقصدها المجانين المسالمون والوعاظ والعشاق.

مال أولئك الذين استجوبوا فيلكس إلى التساهل معه في البداية، إلى صرف النظر عنه وعدّوه معتوهاً لا أذى منه. كان باستمرار هادئاً ولبقاً، وقد كشف التحقيق أنه حتى الآن كان مواطناً صالحاً، ذا طموح متواضع ونجاح معقول. وقد كان الأمر في الواقع مجرد حفرة.

كان المفتش يعدُّ نفسه متحرراً إلى حدٍ ما. وقد واجه معظم النوعيات ومع أن وظيفته تطلبت أن يطبق عليهم القانون فإنه قد تعرض أكثر من مرة للشعور بالعطف على العدائيين نحو المجتمع. وقد اعترف لفيلكس:

«هؤلاء الشباب الصغار ليسوا الوحيدين الذين لا يستطيعون هضم ما يجري. هذا المجتمع الخاضع للتقاليد والقوانين. دولة الرفاه هذه.» وأشرق وجهه. «قد مرت أوقات شعرت أنا نفسي فيها بالرغبة في قذف قطعة من الآجر. لقد خبرنا معظم الأشياء، ولكن عليّ أن أعترف أن الحفرة جديدة كلياً بالنسبة لنا.»

ابتسم فيلكس. لقد سبق أن جرت بينهما عدة محادثات من طرف واحد من هذا النوع. أصبح الجو حاراً. وتعرق المفتش. كان مدركاً أنه يهمل واجباته الأخرى. لقد خلبت الحفرة لبّه. حلم بها كفراغٍ يمكن له أن يسقط فيه. أخذ يمشي وعيناه مطرقتان. أخذ يشعر بالخوف من النوم.

كان الشهر شهر آب، ذلك الفصل السخيف. بدأت الحفر تظهر في أجزاء أخرى من لندن بين عشية وضحاها. بعضها كشف عن جداول تحت

الأرض، وبعضها عن آثار، أو عن عظامِ أولئك الذين ماتوا نتيجة للعنف في الحرب أو في الخفاء. وبعضها كان – مثل حفرة فيلكس – فارغاً.

تم النظر في قضية فيلكس ودفع غرامة صغيرة. سأل القاضي ما إذا تم إعداد تقرير من طبيب نفسي. كان قد تم ذلك. كان فيلكس في كامل قواه العقلية. ولولا الصيت الغامض الذي أحرزته الحفرة، لكانت هذه نهاية القضية. حين غادر المحكمة أمسك جيرالد بذراعه:

«من الأفضل أن تتحني وتركب السيارة بسرعة قصوى.» كان حشد مشاكس قد تجمع. تعرض حامل لافتة تقول «حافظوا على الحفرة» للضرب بحبة بندوة. صرخت امرأة. وصلت الشرطة لتفريقهم وتسلل فيلكس دون أن يلحظه أحد.

«لم أرد قط أن يحدث هذا». قال فيلكس للمفتش ذلك المساء. كان المفتش قد أتى ماشياً، وفي ثياب مدنية. بدا مظهره غير مألوف، كما لو كان متنكراً، وكذلك بدا شديد التعب. جلسا عل كرسيين في الحديقة وشربا البيرة."

«ليت بإمكانك تفسير الأمر»، قال المفتش: «ليت بإمكانك القول بأنك كنت تبحث عن شيء ما».

«لم أكن».

هز المفتش رأسه بكل كآبة.

«إنني أرى أحلاماً».

«أنت بحاجة لإجازة».

كان فيلكس قد أخذ يشعر بالمودة نحو المفتش. وتمنى لو كان بإمكانه مساعدته.

«أصغ إليّ الآن يا رجل»، قال جيرالد، «يجب أن تنتهي هذه المسألة. إنها تجعل أود مريضة. كفى يعني كفى."

«المسألة ليست في يدي»، قال فيلكس. في تلك الليلة استيقظ على صوت بكائها. لمس كتفها ولكنها أبعدت نفسها، ورفعت ركبتيها إلى ذقنها. كانت قد اعترتها النحافة وأصبح كتفاها حادين. كانت العظام تقطع لحمها كالسكاكين. أخيراً قالت:

«لا أفهم ما الذي اضطرك للقيام بذلك. لقد كان لديك كل شيء."

«إنه الشيء الوحيد الذي فعلته في حياتي».

«لكنه لم يسبب أي شيء سوى المتاعب».

«لقد أُسيء فهمي».

استلقيا مستيقظين فترة، قبل أن يناما، وأصابعهما متلامسة في الظلام.

أصبحت عادة المفتش أن يأتي للزيارة معظم الأمسيات. حين يأتي، كانت أودري تذهب إلى المطبخ ولا تغادره. وبينما كانا يتمشيان في الحديقة، كانت تراقب، شاحبة ومرتجفة، من النافذة.

نظر المفتش إلى نباتات الخس.

«ألم تفكر قط أنه قد يكون هناك سبب، شيء قد نسيته؟ شيء من النوع الذي ينبشه راكبو الدراجات؟».

«كلا».

هز المفتش رأسه. «إنني أوافقهم بعض الشيء. لقد طالعت بعض الشيء. كل شيء له حافز. ما الذي تجده في الحفرة؟».

«لا شيء». وكرر فيلكس وكأنه يؤكد ذلك لنفسه: «لا شيء».

قال المفتش وهو يغادر:

«هل سمعت؟ إنهم سيقومون بردمها».

قابل العمال الذين أرسلتهم لجنة الحدائق العامة لردم الحفرة حشداً معادياً من الناس. كانت مجموعة باسم «حافظوا على الحفرة» قد تشكلت ومن

الواضح أن هذه المظاهرة كانت جيدة التنظيم. حمل البعض لافتات عليها صورة فيلكس وشعاراً يقول: «حفرة الانكليزي هي قلعته.»[1] كان البعض قد تسلقوا الحواجز فعلاً واستقروا في الحفرة ومعهم ساندويتشات. وصلت الشرطة. وحدثت مشاجرة. رفض القابعون في الحفرة التحرك ولم تزعج الشرطة نفسها بسحبهم. فبرغم كل شيء. كانت المسألة مسألة حفرة فقط. وتراجع العمال.

في تلك الليلة كانت هناك مسيرة تحمل المشاعل. وقامت بزيارة كل حفرة من مركز المدينة إلى بمليكو Pimlico إلى تشلسي Chelsea ثم شمالاً إلى الحديقة العامة. قاموا بالغناء بهدوء في أثناء سيرهم وراقبهم فيلكس بخوفٍ وتعجب بينما كانوا يقتربون، والمشاعل تومض بين الأشجار. على رأسهم كان المفتش، زائغ العينيين، ورأسه مرسل إلى الوراء كأنه نبي. لم ير فيلكس. كانت نظرته مثبتة على النقطة التي جاء منها – من جهة حديقة الحيوانات – رجال الشرطة يحملون الرفوش.

كسر المتظاهرون الحواجز. لم يعرف أحد قط من الذي رمى الحجر لكنه أصاب المفتش في صدغه. ترنح وعلى وجهه تعبير دهشة وهوى في الحفرة. نشب القتال. توقف كلب عابر شارد الذهن، ربما كان تفكيره منصباً على دفن العظام، وشعر بالدهشة لرؤية الحفرة وشرع في نباح ثاقب. من حديقة الحيوانات أجابه غول. أمسك رجل بشعلة وأشعل النار في ملابسه. ثم بدأ مطر غزير – أول مطر منذ أسابيع – بالهطول.

حين تم تفريق الحشد ونقل الجرحى خرج فيلكس – الذي لم يكن من نوع الرجال الذين تسهل ملاحظتهم في حوادث الشغب – من بين الأشجار ووقف عند الحفرة. كان من الصعب أن يتعرف عليها. ففي أثناء القتال

---

(١) قياساً على المثل الإنكليزي الذي يقول: «بيت الرجل هو قلعته» أو «بيت الإنكليزي هو قلعته."

تكسرت حوافها وكانت قد بدأت تمتلئ بالمطر. رآها – وهو يفكر بالمفتش كقبر؛ سرعان ما ستصير مستنقعاً. إذا نظرت إليها مدة كافية فإن بإمكانك تصورها أي شيء تريده. كان أحدهم قد ترك مصباحاً. أمسك به وهو يركع – والمطر يتساقط على عنقه – وقرّبه من سطح الماء الصاعد ورأى انعكاساً لوجه تعرف عليه أنه وجهه. وقف وقفة خرقاء واكتشف أنه كان يبكي. مكث فترة يستمع إلى الضجة الصادرة عن حديقة الحيوانات.

فلانري أوكونر

الزنجي الاصطناعي (١)

ولدت فلانري أوكونر في ولاية جورجيا الأمريكية عام ١٩٢٥، وتوفيت عن عمر لا يتجاوز التاسعة والثلاثين عاماً. ويتألف تراثها الأدبي من عدد من المقالات واثنتين وثلاثون قصة قصيرة وروايتين. تعتبر صوتاً هاماً في الأدب الأمريكي. وتتناول أعمالها المشكلة العرقية في الجنوب الأمريكي، وتركّز على المشاهد المحلية والشخصيات الغروتسكية(٢). وتشترك أوكونر مع كارسون مكلرز ويودورا ولتي في التركيز على الجنوب المتفسخ وأهله التعساء. كما تتميز قصصها بمزج العنصرين الملهاوي والمأساوي. في عام ١٩٨٣ خصصت دار نشر جامعة جورجيا جائزة سنوية أطلقت عليها اسم "جائزة فلانري أوكونر للقصة القصيرة" تكريماً للكاتبة.

استيقظ السيد هِد Head ليجد أن الغرفة مليئة بضوء القمر. جلس في فراشه وحدق بألواح أرض الغرفة الملونة بلون الفضة، ثم بغطاء

---

(١) هذه ترجمة قصة *"The Artificial Nigger"* للكاتبة *Flannery O'Conner* من مجموعة للمؤلفة نشرت عام ١٩٥٥ بعنوان **من الصعب العثور على رجل طيب** *A Good Man Is Hard to Find*. وكانت القصة قد نشرت في العام نفسه في مجلة **ذَ كينيون ريفيو** *The Kenyon Review*.

(٢) *الغروتسك* Grotesque: تشير الكلمة إلى نوع من الفن التزييني الروماني القديم، ومنذ القرن الثامن عشر بدأت تشير إلى نوع من الفن يتسم بالغرابة والخيال والبشاعة وغياب التلاؤم. وفي الأدب قد تعني الكلمة شيئاً يثير في القراء أو الجمهور شعوراً بالغرابة غير المريحة وفي الوقت نفسه الشفقة المتعاطفة.

وسادته، الذي ربما كان من القماش المقصب، وبعد ثانية، رأى نصف القمر على بعد خمسة أقدام في مرآة حلاقته، واقفاً وكأنه ينتظر الاستئذان منه ليدخل. تحرك قدماً وألقى نوراً مهيباً على كل شيء. بدا الكرسي المستقيم المستند إلى الحائط متصلباً ومنتبهاً كأنه ينتظر الأوامر، واتخذ بنطال السيد هد، المعلق على ظهره، طابعاً يكاد يكون نبيلاً، كقطعة الملابس التي قذف بها رجل عظيم إلى خادمه لتوه؛ لكن الوجه في القمر كان وجهاً وقوراً. حدق عبر الغرفة ومن النافذة حيث سبح فوق حظيرة الحصان وبدا أنه يتأمل نفسه وعليه تعبير شاب يرى كبره في السن أمامه.

كان بإمكان السيد هد أن يقول له إن الكبر في السن نعمة مختارة وأنه مع مرور السنين فقط يصل المرء إلى ذلك الإدراك الهادئ للحياة الذي يجعل منه دليلاً مناسباً للشباب. تلك على الأقل كانت خبرته الشخصية.

جلس في فراشه وأمسك بالأعمدة الحديدية عند نهاية سريره ورفع نفسه إلى أن استطاع رؤية وجه الساعة المنبهة التي جلست على دلو مقلوب بجانب الكرسي. كانت الساعة الثانية صباحاً. لم يكن المنبه في الساعة يعمل، لكنه لم يكن يعتمد على أية وسيلة آلية لتوقظه. لم تثلم ستون عاماً استجاباته؛ كانت إرادته وشخصيته القوية، اللتين يمكن رؤيتهما بوضوح تقاسيمه، توجِّه ردوده الجسمية، كردوده الأخلاقية. كان له وجه طويل كأنبوب ذو فك طويل مستدير منفتح وأنف طويل مضغوط. كانت عيناه نشطتين ولكن هادئتين، وفي ضوء القمر الإعجازي اتخذتا مظهر التماسك والحكمة القديمة كما لو كانتا عيني أحد مرشدي الجنس البشري العظام. كان من الممكن أن يكون فرجيل، وقد دُعيَ في منتصف الليل للذهاب إلى دانتي، أو أفضل من ذلك، رافائيل، وقد أيقظه تدفق من نور

الله ليطير ويحط إلى جانب توبياس.[١] النقطة الوحيدة المظلمة في الغرفة كانت سرير نلسون Nelson القشي تحت ظل النافذة.

كان نلسون متكوراً على أحد جانبيه، ركبتاه تحت ذقنه وكعباه تحت مؤخرته. كانت بذلته وقبعته الجديدتان في الصندوقين اللذين أرسلتا فيهما، وكان هذان على الأرض عند رأس السرير القشي بحيث يستطيع وضع يديه عليهما حالما يستيقظ. بدا وعاء الفضلات – الذي كان خارج الظل واتخذ لوناً أبيض كالثلج في ضوء القمر – يقف حارساً فوق رأسه كأنه ملاك شخصي صغير. عاد السيد هد إلى الاستلقاء، وهو يشعر بثقة تامة أن بإمكانه القيام بالمهمة الأخلاقية الخاصة بالنهار التالي. كان ينوي النهوض قبل نلسون والبدء بتهيئة الفطور قبل استيقاظه. كان الصبي يتضايق دائماً حين ينهض السيد هد قبله. سيتوجب عليهما مغادرة المنزل في الرابعة كي يصلا موقف القطار في الخامسة والنصف. كان المفروض أن يتوقف القطار من أجلهما في الخامسة وأربعين دقيقة، وعليهما أن يكونا هناك في الوقت المحدد لأن القطار سيقف فقط لإركابهما.

ستكون هذه أول رحلات الصبي إلى المدينة مع أنه ادعى أنها ستكون الثانية لأنه ولد هناك. حاول السيد هد أن يبين له أنه حين ولد لم يكن لديه الذكاء لكي يحدد مكان وجوده لكن هذا لم يحدث أيّ تأثير على الطفل على الإطلاق واستمر في الإصرار على أن هذه ستكون رحلته الثانية. وهي ستكون رحلة السيد هد الثالثة. قال نلسون: "سأكون قد ذهبت هناك مرتين وأنا لم أتجاوز العاشرة."

---

(١) فرجيل Vergil هو الشاعر الروماني المعروف ومؤلف الإنيادة *The Aeneid*. في الكوميديا الإلهية يقوم بإرشاد دانتي Dante في أرجاء الجحيم والمطهر. وكذلك يقوم الملاك رافائيل Raphael بتعليم توبياس Tobias ومرافقته، وذلك في صراعه وانتصاره على الشيطان أسموديوس Asmodeus وذلك في "سفر توبياس" أحد الأسفار الملحقة بالتوراة .

ناقضه السيد هد.

"إذا لم تكن قد ذهبت هناك خلال خمسة عشرة عاماً، كيف تعرف أنك ستطيع معرفة طريقك"؟ كان نلسون قد سأل. "كيف تعرف أنها لم تتغير قليلاً؟"

"هل رأيتني قط،" سأل السيد هد، "وقد ضللت طريقي"؟

بالتأكيد لم يره نلسون ضالاً طريقه، لكنه كان طفلاً لا يشعر بالقناعة إلا بعد أن يجيب جواباً وقحاً لذا فقد أجاب، "ليس هنا مكان يضل المرء فيه."

"سوف يأتي يوم،" تنبأ السيد هد، "ستجد أنك لست ذكياً مثلما تعتقد." كان قد أمضى بضعة أشهر يفكر في الرحلة لكن تصوره لها كان في معظمه تصوراً أخلاقياً. إنها ستكون درساً للصبي لن ينساه أبداً. سيكتشف منها أن لا سبب لديه للاعتزاز لمجرد أنه ولد في مدينة. سيكتشف أن المدينة ليست مكاناً عظيماً. أراده السيد هد أن يرى كل شيء يمكن رؤيته في مدينة من المدن وذلك كي يقنع بالبقاء في بيته بقية حياته. غلبه النوم وهو يفكر كيف أن الصبي سيكتشف أخيراً أنه ليس ذكياً بالقدر الكافي الذي يعتقده.

استيقظ في الثالثة والنصف على رائحة لحم خنزير يقلى وقفز من سريره. كان سرير القش فارغاً وصندوقا الملابس مفتوحين. ارتدى بنطاله وهرع إلى الغرفة الأخرى. كان الصبي يجهز رغيفاً من الذرة وقد انتهى من قلي اللحم. كان جالساً في العتمة النصفية إلى الطاولة، يشرب قهوة باردة من علبة. كان مرتدياً بذلته الجديدة وقبعته الرمادية الجديدة مسحوبة إلى الأسفل فوق عينيه. كانت كبيرة الحجم عليه لكنهما طلباها أكبر قياساً لأنهما توقعا أن يكبر رأسه. لم يقل أي شيء لكن شكله بأكمله أوحى بالرضا لأنه نهض قبل السيد هد.

مضى السيد هد إلى الموقد وحمل اللحم في المقلاة إلى الطاولة. "لا عجلة هناك،" قال "ستصل بسرعة كافية ولا ضمانة أنك ستسر حين تصل أيضاً،" وجلس قبالة الصبي الذي تأرجحت قبعته إلى الخلف ببطء كاشفة

عن وجه عديم التعبير بشكل شرس، شكله يشبه كثيراً وجه الرجل المسن، كانا جداً وحفيداً، لكن الشبه بينهما كان كافياً ليبدوا كأخوين ليسا متباعدين كثيراً في السن، لأن السيد هد يحمل تعبيراً شاباً في وضح النهار، بينما النظرة على وجه الصبي كانت عتيقة، كما لو أنه يعرف منذ الآن كل شيء وسيسعده لو ينساه.

ذات مرة كان للسيد هد زوجة وابنة وحين ماتت الزوجة، هربت الابنة ثم عادت بعد فترة مع نلسون. ثم ذات صباح، دون أن تنهض من سريرها، ماتت وتركت للسيد هد الرعاية التامة للطفل الذي كان عمره سنة واحدة. وقد ارتكب خطيئة إخبار نلسون أنه ولد في أتلانتا. لو أنه لم يخبره ذلك، لما كان بإمكان نلسون أن يصر أن هذه ستكون رحلته الثانية.

"قد لا يعجبك أبداً،" تابع السيد هد. "ستكون مليئة بالزنوج."

ارتسم على وجه الصبي تعبير وكأنه يستطيع مواجهة زنجي.

"حسن،" قال السيد هد. "إنك لم ترَ أي زنجي قط."

"لم تنهض مبكراً جداً،" قال نلسون.

"إنك لم ترَ أي زنجي قط،" أعاد السيد هد القول. "لم يوجد أي زنجي في هذه الناحية منذ طردنا ذلك الزنجي قبل اثني عشر عاماً وحدث ذلك قبل أن تولد." نظر إلي الصبي وكأنه يتحداه أن يقول أنه رأى أي زنجي.

سأل نلسون: "كيف تعرف أنني لم أرَ زنجياً قط في حين أنني عشت هناك من قبل؟ ربما رأيت الكثير من الزنوج."

"لو أنك رأيت واحداً فإنك لم تدرك ما هو،" قال السيد هد، متضايقاً تماماً. "إن طفلاً في شهره السادس لا يميز بين زنجي أو أي شيء آخر."

"أتصور أنني سأميز الزنجي حين أراه،" قال الصبي ونهض وعدّل وضع قبعته الرمادية الصقيلة ذات الانكسار الحاد وخرج إلى المرحاض.

وصلا إلى المحطة قبل فترة من موعد وصول القطار، ووقفا على بعد قدمين من أول خطين من مجموعة الخطوط الحديديّة. حمل السيد هد كيساً من الورق يحوي بعض البسكويت وعلبة من السردين لغدائهما. كانت شمس خشنة المظهر برتقالية اللون تتسلق من خلف سلسلة الجبال الشرقية وتجعل السماء حمراء باهتة خلفهما، لكن في مواجهتهما كانت لا تزال رمادية ووقفا قبالة القمر الرمادي الشفاف، الذي لا يكاد أن يكون أكثر وضوحاً من بصمة إبهام وليس فيه أي نور قط. لم يكن هناك سوى علبة تحويل قصديرية صغيرة وبرميل وقود أسود كعلامتين تميزان المكان كموقف؛ كان الخط الحديدي مزدوجاً ولكن الخطوط لم تتحد من جديد قبل أن تختفي وراء المنحنيات على كلا جانبي الفسحة. بدت القطارات المارة وكأنها تبرز من نفق من الأشجار، وتصيبها مدّة ثانية السماء البادرة، فتختفي مذعورة في الغابة من جديد. اضطر السيد هد لإجراء ترتيبات خاصة مع وكيل التذاكر لكي يقف هذا القطار وقد خشي في سره ألا يقف، وكان يدري أن نلسون في تلك الحالة سيقول: "لم أصدق أن أي قطار سيتوقف من أجلك." بدت الخطوط تحت قمر الصباح العديم الفائدة بيضاء وهشة. حدق كل من العجوز والصبي أمامه وكأنهما ينتظران شبحاً.

ثم فجأة، قبل أن يستطيع السيد هد أن يحزم أمره ويقرر العودة، صدر ثغاء عميق وظهر القطار، ينزلق ببطء شديد يكاد يكون صامتاً حول منحنى الأشجار على بعد حوالي مئتي ذراع على السكة، وضوء أمامي أصفر واحد يبرق. كان السيد هد لا يزال غير متأكد أنّه سيقف وشعر أنه سيظهره بمظهر شخص أكثر حمقاً إذا مر ببطء . لكنه هو ونلسون كانا على استعداد لتجاهل القطار إذا تجاوزهما.

اندفع المحرك ماراً بهما، يملأ أنفيهما برائحة المعدن الساخن ثم توقفت العربة الثانية حيث وقفا بالضبط. كان مفتش تذاكر ذو وجه كوجه كلب قديم

يملؤه الغرور يقف على الدرجة وكأنه يتوقعهما، رغم أنه لم يبد عليه أنه كان مهتماً على الإطلاق ما إذا ركبا أو لا. قال: "إلى اليمين."

لم يستغرق ركوبهما سوى جزء من الثانية، وأثناء دخولهما العربة الهادئة كان القطار قد استأنف سرعته. كان معظم الركاب مازالوا نائمين، وبعضهم تتدلى رؤوسهم من جوانب المقاعد، والبعض تمدد على مقعدين والبعض الآخر تمدد وقدماه في الممر. رأى السيد هد مقعدين فارغين ودفع نلسون نحوهما. "ادخل هناك عند النافذة،" قال بصوته الطبيعي الذي كان مرتفعاً جداً في هذا الوقت من الصباح. "لن يمانع أحد إذا جلست هناك لأنه لا أحد يجلس عليه. اجلس عندك هناك."

"لقد سمعتك،" تمتم الصبي. "لا ضرورة لصياحك،" وجلس وأدار رأسه نحو الزجاج. رأى هناك وجهاً شاحباً كالأشباح ينظر إليه عابساً من تحت حافة قبعة شاحبة كالأشباح. ورأى جده – الذي كان ينظر أيضاً – شبحاً مختلفاً، شاحباً ولكنه يبتسم، من تحت قبعة سوداء.

جلس السيد هد واتخذ وضعاً مريحاً وأخرج تذكرته وبدأ بقراءة كل شيء طبع عليها بصوت عالٍ. بدأ الناس يتحركون. استيقظ عدة أشخاص وأخذوا يحدقون فيه. "انزع قبعتك" ، قال لنلسون ونزع هو قبعته ووضعها على ركبته كانت لديه كمية ضئيلة من الشعر الأبيض الذي تحول لونه إلى لون التبغ مع مرور السنوات والذي ارتكز مستوياً على مؤخرة رأسه. كانت مقدمة رأسه صلعاء ومتغضنة. نزع نلسون قبعته ووضعها على ركبته وانتظرا مفتش التذاكر أن يأتي ويسأل عن تذكرتيهما.

كان الرجل الذي قبالتهما ممدداً على مقعدين، وقدماه مسنودتان إلى النافذة ورأسه بارز في الممشى. كان يرتدي بذلة زرقاء فاتحة وقميصاً أصفر مفكوكاً عند الرقبة. كان قد فتح عينيه لتوه، واستعد السيد هد لتقديم نفسه حين جاء المفتش من الخلف وقال هادراً، "تذاكر."

حين ذهب المفتش، قام السيد هد بإعطاء نلسون النصف المتبقي من تذكرته قائلاً: "الآن ضع هذا في جيبك ولا تضيعه وإلا تحتم عليك البقاء في المدينة."

"قد أفعل ذلك،" قال نلسون كما لو كان هذا اقتراحاً معقولاً.

تجاهله السيد هد، "أول مرة يركب فيها هذا الصبي في القطار،" قال مفسراً للرجل المواجه لهما، الذي كان الآن جالساً على حافة مقعده وكلتا قدميه على الأرض.

وضع نلسون قبعته من جديد بعنف على رأسه والتفت بغضب نحو النافذة.

"إنه لم يرَ أي شيء من قبل،" تابع السيد هد. "جاهل مثلما كان يوم ولد، لكنني أنوي له أن يحصل على كفايته بضربة واحدة."

انحنى الصبي إلى الأمام عبر جده ونحو الرجل الغريب. "لقد ولدت في المدينة،" قال. "لقد ولدت هناك. هذه رحلتي الثانية." قال هذا بصوت واثق ومرتفع لكن لم يبدِ على الرجل الجالس في مواجهتهما أنه فهم. كانت هناك دوائر قرمزية عميقة تحت عينيه.

مدّ السيد هد نفسه عبر الممشى وربت على ذراعه . "ما يجب فعله بالنسبة لصبي،" قال بلهجة حكيمة، "هو أن تريه كل ما يمكن رؤيته. لا تخفِ عنه أي شيء."

"نعم،" قال الرجل، حدق بصره بقدميه المنتفختين ورفع اليسرى حوالي عشر بوصات عن الأرض. بعد دقيقة أنزلها ورفع الأخرى. في كل أنحاء العربة بدأ الناس ينهضون ويتحركون هنا وهناك ويتثاءبون ويتمطون. كان بالإمكان سماع أصوات منفردة هنا وهناك ثم هدير عام. فجأة تغير تعبير السيد هد الرصين. انغلق فمه تقريباً وبان نور – شرس وحذر في الوقت نفسه – في عينيه. كان بصره ممتداً على العربة. دون أن يلتفت، أمسك بذراع نلسون وجذبه إلى الأمام. "انظر،" قال.

كان رجل ضخم بلون القهوة قادماً ببطء إلى الأمام. كان يرتدي طقماً خفيفاً وربطة عنق صفراء حريرية فيها حجر من الياقوت. استراحت إحدى يديه على معدته التي برزت بأبهة تحت معطفه المزرر، وفي اليد الثانية أمسك مقبض عكاز سوداء كان يرفعها وينزلها بحركة متعمدة نحو الأمام مع كل خطوة يخطوها. كان يتقدم ببطء شديد، وعيناه العسليتان الكبيرتان تنظران فوق رؤوس الركاب. كان لديه شارب أبيض صغير وشعر مجعد أبيض. كانت وراءه شابتان، كلتاهما بلون القهوة، إحداهما ترتدي ثوباً أصفر والأخرى ثوباً أخضر. وكان تقدمهما بسرعة تقدمه وكانتا تتحدثان بصوتين أجشين ومنخفضين بينما تتبعانه.

أخذت قبضة السيد هد تزداد ضغطاً بإصرار على ذراع نلسون. أثناء مرور المجموعة بهما، انعكس في عين السيد هد النور الصادر عن خاتم من الياقوت الأزرق في اليد البنية التي تمسك العكاز. تابعت المجموعة سيرها عبر بقية الممشى ثم خرجت من العربة. ارتخت قبضة السيد هد على ذراع نلسون. سأل: "ماذا كان ذلك؟" "رجل،" قال الصبي ونظر إليه نظرة ساخطة كما لو كان قد سئم الإهانات الموجهة إلى ذكائه.

"أي نوع من الرجال"؟ ثابر السيد هد بعناد، بصوت عديم الانفعال.

"رجل بدين،" قال نلسون، وقد بدأ يشعر بأنه من الأفضل له أن يكون حذراً.

قال السيد هد بلهجة قاطعة: "أنت لا تدري أي نوع!"

"رجل مسن،" قال الصبي وقد انتابه هاجس مفاجئ ينذر أنه لن يستمتع بنهاره.

"كان ذلك زنجياً،" قال السيد هد واستند إلى الخلف.

قفز الصبي واقفاً على المقعد ينظر إلى الخلف باتجاه نهاية العربة لكن الزنجي كان قد مضى.

"لقد ظننت أنك ستميز زنجياً لأنك رأيت الكثير منهم حين كنت في المدينة في زيارتك الأولى،" تابع السيد هد. "ذلك كان أول زنجي يراه،" قال للرجل عبر الممر.

انزلق الصبي جالساً على مقعده. "لقد قلت إنهم سود،" قال بصوت غاضب، "لم تقل قط إنهم سمر. كيف تتوقع مني أن أعرف أي شيء حين لا تخبرني بالواقع"؟

"إنك مجرد جاهل وهذا كل ما في الأمر." قال السيد هد ونهض وانتقل إلى المقعد الفارغ بجانب الرجل عبر الممر.

التفت نلسون إلى الخلف من جديد ونظر إلى حيث اختفى الزنجي. شعر أن الزنجي قد مشى قصداً عبر الممر من أجل أن يظهره بمظهر الأحمق وكرهه كراهية جديدة فجة شرسة؛ وأيضاً، فهم الآن لِمَ لمْ يكن جده يحبهم. نظر نحو النافذة فبدا الوجه المنعكس هناك يوحي أنه قد لا يكون كفؤاً لمتطلبات ذلك اليوم. تساءل ما إذا سيكون حتى قادراً على التعرف على المدينة حين يصل إليها.

بعد أن حكى عدة حكايات، لاحظ السيد هد أن الرجل الذي يخاطبه كان نائماً فنهض واقترح على نلسون أن يتمشيا في أنحاء القطار ويتفرجا على أجزائه.

أراد الصبي بشكل خاص أن يرى المرحاض لذا ذهبا أولاً إلى دورة مياه الرجال وتفحصا التمديدات. أشار السيد هد إلى جهاز تبريد الماء وكأنه هو الذي اخترعه، وأطلع نلسون على الحوض الصغير ذي الصنبور الواحد حيث ينظف المسافرون أسنانهم. مرا عبر عدة عربات ووصلا إلى عربة الطعام.

كانت هذه أكثر عربات القطار أناقة. كانت مطلية بلون أصفر غني مثل صفار البيض وعلى أرضها سجادة بلون النبيذ. كانت هناك نوافذ عريضة فوق الطاولات ومقاطع كبيرة من المشاهد المتتابعة تنعكس مصفرة على

جوانب أباريق القهوة والكؤوس، كان ثلاثة زنوج شديدي السواد يرتدون طقوماً ومآزر بيضاء يهرعون جيئة وذهاباً في الممشى، يأرجحون صوانٍ وينحنون ويميلون على المسافرين الذين يتناولون فطورهم. هرع أحدهم إلى السيد هد ونلسون وقال، وهو يرفع أصبعين، "مكان لاثنين"! لكن هد أجاب بصوت عالٍ: "لقد أكلنا قبل أن نغادر!"

كان الخادم يضع نظارة بنية كبيرة زادت حجم بياض عينيه. "قفا جانباً إذن من فضلكما،" قال وقام بحركة متعالية بذارعه كما لو كان يطرد بعض الذباب جانباً.

لم يتحرك أي من السيد هد ونلسون ولا جزءاً من البوصة. "انظر،" قال السيد هد.

كانت زاوية عربة الطعام القريبة منهما والتي تحتوي طاولتين قد فصلت عن بقية العربة بستار بلون الزعفران. كانت إحدى الطاولتين مجهزة ولكن فارغة أما الأخرى فقد جلس إليها الزنجي الضخم في مواجهتهما وظهره إلى الستار. كان يتحدث بصوت خافت إلى المرأتين بينما أخذ يدهن قطعة من الكعك بالزبدة. كان ذا وجه ثقيل حزين وتدلت رقبته على ياقته البيضاء من كلا الجانبين. "يعزلونهم" قال السيد هد مفسراً. ثم قال، "فلنذهب إلى المطبخ،" ومشيا عبر عربة الطعام ولكن الخادم الزنجي هرع خلفهما.

"لا يسمح للركاب بدخول المطبخ"! قال بصوت متعالٍ. "لا يسمح للركاب بدخول المطبخ."

توقف السيد هد حيث كان والتفت. "هناك سبب وجيه لذلك،" صاح في صدر الزنجي، "لأن الصراصير ستدفع الركاب إلى الهرب!"

ضحك جميع الركاب وخرج السيد هد ونلسون وهما يبتسمان. كان السيد هد معروفاً بين معارفه بسرعة بديهته وشعر نلسون باعتزاز مفاجئ حاد به. أدرك أن العجوز سيكون سنده الوحيد في المكان الغريب الذي كانا يقتربان منه.

سيكون وحيداً تماماً في العالم إذا ما ضاع عن جده. هز إحساس جارف مرعب كيانه وشعر بالرغبة في إمساك معطف السيد هد والتعلق به كطفل.

بينما كانا في طريق عودتهما إلى مقعديهما تمكنا أن يلحظا عبر النوافذ التي مرت بهما أن بيوتاً صغيرة وأكواخاً بدأت تنتشر في الريف وأن طريقاً عامة كانت تسير بمحاذاة القطار. كانت السيارات تجري عليها، صغيرة وسريعة جداً. شعر نلسون أن الهواء أصبح أثقل مما كان يحتويه قبل ثلاثين دقيقة. كان الرجل المواجه لهما عبر الممشى قد غادر مكانه ولم يكن ثمة من شخص قريب ليتحدث السيد هد إليه لذا فإنه نظر من النافذة، عبر حياله، وأخذ يقرأ بصوت مرتفع أسماء الأبنية التي يمران بها. "شركة ديكسي[١] الكيميائية!" قال معلناً: "طحين الصبية الجنوبية! أبواب ديكسي! منتجات الحسناء الجنوبية القطنية! زبدة فستق باتي Patty! قطر الأم كين الجنوبي!"

"اصمت" قال نلسون بصوت كالفحيح.

في كلِّ أنحاء العربة بدأ الناس ينهضون وينزلون أمتعتهم من الرفوف فوق رؤوسهم. أخذت النساء يرتدين معاطفهن وقبعاتهن. أطل المفتش برأسه وزمجر "أول موقف، إيمري،"[٢] واندفع نلسون من وضعه الجالس، وهو يرتجف. دفعه السيد هد من كتفه نحو الأسفل.

"ابق في مقعدك،" قال بنبرة وقورة. "أول موقف هو عند حافة المدينة. ثاني موقف هو محطة القطار الرئيسية." لقد توصل إلى هذه المعرفة في رحلته الأولى حين نزل في الموقف الأول واضطر لأن يدفع خمسة عشر سنتاً لأحد الأشخاص ليأخذه إلى قلب المدينة. عاد نلسون إلى الجلوس، وهو شديد الشحوب. لأول مرة في حياته، أدرك أنه لا غنى له عن جده.

---

(١) ديكسي Dixi هي كلمة تطلق على مجموعة من الولايات المتحدة الأمريكية الجنوبية.

(٢) في الأصل، لا تصدر الكلمات منفصلة وواضحة من فم المفتش بل متداخلة بشكل قد ينقل إلى العربية هكذا: "أوموقفمري."

توقف القطار وأنزل بضعة ركاب ومضى في طريقه وكأنه لم يتوقف عن الحركة قط. في الخارج، خلف صفوف من المنازل المتداعية البنية، قام صف من الأبنية الزرقاء، وخلفها سماء وردية شاحبة تضمحل إلى لا شيء. دخل القطار فناء المحطة. رأى نلسون وهو يتطلع إلى الأسفل خطوطاً من السكك الفضية تتكاثر وتتقاطع. ثم قبل أن يستطيع البدء في عدها، حدق فيه الوجه الذي كان في النافذة، رمادياً ولكن واضحاً، فنظر هو إلى الطرف الآخر. كان القطار قد دخل المحطة. قفز هو والسيد هد كلاهما ناهضين وركضا نحو الباب. لم يلحظ أيهما أنهما تركا الكيس الورقي وفيه غداءهما فوق المقعد.

مشيا بتصلب عبر المحطة الصغيرة وخرجا من باب ثقيل إلى هدير حركة المرور. كانت حشود من الناس تهرع إلى أعمالها. لم يدرِ نلسون أين ينظر. استند السيد هد إلى جانب البناء ونظر أمامه.

أخيراً قال نلسون، "حسناً كيف ترى كل الأشياء التي يمكن رؤيتها؟"

لم يجب السيد هد. ثم كما لو أن منظر المارة أوحى له بالجواب، قال "بأن تمشي،" وبدأ يسير في الشارع. تبعه نلسون، وهو يركز وضع قبعته. كانت مناظر وأصوات كثيرة تتدفق عليه بحيث إنه لم يدرك في البداية ماذا كان يرى. عند الزاوية الثانية، التفت السيد هد ونظر خلفه إلى المحطة التي غادراها، وكانت بناء ذا لون رمادي مصفر تعلوه قبة من الإسمنت. فكر أنه إذا استطاع إبقاء القبة دائماً في مرمى بصره، فإنه سيتمكن من العودة في الظهيرة لركوب القطار من جديد.

أثناء متابعتهما لسيرهما، بدأ نلسون يميز التفاصيل ويلاحظ واجهات المخازن، مملوءة بكل أنواع المعدات – خردوات، بضائع جافة، علف للدجاج، كحول. مرا بمحل لفت السيد هد انتباهه إليه بشكل خاص حيث يدخل المرء ويجلس على كرسي وقدماه على سنادتين ويقوم زنجي بمسح حذائه.

سارا ببطء وتوقفا عند المداخل كي يستطيع رؤية ما يجري في كل مكان لكنهما لم يدخلا أياً من هذه الأمكنة. كان السيد هد مصمماً ألا يدخل أي محل في المدينة لأنه في زيارته الأولى لها، ضاع في محل كبير ولم يجد طريقه إلى الخارج إلا بعد أن أهانه كثير من الأشخاص.

وصلا في منتصف القسم التالي من الشارع إلى محل أمامه آلة وزن ووقف كل منهما بدوره عليها وأدخل قطعة سنت واستلم بطاقة. قالت بطاقة السيد هد: "أنت تزن ١٢٠ رطلاً. أنت مستقيم وشجاع وجميع أصدقائك يشعرون نحوك بالإعجاب." وضع البطاقة في جيبه وقد أدهشه أن تسجل الآلة شخصيته بشكل صحيح ووزنه بشكل خاطئ، إذا كان قد وزن نفسه على ميزان حنطة قبل وقت ليس طويلاً وكان وزنه ١١٠، وقالت بطاقة نلسون: "أنت تزن ٩٨ رطلاً. ينتظرك مستقبل عظيم ولكن احذر النساء السود." لم يكن نلسون يعرف أية نساء وكان وزنه ٦٨ رطلاً فقط، لكن السيد هد أشار إلى أن الآلة قد تكون طبعت الرقم بالمقلوب، وهي تعني ٦، بدلاً من ٩.

تابعا السير وبعد خمسة تقاطعات في الشارع اختفت قبة المحطة من مرمى نظرهما والتفت السيد هد إلى اليسار. كان بإمكان نلسون الوقوف أمام واجهة كل محل لمدة ساعة لولا أن واجهة أكثر إثارة للاهتمام كانت تليها. فجأة قال "لقد ولدت هنا"! استدار السيد هد ونظر إليه برعب. كان هناك إشراق متعرق في ووجهه. "هذا هو المكان الذي أتيت منه!" قال.

شعر السيد هد بالرعب. وجد أن اللحظة قد حانت للقيام بعمل حاسم. و"دعني أريك شيئاً لم تره بعد" قال وأخذه إلى زاوية كان فيها فوهة للمجاري. "اجلس القرفصاء،" قال، "ادخل رأسك إلى الداخل،" وأمسك بمؤخرة معطف الصبي أثناء جلوسه ووضع رأسه في المجاري. أخرج رأسك بسرعة، وهو يسمع رغرغة في الأعماق تحت الرصيف. ثم قام السيد هد بشرح شبكة المجاري، كيف أنها تجري تحت المدينة بأكملها، وكيف أنها تحتوي النفاية

وأنها مليئة بالجرذان، وكيف يمكن للمرء أن يتسلل إليها وتبتلعه أنفاق حالكة الظلمة غير متناهية. في أية لحظة يمكن لأي إنسان في المدينة أن تبتلعه المجاري ولا يسمع عنه ثانية أبداً. قام بوصفها بشكل جيد لدرجة أن نلسون ارتجف لبضعة ثوانٍ. ربط بين ممرات المجاري ومدخل الجحيم وأدرك للمرة الأولى كيف يقوم العالم في أجزائه السفلية، ابتعد عن طرف الرصيف.

ثم قال، "نعم، ولكن يمكنك البقاء بعيداً عن الحفر،" واتخذ وجهه ذلك المظهر العنيد الذي كان يملأ جده بالسخط والضيق. "هذا هو المكان الذي أتيت منه!" قال.

شعر السيد هد بالخيبة لكنه تمتم فقط، "سوف تحصل منه على كفايتك،" وتابعا سيرهما. بعد تقاطعين آخرين التفت إلى اليسار وهو يشعر أنه يدور حول القبة؛ وكان على صواب إذا خلال نصف ساعة مرا بمحطة القطار من جديد، في البداية لم يلحظ نلسون أنهما كانا يشاهدان المحلات نفسها مرتين ولكن حين مرا بالمحل الذي تضع فيه قدميك على سنادتين بينما يسمح الزنجي حذاءك، أدرك أنهما يسيران في دائرة.

"لقد كنا هنا من قبل"! صاح . "لا أعتقد أنك تعرف أين أنت!"

"لقد غاب الاتجاه عن ذهني لدقيقة فقط،" قال السيد هد وانعطف إلى شارع مختلف. كان لا يزال ينوي ألا يترك القبة تبتعد عنه كثيراً وبعد اجتياز تقاطعين في الاتجاه الجديد التفت إلى اليسار. كان هذا الشارع يحتوي على منازل خشبية مؤلفة من طابقين وثلاثة طوابق. كان بإمكان أي شخص يسير على الرصيف أن يرى داخل الغرف ورأى السيد، وهو ينظر إلى إحدى النوافذ، امرأة مستلقية على سرير حديدي، تنظر إلى الخارج، وتغطيها ملاءة. هزه تعبيرها العارف. قدم صبي شرس المنظر على دراجة منطلقاً من لا مكان واضطر أن يقفز إلى الجانب كي يتجنب أن تصدمه الدراجة. "لا يعني شيئاً بالنسبة لهم أن يقوموا بصدمك وإسقاطك." قال. "من الأفضل أن تبقى قريباً مني."

تابعا السير بعض الوقت في شوارع مثل هذا الشارع قبل أن يتذكر أن ينعطف من جديد. كانت جميع البيوت التي أخذوا يمرون بها الآن غير مطلية وبدا الخشب فيها عفناً؛ وكان الشارع الفاصل بينها أضيق. رأى نلسون رجلاً ملوناً. ثم آخر ثم آخر. "إن الزنوج يسكنون هذه البيوت،" قال معلقاً.

"إذن هلم ولنذهب إلى مكان آخر،" قال السيد هد. "لم نأتِ لنشاهد الزنوج،" وانعطفا إلى شارع آخر لكنهما استمرا في رؤية الزنوج في كل مكان. بدأت بشرة نلسون تخزه وأخذا يخطوان بسرعة أكبر لكي يغادرا الحي بأسرع ما يمكن. كان هناك رجال ملونون في قمصانهم التحتانية يقفون عند الأبواب ونساء ملونات يجلسن على كراسٍ هزازة على الشرفات المتداعية. كان الأطفال الملونون يلعبون في الشوارع وكانوا يتوقفون عما يقومون به لينظروا إليهما. قبل وقت طويل بدآ يمران بصفوف من المحلات فيها زبائن ملونون لكنهما لم يتوقفا عند مداخل هذه المحلات. عيون سود في وجوه سود كانت تراقبهما من كل جانب. "نعم،" قال السيد هد، "هذا هو المكان الذي ولدتَ فيه – هنا تماماً بين كل هؤلاء الزنوج."

قطب نلسون. "أعتقد أنك أضللتنا طريقنا،" قال.

استدار السيد هد حوله بحده يبحث عن القبة. لم يستطع رؤيتها في أي مكان، "كلا إنني لم أتسبب بضياعنا،" قال. "أنت فقط قد تعبت من السير."

"إنني لم أتعب، لكنني جائع،" قال نلسون. "أعطني قطعة بسكويت." اكتشفا حينئذٍ أنهما أضاعا غداءهما.

"كنت أنت الذي تحمل الكيس،" قال نلسون. "ولو كنت أنا لأبقيته في حوزتي."

"إذا أردت أن توجه هذه الرحلة، سأتابع السير بمفردي وأتركك هنا في هذا المكان،" قال السيد هد وسره أن يرى الصبي يشحب. لكنه أدرك أنهما قد ضلا الطريق وأنهما يبتعدان في كل دقيقة عن المحطة. كان هو نفسه جائعاً

وبدأ يشعر بالعطش ومنذ أن وجد نفسيهما في الحي الزنجي أخذ كلاهما يتعرق. كان نلسون يرتدي حذاءه ولم يكن معتاداً عليه. كانت الأرصفة الإسمنتية شديدة الصلابة كان كلاهما يرغب في العثور على مكان يجلسان فيه لكن كان هذا مستحيلاً وتابعا المسير، والصبي يهمهم بين أنفاسه. "أولاً أضعت الكيس ثم ضللت الطريق،" والسيد هد يزمجر بين الفينة والأخرى، "كل من يود الانتماء إلى هذا الفردوس الزنجي يستطيع ذلك"!

كانت الشمس حينذاك قد ارتفعت في السماء. وصلت إلى أنوفهم روائح وجبات غداء تطبخ. وقف الزنوج جميعاً عند أبواب بيوتهم يراقبونهما وهما يمران. "لم لا تسأل أحد هؤلاء الزنوج عن الطريق"؟ قال نلسون. "أنت الذي جعلتنا نضل."

"هذا هو المكان الذي ولدتَ فيه،" قال السيد هد. "بإمكانك أن تسأل أحدهم بنفسك إن أردت."

كان نلسون خائفاً من الرجال الملونين ولم يرد أن يضحك الأطفال الملونون عليه. رأى أمامه امرأة ملونة تنحني عند مدخل يقع على الرصيف. كان شعرها يقف منتصباً من رأسها مسافة أربع بوصات في كل الاتجاهات وكانت تستند على قدمين بنيتين حافيتين تحولا إلى لون قرنفلي عند الأطراف. كانت ترتدي ثوباً أزهر اللون يظهر شكلها بوضوح تام. حين وصلا على مقربة منها، رفعت بكسل إحدى يديها إلى رأسها واختفت أصابعها داخل شعرها.

توقف نلسون. شعر بعيني المرأة الحالكتين تسحبان أنفاسه. "كيف يمكننا العودة إلى المدينة"؟ قال بصوت بدا مختلفاً عن صوته.

بعد دقيقة قالت، "أنت في المدينة الآن،" بنبرة غنية منخفضة جعلت نلسون يشعر وكأن رذاذاً رطبا قد صب عليه.

"كيف يمكننا العودة إلى القطار"؟ قال بالصوت نفسه الذي يشبه صوت قصبة.

"تستطيع أن تستقل حافلة،" قالت.

فهم أنها كانت تسخر منه ولكنه شعر بعجز كامل حتى عن التقطيب. وقف يجرع كل تفاصيلها. انتقلت عيناها من ركبتيها الضخمتين إلى جبينها ثم اتبعتا ممراً مثلثاً من العرق الملتمع على رقبتها هبوطاً عبر صدرها الهائل وفوق ذراعها العاري ثم عادتا إلى حيث اختبأت أصابعها في شعرها. فجأة أرداها أن تمد يدها إلى الأسفل وترفعه وتشده إليها ثم أراد أن يشعر بأنفاسها على وجهه. أراد أن يتعمق ويتعمق في النظر في عينيها بينما تشده هي إليها بقوة أكبر وأكبر. لم يكن قد خامره مثل هذا الشعور من قبل قط. شعر كأنه يدور في نفق حالك السواد.

"يمكنك المضي إلى تقاطع الشارع التالي هناك وتستقل حافلة تأخذك إلى محطة القطار، ياقطعة السكر،" قالت.

كان نلسون سيتداعى على قدميها لولا أن السيد هد شده بعيداً بخشونة. "أنت تتصرف كما لو لم يكن لديك أي تفكير"! زمجر العجوز.

أسرعا السير في الشارع ولم يلتفت نلسون ببصره نحو المرأة. شد قبعته بحدة إلى الأمام فوق وجهه الذي أخذ يلتهب من الشعور بالعار. عاد إليه الشبح الساخط الذي رآه في نافذة القطار وكل المشاعر المنذرة بالشؤم التي انتابته في الطريق وتذكر أن بطاقته من آلة الوزن قد قالت أن يحذر من النساء الداكنات وأن بطاقة جده قالت أنه مستقيم وشجاع. أمسك بيد الرجل العجوز، دليلاً على الاعتماد عليه الذي قلما أظهره.

اتجها في سيرهما في الشارع نحو سكة الحافلة حيث كان ترولي طويل أصفر قادماً يجعجع. لم يكن السيد هد قد ركب حافلة من قبل لذا ترك هذه تمر بهما. كان نلسون صامتاً. بين الحين والآخر ارتجف فمه قليلاً، لكن جده – الذي انشغل تفكيره بمشكلاته الخاصة – لم يعره التفاتاً. وقفا عند الزاوية ولم ينظر أي منهما إلى الزنوج الذين كانوا يمرون،

ذاهبين إلى أشغالهم تماماً كما لو كانوا من البيض، باستثناء أن الكثيرين منهم توقفوا وحدقوا النظر بالسيد هد ونلسون. خطر للسيد هد أنه بما أن الحافة تسير على سكة، فإن بإمكانهما ببساطة أن يتبعوا السكة. دفع نلسون دفعة خفيفة وشرح له أنهما سيتبعان السكة حتى محطة القطار مشياً، ومضيا في طريقهما.

سرعان ما بدؤوا يرون أناساً بيضاً من جديد مما أشعرهما بارتياح كبير، وجلس نلسون على الرصيف مستنداً إلى جدار أحد المباني. "علي أن أرتاح قليلاً،" قال. "لقد أضعت الكيس والطريق. يمكنك إذن أن تنتظرني لأريح نفسي."

"هاهي السكة أمامنا،" قال السيد هد. "كل ما علينا فعله هو أن نبقيها تحت بصرنا وكان بإمكانك أن تتذكر الكيس بقدر ما كان ذلك بإمكاني. إن هذه هي بلدتك الأم القديمة، هذه هي رحلتك الثانية، ينبغي أن تعرف كيف تتصرف،" وجلس القرفصاء وتابع الحديث بالأسلوب نفسه، لكن الصبي الذي أخذ يريح قدميه الملتهبتين بخلع حذائه لم يجب.

"وتقف هناك تبتسم كالشمبانزي بينما تدلُّك امرأة زنجية على الطرق. يا إلهي العظيم"! قال السيد هد.

"لم أقل قط سوى أنني ولدت هنا،" قال الصبي بصوت مضطرب. "لم أقل أن المدينة ستعجبني أو لن تعجبني قط. لم أقل قط أنني أود المجيء. قلت فقط أنني ولدت هنا ولم يكن لي أية حيلة في ذلك قط. أريد الذهاب إلى البيت. أنني في الأصل لم أرغب في القدوم. كانت الفكرة فكرتك العظيمة. كيف تعرف أنك لا تسير مع السكة في الاتجاه الخاطئ"؟

كانت هذه المسألة الأخيرة قد خطرت للسيد هد أيضاً. "كل هؤلاء الناس بيض،" قال.

"إننا لم نمر هنا من قبل،" قال نلسون. كانت هذه المنطقة حياً من الأبنية الآجرية يمكن أن تكون مسكونة ويمكن أن لا تكون. كانت بضع سيارات

فارغة مصفوفة إلى جانب الرصيف وكان هناك أحد المارة بين الحين والحين. صعدت حرارة الرصيف مخترقة طقم نلسون الرقيق. بدأ جفناه يثقلان، وبعد بضع دقائق مال رأسه إلى الأمام. ارتعش كتفاه مرة أو مرتين ثم سقط على جنبه واستلقى متمدداً في نوبة منهكة من السبات.

راقبه السيد هد بصمت. كان هو نفسه متعباً جداً لكن لم يكن بإمكانهما أن يناما كليهما في الوقت نفسه ولم يكن بإمكانه هو على أية حال أن ينام لأنه لا يدري أين هو. سيستيقظ نلسون خلال عدة دقائق وقد أنعشه النوم وجعله شديد الزهو. وسيأخذ في الشكوى من أنه أضاع الكيس والطريق. ستلقى مشقة كبيرة مؤسفة لو لم أكن هنا، فكر السيد هد؛ ثم خطرت له فكرة أخرى. نظر إلى الجسم المدد عدة دقائق؛ وسرعان ما نهض. برر ما كان سيفعله على أساس أنه من الضروري أحياناً تعليم الطفل درساً لا ينساه، خاصة حين يقوم الطفل دائماً بتثبيت موقفه بوقاحة ما جديدة. مشى دون إحداث صوت إلى الزاوية على بعد عشرين قدماً وجلس على صندوق قمامة مغطى في الزقاق بحيث يمكنه النظر إلى الخارج ومراقبة نلسون حين يستيقظ وحده.

كان نوم الصبي في نوبات، وكان نصف واعٍ لأصوات غير واضحة وأشكال سوداء تتحرك خارجة من جزء مظلم ما في داخله إلى النور، كان التعبير على وجهه يتبدل في أثناء نومه وقد سحب ركبتيه إلى الأعلى ووضعهما تحت ذقنه. ألقت الشمس نوراً باهتاً جافاً في الشارع الضيق، واتخذ كل شيء مظهره الحقيقي تماماً. بعد فترة قرر السيد هد وهو قابع كالقرد يقرع صندوق القمامة أنه إذا لم يستيقظ نلسون سريعاً فسيحدث ضجة عالية بقرع الصندوق بقدمه. نظر إلى ساعته واكتشف أن الساعة كانت الثانية. سيغادر قطارهما في السادسة واحتمال عدم اللحاق به كان عنده أسوأ من أن يفكر به. رفس الصندوق بقدمه ودوت جلبة جوفاء في الزقاق.

قفز نلسون واقفاً على قدميه وأطلق صحية. نظر إلى حيث كان من المفروض أن يكون جده وحدق النظر، بدا أنه التف حول نفسه عدة مرات ثم مطلقاً قدميه ومميلاً رأسه إلى الوراء اندفع في الشارع وكأنه مهر مجنون جامح. قفز السيد هد من على الصندوق وأخذ يجري لكن الطفل كان تقريباً قد اختفى عن بصره. رأى شريطاً من اللون الرمادي يختفي بشكل مائل عند تقاطع الشوارع التالي ركض بأسرع ما أمكنه، ونظر في كلا الاتجاهين عند كلّ تقاطع، ولكنه لم يبصره من جديد. ثم حينما كان يمر بالتقاطع الثالث وقد توتر تماماً، رأى على مسافة غير بعيدة مشهداً جعله يتوقف توقفاً كاملاً، جثم خلف علبة قمامة ليراقب وليستجمع نفسه.

كان نلسون جالساً وساقاه ممدودتان كلتاهما وإلى جانبه استلقت امرأة هرمة تصرخ. كانت بعض المشتريات مبعثرة على الرصيف وقد تجمع حشد من النسوة ليرقبوا العدالة تأخذ مجراها وسمع السيد هد بوضوح المرأة المسنة على الرصيف تصيح "لقد كسرت كاحلي وسيدفع أبوك تعويضاً عن ذلك! كل قرش! يا شرطة! يا شرطة!" قامت عدة نساء بشد كتف نلسون لكن الصبي بدا دائخاً بحيث لم يتمكن من النهوض.

شيء ما أجبر السيد هد أن يترك مكانه خلف علبة القمامة وأن يمضي إلى الأمام، ولكن بخطوات زاحفة. لم يكن أي شرطي قد دنا منه في حياته قط. أخذت النسوة يدرن حول نلسون كما لو أنهن قد يندفعن كلهن ليمزقنه إرباً، وتابعت المرأة الهرمة صراخها بأن كاحلها قد كسر ونداءها للشرطة. اقترب السيد هد ببطء شديد وكأنه يخطو خطوة إلى الوراء بعد كل خطوة إلى الأمام، ولكن حين صار على بعد عشرة أقدام، رآه نلسون وقفز ناهضاً. أمسكه الطفل حول ردفيه وتمسك به وهو يلهث.

التفتت النسوة إلى السيد هد، ونهضت المرأة المصابة جالسة وصاحت، "أنت أيها السيد! ستدفع كل قرش من فاتورة طبيبي التي سببها ابنك. إنه حدث جانح! أين الشرطة! فليأخذ شخص ما اسم هذا الرجل وعنوانه!"

كان السيد هد يحاول فصل أصابع نلسون عن مؤخرة ساقية. كان رأس الرجل العجوز قد انخفض في ياقته مثل السلحفاة، والخوف والحذر يغشيان عينيه.

"لقد كسر ابنك كاحلي!" صاحت المرأة المسنة. "يا شرطة"

أحسَّ السيد هد باقتراب شرطي من الخلف. حدق بثبات إلى الأمام حيث تكتلت النسوة ساخطاتٍ مثل جدار صلب يمنعه من الهرب. "ليس هذا ابني." قال. "إنني لم أره من قبل قط."

شعر بأصابع نلسون تسقط من على جسمه.

تراجعت النسوة إلى الوراء، يحدقن فيه برعب، وكأنهن يشعرن بالاشمئزاز من رجل يستطيع إنكار صورته وشبهه بحيث لم يستطعن تحمل لمسه. مشى السيد هد إلى الأمام، عبر فراغ أفسحنه بصمت، وترك نلسون خلفه، لم يرَ أي شيء أمامه سوى نفق أجوف كان ذات مرة شارعاً.

ظل الصبي واقفاً مكانه، وعنقه مائل إلى الأمام ويداه متدليتان إلى الجانبين. كانت قبعته مضغوطة على رأسه بحيث لم تعد هناك تغضنات بها. نهضت المرأة المصابة وهزت قبضتها في وجهه ونظرت إليه الأخريات نظرات مشفقة لكن لم يبد عليه أنه لاحظ أياً منهن. لم يكن هناك أي شرطي بالقرب.

بعد دقيقة بدأ يتحرك بشكل آلي، دون أن يقوم بجهد للحاق بجده ولكن فقط تبعه على بعد حوالي عشرين خطوة. تابعا سيرهما بهذا الشكل متخطيين خمسة تقاطعات من الشارع. كان كتفا السيد هد متدليان وعنقه تميل إلى الأمام بزاوية جعلت رؤيته من الخلف غير ممكنة. كان خائفاً أن يدير رأسه، أخيراً ألقى من فوق كتفه نظرة سريعة آملة. على بعد عشرين قدماً خلفه، رأى عينين صغيرتين تخترقان ظهره مثل أسنان مذراة.

لم يكن الصبي ذا طبيعة سمحة ولكن كانت هذه أول مرة على الإطلاق يكون فيها لديه شيء ليغفره. لم يلحق السيد هد به الخزي من قبل قط. بعد

تقاطعين آخرين، التفت ونادى من فوق كتفه بصوت مرح مرحاً يائساً. "لنذهب ونشتر كوكاكولا في أحد الأمكنة!"

استدار نلسون بوقار لم يبده من قبل قط ووقف وظهره إلى جده.

بدأ السيد هد يشعر عمق إنكاره. أصبح وجهه بينما تابعا المسير كله تجاويف ونتوءات عارية. لم يرَ أي شيء مما كانا يمران به، ولكنه أدرك أنهما قد ضيعا سكة الحافلة. لم يكن هناك من قبة في أي مكان في مرمى البصر وكان العصر يتقدم. كان يعرف أنه إذا أدركهما الظلام وهما في المدينة، فإنهما سيتعرضان للضرب والسرقة. كانت سرعة عدالة الله هي فقط ما توقعه لنفسه، لكنه لم يستطع تحمل أن تقع آثامه على نلسون وأنه حتى في هذه اللحظة كان يقود الصبي إلى هلاكه.

تابعا السير تقاطعاً بعد آخر عبر جزء لا ينتهي من البيوت الآجرية الصغيرة إلى أن كاد السيد هد أن يقع متعثراً بصنبور ماء برز مرتفعاً حوالي ستة بوصات من حافة قطعة أرض معشبة. لم يكن قد شرب الماء منذ الصباح الباكر لكنه شعر أنه لا يستحقه الآن. ثم فكر أن نلسون سيكون ظمآن وأنهما سيشربان كلاهما وسيجمع ذلك بينهما. قرفص ووضع فمه على طرف الصنبور وفتحه مدخلاً تياراً بارداً من الماء إلى حلقه. ثم هتف بصوت يائس عالٍ، "هلم واشرب شيئاً من الماء"!

هذه المرة حدق الطفل فيه حوالي ستين ثانية. نهض السيد وتابع السير كما لو أنه شرب سماً. اجتاز نلسون – رغم أنه لم يشرب أي ماء منذ شرب من كأس من الورق في القطار – الصنبور، مزدرياً أن يشرب من حيث شرب جده. حين لاحظ السيد هد ذلك، فقد كل الأمل. بدا وجهه في نور العصر الذابل تلفا ومخذولاً. تمكن أن يشعر بكراهية الصبي الثابتة، وهو يسير بخطى تجاري خطواته وراءه وعرف أنها (إذا حدثت معجزة أنقذتهما من أن يُقتلا في المدينة) ستستمر بهذا الشكل تماماً بقية

حياته. أدرك أنه كان الآن يدخل في مكان غريب مظلم حيث ليس من شيء مثلما كان من قبل، هرم طويل دون احترام ونهاية ستلقى الترحيب لمجرد أنها ستكون النهاية.

أما بالنسبة لنلسون، فقد تجمد عقله حول خيانة جده كما لو كان يحاول المحافظة عليها كما هي لتقديمها يوم الحساب الأخير. سار دون أن ينظر إلى أي من الجانبين، ولكن فهمه ارتجف بين الفينة والفينة، وكان ذلك حين يشعر، من مكان قصي ما في داخله، بشكل أسود غامض يحاول الصعود إلى الأعلى كما لو أنه سيذيب رؤياه المتجمدة بقبضة حارة واحدة.

انحدرت الشمس خلف صفٍّ من المنازل ودون أن يلاحظا تقريباً دخلا ضاحية أنيقة حيث قامت قصور بعيدة عن الطريق ذات جنائن فيها حمامات عصافير. كان كل شيء مهجوراً هنا. لمسافة طويلة لم يمرا ولا حتى بكلب. كانت البيوت البيض الكبيرة تشبه على البعد كتلاً جليدية متحدة جزئياً. لم تكن هناك أرصفة مجرد ممرات لدخول السيارات وكانت هذه تدور وتدور في دوائر عبثية لا تنتهي. لم يقم نلسون بأية حركة تهدف للاقتراب من السيد هد. شعر العجوز أنه إذا رأى فوهة مجاري فإنه سيسقط في داخلها ويترك نفسه تنجرف بعيداً، وقد تصور الصبي يقف على مقربة، يراقب باهتمام طفيف فقط، بينما يختفي هو.

دفعه نباح عالٍ إلى الانتباه ورفع بصره ليرى رجلاً سميناً يقترب مع كلبين. لوح كلا ذراعيه كشخص غرقت سفينته الأمواج إلى جزيرة مهجورة. "إنني ضائع"! صاح. "إنني ضائع ولا أستطيع أن أجد الطريق وأنا وهذا الصبي مضطران للحاق بالقطار وليس بإمكاني أن أجد المحطة. آه يا ربي إنني ضائع. آه ساعدني يا رباه إنني ضائع!"

سأله الرجل – الذي كان أصلع ومرتدياً بنطال غولف – أي قطار يحاول اللحاق به وبدأ السيد هد يخرج التذكرتين، وهو يرتعد بعنف شديد إلى

حد أنه لم يكد يقدر على الإمساك بهما. كان نلسون قد اقترب ووقف يراقب على بعد خمسة عشرة قدماً.

"حسن،" قال الرجل السمين، وهو يعيد إليه التذكرتين، "ليس لديك الوقت الكافي للرجوع إلى المدينة واللحاق بهذا القطار ولكن بإمكانك اللحاق به في موقف الضاحية. وهذا على مسافة ثلاثة تقاطعات من الشارع من هنا،" وبدأ يشرح الطريق إلى هناك.

حدق السيد هد كما لو كان يعود ببطء من بين الأموات وحين انتهى الرجل ومضى الكلبان يقفزان بين قدميه، التفت إلى نلسون وقال وهو مقطوع النفس، "سوف نصل إلى البيت!"

كان الصبي يقف على بعد حوالي عشرة أقدام، والدم غائر من وجهه تحت القبعة الرمادية. كانت عيناه باردتين برود الانتصار. لم يكن هناك من نور أو إحساس أو اهتمام فيهما. فقط وقف هناك، شكل صغير، ينتظر. لم يكن البيت يعني له شيئاً.

التفت السيد هد ببطء. شعر أنه يعرف الآن كيف يكون الزمن دون فصول والحرارة دون نور وكيف يكون الإنسان دون إخلاص. لم يهمه أن لا يلحق بالقطار أبداً ولولا ذلك الشيء الذي استرعى انتباهه فجأة، مثل صرخة صادرة عن الغسق المتجمع، كان من المحتمل أن ينسى أن هناك محطة يجب الذهاب إليها.

لم يكن قد مشى أكثر من خمسمائة ذراع في الطريق حين رأى، في متناوله، شكلاً من الجص لزنجي جالس مائلاً على سياج أصفر منخفض من الآجر كان يحيط بفناء عريض. كان الزنجي في حجم نلسون تقريباً وكان يميل إلى الأمام بزاوية غير ثابتة لأن المعجون الذي ألصقه بالحائط كان قد تشقق. كانت إحدى عينيه بيضاء كلياً وقد أمسك قطعة من البطيخ البني اللون.

وقف السيد هد ينظر إليه بصمت حتى توقف نلسون على بعد قريب. ثم بينما وقفا كلاهما هناك، قال السيد هد، "زنجي اصطناعي!"

كان من المستحيل معرفة ما إذا قُصد أن يكون الزنجي الاصطناعي صغيراً أو مسناً؛ بدا أنه أكثر بؤساً من أن يكون أياً من الشيئين. كان المفروض فيه أن يبدو سعيداً لأن فمه امتد عند زاويتيه لكن العين المكسورة والزاوية التي مال فيها أعطيتاه مظهراً جامحاً من البؤس بدلاً عن ذلك.

"زنجي اصطناعي!" ردد نلسون في نفس لهجة السيد هد تماماً.

وقف كلاهما هناك وعنقاهما ممتدان إلى الأمام بنفس الزاوية تقريباً وأكتافهما محدودبة تماماً بالشكل نفسه وأيديهما ترتعش بالطريقة نفسها في جيوبهما. بدا السيد هد مثل طفل عتيق ونلسون مثل عجوز مصغّر. وقفا يحدقان بالزنجي الاصطناعي وكأن لغزاً عظيماً طرح عليهما، نُصُبٌ لانتصار شخص آخر يجمع بينهما في هزيمتهما المشتركة. شعرا به كلاهما يذيب خلافاتهما مثل عمل من أعمال الرحمة. لم يكن السيد هد قد عرف من قبل قط كيف يشعر المرء حين يتلقى الرحمة لأنه كان قبل الآن أخْيَرَ من يستحق أية رحمة، لكنه شعر أنه يعرف الآن. نظر إلى نلسون وأدرك أن عليه أن يقول شيئاً ما للطفل ليظهر أنه لا زال حكيماً وفي نظرة الصبي المستجيبة شاهد حاجة عطشى لمثل هذا التأكيد. بدت عينا نلسون تتوسلان إليه أن يشرح بشكل قاطع وجارف سر الوجود.

فتح السيد هد شفتيه بتصريح بليغ وسمع نفسه يقول. "ليس لديهم هنا ما يكفي من الزنوج الحقيقيين، لذا اضطروا للحصول على واحد اصطناعي."

بعد ثانية، هز الصبي رأسه وهو يرتعش رعشة غريبة عند فمه، وقال" فلنذهب إلى البيت قبل أن نضل الطريق من جديد."

دخل قطارهما موقف الضاحية تماماً حين وصلا إلى المحطة وركباه معاً، وقبل عشر دقائق من موعد وصوله محطتهما، توجها إلى الباب ووقفا

على استعداد لأن يقفزا منه إذا لم يتوقف؛ لكنه توقف، تماماً حين بزغ القمر – الذي استعاد روعته التامة – من سحابة وغمر الفسحة بالنور. حين نزلا، كان عشب الميرمية يرتعش برفق في ظلال من الفضة ولمع الآجر تحت أقدامهما بنور أسود ناضر. كانت قمم الأشجار – التي شكلت سياجاً حول المحطة مثل الجدران التي تحرس حديقة – أكثر ظلاماً من السماء التي تدلت منها سحب بيضاء عملاقة مضاءة مثل المصابيح.

وقف السيد هد ساكناً تماماً وشعر بفعل الرحمة يلمسه من جديد، لكنه هذه المرة عرف أنه ليست هناك أية كلمات في العالم تستطيع تسميته. أدرك أن الفعل نبت من الألم، الذي لا يحرم منه أي إنسان والذي يُعطى للأطفال بوسائل غريبة، أدرك أن الفعل هو كل ما يمكن للمرء أن يحمله في موته ليعطيه لخالقه وفجأة شعر بالخجل يحرقه أنه كان لديه مقدار منه شديد الضآلة ليأخذه معه. وقف فزعاً، يحاكم نفسه بالشمول الذي يحاكم الله مخلوقاته به بينما غطى فعل الرحمة كبرياءه وكأنه لهيب ثم التهمها. لم يكن قد نظر إلى نفسه كخاطئ كبير من قبل قط لكنه رأى الآن إثمه الحقيقي. كان قد أخفي عنه كيلا يسبب له اليأس. أدرك أنه قد غفرت له آثامه منذ بداية الزمن، حين حمل في قلبه هو خطيئة آدم، وحتى الحاضر، حين أنكر نلسون المسكين. عرف أنه ليس من إثم أكثر بشاعة من أن يدعيه لنفسه، وبما أن حب الله يتناسب مع غفرانه، فإنه شعر بأنه مستعد في تلك اللحظة لدخول الجنة.

أخذ نلسون – الذي هيأ تعبير وجهه تحت ظل حافة قبعته – يراقبه بمزيج من الإنهاك والريبة، ولكن بينما انطلق القطار مبتعداً عنهما واختفى كثعبان خائف في الغابة، حتى وجهه هو أضاء وتمتم، "إنني سعيد أنني ذهبت مرة ، ولكنني لن أعود ثانية أبداً"!

فلانري أوكونر

لا بد لكل شيء يرتفع أن يتلاقى[(١)]

الدمج العنصري هو أحد الموضوعات المتكررة في أعمال فلانري أوكونر، وهو موضوع رئيسي في هذه القصة، حيث تصور الكاتبة التوتر العرقي الناجم عن الدمج العنصري. كما تستكشف القصة التغيرات بين جيل وآخر على خلفية ثقافية. ومثل جميع قصص أوكونر في المجموعة القصصية التي تحمل اسم القصة نفسه، تتميز القصة بعنصرها اللهاوي المأساوي.

كان طبيب والدة جوليان Julian قد أخبرها أن من الضروري لها أن تخفف وزنها ثلاثين رطلاً بسبب ضغط دمها، ولذلك ففي أمسيات أيام الأربعاء كان على جوليان أن يأخذها إلى مركز المدينة في الحافلة لحضور دورة في تخفيف الوزن في رابطة الشابات المسيحيات.[(٢)] وكانت الدورة

---

(١) هذه ترجمة قصة "Everything That Rises Must Converge" للكاتبة Flannery O'Connor. والقصة نشرت عام ١٩٦٤ بعد وفاة الكاتبة في مجموعة قصصية للكاتبة تحمل عنوان القصة نفسه. وكانت قد نشرت في مجلة **كتابة العالم الجديد** *New World Writing* عام ١٩٦١.

(٢) رابطة الشبان المسيحيين ورابطة الشابات المسيحيات هما منظمتان منتشرتان عبر العالم، وتقومان برعاية نشاطات دينية وأكاديمية وثقافية ورياضية مختلفة.

مصممة للإناث العاملات اللواتي تجاوزن الخمسين، واللواتي يتراوح وزنهن ما بين ١٦٥ و٢٠٠ رطل. كانت أمه واحدة من المشتركات الأنحف من الباقيات. لكنها كانت تقول إن السيدات لا يفصحن عن أعمارهن أو أوزانهن. لم تكن تقبل أن تركب الحافلة بمفردها في الليل منذ أن أصبحت مختلطة، ولأن دورة تخفيف الوزن كانت من المسرات القليلة لديها، وضرورية لصحتها و**مجانية**، فقد قالت إن جوليان يمكنه على الأقل أن يكلف نفسه ويصطحبها، على اعتبار كل ما فعلته من أجله. ولم يكن جوليان يحب أن يأخذ بالحسبان كل ما فعلته من أجله، لكنه كل يوم أربعاء استجمع قواه واصطحبها.

كانت جاهزة تقريباً للذهاب، واقفة أمام مرآة الردهة، تضع قبعتها، بينما بدا هو، ويداه خلفه، مثبتاً بإطار الباب، ينتظر مثل القديس سباستيان[1] لأن تبدأ الأسهم في اختراق جسده. كانت القبعة جديدة وثمنها سبعة دولارات ونصف. لم تتوقف عن القول: "ربما ما كان ينبغي أن أدفع ذلك المبلغ ثمناً لها. كلا، ما كان ينبغي. سأخلعها وأعيدها غداً. ما كان ينبغي أن أشتريها."

رفع جوليان عينيه إلى السماء ونزل بهما ببطء نحو قمة رأسها، وقال: "بلى، كان ينبغي أن تشتريها، ضعيها لكي نذهب." كانت قبعة قبيحة. يتدلى لسان مخملي بنفسجي من أحد جانبيها ويرتفع لسان مماثل على الطرف الآخر، والباقي كان أخضر اللون وبدا كأنه وسادة خرجت الحشوة منها. وقرر أن العنصر الفكاهي فيها أقل من العنصر المثير للشفقة. كان كل شيء يدخل السرور عليها صغيراً ويشعره بالكآبة.

رفعت القبعة مرة أخرى وأنزلتها ببطء على رأسها. برز جناحان من الشعر الأشيب على طرفي وجهها المتورد، لكن عينيها الزرقاوين زرقة

---

(١) القديس سباستيان Sebastian ولد عام ٢٦٨م وتوفي بسبب الاضطهاد الروماني للمسيحيين، وتصوره الأعمال الأدبية والفنية مربوطاً إلى عمود والسهام تطلق عليه.

السماء كانتا بريئتين ولم تمسسهما تجارب الحياة كما لا بد كان حالهما حين كان عمرها عشر سنوات. ولولا أنها كانت أرملة جاهدت بشراسة لإطعامه وإلباسه وإدخاله إلى الجامعة إلى أن تخرج ولا تزال تعيله، "إلى أن يقف على قدميه،" لكان من الممكن أن تكون فتاة صغيرة عليه أن يأخذها إلى المدينة. قال: "إنها جيدة، إنها جيدة، فلنذهب." فتح الباب بنفسه وانطلق على الممشى ليجعلها تبدأ في السير. كانت السماء بنفسجية قاتمة وانتصبت البيوت معتمة في وجه السماء: أشكال مشوهة منتفخة بلون الكبد متماثلة في البشاعة، برغم أنه لم يكن أي اثنين منها متشابهين. وعلى اعتبار أن هذا الحي كان من الأحياء الراقية قبل أربعين عاماً، فقد استمرت أمه في الاعتقاد أنهما أبليا بلاء حسن بامتلاك شقة فيه. كان لكل منزل سوار ضيق من التراب يحيط به، يجلس فيه عادة طفل قذر. مشى جوليان ويداه في جيبيه ورأسه مطأطأ إلى الأمام ويغطي عينيه غشاء من التصميم على جعل نفسه في حالة من الخدر خلال الوقت الذي يضحي به من أجل مسرتها.

انغلق الباب والتفت ليجد قوامها القصير البدين، تعلوه القبعة المخيفة، قادماً نحوه. قالت: "طيب، نحن لا نعيش سوى مرة واحدة، ولأني دفعت زيادة قليلة في المبلغ لشرائها فإنني على الأقل أضمن أن لا ألتقي بنفسي غادية وعائدة."

قال جوليان باكتئاب: "يوماً ما سأبدأ في كسب النقود" – وهو يعرف أن هذا لن يحدث – "ويمكنك عندئذ الحصول على إحدى هذه الفكاهات كلما اعترتك النوبة." ولكنهما أولاً سينتقلان من مسكنهما. رأى بعين مخيلته مكاناً يبعد أقرب الجيران عنه ما لايقل عن ثلاثة أميال على كلا الجانبين.

قالت، وهي تضع قفازها: "أعتقد أن وضعك جيد. لم تمض سوى سنة منذ تخرجت من الجامعة. ولم تُبْنَ روما في يوم واحد."

كانت من الأعضاء القلائل في دورة تخفيض الوزن اللواتي يذهبن وهن يلبسن قبعات وقفازات ولهن أبناء درسوا في الجامعة. قالت: "الأمر يستغرق

فترة من الزمن، والعالم الآن في فوضى كبيرة. لقد ناسبتني هذه القبعة أكثر من أي قبعة أخرى، على الرغم من أنني حين أحضرَتْها قلت لها: ’أعيدي هذا الشيء، فلن اضعه على رأسي‘ وأجابت: ’انتظري لتريها وأنت تضعينها،‘ وحين وضعتها على رأسي قلت: ’حسن،‘ وقالت: ’إن أردت رأيي فهذه القبعة تضفي عليك شيئاً وأنت تضفين شيئاً على القبعة، وإضافة إلى ذلك،‘ قالت، ’بهذه القبعة لن تقابلي نفسك وأنت غادية وعائدة.‘"

كان جوليان يعتقد أنه كان سيتحمل نصيبه بشكل أفضل لو أنها كانت أنانية، لو كانت عجوزاً شمطاء تسكر وتصرخ في وجهه. تابع سيره، والكآبة تغمره، كما لو أنه في منتصف عملية استشهاده فقد إيمانه. وحين لمحت وجهه المطاول اليائس المنزعج، توقفت فجأة وعلى وجهها نظرة حزينة وشدته من ذراعه. قالت: "انتظرني. أنا عائدة إلى المنزل لأخلعها وغداً سأذهب كي أعيدها. لقد كنت بلا تفكير. يمكنني أن أستخدم السبعة دولارات ونصف في دفع فاتورة الغاز"

أمسك بذراعها بقبضة خبيثة، وقال: "لن تعيديها. فأنا أحبها."

قالت: "ولكن، لا أعتقد أنني . . ."

تمتم قائلاً: "اصمتي واستمتعي بها،" وهو أكثركآبة من أي وقت مضى.

قالت: "على اعتبار أن العالم في هذه الفوضى التي تسيطر عليه، فإن قدرتنا على الاستمتاع بأي شيء هي أعجوبة. أقول لك، إن القضيب السفلي هو الآن في الأعلى."

تنهد جوليان.

قالت: "بالطبع، إن كنت تعرف من أنت، يمكنك الذهاب إلى أي مكان. كانت تقول هذا في كل مرة يصطحبها فيها إلى دورة تخفيف الوزن. قالت: "معظم المشتركات فيها ليسوا من نوع الناس مثلنا، لكنني أستطيع أن أكون مهذبة مع الجميع. فأنا أعرف من أنا."

قال جوليان بوحشية: "إنهم لا يحفلون على الإطلاق بتهذيبك. معرفة المرء من هو شيء حسن لجيل واحد فقط. وليست لديك فكرة مهما كانت ضبابية عن مكانك الآن ومن أنت."

توقفت وسمحت لعينيها أن تومضا غضباً باتجاهه. قالت: "إنني بكل تأكيد أعرف فعلاً من أنا، وإذا كنت لا تعرف من أنت فإنني أخجل بك."

قال جوليان: "يا للحجيم."

قالت: "كان والد جدك حاكماً سابقاً لهذه الولاية. وجدك أحد ملاكي الأراضي الموسرين. وكانت جدتك من عائلة غادهاي Godhigh."

قال متوتراً: "هلا نظرتِ حولك وشاهدت أين أنت الآن؟" ولوح بذراعه بتشنج ليشير إلى الحي، الذي جعلته الظلمة المتزايدة أقل حقارة على الأقل.

قالت: "أنت تبقى ما أنت. كان لجد أبيك مزرعة ومئتين من العبيد."

قال بنزق: "لم يعد هناك عبيد."

قالت: "كانت حالهم أفضل حين كانوا عبيداً." تأوه حين رأى أنها انطلقت تتكلم حول ذلك الموضوع. كانت تنزلق إليه كلما مرت بضعة أيام مثل قطار على سكة مفتوحة. كان يعرف كل وقفة، وكل محطة، وكل مستنقع في الطريق، ويعرف بالضبط النقطة التي تتدحرج عندها خاتمتها بكل فخامة إلى المحطة: "الأمر مضحك وسخيف. وببساطة ليس واقعياً. نعم، يجب أن يرتفعوا، ولكن على طرفهم من السياج."

قال جوليان: "دعينا نغض النظر عن هذا الموضوع."

قالت: "الذين أشعر بالأسف تجاههم هم أنصاف البيض. فحالهم مأساوي."

"ألا تتركين هذا الحديث؟"

"افترض أننا أنصاف بيض. من المؤكد أنه ستكون لدينا مشاعر مختلطة."

تأوه قائلاً: "لدي مشاعر مختلطة الآن."

قالت: "إذن لنتحدث عن شيء سارّ. أتذكر حين كنت أذهب إلى دار جدي وأنا بنت صغيرة. كان للمنزل آنذاك سلم مزدوج يؤدي إلى ما هو في الواقع الطابق الثاني – كان الطبخ يتم كله في الطابق الأول. كنت أحب أن أبقى في المطبخ بسبب الطريقة التي كانت عليها رائحة الجدران. كنت أجلس وأنفي مضغوط على الجبس وأستنشق أنفاساً عميقة. في الواقع كان المنزل ملكاً لأسرة غادهاي، لكن جدك تشستني Chestny دفع الرهن وحفظه لهم. كانت أحوالهم قد انحدرت،" قالت: "ولكن انحدرت أم لم تنحدر، فإنهم لم ينسوا ابداً من هم."

تمتم جوليان: "لا شك في أن ذلك القصر المتداعي كان يذكرهم." لم يكن يتكلم عنه إلا بازدراء ولم يفكر به إلا بشوق. لقد رآه مرة حين كان طفلاً قبل أن يباع. كان السلم المزدوج قد اهترأ وهُدِّم. كان زنوج يقطنون فيه. لكنه بقي في ذهنه كما عرفته أمه، وكان يظهر له في أحلامه بانتظام. كان يقف على الرواق العريض يصغي إلى حفيف أوراق شجر السنديان، ثم يتجول عبر الردهة العالية السقف إلى الصالون المنفتح عليه ويحدق في السجاد البالي والستائر الباهتة. خطر له أنه هو وليست هي من كان يمكن أن يقدر ذلك المنزل حق قدره. كان يفضل أناقته الرثة على أي شيء يمكنه تسميته، وكان القصر هو السبب في أنه كان يشعر بالعذاب في جميع الأحياء التي سكنا فيها – في حين أنها لم تكد تعرف الفرق. وكانت تطلق على تبلد إحساسها اسم "القدرة على التأقلم."

قالت: "وأتذكر السوداء الكبيرة السن التي كانت مربيتي: كارولاين Caroline. لم يكن في العالم شخص أفضل منها. كنت دائماً أشعر باحترام شديد لأصدقائي الملونين. كنت على استعداد لأن أفعل أي شيء على الإطلاق من أجلهم، وهم على . . ."

قال جوليان: "هل من الممكن لأجل الله أن تتركي هذا الموضوع؟" كان حين يركب حافلة بمفرده يتعمد أن يجلس بجانب أحد الزنوج، تعويضاً، إن صح القول، عن خطايا أمه.

قالت: "أنت متحسس جداً الليلة. هل أنت على ما يرام؟"

قال: "نعم، أنا على ما يرام. والآن توقفي عن هذا الحديث."

زمت شفتيها، وعلقت قائلة: "نعم، أنت بالتأكيد في مزاج سيء. سأتوقف ببساطة عن التحدث إليك كلياً."

كانا قد وصلا إلى موقف الحافلة. لم تكن أية حافلة ضمن مرمى البصر. وقطب جوليان وهو ينظر إلى آخر الشارع، ويداه ما زالتا غارقتين في جيبيه ورأسه محني إلى الأمام. فقد بدأ الإحباط الناجم عن الاضطرار لانتظار الحافلة وكذلك ركوبها يزحف صعوداً على عنقه مثل يد حارة. وشعر بوجود أمه حين أصدرت تنهيدة ألم. نظر إليها نظرة قاتمة. كانت تنتصب باستقامة تحت القبعة الفظيعة التي كانت تضعها وكأنها راية لكرامة متخيلة. كان في داخله حافز شرير يدفعه لأن يمزق روحها. فقام فجأة بفك ربطة عنقه ووضعها في جيبه.

تصلبت، وقالت: "لم يجب أن تبدو على **هذا الشكل** حين تصحبني إلى المدينة؟ ما الذي يضطرك كي تتعمد إحراجي؟"

قال: "إذا لم تتعلمي قط أين أنت، فيمكنك على الأقل أن تعرفي أين أنا."

قالت: "أنت تبدو مثل قاطع طرق."

تمتم: "إذن لا بد أنني كذلك."

قالت: "سأذهب إلى البيت وحسب، ولن أزعجك. إذا كنت لا تستطيع القيام بشيء صغير كهذا من أجلي. . ."

رفع حدقتيه إلى الأعلى، وأعاد وضع رباط عنقه، وتمتم: "عدتُ إلى طبقتي." وأدنى وجهه منها وقال بصوت كالفحيح: "الثقافة الحقيقية هي في الذهن، **الذهن**،" وربت على رأسه: "الذهن."

قالت: "إنها في القلب. وفي كيفية قيامك بالأشياء، وسبب كيفية قيامك بالأشياء هو من أنت."

"لا أحد في الحافلة اللعينة يهتم بمن أنت."

قالت ببرود قارس: "أنا أهتم بمن أنا."

ظهرت الحافلة المُنارة على قمة التل التالي، ومع اقترابها انتقلا إلى الشارع للقائها. وضع يده تحت كوعها ورفعها لتصعد على الدرجة ذات الصرير. دخلت وعلى وجهها ابتسامة خفيفة، كما لو أنها تدخل غرفة استقبال حيث الجميع في انتظارها. وفيما كان يضع القطعتين المعدنيتين، جلست على أحد المقعدين العريضين اللذين يتسع الواحد منهما لثلاثة أشخاص المواجهين للممشى. كانت امرأة نحيفة ذات أسنان بارزة وشعر أصفر طويل تجلس على طرف المقعد. اقتربت أم جوليان منها لتفسح مكاناً له بجانبها. جلس ونظر إلى الأرض عبر الممشى حيث كانت تقف قدمان نحيفتان تلبسان صندلاً أحمر وأبيض من قماش القنب.

بدأت أمه على الفور محادثة عامة المقصود منها لفت انتباه أي شخص يشعر بالرغبة في الكلام. "هل يمكن أن ترتفع الحرارة أكثر مما هي عليه؟" قالت وأخرجت من حقيبة يدها مروحة من النوع الذي يطوى، لونها اسود وعليها منظر ياباني، وبدأت تهزها أمام وجهها.

قالت المرأة ذات الأسنان البارزة: "أعتقد أن ذلك ممكن، ولكنني أعرف حقيقة ثابتة، وهي أن الحرارة في شقتي لا يمكن أن ترتفع أكثر مما هي الآن."

قالت الأم: "لا بد أنها تتعرض للشمس بعد الظهر." برزت في جلستها إلى الأمام ونظرت في كلا الاتجاهين داخل الحافلة. كانت نصف ملأى، وجميع الركاب من البيض. قالت: "أرى أننا ننفرد بالحافلة لوحدنا." وانكمش جوليان.

قالت المرأة على الجانب الآخر من الممشى، ذات الصندل الكتاني الأبيض والأحمر: "من باب التغيير. قبل أيام صعدت حافلة وكانوا محتشدين فيها كالبراغيث – في المقدمة وفي الداخل."

قالت أمه: "العالم في فوضى في كل مكان. لا أدري كيف تركناه يدخل في هذا المأزق."

قالت المرأة ذات الأسنان البارزة: "ما يزعجني أشدّ الإزعاج هو جميع هؤلاء الفتيان من عائلات محترمة الذين يسرقون إطارات السيارات. لقد قلت لإبني إنك قد لا تكون غنياً، ولكنك تربيت تربية صالحة، وإذا وجدتك في أي وقت في مأزق من هذا النوع فإن بإمكانهم أن يرسلوك إلى الإصلاحية. كن تماماً في مكانك المناسب."

قالت أمه: "التدريب يظهر من نتائجه. هل ابنك في الثانوية؟"

قالت المرأة: "الصف التاسع."

قالت أمه: "ابني أنهى دراسته في الجامعة العام الماضي. وهو يريد أن يكتب لكنه يقوم ببيع الآلات الكاتبة إلى أن يتمكن من أن يبدأ."

انحنت المرأة إلى الأمام ونظرت إلى جوليان. ألقى عليها نظرة حاقدة جعلتها تتراجع في مقعدها. وكانت توجد على الأرض في الجانب الآخر من الممشى جريدة تركها أحدهم. نهض والتقطها وفتحها أمامه. تابعت أمه المحادثة بتحفظ وبلهجة أهدأ، لكن المرأة على الجانب الآخر قالت بصوت مرتفع: "هذا شيء طيب. وبيع الآلات الكاتبة قريب من الكتابة. يمكنه الانتقال فوراً من أحد النشاطين إلى الآخر."

قالت أمه: "أنا أقول له إن روما لم تُبْنَ في يوم واحد."

خلف الصحيفة كان جوليان ينسحب إلى الحجرة الداخلية من ذهنه التي يقضي فيها معظم وقته. كانت هذه الحجرة نوعاً من الفقاعة العقلية يضع فيها نفسه عندما لا يستطيع أن يتحمل أن يكون جزءاً مما يدور حوله. منها يستطيع أن يرى الخارج ويحكم عليه لكنه يكون آمناً داخلها من أي نوع من الاختراق من الخارج. كانت المكان الوحيد الذي شعر فيه بالحرية من البلاهة العامة لمن حوله. لم تدخلها أمه قط، ولكن من داخل الفقاعة كان يراها بوضوح مطلق.

كانت السيدة الكبيرة السن ذكية بما يكفي، وكان يعتقد أنها لو انطلقت من أي من الافتراضات المنطقية الصحيحة، لكان من الممكن توقع المزيد

منها. كانت تعيش وفقاً لعالم خيالها الذي لم يرها تخرج منه قط. وكان قانون ذلك العالم هو أن تضحي بنفسها لأجله وذلك بعد أن قامت أولاً بابتكار الحاجة لتلك التضحية بإفساد الأمور. وإذا كان قد سمح بتضحياتها، فمردّ ذلك فقط إلى أن افتقارها إلى استشراف المستقبل جعلها ضرورية. كانت حياتها بأكملها نضالاً هدفه أن تتصرف كفرد من عائلة تشستني وأن تمنحه كل شيء تعتقد أن فرداً من تلك العائلة يجب أن يحصل عليه دون الأشياء الجيدة التي ينبغي أن تتوفر للفرد من تلك العائلة، ولكنها قالت، باعتبار أن النضال متعة، فلم الشكوى؟ وحين تنتصر، كما انتصرت هي، ما أمتع أن تعود بذهنك إلى الأوقات الصعبة! لم يكن قادراً على أن يغفر لها أنها استمتعت بالنضال وأنها تعتقد **أنها** انتصرت.

ما كانت تعنيه بقولها إنها انتصرت هو أنها استطاعت تنشئته بنجاح وأدخلته الجامعة، وأنه كبر ليكون وسيماً إلى هذا الحد (بقيت أسنانها بلا حشو من أجل أن تُقَوَّم أسنانه) وذكياً (وقد أدرك أنه أذكى من أن يصبح ناجحاً) والمستقبل أمامه (بالطبع لم يكن أي مستقبل في انتظاره). وقد عذرت كآبته على أساس أنه لا يزال في طور النمو وعذرت أفكاره المتطرفة على أساس افتقاره للتجربة العملية. قالت إنه لا يعرف بعد أي شيء عن "الحياة،" إنه حتى لم يدخل بعد عالم الواقع، في حين أنه كان قد تحرر من وهم ذلك العالم مثل رجل في الخمسين من العمر.

والسخرية الإضافية في هذا كله هو أنه بالرغم عنها، نشأ ليكون شخصاً جيداً جداً. على الرغم من دخوله كلية من الدرجة الثالثة فقط، فقد حصل بمبادرته الخاصة على ثقافة من الدرجة الأولى، وعلى الرغم من خضوعه لتحكم عقل صغير أثناء نشأته، فقد انتهى به الأمر بأن يكون ذا عقل أكبر، وعلى الرغم من جميع آرائها الحمقاء، كان متحرراً من التحامل وغير هياب من الحقائق. وأكبر المعجزات هو أنه بدلاً من أن يعميه حبه لها كما أعماها

حبها له، فقد حرر نفسه عاطفياً وأصبح يستطيع رؤيتها بموضوعية تامة. لم يكن خاضعاً لسيطرة أمه.

توقفت الحافلة بِرَجَّة مفاجئة هزته وأخرجته من تأملاته. تقدمت امرأة من الخلف وهي تتمايل بخطوات صغيرة وكادت أن تقع على صحيفته وهي تحاول تعديل وضعها. نزلت وصعد زنجي ضخم. أبقى جوليان صحيفته منخفضة كي يراقب ما يجري. فقد كان يشعر برضا معين حين يرى الظلم في مساره اليومي. وكان ذلك يؤكد رأيه أنه لا يوجد أحد – مع استثناءات قليلة – في محيط نصف قطره ثلاثمائة ميل يستحق أن يعرفه. كان الزنجي حسن الهندام ويحمل حقيبة في يده. نظر حوله ثم جلس على الطرف الآخر من المقعد الذي تجلس عليه المرأة ذات الصندل الكتاني الأحمر والأبيض. وفور جلوسه أخرج صحيفة وأخفى نفسه خلفها. على الفور بدأ كوع أمه ينخس أضلاعه بعناد، وهمست قائلة: "هاأنت ترى الآن السبب في رفضي ركوب الحافلة بمفردي."

كانت المرأة ذات الصندل الكتاني الأحمر والأبيض قد نهضت في الوقت نفسه الذي جلس الزنجي فيه ورجعت إلى مكان أبعد في الحافلة وجلست في مقعد المرأة التي نزلت. وانحنت أمه إلى الأمام ونظرت إليها نظرة موافقة.

نهض جوليان واجتاز الممشى وجلس في مكان المرأة ذات الصندل الكتاني. ومن موقعه نظر بهدوء إلى أمه. كان لون وجهها قد تحول إلى الأحمر من الغضب. حدق فيها، وجعل عينيه عيني شخص غريب. وشعر بتوتره ينجلي فجأة وكأنه أعلن الحرب عليها صراحة.

كان بوده أن يدخل في محادثة مع الزنجي ويتكلم معه عن الفن أو السياسة أو أي موضوع فوق مستوى فهم الناس المحيطين بهما، لكن الرجل بقي يصب كامل اهتمامه على صحيفته. كان إما يتجاهل تغيير المقاعد أو أنه لم يلاحظه على الإطلاق. ولم توجد أية طريقة لكي يعبر فيها جوليان عن تعاطفه.

استمرت أمه بتثبيت عينيها على وجهه بنظرة تأنيبية. كما كانت المرأة ذات الأسنان البارزة تنظر إليه بحدة وكأنه نوع من الوحوش جديد عليها.

سأل الزنجي: "هل معك ولاعة؟"

أدخل الرجل يده في جيبه دون أن يحول عينيه عن الصحيفة وناوله علبة ثقاب.

قال جوليان: "شكراً." وللحظة أمسك بعلبة الثقاب على نحو أحمق، فقد كانت شاخصة **ممنوع التدخين** تطل عليه من فوق الباب. وما كان هذا لوحده أن يمنعه، ولكن لم تكن معه أي سجائر. كان قد أقلع عن التدخين قبل بضعة شهور لأنه لم يتوفر لديه ما يكفي لشراء الدخان. تمتم: "آسف،" وأعاد علبة الثقاب. أنزل الزنجي الصحيفة ونظر إليه نظرة منزعجة، ثم أخذ العلبة ورفع الصحيفة مرة أخرى.

استمرت أمه في التحديق به، لكنها لم تستغل انزعاجه المؤقت. وحافظت عيناها على نظرتهما المسحوقة، وبدا وجهها أحمر إلى حد غير طبيعي، وكأن ضغط دمها قد ارتفع. لم يسمح جوليان لأي ومضة من التعاطف أن تظهر على وجهه. فكونه قد حقق الوضعية الأفضل، أراد الحفاظ عليها والاستمرار بها بإرادة مستميتة. كان يود أن يعلمها درساً تتذكره لفترة من الزمن، ولكن لم يبد أنه توجد أي طريقة للاستمرار في هذه النقطة، فالزنجي رفض الخروج من خلف صحيفته.

طوى جوليان ذراعيه ونظر بإحساس متبلد إلى الأمام، يواجهها ولكن كأنه لا يراها، كأنه توقف عن الاعتراف بوجودها. وتخيل مشهداً تصل الحافلة فيها إلى موقف نزولهما، ويبقى هو في الحافلة، وحين تقول: "ألن تنزل؟" ينظر إليها كأنها غريبة تخاطبه عن طيش. تكون الزاوية التي ينزلان عندها مهجورة في العادة لكنها جيدة الإنارة ولن يؤذيها أن تمشي بمفردها عبر التقاطعات الأربعة كي تصل إلى الرابطة. قرر أن ينتظر إلى أن يحين

الوقت ثم يقرر ما إذا كان سيتركها تنزل بمفردها. وسيكون عليه الوجود في الرابطة في العاشرة كي يصحبها في العودة، لكن بإمكانه أن يتركها تتساءل عما إذا كان سيأتي، إذ لم يكن لديها سبب للاعتقاد أنها تستطيع الاعتماد عليه.

تراجع مرة أخرى إلى الغرفة العالية السقف التي توزعت فيها قطع ضخمة من الأثاث العتيق على نحو متناثر. توسعت روحه لفترة مؤقتة لكنه إثر ذلك شعر بوجود أمه مقابله وانكمشت الرؤيا. درسها ببرود. كانت قدماها متدليتن في خفين صغيرين وكأنهما قدما طفل ولم تصلا تماماً إلى الأرض. كانت توجه إليه نظرة عتب مبالغ بها. شعر أنه منفصل عنها كلياً. في تلك اللحظة كان بإمكانه أن يصفعها بسرور كما يصفع طفلاً مشاغباً إلى حد زائد عُهِد إليه به.

بدأ يتخيل طرقاً متنوعة بعيدة الاحتمال يستطيع من خلالها أن يلقنها درساً. يمكنه أن يعقد صداقة مع أستاذ أو محام زنجي بارز ويأتي به إلى البيت لقضاء السهرة. سيكون عمله مبرراً تبريراً كاملاً ولكن ضغط دمها سيرتفع إلى ٣٠٠. ولا يمكنه أن يدفعها إلى درجة أن يجعلها تتعرض لأزمة قلبية، وعلاوة على ذلك، فهو لم ينجح قط في عقد صداقات مع زنوج. كان قد حاول التعرف في الحافلة على بعض الأنواع الأفضل، الذين بدا أنهم أساتذة أو قساوسة أو محامون. وذات مرة جلس إلى جانب رجل ذي لون بني قاتم يبدو متميزاً، وأجاب الرجل عن أسئلته بوقار رنان لكن تبين أنه حانوتي. وفي يوم آخر جلس إلى جانب زنجي يدخن سيجاراً ويحيط بإصبعه خاتم ماسي، لكن بعد بعض المجاملات العرجاء، رن الرجل الجرس ونهض، تاركاً تذكرتي يانصيب في يد جوليان وهو ينهض لينزل.

تخيل أمه طريحة الفراش وهي مريضة مرضاً شديداً وعدم تمكنه من إحضار طبيب إلا طبيب زنجي ليعالجها. قَلَّب تلك الفكرة في ذهنه لبضع دقائق ثم تركها لتحل محلها رؤيا عابرة رأى فيها نفسه يشارك بصفة

متعاطف في مظاهرة اعتصام. كان هذا ممكناً لكنه لم يطل التفكير به. وبدلاً عن ذلك، وصل إلى أقصى ما يرعب، وذلك بإحضار امرأة جميلة ذات ملامح إفريقية تثير الشبهة. قال: حضري نفسك. لا يمكنك فعل أي شيء بالنسبة لهذا. هذه هي المرأة التي اخترتها. فهي ذكية ومحترمة بل وطيبة، وقد عانت ولم تجد في ذلك أي **متعة**. الآن اضطهدينا. هيا اضطهدينا. اطرديها من هنا، ولكن تذكري أنك تطردينني أنا أيضاً. ضاقت عيناه ومن خلال السخط الذي ولَّدَه، رأى أمه عبر الممشى، وجهها أرجواني وقد تقلصت إلى الحجم الذي يماثل الأقزام والمناسب لطبيعتها الأخلاقية، جالسة مثل مومياء تحت القبعة السخيفة.

مرة أخرى هزه توقف الحافلة وأخرجه من تخيلاته. انفتح الباب بفحيح جارف ومن الظلمة صعدت امرأة ملونة ضخمة بهيجة الملابس عابسة الوجه ومعها صبي صغير. كان الطفل الذي يبدو أنه في الرابعة يرتدي بذلة ذات نقوش مربعة وقبعة قماشية عريضة الحافة ذات ريشة زرقاء. أَمِل جوليان أن يجلس الطفل إلى جانبه والمرأة إلى جانب أمه. لم يتمكن من التفكير بترتيب أفضل.

وبينما كانت المرأة تنتظر قطعتيها المعدنيتين كانت تتفحص إمكانيات الجلوس – وكان أمله أن تجلس حيث يكون النفور من جلوسها أقوى ما يمكن. كان هناك شيء مألوف في منظرها لكن جوليان لم يستطع تحديد ما هو ذلك الشيء. كانت امرأة عملاقة، وكان وجهها مهيأ ليس لمواجهة الاعتراض فحسب، بل للبحث عنه أيضاً. وكان ميل شفتها السفلى الضخمة إلى الأسفل بمثابة لافتة تقول: **حذار من العبث معي**. وكان قوامها المنتفخ محشواً في ثوب "كريب" أخضر، وطَفَحَ قدماها في حذائها الأحمر. كانت تلبس قبعة قبيحة. كان لسان مخملي بنفسجي يتدلى من أحد جانبيها ويرتفع لسان مماثل على الطرف الآخر، والباقي كان أخضر اللون وبدا وكأنه وسادة خرجت الحشوة منها. وكانت تحمل جزداناً أحمر ضخماً منتفخاً من كل جوانبه وكأنه محشو بالصخور.

تسلق الصبي على المقعد الفارغ إلى جانب أم جوليان، مما سبب خيبة أمل لجوليان. وكانت أمه تضع جميع الأطفال، بيضاً وسوداً، في خانة مشتركة: "جذابون،" وتعتقد أن الزنوج الصغار هم بشكل عام أكثر جاذبية من الأطفال البيض. ابتسمت للصبي الصغير حين تسلق على المقعد.

في تلك الأثناء كانت المرأة تشق طريقها إلى المقعد الفارغ بجانب جوليان. وضغطت نفسها داخل المقعد، مما ضايقه. رأى وجه أمه يتغير حين استقرت المرأة إلى جانبه، وأدرك بشعور من الرضا أن كرهها لهذا الوضع كان أكبر من كرهه له. اقترب لون وجهها من الرمادي ولاحت في عينيها نظرة إدراك، كما لو أنها فجأة مرضت عند مواجهة بغيضة. رأى جوليان أن هذا بسبب أنها والمرأة – بمعنى ما – تبادلا ابنيهما. وعلى الرغم من أن أمه لن تدرك المغزى الرمزي لهذا، إلا أنها ستشعر به. وبدا على وجهه بوضوح أن الأمر يسليه.

تمتمت المرأة إلى جانبه بشيء غير مفهوم مخاطبة نفسها. لكنه شعر بنوع من رد الفعل الغاضب إلى جانبه، بهدير مخنوق مثل الصوت الذي يصدر عن هرٍّ غاضب. لم يتمكن من رؤية شيء سوى الجزدان الأحمر منتصباً على الفخذين الأخضرين المنتفخين. رأى في مخيلته المرأة وهي تقف بانتظار قطعتيها المعدنيتين – القوام الخالي من الرشاقة، الناهض من الحذاء الأحمر نحو الأعلى فوق الردفين الصلبين والصدر الضخم والوجه المتعالي إلى القبعة الخضراء والبنفسجية.

اتسعت عيناه.

هبطت عليه رؤيا القبعتين المتماثلتين بالتألق الصادر عن شروق ساطع. فجأة أنارت البهجة وجهه. لم يصدق أن القدر ألقى بدرس من هذا النوع على أمه. قهقه بصوت عال ليجعلها تنظر إليه وتدرك أنه رأى. لفتت عينيها إليه ببطء، وبدا اللون الأزرق فيهما وقد تحول إلى بنفسجي

مرضوض. للحظة انتابه إحساس غير مريح ببراءتها، لكنه لم يستمر أكثر من ثانية قبل أن يتدخل المبدأ لإنقاذه. لقد أعطته العدالة حق أن يضحك، وتصلبت ابتسامته إلى أن قالت لها وكأنه يكلمها بصوت عال: إن عقوبتك تناسب تماماً تفاهتك. ويجب أن يعلمك هذا درساً دائماً.

انتقلت عيناها إلى المرأة، وبدا أنها لا تتحمل النظر إليه وتجد أن النظر إلى المرأة أفضل. شعر مرة أخرى بوجود الهدير إلى جانبه. كانت المرأة تدمدم كالبركان الذي على وشك أن يصبح فعالاً. بدأ فم أمه يرتعش قليلاً عند إحدى زاويتيه. وغاص قلبه وهو يرى إشارات على وجهها تنبؤ باستعادتها رباطة جأشها وأدرك أنها فجأة ستجد المسألة مضحكة وأن الأمر لن يكون درساً لها على الإطلاق. استمرت في النظر إلى المرأة وارتسمت على وجهها ابتسامة استمتاع وكأن المرأة قرد سرق قبعتها. وكان الزنجي الصغير يرفع عينيه إليها بنظرة افتتان. وكان يحاول لفت انتباهها منذ فترة.

فجاة قالت المرأة: "كارفر Carver! تعال هنا!"

وحين رأى كارفر أن الأضواء سلطت عليه أخيراً، رفع قدميه والتفت إلى أم جوليان وأخذ يقهقه.

قالت المرأة: "كارفر! أتسمعني؟ تعال هنا!"

هبط كارفر من المقعد لكنه بقي جاثياً وظهره إلى قاعدته. وأدار رأسه بمكر إلى أم جوليان التي كانت تبتسم له. مدت المرأة يدها عبر الممشى وشدته إليها. قام الصبي بتعديل وضعه وأسند نفسه إلى الخلف على ركبتيها، وهو يبتسم لأم جوليان. قالت أم جوليان للمرأة ذات الأسنان البارزة: "أليس جذاباً؟"

قالت المرأة دون قناعة: "أظن ذلك."

جذبته الزنجية ليقف لكنه تخلص من قبضتها وانطلق عبر الممشى وتسلق بسرعة إلى المقعد إلى جانب حبيبته.

قالت أم جوليان: "أعتقد أنه يحبني،" وابتسمت للمرأة. وكانت ابتسامتها هي التي تستخدمها حين تكون مهذبة بشكل خاص مع من هو أدنى منها. رأى جوليان أن كل شيء قد ضاع، فقد تدحرج الدرس بعيداً عنها كما يتدفق المطر من فوق أحد الأسطح.

وقفت المرأة وانتزعت الصبي من على المقعد وكأنها تنتزعه من العدوى. واستطاع جوليان أن يشعر بالغضب المعتمل في داخلها لعدم امتلاكها سلاحاً يماثل ابتسامة أمه. صفعت الصبي صفعة حادة على ساقه، فصرخ صرخة واحدة ثم قذف رأسه على بطنها ورفس بقدميه ساقيها. قالت بعنف: "تأدّب."

توقفت الحافلة ونزل الزنجي الذي كان يقرأ الصحيفة. انتقلت المرأة إلى مكانه ووضعت الصبي بينها وبين جوليان. وأمسكته بثبات من ركبته. وبعد لحظة وضع يده أمام وجهه ونظر متلصصاً إلى أم جوليان عبر أصابعه.

"أستطيع أن أراك،" قالت بلهجة مداعبة ووضعت يدها أمام وجهها ونظرت إليه.

أنزلت المرأة يده بصفعة، وقالت: "توقف عن حماقتك قبل أن أزهق روحك!"

شعر جوليان بالامتنان لأن الموقف التالي هو موقفهما. رفع يده وسحب حبل الجرس، ورفعت المرأة يدها وسحبته في الوقت نفسه. فكّر: يا إلهي. فقد خطر له الحدس المخيف بأن أمه حين ينزلون من الحافلة معاً ستفتح جزدانها وتعطي الصبي قطعة خمس سنتات. فهذه الحركة ستكون طبيعية بالنسبة لها كالتنفس. توقفت الحافلة ونهضت المرأة واندفعت إلى المقدمة، وهي تجر خلفها الطفل، الذي أراد البقاء. ونهض جوليان وأمه وتبعاهما. وحين اقتربا من الباب، حاول جوليان أن يأخذ منها جزدانها.

تمتمت: "كلا! أريد أن أعطي الصبي الصغير خمسة سنتات."

قال جوليان بصوت كالفحيح: "لا! لا!"

ابتسمت للطفل وفتحت حقيبتها. فُتِح باب الحافلة والتقطت المرأة الطفل بذراعها ونزلت به، وهو متدلٍ على وركها. وحين اصبحا في الشارع أنزلته وهزته.

اضطرت أم جوليان أن تغلق جزدانها وهي تنزل من الحافلة ولكن ما أن لمست قدميها الأرض حتى فتحته مرة أخرى وبدأت تقلب محتوياته. همست: "لا يمكنني العثور سوى على قطعة سنت واحد، لكنها تبدو جديدة."

قال جوليان بشراسة متكلماً من بين أسنانه: "لا تفعلي ذلك!" كان هناك مصباح شارع عند الزاوية وأسرعت لتقف تحته كي ترى ما في جزدانها بشكل أفضل. كانت المرأة تمضي بسرعة في الشارع والطفل لا يزال يمشي وراءها ممسكاً بيدها.

"أيها الصبي الصغير!" نادت أم جوليان وخطت بضع خطوات سريعة مكنتها من أن تلحق بهما بعد عمود المصباح تماماً. "لدي سنت جديد لامع لك،" ومدت يدها بالقطعة المعدنية التي لمعت بلون برونزي في النور الخافت.

التفتت المرأة وللحظة وقفت وكتفها مرفوع ووجهها متجمد بفعل الغضب العارم المكبوت، وحدقت في أم جوليان. ثم بدت بشكل مفاجئ كلياً كأنها ستنفجر مثل آلة تعرضت لأونصة من الضغط أكثر من استطاعتها. رأى جوليان القبضة السوداء تندفع وتلقي بالجزدان الأحمر. أغلق عينيه وانكمش وهو يسمع المرأة تصيح: "إنه لا يأخذ سنتات أي شخص!" حين فتح عينيه كانت المرأة قد بدأت تختفي والصبي الصغير يحدق بعينين واسعتين من على كتفها. وكانت أم جوليان تجلس على الرصيف.

قال جوليان غاضباً: "قلت لك ألا تفعلي ذلك!"

وقف امامها دقيقة وهو يصك أسنانه. كانت ساقاها ممدودتين أمامها وقبعتها في حضنها. قرفص ونظر إلى وجهها. كان دون تعبير على الإطلاق. قال: "لقد نلتِ ما تستحقين تماماً. الآن انهضي."

التقط جزدانها وأعاد إليه ما سقط منه. ورفع القبعة عن حضنها. لمحت عيناه قطعة السنت على الرصيف، والتقطها وأسقطها في الجزدان أمام عينيها. ثم وقف وانحنى وأمسك بيديها ليسحبها كي تقف، لكنها بقيت بلا حراك. تنهد. كانت ترتفع فوقهما في كلا الاتجاهين مستطيلات من النور. من مكان تقاطع الشارع خرج رجل من أحد الأبواب ومشى في الاتجاه المعاكس. قال: "طيب، لنفترض أن صدف مرور شخص ما وأراد أن يعرف سبب جلوسك على الرصيف."

أمسكت باليد وسحبت نفسها بثقل إلى الأعلى وهي تتنفس بصعوبة، ثم وقفت وهي تتأرجح بشكل خفيف كما لو أن بقع الضوء تدور حولها في الظلمة. وفي النهاية استقرت عيناها – المظللتان والمشوشتان – عليه. لم يحاول إخفاء ضيقه، وقال: "آمل أن ذلك قد علمك درساً." انحنت إلى الأمام ونقبت عيناها في وجهه، وبدت كأنها تحاول تحديد هويته. ثم انطلقت – وكأنها لم تجد فيه أي شيء مألوف – تتحرك ورأسها إلى الأمام في الاتجاه الخاطئ.

سألها: "ألست ذاهبة إلى الرابطة."

تمتمت: "البيت."

"حسن، هل سنمشي؟"

أجابت بأن تابعت السير. تبعها جوليان، ويداه خلفه. لم ير أي سبب لترك الدرس الذي تلقته يمضي بدون دعمه بتفسير لمعناه. فمما يفيدها جَعْلُها تفهم ما حدث لها. قال: "ألا تعتقدين أن تلك كانت امرأة زنجية مغرورة. ذلك هو الجنس الملون بأكمله الذي لن يقبل السنتات الصادرة عن شعور بالفوقية. كانت تلك نسخة سوداء عنك. فيمكنها أن ترتدي قبعة مثل قبعتك، ومن المؤكد،"

أضاف بلا مبرر (لأنه اعتقد أن قوله مضحك) "كان منظر القبعة عليها أفضل من منظرها عليك. ومعنى هذا كله هو أن العالم القديم قد مضى. وطرق السلوك والأخلاق القديمة انقرضت وتهذيبك لا يساوي قشرة بصلة." فكر بالمرارة بالمنزل الذي لم يعد متاحاً له، وقال: "أنت لست من تعتقدين أنها أنت."

استمرت بشق طريقها إلى الأمام، دون أن تعيره أي انتباه. فلت شعرها من أحد الجانبين، وسقط منها جزدانها دون أن تنتبه. انحنى والتقطه وأعطاه لها لكنها لم تأخذه.

قال: "لستِ بحاجة للتصرف وكأن العالم قد وصل إلى نهايته، لأنه لم يصل بعد. من الآن فصاعداً عليك أن تعيشي في عالم جديد وتغيري نظرتك بمواجهة بعض الوقائع. كوني إيجابية، فلن يقتلك ذلك.

كانت تتنفس بسرعة.

قال: "فلننتظر الحافلة."

قالت بتثاقل: "البيت."

قال: "أكره أن أراك تتصرفين على هذا النحو، تماماً مثل طفلة. يجب أن أستطيع توقع أكثر من ذلك منك." قرر أن يقف في مكانه ويجعلها تقف لانتظار الحافلة، وقال وهو يقف: "لن أسير أكثر من هذا. سنركب الحافلة."

تابعت سيرها وكأنها لم تسمعه. خطا بضع خطوات وأمسك بذراعها وأوقفها. نظر إلى وجهها وحبس تنفسه. كان ينظر إلى وجه لم يره من قبل قط. قالت: "قل لجدك أن يأتي ويأخذني."

حدق بها وكأنه تلقى ضربة.

قالت: "قل لكارولاين Caroline أن تأتي وتأخذني."

ذُهِل، وأفلتها فمضت قدماً مرة أخرى. بدا أن مداً من الظلمة يجرفها بعيداً عنه. صاح: "أمي! عزيزتي، حبيبتي، انتظري!" وقعت منهارة على

الأرض المرصوفة. أندفع إلى الأمام وهوى إلى جانبها، وهو يصيح: "ماما، ماما!" قلبها على ظهرها. كان وجهها مشوهاً تشويهاً شديداً. تحركت إحدى العينين، وقد توسعت، إلى اليسار قليلاً وهي تحدق، كما لو أنها أفلتت من مرساها. وبقيت الأخرى مثبتة عليه، تنقب ي وجهه مرة أخرى دون أن تجد شيئاً، ثم أغمضت.

صرخ: "انتظري هنا، انتظري هنا!" وقفز واقفاً نحو مجموعة من الأضواء رآها عن بعد أمامه. صاح: "ساعدوني، ساعدوني!" لكن صوته كان ضعيفاً، يكاد يكون خيطاً رفيعاً من الصوت. تراجعت الأضواء مبتعدة كلما زادت سرعته في الجري وتحركت قدماه بخدر وكأنهما لا تمضيان به إلى أي مكان. بدا أن مدّ الظلمة يجرفه ويعيده إليها، مؤجلاً لحظة بعد لحظة دخوله في عالم الشعور بالذنب والأسى.

كاترين آن بورتر

هجران الجدّة وِذَرول[(١)]

ولدت كاثرين آن بورتر في ولاية تكساس عام ١٨٩٠ وتوفيت عام ١٩٨٠. كتبت بورتر المقالات والقصص القصيرة والمقالات، كما كانت ناشطة سياسية. حققت روايتها **سفينة الحمقى** (١٩٦٢) أكثر المبيعات عام ظهورها، لكن نجاحها الأكبر كان في عالم القصة القصيرة، وقد نالت جائزة بوليتزر وجائزة الكتب القومية والميدالية الذهبية للأدب القصصي والروائي التي يمنحها المعهد القومي للفنون والآداب الأمريكي على مجموعة قصصها القصيرة التي نشرت عام ١٩٦٥، كما رشحت ثلاث مرات لجائزة نوبل للأدب.

سحبت يدها بحذق من بين أصابع الدكتور هاري Harry السمينة المتأنية ورفعت الغطاء إلى ذقنها. على هذا الطفل أن يرتدي بنطالاً قصيراً.

---

(١) هذه ترجمة قصة "The Jiting of Granny Weatherall" للكاتبة Katherine Anne Porter. والقصة نشرت في مجلة **ترانزيشن** *Transition* عام ١٩٢٩، ثم في العام التالي في مجموعة الكاتبة **يهوذا المُزْهِر وقصص أخرى** *Flowering Judas Other Stories*. وكلمة Jiting في العنوان – والتي ترجمتها في السابق بكلمة ":التخلي،" ثم عدلتها هنا إلى "هجران" - تستعمل لوصف هجر الفتاة أو نبذها لحبيب سابق، وإن كانت هنا تشير إلى اختفاء عريس الجدة في صباها.

يجوب البلاد مطبباً وعلى أنفه نظارة. "امش من هنا الآن. خذ كتبك المدرسية واذهب. ليست بي أي علة."

وضع الدكتور هاري كفاً[(١)] دافئة كالوسادة على جبينها حيث أخذ الوريد الأخضر المتفرع يرقص وجعل جفناها ينتفضان. "حسناً، حسناً، كوني فتاة مطيعة، وسأجعلك تنهضين في أقصر وقت"؟

"هذه ليست طريقة للتكلم مع امرأة تقارب الثمانين لمجرد أنها متوعكة. عليك أن تحترم من يكبرك سناً، أيها الفتى."

"حسن يا آنستي، اعذريني." ربت الدكتور هاري على خدها. "ولكن علي أن أحذرك، أليس كذلك؟ إنك معجزة، ولكن يجب أن تكوني حذرة وإلا ستشعرين بالأسف."

"لا تقل لي ما الذي سوف أشعر به. إنني أقف على قدمي الآن، من الناحية المعنوية. إن كورنيليا Cornelia هي المشكلة. لقد اضطررت أن آوي إلى السرير للتخلص منها."

شعرت أن عظامها متفككة وأنها تسبح داخل جلدها، وسبح الدكتور هاري كالبالون حول رأس السرير. سبح وسحب صدارته إلى الأسفل وأرجح نظارته على خيط. "حسناً، ابق حيث أنت، فمن المؤكد أن ذلك لن يؤذيك."

"امض في سبيلك وطبب مرضاك،" قالت الجدة وِذَرول. "اترك المرأة السليمة وشأنها. سأستدعيك حين أحتاجك.... أين كنت قبل أربعين عاماً حين تغلبت على ورم رجلي عند الولادة وذات الرئة المزدوجة؟ لم تكن قد ولدت بعد. لا تدع كورنيليا تضللك،" قالت صائحة، لأن الدكتور هاري بدا وكأنه يطفو مرتفعاً إلى السقف وإلى الخارج. "إنني أنا التي أدفع فواتيري، وأنا لا أرمي نقودي على الترهات!".

---

(١) الكلمة المستعملة في الأصل هي كلمة "Paw" وتعني كف الحيوان.

أرادت أن تلوح بيدها مودعة، ولكن كان في ذلك عناء أكبر مما يجب. انطبقت عيناها تلقائياً، وكان الأمر مثل ستار معتم دُليَّ حول سريرها. ارتفعت الوسادة وسبحت تحتها، تبعث على الارتياح كأرجوحة في ريح خفيفة. أصغت إلى حفيف أوراق الشجر خارج نافذتها. كلا، إن شخصاً ما يحرك صفحات جريدة: كلا، كورنيليا والدكتور هاري يتهامسان. فجأة استيقظت استيقاظاً كاملاً، شاعرة أنهما يهمسان في إذنها.

"أبدأ لم تكن على ذلك النحو، أبداً لم تكن كذلك"! "ما الذي يمكننا أن نتوقعه"؟ "نعم، في الثمانين...."

وماذا في ذلك؟ إذ لا تزال لها أذنان. إن من شيمة كورنيليا أن تتهامس قرب الأبواب. كانت دائماً تحفظ الأمور سراً بمثل هذه الطريقة العلنية. هي دائماً لبقة ولطيفة. إن لدى كورنيليا إحساساً كبيراً بالواجب؛ ذلك كان عيبها. طيبة وتحس بالواجب: "تحس بالواجب وطيبة إلى حد أنني – قالت الجدة – أود لو أضربها." تخيلت نفسها تضرب كورنيليا، وتقوم بذلك على أفضل وجه.

"ماذا قلتِ يا أمي"؟

شعرت الجدة بوجهها ينعقد بإحكام.

"أود أن أعلم، أليس بإمكان المرء أن يفكر."

"ظننا أنك قد تريدين شيئاً."

"أريد. أريد أشياء كثيرة. أول شيء: ابتعدي من هنا ولا تهمسي."

استلقت وغلبها النعاس، متمنية وهي نائمة أن يبقى الأطفال في الخارج ويدعوها تستريح لحظة. لقد كان اليوم يوماً طويلاً. ليس أنها تعبت. فمن دواعي السرور دائماً أن تختطف لحظة بين الحين والآخر. هناك دائماً الكثير من الأشياء التي يجب القيام بها، فلأفكر: غداً.

إن الغد بعيد وليس من شيء يستدعي إزعاج نفسها به. فالأشياء تُنجز بشكل ما حين يحين الوقت؛ الحمد لله أن هناك هامشاً صغيراً يبقى للسلام والطمأنينة، إذ إن بإمكان المرء أن ينشر خطة الحياة وأن يكفكف الأطراف بشكل منتظم. من الحسن أن يكون كل شيء نظيفاً ومطوياً ومرفوعاً، وفراشي الشعر وزجاجات العقاقير المنشطة مرتبة على الملاءات البيضاء المطرزة: يبدأ النهار دون جلبة ورفوف حجرة المؤن الممتلئة بصفوف من كؤوس الحلوى الهلامية "الجِلي" وأباريق بنية اللون ومرطبانات بيضاء من الصيني الحجري ذات صحون زرقاء دوّارة وطبعت عليها كلمات: قهوة ، شاي، سكر، زنجبيل، قرفة، فلفل حلو: والساعة البرونزية وقد مسحوا عنها الغبار مسحاً جيداً. يا للغبار الذي يمكن أن تجمعه في أربع وعشرين ساعة! الصندوق في السقيفة بكل ما فيه من رسائل مربوطة، حسن، عليها أن تستعرض ذلك غداً. كل تلك الرسائل – رسائل جورج George ورسائل جون John ورسائلها لكليهما – كونها متروكة هناك لكي يجدها الأطفال جعلها تشعر بالانزعاج. نعم سيكون ذلك شغل الغد. لا فائدة من السماح لهم بمعرفة كم كانت سخيفة ذات مرة.

بينما أخذت تنقب هنا وهناك عثرت على الموت في عقلها وكان ملمسه دبقاً وغريباً. لقد أمضت وقتاً تستعد للموت ما لم يترك من حاجة لطرحه من جديد. فليتولَّ أمر نفسه الآن. حين بلغت الستين شعرت أنها هرمت جداً، انتهت، ومضت تقوم بزيارات وداعية لترى أولادها وأحفادها، وسرّ يكمن في عقلها: هذا آخر عهدكم بأمكم يا أولاد! ثم كتبت وصيتها وأصيبت بحمى طويلة. لقد كان كل ذلك مجرد نزوة مثل الكثير من الأشياء، ولكنه أيضاً كان ضربة حظ، فقد تغلبت على فكرة الموت وانتهت منها لفترة طويلة. لا يمكن لها أن تقلق الآن. إنها تأمل أن يكون عقلها أرجح الآن. لقد عاش والدها ليبلغ سن الثانية بعد المئة وفي آخر عيد ميلاد له شرب كأساً من خمر التودي toddy الحار المركز. وأخبر الصحفيين أن تلك عادته اليومية، وأنه مدين

بحياته الطويلة لها. لقد أثار فضيحة ليست بالصغيرة وسرَّه ذلك سروراً كبيراً. فكرت في أن تقوم بتعذيب كورنيليا بعض الشيء.

"كورنيليا، كورنيليا"! لا وقع أقدام، ولكنْ يدٌ مباغتة على خدها. "ليباركك الله، أين كنت."

"هنا يا أمي."

"إذن كورنيليا، أريد كأساً من التودي الحار."

"هل تشعرين بالبرد يا حبيبتي"؟

"إنني أشعر بالقشعريرة. الاستلقاء في السرير يوقف الدورة الدموية. لا بد أنني قلت ذلك لك ألف مرة."

إنها تستطيع تماماً أن تتخيل كورنيليا وهي تخبر زوجها أن والدتها تتصرف بشكل طفولي بعض الشيء وأن عليهما أن يجارياها. كان أكثر الأشياء إزعاجاً لها أن كورنيليا ظنتها طرشاء وخرساء وعمياء. أُلقيت نظرات صغيرة سريعة وإشارات ضئيلة حولها وفوق رأسها تقول: "لا تغضبها، دعها تفعل ما تشاء، إنها في الثمانين من العمر،" وهي جالسة هناك كما لو أنها تعيش في قفص من الزجاج الرقيق. أحياناً كانت الجدة تكاد أن تصمم أن تحزم حوائجها وتعود إلى بيتها حيث ليس بإمكان أي شخص أن يذكرها كل دقيقة أنها هرمة. انتظري، انتظري ياكورنيليا، إلى أن يهمس أطفالك أنت وراء ظهرك!

في صباها كانت ترتب منزلها بشكل أفضل وكانت تنجز أشياء أكثر. إنها لم تهرم بعد إلى حد يمنع ليديا Lydia من أن تقطع ثمانين ميلاً بسيارتها لتطلب النصيحة حين ينحرف أحد أطفالها عن الطريق، ومازال جيمي Jimmy يأتي ليبحث الأمور معها: "أنت يا أمي ذات عقل تجاري جيد، وأود أن أعرف رأيك في هذا...."؟ هرمة. إن كورنيليا لا تستطيع تغيير ترتيب الأثاث دون سؤال. أشياء صغيرة، أشياء صغيرة! لقد كانوا شديدي العذوبة

حين كانوا صغاراً. تمنت الجدة لو أن الأيام الغابرة تعود من جديد ويعود الأولاد صغاراً وتضطر للقيام بكل شيء مرة أخرى. لقد كان عناء شاقاً، ولكن ليس أشق مما تستطيع تحمله. حين فكرت بكل الطعام الذي طبخته، وكل الملابس التي قصتها وخاطتها، وكل الجنائن التي زرعتها – آه، إن ذلك واضح في الأولاد. هاهم هناك، وقد صُنعوا منها، ولا مهرب لهم من هذه الحقيقة. أحياناً كانت تود أن ترى جون ثانية وأن تشير إليهم وتقول: إذن، لم تكن نتيجة عملي سيئة، أليس كذلك؛ ولكن على ذلك الأمر أن ينتظر. إنه من أمور الغد. اعتادت أن تفكر به كرجل، لكن الآن كل الأولاد أكبر سناً من أبيهم، وسيكون طفلاً إلى جانبها الآن لو تم لها أن تراه. بدا ذلك غريباً، وكان ثمة خطأ في الفكرة. أوه، لا احتمال هناك بأن يتمكن من التعرف عليها. لقد قامت مرة بتسييج أربعمائة ألف متر مربع، وحفرت حفر الأعمدة بنفسها، وثبتت الأسلاك دون أن يساعدها أحد سوى صبي زنجي. إن ذلك يغير المرأة. التنقل فوق الطرق الريفية في الشتاء عند ولادة النساء لأطفالهن كان شيئاً آخر: السهر في الليالي مع الجياد المريضة والزنوج المرضى والأطفال المرضى وتقريباً عدم فقدان أي منها أو منهم قط. جون، إنني تقريباً لم أفقد أياً منهم! سيلحظ جون ذلك في لحظة واحدة، فذلك شيء بإمكانه أن يفهمه، ولن تحتاج لشرح أي شيء!

جعلها ذلك تشعر بالرغبة في أن ترفع أكمامها وأن تصحح وضع المكان بأكمله وترتبه. لا بأس إذا كانت كورنيليا مصممة على أن تكون في كل مكان في نفس اللحظة، فهناك أشياء كثيرة جداً تُركت ولم يقم بها أحد في هذا المكان. ستبدأ غداً وتقوم بها. من الجيد أن يكون لدى المرء القوة الكافية لكل شيء، وحتى ولو ذاب كل شيء تقوم به وانزلق بين يديك. بحيث حين تنتهي تكاد أن تنسى ما هو الشيء الذي كنت تعمل لأجله. ما هو الشيء الذي شرعت في القيام به؟ سألت نفسها بانكباب، ولكنها لم تستطع أن تتذكر. تشكل ضباب فوق الوادي، رأته يسير عبر الجدول ملتهماً الأشجار ومتسلقاً الرابية

مثل جيش من الأشباح. سيصل سريعاً إلى حافة البستان القريبة، وعندئذٍ سيحين وقت الدخول إلى البيت وإشعال المصابيح. ادخلوا أيها الأطفال، لا تبقوا خارجاً حيث هواء الليل.

إشعال المصابيح كان جميلاً. تجمع الأطفال والتصقوا بها وأخذوا يتنفسون كعجول صغيرة تنتظر عند قضبان البوابة وقت الشفق. تابعت أعينهم عود الثقاب وراقبت الشعلة ترتفع وتستقر على شكل قوس أزرق، ثم ابتعدوا عنها. لقد أشعل المصباح، ولم يعد هناك موجب لأن يخافوا ويتعلقوا بأمهم. لم يعد من موجب أبداً، أبداً، أبداً، يا إلهي ، لحياتي كلها أشكرك. بدونك يا إلهي، لم أكن لأستطيع القيام بما قمت به. السلام عليك يا مريم، أيتها المليئة بالحسن.

أريدكم أن تلتقطوا كل الفاكهة هذا العام وأن تنتبهوا أن لا يترك شيء للضياع. هناك دائماً من يستطيع استعمالها. لا تتركوا الأشياء الجيدة تتعفن بسبب عدم الاستعمال. إنكم تضيعون الحياة حين تضيعون الغذاء الجيد. لا تدعوا الأشياء تضيع. إضاعة الأشياء أمر مرّ. لا يجب أن أغرق في التفكير الآن وأنا تعبة وأستمتع بغفوة قصيرة قبل تناول العشاء....

ارتفعت الوسادة حول كتفيها وضغطت على قلبها وأخذت تتعصر منه الذكرى: آه، ليقم شخص بالضغط على الوسادة: ستخنقها إذا حاولت الإمساك بها. يا للنسيم العليل الذي يهب ويا للنهار الأخضر الذي لا إنذارات فيه. ولكنه بالرغم من ذلك لم يأتِ. ماذا تفعل امرأة حين ترتدي الخمار الأبيض وتعد قالب "الكاتو" الأبيض من أجل رجل ولا يأتي ذلك الرجل؟ حاولت أن تتذكر. لا، أقسم أنه لم يسيء إليّ إلا في ذلك. لم يسيء إليّ إلا في ذلك... وماذا لو فعل؟ لقد أتى اليوم، اليوم، ولكن ارتفعت دوامة من الدخان وغطته، زحفت إلى الأعلى وفوق الحقل المشرق حيث زرع كل شيء بعناية في صفوف منتظمة. كان ذلك الجحيم، إنها تعرف الجحيم حين تراه. طوال ستين

سنة كانت تصلي كيلا تتذكره وكيلا تضيع روحها في هوة الجحيم العميقة، والآن اختلط الأمران وأصبحا شيئاً واحداً وكانت ذكراه غمامة دخانية من الجحيم تتحرك وتتسلل إلى عقلها في الوقت الذي تخلصت فيه لتوها من الدكتور هاري وكانت تحاول أن تستريح دقيقة. كبرياء مجروحة يا إلين Ellen، قال صوت حاد في أعلى ذهنها. لا تدعي كبرياءك المجروحة تسيطر عليك. يتعرض الكثير من الفتيات للهجران. لقد هُجِرْتِ، أليس كذلك؟ إذن واجهي الوضع بكفاءة. ارتعش جفناها وتركا أشرطة من النور الرمادي – الأزرق تشبه مناديل الورق تتدلى فوق عينيها. عليها أن تنهض وتنزل الستار وإلا فإنها لن تنام قط. كانت في السرير ثانية ولم يكن الستار مسدلاً. كيف أمكن أن يحدث ذلك؟ الأفضل أن تستدير، أن تختبئ من النور، النوم في النور يسبب الكوابيس. "أمي كيف تشعرين الآن"؟ ورطوبة قارصة على جبينها. لكنني لا أحب أن يغسل وجهي بالماء البارد!

هابسي Hapsy؟ جورج؟ ليديا؟ جيمي؟ لا، بل كورنيليا، وكانت ملامحها منتفخة ومملوءة بالبرك الصغيرة. "سيأتون يا حبيبتي، سيكونون جميعاً هنا في الحال"؟ اذهبي واغسلي وجهك يا طفلتي، إن منظرك مضحك.

بدل أن تطيع، انحنت كورنيليا ووضعت رأسها على الوسادة. كان يبدو أنها تتكلم ولكن لم يكن هناك أي صوت. "أوه، هل أنت مربوطة اللسان؟ عيد ميلاد من هذا؟ هل ستقيمين حفلة"؟

تحرك فم كورنيليا بإلحاح وبأشكال غريبة. "لا تفعلي ذلك. أنت تضايقيني يا ابنتي."

"آه، لا يا أمي، آه، لا ....."

هراء أمر الأولاد عجيب. إنهم يناقشون كل كلمة من كلماتك. "لا ماذا يا كورنيليا"؟

"هاهو الدكتور هاري."

"لن أرى ذلك الصبي من جديد. لقد غادر قبل خمس دقائق فقط."

"كان ذلك في الصباح يا أمي. الوقت الآن هو الليل. ها هي الممرضة."

"أنا الدكتور هاري يا سيدة وذرول. لم أركِ أبداً تبدين شابة وسعيدة بهذا الشكل!"

"آه، إنني لن أعود شابة من جديد – ولكنني سأكون سعيدة إذا تركوني أستلقي بسلام وأحصل على بعض الراحة."

ظنت أنها تكلمت بصوت عالٍ، ولكن لم يجب أحد. ثقل دافئ على جبينها، أسوارة دافئة على معصمها، ونسيم يستمر في الهمس، يحاول أن يخبرها شيئاً ما. تحرك لأوراق الشجر في يد الله الأبدية. نفخ عليها فرقصت وخشخشت. "أماه لا تعيري الأمر التفاتاً، سنقوم بإعطائك حقنة جلدية صغيرة." انتبهي إلي يا ابنتي، كيف يصل النمل إلى هذا السرير؟ لقد رأيت نمل سكر بالأمس." هل استدعيت هابسي أيضاً؟

إن هابسي هي الشخص الذي تريده حقاً. كان عليها أن تعود فتقطع طريقاً طويلة عبر غرف كثيرة جداً لتجد هابسي واقفة تحمل طفلاً على ذراعها. بدت لنفسها أنها هي هابسي أيضاً، والطفل على ذراع هابسي كان هابسي ونفسه ونفسها، الجميع في الوقت نفسه، ولم تكن من مفاجأة في اللقاء. ثم ذابت هابسي من الداخل وغدت شفافة كالشاش الرمادي وغدا الطفل خيالاً من الشاش، واقتربت هابسي وقالت: "ظننت أنك لن تأتي أبداً،" ونظرت إليها نظرة شديدة التفحص وقالت: "إنك لم تتغيري أبداًا!" انحنتا لتقبلا بعضهما حين شرعت كورنيليا تهمس من مسافة بعيدة. "أوه، هل هناك شيء تودين إخباري به؟ هل من شيء يمكنني أن أحضره لك"؟

نعم، لقد غيرت رأيها بعد ستين عاماً وأنها تود أن ترى جورج. أريدك أن تعثري على جورج. اعثري عليه وتأكدي من أن تخبريه أنني نسيته. أريده أن يعرف أنني برغم كل شيء حصلت على زوج وعلى أطفال وبيت

كأية امرأة أخرى. وكان أيضاً بيتاً حسناً وزوجاً خيراً أحببته وأنجبت أطفالاً جيدين منه. حتى أكثر مما أملت به. أخبريه أنه أعيد إليّ كل ما أخذه مني وأكثر. آه، لا ، آه ، يا إلهي لا، كان هناك شيء آخر بالإضافة إلى البيت والرجل والأطفال. آه، بالتأكيد لم يكونوا كل شيء؟ ماذا كان ذلك الشيء؟ شيء لم يُعَد ... ازدحم تنفسها تحت أضلاعها ونمى فغدا شكله مخيفاً مرعباً ذا أطراف حادة، وأخذ يحفر في رأسها، وكان العذاب أكثر من أن يصدّق: نعم يا جون، احضر الطبيب الآن، لا كلام أكثر لقد حان وقتي.

حين يولد هذا يجب أن يكون الأخير. كان يجب أو يولد أولاً، لأنه كان الطفل الذي أرادته حقاً. كل شيء يأتي في حينه. لا يُترك شيء، لا يؤجل شيء. إنها قوية، في مدة ثلاثة أيام ستكون في صحة مثلما كانت في خير أحوالها. تحتاج المرأة إلى حليب داخلها لتحصل على صحتها التامة.

"أمي، هل تسمعيني"؟.

"كنت أخبرك –"

"أمي، الأب كونولي Connolly هنا."

"لقد ذهبت إلى التناول المقدس في الأسبوع الماضي. أخبريه إنني لست آثمة إلى هذا الحد."

"إن الأب يود التحدث معك فقط."

بإمكانه أن يتكلم قدر ما يرضيه. إن من شيمته أن يطل ويستعلم عن روحها كما لو كانت روحها طفل تبرز أسنانه، ثم يبقى لتناول فنجان شاي ويلعب بالورق ويثرثر. دائماً لديه قصة مضحكة من نوع ما، عادة عن رجل إيرلندي يرتكب أخطاء ويعترف بها، والمغزى يكمن في شيء سخيف يتفوه به في الاعتراف مظهراً صراعاته بين التقوى الطبيعية والخطيئة الأولى. كانت الجدة تشعر بالارتياح بالنسبة لروحها. كورنيليا، أين لباقتك؛ أعطِ الأب كونولي كرسياً. إن لديها اتفاقها السري مع بضعة قديسين مفضلين أفسحوا لها طريقاً

مستقيمة تؤدي إلى الله. كل شيء ممهور بالتواقيع ومختوم بشكل مضمون مثل الأرض الجديدة. إلى الأبد ... ورثة وأشخاص ذوي مخصصات إلى الأبد. منذ اليوم الذي لم يقطع فيه قالب "كاتو" الزفاف، بل ألقي في القمامة. سقط القعر بأكمله من العالم، وهناك كانت عمياء ومتعرقة ولا شيء تحت قدميها والجدران تتساقط. أمسكت يده بها تحت ثديها ولم تقع، وكانت هناك الأرض الملمعة حديثاً وعليها البساط الأخضر، تماماً مثل السابق. أخذ يصب اللعنات مثل ببغاء بحّار وقال: "سأقتله من أجلك." لا تلق يداً عليه، من أجل خاطري اترك شيئاً لله. "الآن يا إلين، عليك أن تصدقي ما سوف أخبرك به."

وهكذا لم يبقَ شيء، لا شيء يستوجب القلق بعد ذلك، ما عدا أحياناً في الليل يصرخ أحد الأطفال في حلم مزعج، ويخرج كل منهما مسرعاً يرتجفان ويبحثان عن الكبريت ويناديان: "انتظر لحظة، هانحن هنا!" جون، احضر الطبيب الآن، لقد حان وقت هابسي. ولكن هاهي هابسي تقف إلى جانب السرير مرتدية قبعة بيضاء. "كورنيليا، قولي لهابسي أن تخلع قبعتها. لا أستطيع رؤيتها بوضوح."

فُتحت عيناها فتحة كاملة وظهرت الغرفة مثل صورة رأتها في مكان ما في الماضي. ألوان قاتمة وظلال ترتفع نحو السقف في زوايا طويلة. وَمَضَ دولاب الزينة الطويل وليس عليه شيء سوى صورة جون، مكبرة من صورة صغيرة، وعينا جون فيها شديدتا السواد في حين يجب أن تكونا زرقاوين. إنك لم تره أبداً، إذن كيف تعرف شكله؟ لكن الرجل أصر أن النسخة تتسم بالكمال، وهي غنية ووسيمة جداً. كصورة، نعم، ولكنها ليست زوجي. كان على الطاولة بجانب السرير غطاء كتاني وشمعة وصليب. كان النور أزرق من أغطية مصابيح كورنيليا الحريرية. ليس نوراً بالمعنى الصحيح على الإطلاق، مجرد بهرجة. إنَّ عليك أن تعيش أربعين عاماً مع مصابيح الكاز لكي تقدر الكهرباء الصافية حق قدرها. شعرت أنها قوية جداً ورأت الدكتور هاري وهالةً ورديةً حوله.

"إنك لتبدو مثل قديس يا دكتور هاري، وأقسم أن هذا أقرب ما ستتوصل إليه من القداسة."

"إنها تقول شيئاً."

"لقد سمعتك ياكورنيليا. ما هذا الذي يجري هنا"؟

"الأب كونولي يقول –"

ترنح صوت كورنيليا وقفز مثل عربة في طريق وعرة. سار حول الزوايا وأقفل عائداً من جديد ولم يصل إلى أي مكان. وقفت الجدة في العربة بخفة شديدة ومدت يدها نحو اللجامين، لكن رجلاً جلس إلى جانبها واستطاعت أن تعرفه من يديه وكان يقود العربة. لم تنظر إلى وجهه، فقد عرفت دون أن تنظر، ولكنها بدلاً من ذلك نظرت إلى الطريق حيث مالت الأشجار وانحنت لبعضها البعض وكانت آلاف الأطيار تغني قداساً. شعرت برغبة في أن تغني هي أيضاً، لكنها وضعت يدها في صدر ثوبها وأخرجت مسبحة، وتمتم الأب كولوني باللاتينية بصوت شديد الوقار ودغدغ قدميها. يا إلهي، هلا توقفت عن هذا الهراء؟ إنني امرأة متزوجة ماذا إذا هرب حقاً وتركني أواجه القسيس وحدي؟ لقد وجدت آخر أفضل بكثير. لم أكن أستبدل زوجي بأي شخص سوى القديس مايكل نفسه، وبإمكانك إخباره ذلك مع شكراً مضافة إلى الرسالة.

لمع النور على أجفانها المطبقة، وهزها زئير عميق. كورنيليا، هل هذا برق؟ إنني أسمع الرعد. ستكون هناك عاصفة. أغلقي النوافذ. نادي الأطفال ليدخلوا ... "أماه، ها نحن هنا، جميعاً." "أهذه أنت يا هابسي؟" "أوه كلا ، أنا ليديا. لقد أتينا بأسرع ما يمكن." طافت وجوههم فوقها، وسبحت مبتعدة. سقطت المسبحة من يدها وأعادتها ليديا. حاول جيمي المساعدة، وتعثرت أيديهما ببعضهما، وأطبقت الجدة إصبعين على إبهام جيمي. حبات المسبحة لا تصلح، يجب أن يكون شيء حي. تعجبت حقاً أن أفكارها تدور وتدور. إذن، يا ربي الحبيب، لم يحن الوقت. آه، كنت دائماً أكره المفاجآت. لقد أردت أن أهدي

كورنيليا الطقم الأرجواني –كورنيليا، خذي أنت الطقم الأرجواني، ولكن لتلبسه هابسي كلما أرادت، وأنت يا دكتور هاري، اخرس، لم يرسل أحد في طلبك. آه يا ربي الحبيب، انتظر دقيقة. لقد نويت أن أفعل شيئاً بالنسبة للأرض الجديدة، ليس جيمي بحاجة لها وستحتاجها ليديا فيما بعد، مع ذلك الزوج التافه الذي تزوجته. لقد أردت أن أنهي قماش المذبح وأن أرسل ست زجاجات نبيذ للأخت بورجيا Borgia من أجل سوء الهضم الذي تعانيه. أريد أن أرسل ست زجاجات نبيذ للأخت بورجيا يا أب كونولي، لا تدعني أنسى.

قام صوت كورنيليا بدورات صغيرة ومال إلى الجانب وتحطم. "آه، أمي، آه، أمي ، آه أمي...."

"لست ذاهبة يا كورنيليا. لقد فوجئت. لا أستطيع الذهاب."

سترين من جديد. ماذا بشأنها؟ "ظننتك لن تأتي أبداً." قامت الجدة لرحلة طويلة خارجاً، تبحث عن هابسي. ماذا إذا لم أجدها؟ ماذا عند ذلك؟ غرق قلبها إلى الأسفل والأسفل، لم يكن هناك قاع للموت، لم تستطع الوصول إلى نهايته. تحول الضوء الأزرق المنبعث من غطاء مصباح كورنيليا إلى نقطة ضئيلة في مركز دماغها واضطرب وغمز وترجرج بهدوء وخبا. استلقت الجدة متكورة داخل نفسها، مندهشة مراقبة، تحدق في نقطة الضوء التي كانت ذاتها! كان جسدها الآن مجرد كتلة أكثر سواداً من الظل في عتمة غير متناهية، وهذه العتمة تلتف حول الضوء وتبتلعه. يا إلهي، أعطِ إشارة.

للمرة الثانية لم تكن هناك إشارة. مرة ثانية لا عريس ولا قسيس في المنزل.[١] لم تستطع تذكر أي حزن آخر لأن هذا الأسى مسحها جميعاً. آه، كلا، ليس هناك شيء أقسى من هذا – لن أغفر ذلك أبداً. مدّت نفسها بنفس عميق وأطفأت النور.

---

(١) قارن هذه الجملة مع قصة المسيح عن العريس (في ماتيو، ٢٥ : ١-١٣).

شيرلي جاكسون

اليانصيب(١)

ولدت شيرلي جاكسون عام ١٩١٦ في سان فرانسيسكو وتوفيت عام ١٩٦٥. وقد تمتعت بشعبية كبيرة في حياتها، ثم بدأ اهتمام النقاد بها كشخصية أدبية هامة يزداد في السنوات الأخيرة. وقد تكون قصة "اليانصيب" أشهر أعمالها، فقد أثارت ردود فعل عنيفة لدى القراء، منها السلبي الذي وصل إلى حد إلغاء بعض القراء اشتراكاتهم في مجلة **النيويوركر**، التي كان لها السبق في نشر القصة. وكانت جاكسون ترفض باستمرار إجراء المقابلات أو تفسير أعمالها أو الترويج لها. وقد نشرت جاكسون روايتها الأولى، **الطريق عبر الجدار** *The Road Through the Wall*، في العام نفسه الذي نُشِرت فيه هذه القصة.

كان صباح السابع والعشرين من تموز صافياً ومشمساً، يتمتع بالدفء العذب الذي يتصف به اليوم الصيفي الكامل؛ كانت الأزهار تزدهر بوفرة وكان العشب أخضر صارخاً. بدأ أهالي القرية بتجمعون في الساحة، بين

---

(١) هذه ترجمة قصة "The Lottery" للكاتبة Shirley Jackson. والقصة نشرت للمرة الأولى عام ١٩٤٨ في مجلة **النيويوركر** *The New Yorker*. كما نشرت في كتاب:

The Norton Anthology of Short Fiction. Third Edition. R. V. Cassill, ed. New York: W. W. Norton & Co., 1978. Pp. 668-675.

مكتب البريد والمصرف، حوالي الساعة العاشرة؛ في بعض البلدات كان عدد الأشخاص كبيراً إلى درجة أن اليانصيب يستغرق يومين ومن الضروري أن يبدأ في السادس والعشرين، ولكن في هذه القرية التي لم يزد عدد سكانها عن ثلاثمئة شخص، لم يتطلب اليانصيب بأكمله أكثر من ساعتين، وبذلك كان يمكن بدؤه في العاشرة صباحاً والانتهاء في وقت يتيح لأهل القرية أن يكونوا في بيوتهم لتناول الغداء عند الظهر.

تجمع الأطفال أولاً، بالطبع. كانت الإجازة الصيفية قد بدأت قبل فترة وجيزة، وكان الشعور بالحرية يقبع بصورة غير مريحة على صدور معظمهم؛ كانوا ينزعون للتجمع معاً بهدوء لفترة من الزمن قبل أن ينطلقوا في اللعب الصاخب، وكانت أحاديثهم لا تزال تدور عن الصف والمدرِّسة، عن الكتب والتأنيب. كان بوبي مارتن Bobby Martin قد ملأ جيوبه بالحجارة، وسرعان ما اقتدى الصبية الآخرون به ، مختارين أنعم الأحجار وأكثرها استدارة، وتدريجياً، صنع بوبي وهاري جونز Harry Jones وديكي ديلاكروا Dickie Delacroix – كان أهل القرية ينطقون الاسم: ديلاكروي – كومة كبيرة من الحجارة في إحدى الزوايا وحرسوها من غارات الصبية الآخرين. وقفت البنات جانباً، يتحدثن معاً، وينظرن من فوق أكتافهن إلى الصبيان، وتمرغ الأطفال الصغار جداً في الغبار أو تمسكوا بأيدي إخوتهم أو أخواتهم الأكبر سناً.

سرعان ما بدأ الرجال بالتجمع، يراقبون أولادهم ويتحدثون عن الزراعة والمطر، والتراكتورات والضرائب. وقفوا معاً، بعيداً عن كوم الأحجار الموجود في الزاوية، وكانت نكاتهم هادئة وابتسموا بدل أن يضحكوا. وأتت النساء بعد رجالهن بقليل وهن يرتدين فساتين وسترات منزلية باهتة. حيّت كل منهن الأخرى وتناقلن بعض الشائعات وهن يتجهن للانضمام إلى أزواجهن. وسرعان ما بدأت النساء، الواقفات بجانب أزواجهن، ينادين أولادهن، وتوافد الأولاد بشيء من الممانعة، بعد أن تكرر النداء أربع مرات

أو خمس. انحنى بوبي مارتن تحت يد أمه التي تريد الإمساك به وجرى عائداً إلى كومة الأحجار. تكلم والده بحدة، وأتى بوبي بسرعة واتخذ مكانه بين أبيه وأخيه الأكبر منه سناً. كان السيد سَمَرز Summers، الذي يتوفر له وقت وطاقة يكرسهما للنشاطات المدنية، هو الذي يدير اليانصيب، كما كان يدير رقصات الساحة ونادي المراهقين وبرنامج عيد جميع القديسين. كان رجلاً مستدير الوجه مرحاً، وهو صاحب شركة الفحم، وكان الناس يأسفون لحاله، إذ لم يكن له أولاد وزوجته سليطة. وحين وصل إلى الساحة حاملاً الصندوق الخشبي الأسود، بدأ أهل القرية يتحدثون بأصوات منخفضة، ولوح لهم وصاح: "تأخرنا قليلاً اليوم، أيها الأصحاب." تبعه مدير البريد، السيد غريفز Graves، وهو يحمل كرسياً بثلاثة أرجل، ووُضِع الكرسي في وسط الساحة ووَضع السيد سمرز الصندوق الأسود عليه. حافظ أهل القرية على ابتعادهم، تاركين مسافة بينهم وبين المقعد، وحين قال السيد سمرز: "أيريد بعضكم يا أصحاب أن يمد لي يد المساعدة؟" حصل شيء من التردد قبل أن يتقدم السيد مارتن وابنه الأكبر باكستر Baxter ليمسكا بالصندوق ويثبتاه فوق المقعد أثناء قيام السيد سمرز بتحريك الأوراق داخله.

كانت أدوات اليانصيب الأصلية قد ضاعت منذ زمن طويل، والصندوق الأسود الموضوع فوق الكرسي الآن بدأ استعماله حتى قبل ولادة العجوز وارنر Warner، أكبر رجال البلدة سناً. وقد فاتح السيد سمرز أهالي القرية مرات متكررة حول صندوق جديد، لكن لم يود أحد أن يُفسِد تقليداً قديماً ولو بمقدار ما يمثله الصندوق الأسود. كانوا يتداولون قصة مفادها أن الصندوق الحالي صُنِع باستخدام بعض القطع من الصندوق الذي سبقه، والذي تم صنعه حين استقر أول أشخاص لتأسيس قرية هنا. في كل عام، بعد اليانصيب، كان السيد سمرز يبدأ الحديث مرة أخرى عن صندوق جديد، لكن كل عام كانت المسألة تهمل إلى أن تضمحل دون فعل أي شيء. وبدا الصندوق الأسود بالياً بدرجة تزداد كل عام، فالآن لم يعد أسود كلياً، بل مكسّراً بشكل سيء من أحد

جوانبه بحيث يظهر لون الخشب الأصلي، وفي أماكن أخرى كان باهتاً أو ملطخاً بالبقع.

ثبّت السيد مارتن وأكبر أبنائه باكستر الصندوق على المقعد إلى أن انتهى السيد سمرز من تحريك الأوراق بيده بمنتهى الدقة. ولأنّ جزءاً كبيراً من الطقس قد نُسي أو أُهمل، فقد نجح السيد سمرز باستبدال قطع من الورق لتحل محل الرقاقات الخشبية التي استعملتها أجيال عدة. وقد ساق السيد سمرز حجة أن الرقاقات الخشبية كانت مناسبة جداً حين كانت القرية شديدة الصغر، ولكن الآن بعد أن ازداد عدد السكان عن ثلاثمائة ومن المرجح أن ينمو عددهم باضطراد، أصبح من الضروري استخدام شيء يتسع الصندوق الأسود له بسهولة. وفي الليلة التي تسبق اليانصيب، كان السيد سمرز والسيد غريفز يحضران قطع الورق ويضعانها في الصندوق، الذي يؤخذ بعد ذلك ويودع في خزنة شركة الفحم التي يملكها السيد سمرز ويقفل عليه، إلى أن يكون السيد سمرز جاهزاً لأخذه إلى الساحة في الصباح التالي. وفي باقي أيام السنة، كان الصندوق يودع، أحياناً في مكان معين، وأحياناً في مكان آخر، وقد أمضى أحد الأعوام في حظيرة السيد غريفز، وعاماً آخر تحت الأقدام في مكتب البريد، وأحياناً كان يوضع فوق رف في بقالية السيد مارتن ويترك هناك.

كان هناك مقدار كبير من التفاصيل الصغيرة التي ينبغي الالتزام بها قبل أن يعلن السيد سمرز افتتاح اليانصيب. فهناك القوائم التي تتطلب الإعداد: لرؤساء العائلات، وأرباب الأسر في كل عائلة، وأفراد كل أسرة في كل عائلة. كما كان هناك أداء السيد سمرز القسم على النحو الصحيح، بصفته مسؤول اليانصيب، أمام السيد غريفز، وتذكر البعض أنه في مرحلة ما كانت هناك تلاوة من نوع ما، يلقيها مسؤول اليانصيب ، وهي عبارة عن نشيد روتيني بلا لحن، يتلى بسرعة وكما ينبغي كل عام، واعتقد البعض أن مسؤول اليانصيب اعتاد أن يقف بطريقة معينة حين يقول النشيد أو يغنيه،

واعتقد آخرون أنه كان من المفترض أن يسير بين الناس، ولكن قبل سنوات كثيرة جداً أتيح لهذا الجزء من الطقس أن يسقط. كما كانت تجري تحية طقسية، كان على مسؤول اليانصيب أن يؤديها عند مخاطبة كل شخص يأتي ليسحب من الصندوق، لكن هذا أيضاً تغير مع الوقت، ومع ذلك فالشعور السائد إلى الآن هو أنه من الضروري أن يتكلم المسؤول مع كل شخص يقترب. وكان السيد سمرز يتقن هذا كله؛ في قميصه الأبيض النظيف وبنطاله الجينز الأزرق، وبإحدى يديه موضوعة بلا مبالاة على الصندوق الأسود، بدا لائقاً ومهماً جداً وهو يتكلم بلا توقف مع السيد غريفز والسيد مارتن وابنه.

تماماً عندما توقف السيد سمرز عن الحديث والتفت إلى القرويين المتجمعين، جاءت السيدة هتشنسون Hutchinson مسرعة فوق ممر الساحة، وسترتها مرمية فوق كتفها، وانسلت إلى مكانها في مؤخرة الحشد. قالت مخاطبة السيدة ديلاكروا الواقفة إلى جانبها: "نسيت تماماً أي يوم هذا،" وضحكتا كلتاهما بصوت خافت. تابعت السيدة هتشنسون: "ظننت أن زوجي خلف البيت يرتب كوم الحطب، ثم نظرت من النافذة ووجدت أن الأولاد غير موجودين، وعند ذلك تذكرت أن اليوم هو السابع والعشرين وأتيت راكضة." جففت يديها بمئزرها، وقالت السيدة ديلاكروا: "ومع ذلك لم تصلي متأخرة، فهم لا يزالون يتحدثون هناك."

لوت السيدة هتشنسون عنقها كي ترى من خلال الحشد ووجدت زوجها وأولادها واقفين في الأمام. ربتت على ذراع السيدة ديلاكروا كإشارة توديع وبدأت تشق طريقها عبر الحشد. تباعد الناس بروح طيبة ليتيحوا لها المرور، وقال شخصان أو ثلاثة بصوت عال بما يكفي لكي يسمعه المحتشدون: "ها هي زوجتك قادمة يا هتشنسون،" و"يا بيل Bill، لقد تمكنتْ أخيراً من الوصول." وصلت السيدة هتشنسون إلى زوجها، وقال السيد سمرز، الذي كان ينتظر، بروح مرحة: "ظننت أننا سنضطر إلى البدء بدونك يا تيسي Tessie." قالت السيدة هتشنسون وهي تبتسم: "لا تريد مني أن أترك صحوني في

المجلى، أليس كذلك يا جو Joe؟" وانتشر بين الحشد ضحك خافت بينما كان الناس يعودون إلى وضعهم بعد وصول السيدة هتشنسون.

قال السيد سمرز برزانة: "حسن، أعتقد الآن أن من الأفضل أن نبدأ، وننتهي من هذا الأمر، كي نستطيع العودة إلى عملنا. هل هناك أي شخص غائب؟"

قال عدة أشخاص: "دنبار، دنبار، دنبار."

تفحص السيد سمرز قائمته، وقال: "كلايد دنبار Clyde Dunbar، هذا صحيح. لقد كسر رجله، أليس كذلك؟ من سيسحب نيابة عنه؟"

قالت امرأة: "أنا على ما أعتقد،" والتفت السيد سمرز ليراها. قال: "زوجة تسحب بالنيابة عن زوجها. أليس لديك فتى بالغ يقوم بذلك نيابة عنك يا جيني Janey؟" على الرغم من أن السيد سمرز وكل شخص آخر في القرية كان يعرف الجواب معرفة تامة، فقد كانت مهمة مسؤول اليانصيب أن يسأل مثل هذه الأسئلة بشكل رسمي. انتظر السيد سمرز وعلى وجهه تعبير بالاهتمام المهذب أثناء قيام السيدة دنبار بالإجابة.

قالت السيدة دنبار بأسف: "هوراس Horace لم يبلغ السادسة عشرة بعد. أعتقد أن علي أن أنوب عن رجلي هذا العام."

"صحيح،" قال السيد سمرز. كتب ملاحظة على القائمة التي يمسك بها. ثم سأل: "هل الصبي واتسون Watson سيسحب هذا العام؟"

رفع فتى طويل من بين الحشد يده، وقال: "هنا. أنا سأسحب عن أمي وعني." وطرف بعينيه بعصبية وحنى رأسه بينما تعالت عدة أصوات بين الحشد تقول أشياء مثل: "فتى طيب، يا جاك Jack،" و"يسرني أن لدى والدتك رجل يقوم بالمهمة."

قال السيد سمرز: "إذن أعتقد أن الجميع قد شملوا. هل تمكن العجوز وارنر من القدوم؟"

"هنا،" قال صوت من الأصوات، وهز السيد سمرز رأسه إيجاباً.

خيم على الحشد سكوت مفاجئ بينما تنحنح السيد سمرز ونظر إلى قائمته. ثم صاح: "الجميع مستعدون؟ الآن سأقرأ الأسماء، بدءاً برؤوس العائلات، وعلى الرجال أن يأتوا ويأخذوا ورقة من الصندوق. احتفظوا بالورقة مطوية في أيديكم دون النظر إليها إلى أن يأخذ كل رجل دوره. كل شيء واضح؟"

لقد قام الناس بهذا الأمر مرات عديدة جداً إلى درجة أنهم أصغوا نصف إصغاء للتعليمات، وكان معظمهم هادئاً، يبللون شفاههم وينظرون حولهم. ثم رفع السيد سمرز إحدى يديه عالياً وقال: "آدامز Adams." ترك أحد الرجال الحشد وتقدم. قال له السيد سمرز، "مرحباً يا ستيف Steve" وقال السيد آدامز: "مرحبا يا جو." ابتسما احدهما للآخر بدون روح مرحة وبعصبية. ثم مد السيد آدامز يده داخل الصندوق الأسود وأخرج ورقة مطوية. أمسك بها بقوة من إحدى زواياها وأسرع عائداً إلى مكانه بين الآخرين، حيث وقف على بعد قليل من عائلته، دون أن ينظر إلى الورقة.

قال السيد سمرز: "ألن Allen. أندرسون Anderson.... بنثام Bentham."

قالت السيدة ديلاكروا للسيدة غريفز في الصف الخلفي: "يبدو وكأنه لم يعد هناك وقت بين أيام اليانصيب. يبدو وكأننا انتهينا من اليانصيب السابق الأسبوع الماضي."

قالت السيدة غريفز: "من المؤكد أن الوقت يجري بسرعة."

"كلارك Clark.... ديلاكروا."

"ها هو زوجي يأخذ دوره،" قالت السيدة ديلاكروا، وحبست أنفاسها بينما تقدم زوجها إلى الأمام.

قال السيد سمرز: "دنبار،" وتقدمت السيدة دنبار بثبات نحو الصندوق بينما قالت إحدى النساء: "استمري يا جيني،" وقالت أخرى: "ها هي تتقدم."

قالت السيدة غريفز: "نحن بعدها. راقبت السيد غريفز وهو يدور من جانب الصندوق، ويحيي السيد سمرز بوقار، ويختار قطعة ورق من الصندوق. والآن أصبح هناك بين الحشد رجال يمسكون الورقات المطوية بأيديهم الضخمة، ويقلبونها المرة تلو المرة بعصبية. وكانت السيدة دنبار وأبناءها يقفون معاً، وهي تمسك الورقة.

"هاربرت Harburt.... هتشنسون."

قالت السيدة هتشنسون: "تقدم يا بيل،" وضحك الأشخاص القريبين منها.

"جونز Jones."

قال السيد آدامز مخاطباً وارنر العجوز الواقف بجانبه: "يقولون إنهم في القرية الشمالية يتحدثون عن إلغاء اليانصيب."

أطلق العجوز وارنر صوتاً كالشخير، وقال: "عصبة من الحمقى المجانين. يصغون إلى الشباب، الذين لا يعجبهم شيء. والشيء التالي هو أنهم سيريدون العودة للعيش في الكهوف، ولا أحد يعمل بعد ذلك، يعيشون بتلك الطريقة لفترة. كان هناك مثل يقول: 'يانصيب في حزيران، وسرعان ما سيكون محصول الذرة وفيراً.' وأول شيء كما تعرف هو أننا جميعاً سنأكل عشب الطير وجوز البلوط المسلوقين. **دائماً** كان اليانصيب موجوداً،" أضاف بلهجة مشاكسة. "ألا يكفينا سوءاً أن جو سمرز واقف هناك يمازح الجميع؟"

قالت السيدة آدامز: "بعض الأماكن ألغت اليانصيب فعلاً."

قال العجوز وارنر بعناد: "ليس في **ذلك** سوى المتاعب. عصبة من الحمقى الصغار."

"مارتن." وراقب بوبي مارتن أباه يمضي قدماً. "أوفردايك Overdyke.... بيرسي Percy."

قالت السيدة دنبار لابنها: "ليتهم يسرعون. ليتهم يسرعون."

قال ابنها: "لقد أوشكوا على الانتهاء."

قالت السيدة دنبار: "استعد لتجري إلى والدك وتخبره."

نادى السيد سمرز اسمه ثم خطا إلى الأمام بدقة واختار ورقة من الصندوق. ثم نادى: "وارنر."

قال العجوز وارنر وهو يمضي بين المحتشدين: "لقد شاركت في اليانصيب سبعة وسبعين سنة. هذه هي المرة السابعة والسبعين."

"واتسون." تقدم الصبي الطويل بارتباك عبر الحشد، وقال أحدهم: "لا تتوتر يا جاك،" وقال السيد سمرز: "لا تتعجل يا بني."

"زانيني Zanini."

تلا ذلك توقف مؤقت، توقف حبست فيه الأنفاس، إلى أن قال السيد سمرز وهو يرفع يده بورقته: "حسن يا أصحاب." مرت دقيقة دون أن يتحرك أحد، ثم فُتحت الأوراق. وفجأة بدأت جميع النساء يتحدثن في وقت واحد، ويقلن: "من هو؟،" و"من يحملها؟،" و"هل عائلة دنبار؟،" و"هل عائلة واتسون؟" ثم بدأت الأصوات تقول: "عائلة هتشنسون. الورقة مع بيل هتشنسون."

قالت السيدة دنبار لأكبر أبنائها: "اذهب وأخبر أباك."

بدأ الناس يتلفتون ليروا عائلة هتشنسون. كان بيل هتشنسون يقف هادئاً يحدق بالورقة في يده. فجأة، صاحت تيسي هتشنسون مخاطبة السيد سمرز: "أنت لم تعطه وقتاً كافياً ليختار الورقة التي يريدها. لقد رأيتك. وهذا غير منصف."

صاحت السيدة ديلاكروا: "تمتعي بروح رياضية يا تيسي،" وقالت السيدة غريفز: "جميعنا أخذنا الفرصة نفسها."

قال بيل هتشنسون: "اخرسي يا تيسي."

قال السيد سمرز: "إذن لقد تم هذا بسرعة جيدة، وعلينا الآن أن نسرع أكثر قليلاً لكي ننتهي في الوقت المناسب." تفحص قائمته الثانية. قال: "بيل، أنت تسحب لعائلة هتشنسون. هل هناك أسرة أخرى في عائلة هتشنسون."

صرخت السيدة هتشنسون: "يوجد دون Don وإيفا Eva. اجعلهما يأخذان فرصتهما!"

قال السيد سمرز بلطف: "البنات يسحبن مع عائلات أزواجهن، يا تيسي. أنت تعرفين هذا كما يعرفه الجميع."

"لم يكن الأمر **منصفاً**."

قال بيل هتشنسون بلهجة آسفة: "أعتقد أنه لا يوجد يا جو. ابنتي تسحب مع عائلة زوجها، وهذا هو الإنصاف. وليس لدي عائلة أخرى سوى الأطفال."

قال السيد سمرز شارحاً: "إذن فيما يتعلق بالسحب للعائلات، فهذا أنتم، وفيما يتعلق بالسحب للأسر، فهذا أنتم أيضاً. صحيح؟"

قال بيل هتشنسون: "صحيح."

سأل السيد سمرز بشكل رسمي: "كم عدد الأطفال يا بيل؟"

قال بيل هتشنسون: "ثلاثة، وهم بيل الابن ونانسي Nancy وديف Dave الصغير. وأنا وتيسي."

قال السيد سمرز: "حسن إذن. هل أعدت أوراقهم يا هاري؟"

هز السيد غريفز رأسه بالإيجاب ورفع يده الممسكة بقطع الورق. قال السيد سمرز وجّهاً: "ضعها في الصندوق إذن. خذ ورقة بيل وضعها في الصندوق."

قالت السيدة هتشنسون بكل ما استطاعته من هدوء: "أعتقد أنه ينبغي أن نبدأ من جديد. فأنا أقول لكم إن الأمر لم يكن **منصفاً**. لم تعطه وقتاً كافياً للاختيار. **الجميع** شاهدوا ذلك."

كان السيد غريفز قد اختار الأوراق الخمس ووضعها في الصندوق، وألقى بكل الأوراق الأخرى على الأرض، حيث أدركها النسيم ورفعها وابتعد بها.

كانت السيدة هتشنسون تقول للأشخاص المحيطين بها: "اسمعوا جميعاً."

سال السيد سمرز: "أأنت جاهز يا بيل،" وهز بيل هتشنسون رأسه بالإيجاب وهو يلقي نظرة سريعة على زوجته وأولاده."

قال السيد سمرز: "تذكروا: خذوا الأوراق وأبقوها مطوية إلى أن يسحب كل واحد ورقة. هاري، ساعد ديف الصغير." أمسك السيد غريفز بيد الصبي الصغير، الذي أتى طوعاً معه إلى الصندوق. قال السيد سمرز: "خذ ورقة من الصندوق يا ديف." وضع ديف يده في الصندوق وضحك. قال السيد سمرز: "لا تأخذ سوى ورقة **واحدة**. هاري، أمسكها نيابة عنه." أمسك السيد غريفز بيد الطفل ونزع الورقة المطوية من قبضة ديف، في حين وقف ديف الصغير إلى جانبه ورفع بصره لينظر إليه متعجباً.

قال السيد سمرز: "بعده نانسي." كانت نانسي في الثانية عشرة، وتنفس أصدقاؤها في المدرسة تنفساً ثقيلاً أثناء تقدمها، وهي تحرك تنورتها، ثم وهي تتناول قطعة ورق بأناقة من الصندوق. قال السيد سمرز: "بيل الابن، وكاد بيلي – وجهه أحمر وقدماه أكبر من المعتاد – أن يوقع الصندوق وهو يخرج الورقة. قال السيد سمرز: "تيسي." ترددت لدقيقة، وهي تنظر حولها بتحد، ثم ضمت شفتيها وتقدمت نحو الصندوق. اختطفت ورقة منه وأمسكت بها وراء ظهرها.

قال السيد سمرز: "بيل،" ومد بيل هتشنسون يده إلى الصندوق وبحث فيه ثم أخرج يده أخيراً ممسكاً بقطعة الورق.

كان الحشد هادئاً. همست فتاة: "آمل ألا تكون نانسي،" ووصل صوت الهمسة إلى طرف الحشد.

قال العجوز وارنر بوضوح: "لم تكن الأمور تجري بهذه الطريقة. والناس ليسوا كما كانوا من قبل."

قال السيد سمرز: "حسن. افتحوا الأوراق. هاري، افتح أنت ورقة ديف الصغير."

فتح السيد غريفز الورقة وسرت بين الحشد تنهيدة عامة وهو يرفعها بيده ويرى الجميع أنها فارغة. فتحت نانسي وبيل الابن ورقتيهما في الوقت نفسه، وكلاهما أشرقا وضحكا، وتجولا بين الحشد وورقتيهما فوق رأسيهما.

قال السيد سمرز: "تيسي." حدث توقف، وعندها نظر السيد سمرز إلى بيل هتشنسون، وفتح بيل ورقته وأظهرها. كانت فارغة.

قال السيد سمرز بصوت مكبوت: "الخيار وقع على تيسي. أرنا ورقتها يا بيل."

توجه بيل هتشنسون إلى زوجته وانتزع من يدها قطعة الورق. كانت عليها بقعة سوداء، البقعة السوداء التي رسمها السيد سمرز في الليلة الماضية بقلم الرصاص الغامق في مكتب شركة الفحم. رفعها بيل هتشنسون وحدث اهتياج بين المحتشدين.

قال السيد سمرز: "حسناً يا أصحاب، فلننته بسرعة."

على الرغم من أن أهل القرية نسوا الطقس وفقدوا الصندوق الأسود الأصلي، فهم لا زالوا يتذكرون أن يستعملوا الحجارة. كان كوم الأحجار الذي أعده الصبيان من قبل جاهزاً، وكانت توجد أحجار على الأرض ومعها قطع الورق الطائرة التي خرجت من الصندوق. اختارت السيدة ديلاكروا حجراً كبيراً إلى درجة أنها اضطرت إلى رفعه بكلتا يديها والتفتت إلى السيدة دنبار، وقالت: "هيا، استعجلي."

كانت السيدة دنبار تمسك بحجارة صغيرة في كلتا يديها، وقالت وهي تلهث منقطعة النفس: "لا أستطيع الجري على الإطلاق. عليك أن تسبقيني وسألحق بك."

كان الأطفال يمسكون أحجاراً، وأعطى أحد الأشخاص ديف هتشنسون الصغير بعض الحصى.

كانت تيسي هتشنسون الآن في وسط مساحة مفرّغة، ومدت يديها بحركة يائسة بينما كان القرويون يقتربون منها. قالت: "الأمر ليس منصفاً." ضربها حجر على جانب رأسها.

كان العجوز وارنر يقول: "هيا، هيا جميعاً." وكان ستيف آدامز في مقدمة جمهور القرويين، وبجانبه السيدة غريفز.

صرخت السيدة هتشنسون: "الأمر ليس منصفا، ليس صحيحاً،" وبعد ذلك هجموا عليها.

شيرلي جاكسون

الشر المحتمل[١]

هذه آخر قصة نشرت لشيرلي جاكسون، وكان ذلك في عام ١٩٦٥، وجاء نشرها بعد وفاة الكاتبة ببضعة شهور. وحازت القصة على جائزة إدغار ألن بو لأفضل قصة قصيرة من قصص الغموض لعام ١٩٦٦.

سارت الآنسة أديلا سترينجورث Adela Strangeworth رشيقة وصغيرة الحجم في الشارع الرئيسي[٢] في طريقها إلى البقالية. كانت الشمس مشرقة والهواء عليل وصاف بعد مطر الليل الغزير، وبدا كل شيء في بلدة الآنسة سترينجورث مغسولاً ومشرقاً. أخذت الآنسة سترينجورث تتنفس أنفاساً عميقة وفكرت أنه لا شيء في الدنيا يعادل يوماً صيفياً عطِراً.

كانت تعرف جميع من في البلدة بالطبع؛ كانت مغرمة بإخبار الغرباء – السائحين الذين يمرون عبر المدينة ويتوقفون لتأمل ورود الآنسة سترينجورث

---

(١) هذه ترجمة قصة "The Possibility of Evil" للكاتبة Shirley Jackson. والترجمة الدقيقة للعنوان هي "إمكانية (أو احتمال) الشر." والقصة نشرت في مجلة ساترداي إيفنينغ بوست *Saturday Evening Post* عام ١٩٦٥، ثم في المجموعة القصصية **مجرد يوم عادي** *Just an Ordinary Day* (١٩٦٦).

(٢) Main Street ، وهو اسم شائع في الولايات المتحدة، ففي مدن وبلدات كثيرة يطلق هذا الاسم على أهم شارع أو أحد أهم الشوارع في البلدة.

والإعجاب بها – إنها لم تمض أكثر من يوم واحد قط خارج تلك البلدة في حياتها الطويلة. قالت الآنسة سترينجورث للسائحين إنها في الحادية والسبعين، وفي وجهها بدت غمازة صغيرة جميلة إلى جانب شفتها، وكانت أحياناً تفكر أن البلدة ملك لها. كانت تقول وهي تفتح عينيها الزرقاوين على نحو واسع تعبيراً عن ما ينطوي عليه الأمر من عجب: "لقد بنى جدي أول منزل في شارع بليزنت.[١] هذا الشارع بالذات. لقد عاشت عائلتي هنا أكثر من مئة سنة، وجدتي زرعت هذه الورود، وأمي رعتها كما أفعل أنا الآن. لقد راقبت بلدتي وهي تكبر؛ يمكنني أن أتذكر حين افتتح السيد لويس Lewis الكبير محل البقالة، والعام الذي فاض النهر فيه وغمر الأكواخ القائمة على الطريق المنخفض، والاهتياج الذي حدث حين أراد بعض الشباب نقل الحديقة العامة إلى الأرض الموجودة أمام المقر الحالي لمكتب البريد الجديد. وأرادوا نصب تمثال لإيثان ألن،[٢]" – وهنا تقطب الآنسة سترينجورث قليلاً ويبدو صوتها قاسياً – "لكن كان يجب أن يكون التمثال لجدي. ما كانوا لَيوجدوا في هذه البلدة على الإطلاق لولا جدي ومصنع الخشب الخاص به."

لم تكن الآنسة سترينجورث تعطي أي من ورودها لأحد، برغم أن السائحين كانوا يطلبون منها ذلك في كثير من الأحيان. فالورود تنتمي إلى شارع بليزنت، وكان مما يزعج الآنسة سترينجورث التفكير في أن الناس يريدون أخذ الورود بعيداً عنه، أخذها إلى بلدات غريبة وشوارع غريبة. وحين أتى الخوري الجديد، وأخذت السيدات يجمعن زهوراً لتزيين الكنيسة، أرسلت الآنسة سترينجورث سلة كبيرة من الكلاديول؛ في المرات النادرة التي كانت تقطف الورود، كانت تضعها في أوعية ومزهريات في أنحاء مختلفة داخل المنزل الذي بناه جدها.

---

(١) Pleasant Street : الاسم ذو دلالة، فهو يعني الشارع السار أو المبهج.

(٢) Ethan Allen مزارع وتاجر وفيلسوف وكاتب شارك في الثورة الأمريكية.

وأثناء مشي الآنسة سترينجورث في الشارع الرئيسي في صباح صيفي، اضطرت للتوقف كل دقيقة لتقول "صباح الخير" لشخص ما أو للسؤال عن صحة شخص ما. وحين دخلت البقالية، حوّل حوالي ستة أشخاص أنظارهم عن الرفوف وطاولات العرض ليلوحوا لها ويقولوا "صباح الخير."

أخيراً قالت الآنسة سترينجورث: "وصباح الخير لك أيضاً يا سيد لويس." كان وجود عائلة لويس في البلدة يكاد يساوي عائلة سترينجورث في القِدَم، لكن في اليوم الذي ترك فيه لويس الشاب المدرسة الثانوية ومضى للعمل في البقالية، توقفت الآنسة سترينجورث عن مخاطبته باسم تومي Tommy وبدأت تناديه سيد لويس، كما توقف هو عن مخاطبتها باسم آدي Addie وبدأ يناديها آنسة سترينجورث. كانا معاً في المدرسة الثانوية، وترافقا في الذهاب إلى النزهات وحفلات رقص المدرسة ومباريات كرة السلة، لكن السيد لويس الآن يعمل في البقالية، والآنسة سترينجورث تسكن وحدها في منزل عائلة سترينجورث في شارع بليزنت.

قال السيد لويس: "صباح الخير،" وأضاف بلهجة مهذبة: "نهار جميل."

قالت الآنسة سترينجورث: "إنه فعلاً نهار جميل جداً،" وكأنها قد قررت لتوها أن النهار سيصلح رغم كل شيء. "أريد قطعة لحم صغيرة بعظمها من فضلك يا سيد لويس، قطعة صغيرة بلا دهن من لحم العجل. هل هذا الفريز من بستان آرثر باركر Arthur Parker؟ لقد جاء مبكراً هذا العام."

"لقد جاء به هذا الصباح،" قال السيد لويس.

قالت الآنسة سترينجورث: "أريد علبة منه. دار في ذهنها أن السيد لويس يبدو قلقاً بالنسبة للفريز. بالتأكيد بدا عليه التعب الشديد. فكرت الآنسة سترينجورث كيف أنه مرح ومشرق في العادة، وكادت أن تعلق، ولكن الموضوع كان شخصياً جداً بحيث لا يمكن طرحه على السيد لويس، البقال، لذلك اكتفت بالقول: "وعلبة من طعام القطط وحبة بندورة على ما أظن."

قام السيد لويس بتجميع ما طلبته على النضد وانتظر. نظرت الآنسة سترينجورث إليه نظرة فضولية ثم قالت: "اليوم الثلاثاء يا سيد لويس. لقد نسيت أن تذكرني."

"حقاً؟ آسف."

قالت الآنسة سترينجورث بلطف: "تخيل أن تنسى أنني دائماً أشتري الشاي يوم الثلاثاء. ربع رطل من الشاي من فضلك يا سيد لويس."

"أهذا كل شيء يا آنسة سترينجورث؟"

"نعم، شكراً يا سيد لويس. إنه نهار جميل، أليس كذلك؟" قال السيد لويس: "جميل."

تحركت الآنسة سترينجورث حركة طفيفة لتفسح مجالاً للسيدة هاربر Harper على النضد. قالت السيدة هاربر: "صباح الخير يا أديلا Adela،" وقالت الآنسة سترينجورث، "صباح الخير يا مارثا Martha."

قالت السيدة هاربر: "نهار جميل،" وقالت الآنسة سترينجورث: "نعم، جميل،" وهز السيد لويس رأسه بالموافقة استجابة لنظرة السيدة هاربر.

شرحت السيدة هاربر: "نفذ السكر لدي وأنا أحتاجه للطبقة التي تغطي قالب الكاتو." ارتعشت يدها بشكل طفيف وهي تفتح جزدانها. تساءلت الآنسة سترينجورث ما إذا كانت تعتني بنفسها كما ينبغي. وفكرت الآنسة سترينجورث أن مارثا هاربر لم تعد شابة كما كانت في الماضي. من المحتمل أن منشطاً قوياً جيداً سيفيدها.

قالت: "مارثا، لا يبدو أنك على ما يرام."

قالت السيدة هاربر بإيجاز: "أنا في أحسن حال." ناولت السيد لويس نقودها وأخذت الباقي والسكر الذي اشترته، وخرجت دون أن تتكلم مرة ثانية." هزت الآنسة سترينجورث رأسها هزاً طفيفاً، وهي تراقبها في خروجها. من المؤكد أن مارثا لا تبدو في حال جيد."

خرجت الآنسة سترينجورث، وهي تحمل كيسها الصغير من المشتريات، من المحل إلى نور الشمس الساطع وتوقفت لتبتسم لطفلة دون وهيلين كرين Don and Helen Crane. كان الزوجان بالفعل أكثر أبوين شابين عرفتهما افتتاناً بطفلتهما، هذا ما دار في خلدها وهي تنظر إلى قلنسوة الطفلة المطرزة بنعومة وغطاء العربة المزينة جوانبه بالدانتيل.

قالت لهيلين كرين: تلك البنت الصغيرة ستكبر وهي تتوقع الرفاهية طيلة حياتها."

ضحكت هيلين، وقالت: "هذه هي الطريقة التي نريدها أن تشعر بها. كالأميرة."

قالت الآنسة سترينجورث بجفاف: "يمكن للأميرة أن تواجه متاعب كثيرة أحياناً. كم بلغت سموها من العمر؟"

"ستبلغ ستة أشهر يوم الثلاثاء القادم،" قالت هيلين وهي تنظر بتعجب جذل. "لكنني قلقة بشأنها. ألا تعتقدين أنها يجب أن تتحرك أكثر مما تفعل؟ أن تحاول النهوض على سبيل المثال؟"

قالت الآنسة سترينجورث، وهي ضاحكة: "هل يمكن العثور على أمٍّ لا تخلو من القلق البسيط ولأسباب متخيلة."

قالت هيلين كرين: "المسألة هي ببساطة أنها تبدو بطيئة."

"هراء. جميع الأطفال مختلفون. بعضهم ينمو بسرعة أكبر جداً من غيرهم."

ضحكت هيلين كرين وبدا عليها شيء من الخجل: "هذا ما تقوله أمي."

"أفترض أنك جعلت زوجك الشاب ينزعج جداً بسبب حقيقة أن ابنته بلغت الستة أشهر ولم تبدأ في تعلم الرقص بعد."

"لم أذكر ذلك له. أعتقد أنها غالية جداً إلى درجة تجعلني أقلق عليها بصورة مستمرة."

قالت الآنسة سترينجورث: "إذن اعتذري منها في هذه اللحظة. فمن المحتمل أنها قلقة بسبب كونك تقفزين حولها طوال الوقت." مضت وهي تبتسم لنفسها وتهز رأسها الهرم في الشارع المشمس، وتوقفت مرة لتسأل بيلي مور Billy Moore الصغير عن السبب في أنه لا يركب سيارة أبيه الجديدة اللامعة، ولتتكلم بضع دقائق خارج المكتبة مع الآنسة تشاندلر Chandler، أمينة المكتبة، عن الروايات الجديدة التي سيجري طلبها ويدفع ثمنها من مخصصات المكتبة السنوية. بدت الآنسة تشاندلر شاردة الفكر كما أعطت انطباعاً قوياً بأنها تفكر بشيء آخر. لاحظت الآنسة سترينجورث أن الآنسة تشاندلر لم تعتن عناية كبيرة بشعرها ذلك الصباح، وتنهدت. فالآنسة سترينجورث تكره الإهمال والبعد عن الترتيب.

فكرت الآنسة سترينجورث أن أشخاصاً كثيرين يبدون منزعجين. أمس فقط جرت ابنة عائلة ستيوارت Stewart ليندا Linda، البالغة خمسة عشر عاماً، وهي تبكي على الممشى الأمامي لمنزلها وطوال الطريق إلى المدرسة. وظن الناس في البلدة أنه ربما حصل شجار بينها وبين الفتى هاريس Harris، لكنهما ظهرا معاً في دكان المياه الغازية بعد خروجهما من المدرسة كالمعتاد، وكلاهما يبدوان مقطبين وكئيبين. استنتج الناس وجود مشكلات منزلية، وتنهدوا بسبب مشكلات تربية الأولاد في هذه الأيام.

من منتصف الطريق بين الشارعين المقاطعين استطاعت الآنسة سترينجورث أن تشم رائحة ورودها وأخذت تتحرك بسرعة أكبر قليلاً. عبير الورود يعني البيت، والبيت يعني منزل عائلة سترينجورث في شارع بليزنت. توقفت الآنسة سترينجورث عند بوابتها الأمامية، كما تفعل دائماً، ونظرت بسرور عميق إلى منزلها، بوروده الحمراء والزهرية والبيضاء مجمعة بأعداد كبيرة على المرجة الضيقة، والورد المتعرش يتسلق جدران الرواق، وخطوط المنزل نفسه الأنيقة أناقة لا تصدق تتبع من نحولها ومظهرها الأبيض النظيف. كانت كل نافذة تتلألأ وكل ستارة معلقة بثبات واستقامة وحتى

حجارة الممر الأمامي مكنوسة وصافية. تعجب الناس في أنحاء البلدة حول كيفية نجاح الآنسة سترينجورث في الحفاظ على مظهر البيت على هذا الشكل، وكانت تنتشر أسطورة عن سائح ظن أن المنزل هو المتحف المحلي وجال بالمكان كله دون أن يكتشف خطأه. لكن البلدة كانت فخورة بالآنسة سترينجورث وورودها ومنزلها. فجميعهم كبروا معاً.

صعدت الآنسة سترينجورث درجاتها الأمامية، وفتحت الباب بمفتاحها، ودخلت المطبخ لتضع المشتريات في أماكنها. ناقشت فكرة تناول كوب من الشاي، ثم قررت أن وقت الغداء اقترب، ولن تكون لها الشهية الكافية لتناول قطعتها الصغيرة من اللحم إذا شربت بعض الشاي الآن. بدلاً عن ذلك، دخلت غرفة الجلوس المشرقة الجميلة، التي مازالت متوهجة بتأثير أيدي أمها وجدتها اللتين غطتا الكنب بقماش قطني مشرق ووضعتا الستائر. كان الأثاث جميعه مقتصداً ولامعاً، والبسط المدورة على الأرض من شغل جدة الآنسة سترينجورث وأمها. وكانت الآنسة سترينجورث قد وضعت وعاء من ورودها الحمراء على الطاولة المنخفضة قرب النافذة، وامتلأت الغرفة برائحتها.

توجهت الآنسة سترينجورث إلى طاولة المكتب الضيقة في الزاوية وفتحتها بالمفتاح. لم تكن تعرف قط متى ستأتيها الرغبة في كتابة رسائل، لذلك تحتفظ بدفترها والحبر داخل الطاولة وتقفلها. كانت أوراق الآنسة سترينجورث المعتادة سميكة بلون القشدة، وقد طبعت في أعلاها عبارة **منزل سترينجورث** لكن حين كانت تشعر بالرغبة في كتابة رسائلها الأخرى، كانت تستعمل دفتراً من الورق الملون ابتاعته من دكان الصحف المحلي. كان هذا الورق شبه نكتة شائعة في البلدة، فهو يأتي على شكل طبقات زهرية وخضراء وزرقاء وصفراء؛ كان الجميع في البلدة يشترونه، ويستخدمونه لمذكرات وملاحظات مختلفة غير رسمية وقوائم للمشتريات. وكان من المعتاد التعليق عند استلام مذكرة مكتوبة على صفحة زرقاء أن فلانة من الناس ستحتاج لشراء دفتر جديد عما قريب، فها هي قد وصلت إلى اللون الأزرق. وكان الجميع يستعملون

الظروف المتلائمة مع الورق لوضع وصفات الطبخ، أو الاحتفاظ بأشياء صغيرة مختلفة، أو حتى للف الكعك في صناديق الغداء. وكان السيد لويس يعطيها أحياناً للأطفال ليحملوا الحلوى التي يشترونها إلى بيوتهم.

وعلى الرغم من أن مكتب الآنسة سترينجورث احتوى قلم ريشة مشذباً كان ملكاً لجدها، وقلم حبر منقط باللون الذهبي كان ملكاً لأبيها، فقد كانت تستخدم قلم رصاص ليس حاداً حين تكتب رسائلها، وتستخدم في كتابتها حروفاً كبيرة مقطّعة كما يفعل الأطفال. بعد التفكير للحظة، على الرغم من أنها كانت تصوغ الرسالة في مؤخرة ذهنها طوال طريق عودتها إلى المنزل، كتبت على ورقة زهرية اللون: **ألم تشاهد أبداً طفلة بلهاء من قبل؟ بعض الأشخاص يجب أن لا يكون لهم أطفال، أليس كذلك؟**

أعجبتها الرسالة. كانت مغرمة بالقيام بالأشياء على النحو الصحيح تماماً. وحين كانت ترتكب غلطة، كما يحدث أحياناً، أو حين لا تكون المسافات مناسبة على الصفحة، كانت تضطر لأخذ الصفحة المرفوضة إلى الموقد في المطبخ وحرقها على الفور. لم تكن الآنسة سترينجورث تؤجل العمل حين كانت الضرورة تستدعي القيام به.

بعد التفكير للحظة، قررت أنها تود كتابة رسالة أخرى، ربما توجهها إلى السيدة هاربر، لتتبع الرسائل التي سبق أن أرسلتها إليها. اختارت ورقة خضراء هذه المرة وكتبت بسرعة: **هل اكتشفتِ بَعْد ما الشيء الذي جعلهن يضحكن بعد أن تركتِ نادي البريدج يوم الخميس؟ أم هل الزوجة هي حقاً آخر من يعلم؟**

لم تكن الآنسة سترينجورث تهتم بالوقائع قط، فجميع رسائلها عالجت شكوكاً يحتمل جداً أن تتحقق. فالسيد لويس لم يكن ليتخيل أبداً ولو للحظة أنّ من المحتمل أن حفيده يسرق مبالغ صغيرة من صندوق المحل لو لم تصله إحدى رسائل الآنسة سترينجورث. وكانت الآنسة تشاندلر أمينة المكتبة ووالدا

ليندا ستيوارت سيستمرون في حياتهم دون أن تساورهم الشكوك ودون أن يدركوا أن الشر يكمن على مقربة منهم. ومن جهة أخرى، كانت الآنسة سترينجورث ستشعر بصدمة حقيقية لو اكتشفت وجود أي شيء لا أخلاقي بين ليندا ستيوارت والفتى هاريس، ولكن طالما أن الشر موجود، فقد كان واجب الآنسة سترينجورث أن تستمر في تنبيه بلدتها إليه. والمنطق يقول إن من الأفضل جداً للآنسة تشاندلر أن تتساءل عن السبب الحقيقي لوفاة زوجة السيد شيلي Shelley من أن تجازف بعدم معرفة ذلك السبب. هناك شريرون كثيرون في العالم ولم يعد يوجد سوى فرد واحد من عائلة سترينجورث في البلدة. إضافة إلى ذلك، فقد كانت الآنسة سترينجورث تحب كتابة الرسائل.

عنونت أحد الظروف باسم دون كرين بعد لحظة من التفكير، متسائلة بفضول عما إذا كان سيطلع زوجته على الرسالة، واستخدمت ظرفاً زهري اللون ليتناسب مع لون ورقة الرسالة. ثم وضعت عنوان السيدة هاربر على ظرف آخر أخضر اللون. ثم خطرت لها فكرة، فتناولت ورقة زرقاء وكتبت: **لا يمكن للمرء أبداً معرفة حقيقة الأطباء. تذكري أنهم بشر عاديون، ويحتاجون المال مثل باقي الناس. افترضي أن المبضع انزلق دون قصد. هل سيحصل الدكتور برنز Burns على أجره ومبلغ إضافي صغير من ابن أخيك؟**

كتبت على الظرف الأزرق عنوان السيدة فوستر Foster، التي ستجري عملية في الشهر التالي. فكرت بكتابة رسالة أخرى إلى رئيس مجلس إدارة المدرسة، تسأل فيها كيف يمكن لأستاذ كيمياء مثل والد بيلي مور أن يتحمل كلفة شراء سيارة جديدة مكشوفة، ولكنها، فجأة وبلا إنذار، شعرت بالتعب من كتابة الرسائل. والرسائل الثلاثة التي كتبتها تكفي ليوم واحد. يمكنها كتابة المزيد غداً، فليس هناك ما يستدعي كتابتها جميعاً مرة واحدة.

كانت تكتب رسائلها – أحياناً رسالتين أو ثلاثة في اليوم لمدة أسبوع، وأحياناً لا يزيد العدد عن رسالة في الشهر – طوال السنة الماضية. ولم

تتلق أية أجوبة بالطبع، لأنها لم توقع باسمها على الإطلاق. ولو سُئلت لقالت إن اسمها أديلا سترينجورث، وهو اسم مكرَّم في البلدة منذ سنوات طويلة، لا يوضع على قمامة كهذه. الضرورة تقتضي المحافظة على البلدة التي تعيش فيها نظيفة وحلوة، لكن الناس في كل مكان شهوانيون وشريرون ومنحطون، وهناك حاجة لمراقبتهم؛ العالم كبير جداً، ولم يبق فيه إلا فرد واحد من عائلة سترينجورث. تنهدت الآنسة سترينجورث، وقفلت مكتبها، ووضعت الرسائل في جزدانها الجلدي الأسود الكبير كي تُرسَل حين تخرج للمشي كعادتها في المساء.

شوت قطعة اللحم الصغيرة وأنضجتها وجهزت شريحة من البندورة وكوباً من الشاي ثم جلست إلى الطاولة في غرفة الطعام لتناول وجبة منتصف النهار، وكانت الطاولة تنفتح بحيث يمكن جلوس اثني عشر شخصاً حولها، مع وجود طاولة أخرى إن استدعت الحاجة في الردهة. شعرت الآنسة سترينجورث بالسرور وهي جالسة في ضوء الشمس الدافئ الذي دخل عبر نوافذ غرفة الطعام الطويلة، ترى الورود محتشدة في الخارج، وتستخدم الملعقة والشوكة والسكين الفضية الثقيلة وآنية الصيني البديعة الشافّة – شعرت أنه لم يكن بودها القيام بأي شيء بديل. وفكرت أنه في الواقع لا بد أن يعيش الناس عيشة أنيقة، ورشفت من كوب الشاي. فيما بعد، حين تم غسل صحنها وكوبها وصحن الكوب وتجفيفها وإعادتها إلى مكانها على الرفوف، وأعيدت ملعقتها وشوكتها وسكينها إلى علبتها المصنوعة من خشب الماهوغاني، صعدت الآنسة سترينجورث السلم الأنيق إلى غرفة نومها، التي كانت الغرفة الأمامية المطلة على الورود، وكانت من قبل لأمها وجدتها. وفي هذه الغرفة لا تزال تحتفظ بمجموعة أدوات التسريح والماكياج الفاخرة ومجموعة الفراء الخاصتين بهما، وكذلك مراوحهما وفراشيهما المكسوة ظهورها بالفضة وأواني الورود الخاصة بهما؛ كما كانت الآنسة سترينجورث تحتفظ بإناء من الورود على الطاولة المجاورة للسرير.

أغلقت ستائر النوافذ وأزاحت غطاء السرير الوردي اللون من على السرير، وخلعت ثوبها وحذاءها واستلقت تعبة. كانت تعرف أنه لن يقرع جرس الباب أو الهاتف؛ لا أحد في البلدة يجرؤ على إزعاج الآنسة سترينجورث في أثناء قيلولتها فترة الظهيرة. نامت نوماً عميقاً ورائحة الورد الثرية تغمرها.

بعد قيلولتها عملت في الحديقة لفترة، دون أن تجهد نفسها بسبب الحرارة؛ ثم دخلت لتتناول عشاءها. تناولت هليوناً من مزروعات حديقتها، مع صلصة زبدة حلوة وبيضة مسلوقة نصف ناضجة، وأثناء تناول عشائها استمعت إلى الأخبار ثم إلى برنامج موسيقى كلاسيكية من مذياعها الصغير. بعد أن نُظّفت صحونها وجرى ترتيب مطبخها، تناولت قبعتها – قبعات الآنسة سترينجورث مضرب المثل في البلدة؛ كان الناس يعتقدون أنها ورثتها عن أمها وجدتها – وبعد أن أقفلت باب منزلها وراءها، انطلقت في مشوارها المسائي، وجزدانها تحت ذراعها. هزت برأسها تحية لوالد ليندا ستيوارت، الذي كان يغسل سيارته في المساء البارد برودة محببة. اعتقدت أنه يبدو مهموماً.

لم يكن في البلدة سوى مكان واحد يمكنها إرسال رسائلها منه، وهو مكتب البريد الجديد، الذي يلمع بآجره الأحمر وحروفه الفضية. ومع أن الآنسة سترينجورث لم تول المسألة تفكيراً خاصاً، فقد تعمدت دائماً أن ترسل رسائلها بسرية شديدة، فبالطبع لن يكون من الحكمة أن تتيح لأحد أن يراها وهي ترسلها. لهذا السبب، خططت وقت مشيها بحيث تصل إلى مكتب البريد تماماً عندما يبدأ الظلام بتعتيم الخطوط الخارجية للأشجار وأشكال وجوه الناس، على الرغم من أنه لا يمكن لأحد أن يخطئ الآنسة سترينجورث بمشيتها المتأنقة وتنوراتها ذات الحفيف. كانت هناك دائماً مجموعة من الشباب تتجمع قرب مكتب البريد، وأصغر أفرادها يتنزلجون بالباتيناج على مدخل السيارات، الذي يدور دورة كاملة حول المبنى، وهو الطريق الأملس الوحيد في البلدة، والأكبر منهم قليلاً قد تعلموا كيف يتجمعون في مجموعات

صغيرة ويدردشون ويضحكون ويضعون خططاً مثيرة لعبور الشارع إلى محل المشروبات الغازية بعد دقيقة أو دقيقتين. لم تكن الآنسة سترينجورث تشعر قلق أو انزعاج قط في حضور الأطفال. لم تكن تشعر أن أياً منهم يحدق فيها بلا مبرر أو يتشوق للضحك عليها، فقد كان من المقرف جداً أن يسمح لهم آباؤهم وأمهاتهم بالهزء من الآنسة سترينجورث القاطنة في شارع بليزنت. كان معظم الأطفال يتراجعون إلى الوراء باحترام حين تمر الآنسة سترينجورث، وقد دفعهم حضورها للصمت لفترة قصيرة، وكان بعض الأولاد الأكبر سناً يحيونها قائلين برصانة: "مرحباً يا آنسة سترينجورث."

ابتسمت الآنسة سترينجورث لهم وتابعت سيرها بسرعة. مضى وقت طويل منذ كانت تعرف اسم كل طفل في البلدة. كانت فتحة الرسائل على باب مكتب البريد. ابتعد الأطفال حين اقتربت الآنسة سترينجورث من الفتحة، وقد بدت عليهم الدهشة من وجود من يرغب في استعمال مكتب البريد بعد أن أغلق رسمياً لفترة الليل وسُلِّم للأطفال. وقفت الآنسة سترينجورث عند الباب وفتحت جزدانها الأسود لتخرج الرسائل، وسمعت صوتاً عرفت على الفور أنه صوت ليندا ستيوارت. كانت ليندا الصغيرة المسكينة تبكي مرة أخرى، وأصغت الآنسة سترينجورث إصغاء شديداً. ففي الواقع هذه بلدتها وهؤلاء ناسها؛ إذا كان أحدهم يتعرض لمشكلة فينبغي أن تعرف ذلك.

"لا يمكنني أن أقول يا ديف،" كانت ليندا تقول – مما يعني أنها كانت تكلم الفتى هاريس، مثلما افترضت الآنسة سترينجورث – "لا أستطيع وحسب. فالأمر مقرف تماماً."

"ولكن ما السبب في أن أباك لا يريدني أن أزوركم بعد الآن؟ ما الذي فعلتُه؟"

"لا يمكنني إخبارك. لن أخبرك مهما كان المقابل. يجب أن يكون عقل المرء وسخاً، وسخاً، كي يفكر بأشياء كهذه."

"لكن شيئاً قد حدث. فأنت تبكين وتبكين، وأبوك منزعج. لم لا يمكنني أنا أيضاً أن أعرف ما حدث؟ ألست مثل فرد من العائلة؟"

"لم تعد كذلك يا ديف، لم تعد كذلك. عليك ألا تقترب من منزلنا بعد الآن؛ هكذا قال أبي. قال إنه سيجلدك. هذا كل ما يمكنني أن أقوله لك: عليك ألا تقترب من منزلنا بعد الآن."

"لكنني لم أفعل شيئاً."

"ولو. لقد قال أبي . . ."

تنهدت الآنسة سترينجورث وابتعدت. هناك مقدار كبير من الشر في نفوس الناس. حتى في بلدة صغيرة آسرة مثل هذه البلدة، لا يزال يوجد مقدار كبير من الشر في نفوس الناس.

أدخلت رسائلها في الفتحة، وسقطت رسالتان منهما في الداخل. الرسالة الثالثة علقت بالحافة وسقطت في الخارج، على الأرض عند قدمي الآنسة سترينجورث. لكنها لم تلاحظها، فقد كانت تفكر ما إذا كانت رسالة إلى والد الفتى هاريس ستحقق شيئاً من الخدمة في إنهاء هذا السوء المحتمل نهائياً. استدارت الآنسة سترينجورث متعبة لتعود إلى بيتها إلى سريرها الهادئ في بيتها الجميل، ولم تسمع قط الفتى هاريس وهو يناديها ليقول لها إن شيئاً ما قد سقط منها.

قال: "بدأت السيدة سترينجورث تصاب بالصمم،" وهو ينظر وراءها ويمسك بيده الرسالة التي التقطها.

قالت ليندا: "حسن، من يهتم؟ من يهتم بأي شيء بعد الآن؟" قال الفتى هاريس: "هذه الرسالة موجهة إلى دون كرين. يمكن لنا أن نأخذها إليه. فنحن نمر بمنزله على كل حال." وضحك: "قد يكون فيها شيك أو شيء آخر وسيكون مسروراً لاستلامه اليوم بدلاً عن الغد."

قالت ليندا: "هل تعتقد أن من الممكن أن ترسل الآنسة سترينجورث شيكاً إلى أي شخص؟ أسقطها في مكتب البريد. لِمَ نقدم خدمة إلى أي شخص؟" ونشقت وهي تكتم دموعها، وقالت: "لا يبدو لي أن أحداً هنا يهتم بنا. لِمَ علينا أن نوليهم أي اهتمام؟"

"سأوصلها على كل حال،" قال الفتى هاريس. "قد تحتوي خبراً ساراً لهما. ربما هما بحاجة لشيء يسعدهما الليلة أيضاً. مثلنا."

أمسك كل منهما بيد الآخر بحزن، وانطلقا في الشارع المظلم، والفتى هاريس يحمل ظرف الآنسة سترينجورث الزهري اللون بيده.

استيقظت الآنسة سترينجورث صباح اليوم التالي يغمرها شعور بالسعادة المركزة، ولدقيقة تساءلت عن السبب، ثم تذكرت أنه في هذا الصباح سيفتح ثلاثة أشخاص رسائلها. قد تكون قاسية في البداية، ولكن القضاء على الشر لا يتم بسهولة أبداً، والقلب النظيف هو قلب مُطَهَّر. غسلت وجهها العجوز الناعم ونظفت بالفرشاة أسنانها التي لا زالت سليمة رغم بلوغها الحادية والسبعين، ولبست بعناية ملابسها الطرية الجميلة وحذاءها ذا الأزرار. ثم عندما نزلت إلى الطابق السفلي، وخطر لها أن كعكتها الصغيرة قد تكون أطيب مذاقاً في غرفة الطعام المشمسة، وجدت البريد على أرض البهو: فاتورة والصحيفة الصباحية ورسالة في مغلف أخضر بدا مألوفاً على نحو غريب. وقفت الآنسة سترينجورث بلا حراك وهب تنظر إلى المغلف الأخضر على الأرض، بأحرفه المقطعة المكتوبة بالقلم الرصاص، وفكرت: تبدو هذه وكـــأنها إحدى رسائلي. هل أعيدت إحدى رسائلي؟ كلا، لأنه لا أحد يعرف إلى أين يرسلها. كيف وصلت هذه إلى هنا؟

كانت الآنسة سترينجورث من سلالة عائلة سترينجورث في شارع بليزنت. لم ترتعش يدها وهي تفتح المغلف والورقة الخضراء بداخله. بدأت تبكي بصمت حزناً على شر العالم وإثمه حين قرأت هذه الكلمات: **انظري إلى ما سبق أن كان ورودك.**

ماغي رُس

فعل مهيمن من الخلق، أو التدمير[1]

ماغي رُس شاعرة وكاتبة مسرحية وقصصية وروائية ولدت في إسكس Essex وتخرجت من جامعة لندن. وقد نقلت قصصها ومسرحياتها إلى الإذاعة والتلفزيون، وحازت روايتها الأولى المنشورة عام ١٨٦٨ على جائزة جيمس تيت بلاك كأفضل رواية لذلك العام. وقد نشرت قصائدها ونقدها الأدبي في كثير من المجلات العالمية بلغات مختلفة.

طريق. يرجع العقل إليه من جديد. تقريباً برغم إرادة المرء يعود العقل، متحركاً بمحاذاة خطوط تَشَكُّلِه وعائداً كما لو أن هناك في منظوره حركة دائمة. وتنحني خطوطه الأفقية إلى أن تشكل مداراً قائماً بذاته على نحو سحري – في نهايته بدايته. مثل ذبابة ضخمة، يحوم المرء، مسلطاً ضوءه الكشاف على هذا وذاك، ومفكراً بالاحتمالات. وهي تبدو لا متناهية، تعادل في لا تناهيها الطرق الكثيرة التي لابد أنها موجودة والتي تشابه هذا الطريق.

---

(١) هذه ترجمة قصة "An Obsessive act of Creation, or Destruction" للكاتبة Maggie Ross. والقصة نشرت في كتاب:

Penguin Modern Stories 6. Judith Burnley, ed. Penguin Books, 1970.

في الحقيقة هو طريقان، أحدهما يشكل زوايا قائمة مع الآخر. وحين ينتهي أحدهما يكون ذلك دائماً عند التقاطع. ولا يبدو أي من الطريقين طويلاً، إذ إن إمكانات النظر الثلاث مبتورة بفعل انحناء وانعطاف وخط أفق ومجموعة أشجار وتجمع من الدكاكين غير المهمة والسور المرتفع لحديقة لا تلفت النظر، وتتمُّ ملاحظة هذه الأشياء كلها والمرور بها في الرجوع. عند تلاقي الطريقين توجد مدرسة تواجه تماماً الطريق الثاني، بحيث إذا وقف المرء وظهره إلى سياج الفناء استطاع رؤية البيوت تتضاءل، وأنابيب المداخن البعيدة الخاصة ببيوت أخرى في طرقات أخرى.

ولكن لا يبدو أنه يوجد سبب للتذكر، لا شيء يدغدغ الحواس، إلا إذا كان ما يشكل انعدام الهوية يستحق النظر. لا شك أن هنا جوهر التفاهة الذي لا يزال بطريقة ما ينجح في أن يكون جذاباً ومجدياً. ربما كان شيئاً خاصاً يتعلق بالنور، الذي لا يتغير، والذي يبدأ كشفق ذي صفرة من نوع معين يوحي بأن الليل وشيك. وبينما يراقب المرء اللون الأصفر يتحول إلى رمادي، إلى أن يغبش الشيء المحدد فيغدو انطباعاً ويتلاشى الانطباع إلى أن يكون كل ما تبقى صوراً ظلية قبالة سماء ليلية بيضاء. وتعني هذه السرمدية أنه ليست هناك فصول، مع أنّ أشجار الدلب تنمو في مربعات الأرض المسمدة بروث الكلاب، وتتضخم الشجيرات التي تسور الحدائق مع تعاظم سنها. هناك أحياناً أوراق شجر على الأرض المرصوفة ولحاء شجر مرمي كقشرة الرأس في البالوعات. التغيير هنا ولكن لا شيء يتغير. لا عنف يمكن ارتكابه ضد فكرة طريق . . .

هناك صوت حفيف الأوراق. هناك هواء. للتنفس. هناك أشخاص في الطرق. اثنان. اثنان فقط في الوقت الحاضر: ذكر وأنثى، متشاكبا الذراعين يقتربان من التقاطع. وعلى البعد بشكل خافت وكأنه مجرد همهمة في الريح ثمة صوت شيء مثل حركة السير. أو هدير الريح العاصفة المكتومة. هو يعرج

ويحاول بتردد أن يحرر نفسه من قبضة يدها القوية. وراء هذين الشخصين الذين يتوقفان الآن بجانب سياج المدرسة هناك صوت المدينة. تتنفس وتهدر وتهمهم. لو نظرا إلى الأعلى لرأيا معلميهما المألوفين الخاصين. إنهما ينظران إلى قدم الشاب وقد رفعها بنعومة على طريقة الغزال وهو يشكو من الألم.

تهز ذراعه برفق. «لقد وصلنا.»

«وماذا إذن؟»

إذا أخذنا بالحسبان عدد المرات الكثيرة التي دار فيها هذا الحوار، فإن تكراره صعب بصورة تبعث على الدهشة. وهو يختلف. أحياناً يكون مليئاً بالدعابة المخبأة ومفعماً تماماً بالحيوية، وفي أحيان أخرى هناك نكد وشعور بالخذلان. والآن يقفان ببرود وهو يتمسك بالسياج بإحدى يديه، بينما يصارع بيده الأخرى ربطة حذائه.

«غريب أن يحدث ذلك هنا بالضبط.»

«غريب جداً. لكنه حدث.»

«أود لو أعرف ما الذي حدث بالفعل على كل حال . . .»

انخلعت فردة حذائه. ولكن الجورب يسبب صعوبة لأنه تيبس إما بسبب قلة الغسل أو بسبب عامل غريب. والشعائر هي دائماً الشيء نفسه، فهو يخلع الجورب بصعوبة، ثم يتفحصان معاً قدمه. ويلتوي وجهه من الألم، ووجهها بفعل الشك. فهي ليست متأكدة مما إذا كان تفادي مسألة ما يتم بواسطة سلوكه هذا. تحرر يدها كنوع من الاحتجاج.

«ألا تريد الذهاب إذن؟»

«إن إصبع قدمي . . .»

«لأنه إذا كنت لا تريد فإنني ذاهبة إلى البيت. فالساعة الآن السادسة والنصف.»

«وربع. إنَّ العلة في إصبع قدمي ...» تتدلى القدم البيضاء وكأنها ميتة. فجأة تلون نقطة من الدم الشديد الاحمرار الأرض المرصوفة. تسقط نقطة أخرى.

«إنك تنزف!»

«لديك قوة ملاحظة!»

«العلة في إصبع قدمك.»

«أعرف.»

«لم ينزف؟.»

«دائماً ينزف إصبع قدمي في أيلول.»

بما أنه ليس هناك سبب حقيقي لكون إصبع قدمه ينزف، فإن هذا السبب جيد إلى حدٍ كافٍ. لقد حدث هذا لبعض الناس.

تبتسم بأدب على نكتته وتقدم له منديلاً كالقصاصة. ولكنه يفضل أن يربت على قدمه بجوربه.

«هل هناك ثقب في حذائك؟.»

بعد النظر في ظلام الحذاء ووضع يده بنشاط داخله يعتقد أنه لا ثقب فيه. ليس هنا أي اعتبار لحالة حذائه، برغم أن هذا قد يبدو ذا علاقة بالمسألة. ولم تُدرس حالة ثيابهما بأكملها. يمكن أن يكونوا مرتدين أي شيء. كل شيء. أو لا شيء.

«لقد أصابني شيء حاد. كالزجاج.»

«هل مشيت على أي زجاج مؤخراً؟.»

«كيف لي أن أعرف؟ كل ما أفعله هو أن أمشي. مهتماً بشؤوني الخاصة. ربما كان زجاجاً. ربما لم يكن.»

سيكون هناك هذه المرة افتقار إلى العطف بينهما.

ينظران إلى الأسفل ويريان أن نقطة الدم قد اتسعت من جديد.

«إنه دمي.»

«لا شيء هناك يستدعي الخوف. كل شخص لديه منه.»

«ولكن معظم الناس ينجحون في الاحتفاظ به داخلهم.»

تتنهد. «إذا كنت ستقف هناك مثل طائر الكركي فإنني ذاهبة.» تجتاز بوابة ملعب المدرسة المفتوحة. «لا أعتقد أنك كنت حقاً تريد المجيء على الإطلاق.»

«الأمر لا يعجبني،» يقول.

«كان مجرد أفكار كبيرة.» تشير برأسها إلى باب المدرسة. هناك درجات وسبورة مكتوبة عليها بعض الكلمات بالطبشور: دروس مسائية. التسجيل الليلة – لغات.

«لا أحب التكرار.» يحدق بدمه وكأنه قد تحجر. «لقد حدث هذا من قبل . . . نزف أصبع قدمي.»

«لديك نقطة ضعف.» بالنسبة لها الموضوع منتهٍ الآن. تبدو أنها تبين هنا خصلة أنثوية، خصلة استخدام موقف قاطع كوسيلة لإخضاع الخوف.

«كلا! كان أصبع قدم أبي! أتذكره الآن وهو يحكي القصة. قال إنه أصبح ضعيفاً بسبب فقده للدم.»

في هذه اللحظة يشعر المرء بوجود ناس آخرين. الفتاة تلاحظهم. ترى شبحاً يركض عبر نهاية الطريقة المقابل. ولكن حين تكون عيناها قد اعتادتا الظلال يكون الشبح قد ولى ويكون الانزعاج المؤقت الذي سببه قد تضاءل. يزداد الظلام. أسطح المنازل التي كانت من قبل محددة بوضوح تستقر الآن تحت ضباب خفيف أو دخان يخفف اللون ويغبش الحواف. ويبدو أنه يغزو قمم الأشجار، ويغشى سواد النوافذ غير المضاءة والأبواب المغلقة. حتى شجيرات السياجات تتحول إلى لون رمادي. شبح آخر يتبع الأول وكأن شيئاً

ملحاً جداً يدفعه. تدقق النظر بشكل أكبر في حالة ما إذا كان شبح ثالث يتبعه. لا أحد. تعتقد أنها ترى عموداً باهتاً من الدخان البعيد في السماء.

«أين الجميع؟»

«أنا هنا،» يقول. يمسح لطخاً من الدم عن يده بالجورب. بركة الدم على الأرض المرصوفة هي الآن بحجم صحن فنجان. يريها راحتيه ويضحك بدون ابتهاج.

«سأبقى حياً على ما أعتقد. إننا دائماً نبقى أحياء! لا ننزف حتى الموت تماماً قط!» أحياناً يتفوه فقط بأشياء شابة، وأحياناً يستطيع قول ما قد يعتبر من الحكمة.

ينظر إليها ويتساءل لم رأسها مائل مثل رأس طائر. يراها تصغي ويصغي هو أيضاً. لم ير هو الناس الراكضين عبر نهاية الشارع المقابل.

هنا يحدث انقطاع يتوقف النزف في أثناءه، والجورب والحذاء قد عادا إلى مكانهما ويعطي هو متنفساً لمجموعة من الكلمات على شكل محاضرة مكثفة. ولأنه لا يوجد أي شخص آخر هناك، فلابد أن المحاضرة موجهة إلى الفتاة، رغم أنها لا تبدي أكثر من اهتمام هامشي، إذ أن انتباهها مستقطب بين رغبتها في إدخاله عبر بوابة المدرسة، وبين احتمال اندفاع أشخاص آخرين من بين الأشجار.

«هل اليوم عيد؟» تقول.

لا يهمه الأمر. إنه يكره أن يُقاطع وهو في تدفقه الثقافي الكامل. إنه يرغب في الحديث عن الحاجة إلى التعليم، يتحدث عن هذه الحاجة وعن الناس، ذاكراً مدى ضرورتها بالنسبة إليهم قبل أن يستطيعوا معرفة شيء عن بعضهم بعضاً. يجب عليهم أن يتعلموا أساليب بعضهم البعض. ولغات بعضهم البعض. يجب أن يكون هناك نظام تعليمي يُنجز ذلك بواسطته. إن لديه خطة – خطة خمس سنوات سيضعها قريباً على الورق. ولكنه سيضعها أولاً

موضع اختبار يجريه هو بتعلم لغة – أية لغة – واستعمال هذه اللغة لمساعدته في تعلم لغة أخرى. وهكذا، إلى أن تصبح الخطة أسلوباً جدياً في الحياة وتكون السنون قد انقضت في الدراسة والأعمال الجيدة.

أحياناً يبدو من الأفضل أن لا يقول أي شيء وهو يعيد ارتداء جوربه وحذائه، واقفاً على رجل واحدة، ونفسه بأكملها مركزة على العملية، بينما تحضه الفتاة أن يستعجل كيلا يفقد مكانه في الصف الجديد. ربما كان الانضمام إلى الصف فكرتها هي، ما هو أكثر أهمية هو أنهما عقلياً أدارا ظهريهما لبعضهما. الآن أدار هو ظهره إلى الطريق. لم يلاحظ كيف تنظر بدهشة إلى الأشجار البعيدة التي دبت فيها الحياة فجأة بوجود الرجال والنساء الراكضين الذين يندفعون عبر الطريق ويختفون، يصطدمون أحياناً بعضهم بعضاً في عجلتهم.

«ثمانية وعشرون . . . تسعة وعشرون . . . ثلاثون . . .» إنها تقوم بعدهم. تقف في الميزاب لترى بشكل أفضل، مغمضة نصف إغماضة وهي تحدق عبر النور الضبابي. تراهم ينزلقون بين الأشجار كسكاكين الورق.

«انظر!»

سرعتهم اختلاسية. تتحرك أرجلهم ولكنها لا تحدث صوتاً. ليس هناك صيحات أو صرخات. في الهواء صوت أزيز حركة السير أو الآلات البعيدة التي تبدو أعلى الآن في الغسق المتجمع. يتحرك الناس بسرعة محدودبي الظهور، يحملون ثقل المساء؛ رماديون على نحو موحد، عديمو الوجوه على نحو موحد. لن يكون هناك أي فرق بالنسبة للطريق لو لم يكونا موجودين، فسيكون هناك شعور أو إحساس بوجودهم، مثل الدخان الذي يتلوى ولكنه ليس ملموساً وليست له رائحة.

ثم وقع أقدام. يلتفت الفتى ويرى ثلاث نساء – مسنات – وقد أصبحن في فناء المدرسة ويتجهن نحو الدرج بأسرع ما تخولهن أرجلهن الهرمة. وهن يقمن بالإشارة إلى سبورة التسجيل.

«لابد لي أن أدخل،» يقول.

منذ هذه اللحظة هناك حتمية بالنسبة للأحداث تعطيها دائماً نفس التسلسل ونفس الإيقاع.

«هل تسمعينني؟»

ولكنها تسمع شيئاً آخر. «آلات،» تقول. إنها لا تستطيع الآن أن ترى أبعد من بضعة الأشجار الأولى في الشارع المقابل ولكنها تعرف أن هناك اضطراباً.

بعجلة يعقد رباط حذائه. «لم لا يشعلون مصابيح الشارع؟.»

لقد وصل الآن رجل عجوز يحمل عكازاً إلى بوابة المدرسة. يصل إليها قبل الفتى ويضرب بعكازه نحو الدرج. في يده كتيب عنوانه: «تعليم الكبار.»

«ما المسألة؟.»

تستطيع الفتاة سماع آلات تئز وتهدر مثل ذبابات عملاقة. يمتلئ الهواء بصوت متزايد يتلاطم هابطاً بين الأشجار وحيث كانت البيوت موجودة ويملأ الفراغات التي يتركها الناس الراكضون. لقد مضى الناس، والصوت ينفصل إلى نشازات متميزة ومخيفة. تستطيع سماع طائرات. تستطيع سماع صوت تمزق، وحصى تنسحق تحت وطأة المركبات.

يُضيء مصباح داخل المدرسة، وكل نافذة مربع أصفر مفاجئ. تلتفت الفتاة ويُضيء وجهها الخائف. يبدو كأنه يلتهب.

«أنا داخل»، ينادي الفتى.

يتحرك فمها كما لو كانت تقول شيئاً مثل «يجب ألا تفعل،» أو «ينبغي ألا تفعل.» لكنه لا يسمع. يهز كتفيه هزة خفيفة مترددة لأنها لا تتبعه ثم يسير نحو الدرج. حين ينظر ثانية يراها تحدق فيه وتهز رأسها الأصفر.

«كانت الفكرة فكرتك!» لكنها لا تستطيع أن تسمع. يهز كتفيه ثانية وينضم إلى رجلين كهلين يهمان بدخول البناء.

تقف الفتاة الآن وظهرها على سياج المدرسة وهي تتطلع عبر الشارع المقابل المظلم. تنتظر، منتصبة بتصلب، محدقة في اتجاه صوتٍ منفرد انفصل عن الأصوات الأخرى. تستطيع سماع صرير وقرقعة دواليب ثقيلة تقيّدها سلاسل جرارة. تستطيع سماع دبابة تسير على الطريق نحوها. تبرز دائرتان من النور الساطع بين الأشجار. تتقدم الدبابة بسرعة. تخطو إلى الرصيف خلفها، وهي لا تزال تراقب، وترى الضوئين يزدادان كبراً إلى أن يصبحا متصلين بالظلام والذي هو المركبة وتستطيع رؤية حجمها، وكيف أنها تمزق شريطاً عبر الأشجار. ترى الأغصان تتمزق وتسقط. تراها تنسحق تحت السلاسل المعدنية وترتمي على الطريق المحفرة. ترى المدافع، لقد خطت إلى الوراء قدر ما استطاعت. وقد أغلق شخص ما بوابة المدرسة. باب المدرسة مغلق.

لفترة لحظة أخرى تتردد، وهي تنظر باهتياج بالغ من اليسار إلى اليمين. الدبابة تقريباً عند التقاطع. تنظر إلى الرصيف تحت قدميها. وهي تقف في بركة من الدم الذي أخذ يجف. الضجة رهيبة. تسقط الفتاة على ركبتيها. ترى الدبابة تدخل منطقة الضوء الأصفر. بحذر تتمدد على الرصيف. تستلقي على قفاها، وذراعاها إلى جنبيها، واضعة رأسها بحذر بحيث يكون تماماً بجانب بركة الدم. تغلق عينيها. تنتظر.

جين ستَبْز

استدعِ لي من جديد اليوم الذي فات[1]

جين ستبز من مواليد لانكاشير في إنغلترا وتلقت تعليمها في مدينة مانشستر. نشرت روايتها الأولى **مربي الورود** عام ١٩٧٥، وقالت إنها كتبت الرواية وهي في المترو أثناء ذهابها إلى العمل. تستند كثير من رواياتها إلى أحداث تاريخية.

في وقت مبكر من صباح يوم أربعاء واجهت السيدة مانَرِنغ Mannering فارس الرؤيا الرابع.[2] نقرت إصبعٌ نقراً خفيفاً، حازماً على كتفها. قال صوت بإلفة وبوضوح في أذنها:

«ما اسم هذا الحصان؟.»

استمدت الإجابة مما تعلمته كواحدة من رعايا الكنيسة المنهجية.[3]

---

(١) هذه ترجمة قصة «Call Me Again the Day That Is Past» للكاتبة Jean Stubbs. والقصة نشرت في كتاب:

Penguin Modern Stories 10. Judith Burnley, ed. Penguin Books, 1972.

(٢) فرسان الرؤيا الأربعة مذكورون في آخر سفر من **العهد الجديد**، وهم مخلوقات تركب جياداً وترمز إلى الفتح والحرب والمجاعة والموت. الفارس الرابع إذن هو رمز الموت.

(٣) The Methodist church أنشئت في انغلترا في القرن الثامن عشر وهي واسعة الانتشار في انغلترا والولايات المتحدة.

«الحصان الشاحب.» وأضافت، «وراكبه هو الموت.»

أفاقت على الظلال في غرفتها، مدركة أن الطيف قد ولّى. أنارت المصباح الموضوع قرب سريرها ووضعت رداء بيتياً على كتفيها. يقوم الذهن – كما أخذت تفكر – بحيل غريبة. لكن خلف أحجية أي حلم يوجد المنطق، مطمْئِناً كالصداقة. فالواقع أنها شاهدت فلماً عن سباق الخيول على شاشة التلفزيون. وفي الشهر الماضي فقط مات رجل كان يتودد لها في صباها. إن العقل يحيك مثل هذه القطع المتنافرة من القش وينسج منها خيالاً مخيفاً. وحين يزداد المرء كبراً – على حد علمها – فإن الحُلم المُؤَرِّق هو الخطر الكامن في أن يكون للمرء أكثر مما ينبغي من الماضي دون أن يكون له أي مستقبل تقريباً. كان هذا من طبيعة الأشياء. من طبيعتها.

كم سيكون إبريق من الشاي مصدر سرور، لكنها خافت مواجهة الدرج المظلم، ولم تجرؤ على التحرك في البيت غير المُضاء. تناولت كتاباً، وقرأت فقط الأسطر غير المناسبة، صور الحزن والتفسخ.

«إنني خائفة،» قالت بصوتٍ عالٍ، موجَّهٍ إلى الفراغ، إلى دقات الساعة الصاخبة.

غداً ستقوم بزيارة دونالد باركر Donald Parker – طبيب العائلة – لإجراء فحص طبِّي. ربما قام عدو داخلي بشحذ سيفه. ربما كان هذا إنذاراً من كليتيها أو كبدها أو جريان دمها. ربما لأنَّها – لأنها تعيش وحيدة – كانت تطيل التفكير وعليها أن تقوم بمزيد من التمارين لذهنها وجسمها. ربما كان الفارس يذكرها بميتات أخرى، موت الروح، موت القلب. استلقت مستيقظة، والمصباح بجانب سريها يضع الليل في موقف محرج، والساعة تتحدى الصمت، إلى أن أعتقها الصباح وتركها تنام.

في الساعة العاشرة شعرت بالدهشة وبقدر كبير من الثقة المستعادة لدى اكتشاف أنها حية وجائعة. لو كانت بتي Betty أو جانيت Janet – ابنتاها –

معها لأخبرتهما. لكنهما كانتا تعيشان على بعد أميال، ومشاغل الأزواج والأطفال وتدبير المنزل تستحوذ عليهما. بسبب حاجتها لأن يقول شخص حكيم لها «هراء،» ولأن يعني ذلك، أخذت السيدة مانرنغ موعداً مع الدكتور باركر عصر ذلك اليوم.

راقبت الإبرة ترتفع، راقبته وهو يضخ آلته الصغيرة التي شدت الرباط على القسم الأعلى من ذراعها، وضحكت ضحكة مستخفَّة.

«لقد تعرضت لكابوس ليلة الأمس»، قالت بخفة.

سأل ببساطة: «ما الذي تناولته في وجبة العشاء؟.»

«آه – علبة صغيرة من الكركند، مع سلطة شتائية.»

هز رأسه، وهو يبتسم، مؤنباً.

«يدهشني أنك لم تتعرضي لعشرة كوابيس،» ثم أضاف بمزاح، متحدثاً عن وسامتها التي كانت تميزها وكأنها علَم، «قد تستطيعين خداع العالم بالنسبة لسنك يا جولي، ولكنك لن تستطيعي أبداً خداع قدرتك على الهضم. ولا مهرب لأيٍّ منا من كوننا في الرابعة والستين، هل أخبرتك أنني سأتقاعد في عيد الفصح؟.»

خربش حروفاً هيروغليفية، وقال إنَّ ضغطها على ما يرام.

«صحيح؟ حقاً؟» وهي تحاول تفكيك الشيفرة، والتعبير المرسوم على وجهه.

«لو لم يكن كذلك لأخبرتك. سأبدو مغفلاً كبيراً لو ضحكت عليك. ثم انطرحت في الفراش بسبب ارتفاع الضغط، أليس كذلك؟.»

«أجل. أجل، بالطبع.»

«قلبك في حال أفضل من قلبي. رئتان سليمتان. هل أعطيت الممرضة عينة من البول؟ حسن. أصغ إلي، يا جولي Julie. سنحتاج إلى أسبوع للحصول على صورة إجمالية – نتائج فحوص الدم، وما إلى ذلك. لكنني مستعد لأن آكل ملقطي إن كانت بك أية علة.»

عاد إلى الجلوس في كرسيه الدوار ونظر إليها.

«إنك لا تفكرين تفكيراً أحمق بالسرطان، أم إنّكِ تفكرين بذلك؟ من كل سيدتين تأتيان لمراجعتي هذه الأيام هناك واحدة تعتقد أنَّها مصابة بالسرطان.»

«لا، لا، كلا.»

«لا تشعرين بدوار، نوبات إغماء، صداعات، آلام؟»

«أبداً – مجرد كابوس.»

ضحك مقهقاً.

«كركند،» قال وهو يكتب وصفة. «خذي واحدة من هذه إذا لم تستطيعي أن تنامي. إنها حبوب معتدلة جداً بحيث تكاد أن تكون دون فائدة. هل هناك أي شيء آخر يقلقك؟.»

الفارس، ممسكاً بحصانه الشاحب بين ركبتيه. الصمت الطويل في الظلام.

قالت بثبات: «كلا يا دونالد. لابد أن المسألة ناتجة عن الكركند كما تقول.»

بينما كان يرافقها وهي تخرج قال: «لو كان كلُّ المرضى في مثل حالتك لتقاعدت من سنين عديدة.»

عند زاوية الطريق المتعرج قابلت القسيس، وأمسكت بالفرصة للحصول على العزاء. منذ سنتين وهي منهمكة في تطريز غطاء للمذبح على نحو متقن. وكانت المسؤولة عن الزهور في الكنيسة. وهكذا أوقفته وهو يرتجف بلباقة في الهواء الخريفي، يتحدثان عن لا شيء، وتضيع وقته الذي لم يكن ملكه. ولكنه تأسف لعدم تمكنه من مرافقتها إلى منزلها لتناول الشاي. فزوجته الصَّبُور كانت في انتظاره. وكان عليه حضور تدريب للجوقة في المساء الباكر. سيسره الحضور في وقت آخر. سيسره ذلك.

«يجب عليّ في الحقيقة أن أكمل غطاء المذبح،» قالت، بدافع الابتزاز.

«هذا لطف كبير منك،» تمتم وهو يشعر بالذنب، «شيء متقن جداً. سنفكر فيك في كل مرة ننظر إليه.»

مثل نصب تذكاري.

«أوه إنني لم أمت بعد»، ضحكت. ضحكة أعلى من أن تعبر عن التسلية.

شعر بصدمة حين فكر أنَّها ظنت أنه كان يعني... يا للسماوات، في هذه الأيام السبعون عاماً[1] ليست سوى سخرية. . .

«ألا تشعرين أنك على ما يرام يا سيدة مانرنغ؟» سأل بشيء من الجزع.

قالت، وهي أكثر هدوءاً، خجلى: «لم أنم جيداً الليلة الماضية. ولكنني على ما يظهر في صحة ممتازة، هذا ما قاله الدكتور باركر، والأطباء يعرفون، أليس كذلك؟ لا يفوتهم شيء، أبداً، أليس كذلك؟.»

أمسك بذراعها وسار بها إلى موضع أقرب إلى الحائط، بعيداً عن الريح المريرة.

«إذا سمحت لي أن أخابر زوجتي من بيتك فإنني الآن سأقبل دعوتك لتناول الشاي،» قال. لم يكن وقته ملكاً له قط، بل ملكاً للناس الآخرين.

«كان الحلم واضحاً تماماً»، قالت السيدة مانرنغ، وسببت ضجة صادرة عن علبة «الكاتو» لدى وضعها على طاولة المطبخ، وهذا شيء لا يحدث لها في العادة، فهي كانت تهيئ الوجبات للإغراء والإمتاع.

«لقد سمعت الصوت. شعرت باللمسة على كتفي. رأيت الفارس. إن هذا بالتأكيد ضمن اختصاصك أنت»، قالت بإصرار، وانتباهها موجه إلى حذائه المبلل وأصابعه الحمراء الباردة فوق دفء فنجان المطبخ. ثم صاحت وقد تشتت انتباهها: «ولكن ما هذا الذي أفعله، أجعلك تشرب من فنجان مطبخ؟.»

---

(١) في الماضي كان يفترض أن المرء يعيش سبعين عاماً. وقد ورد ذلك في **الكتاب المقدس**،

«هذا لا يهم يا سيدة مانرنغ. إن اهتمامنا منصب على أشياء أكثر أهمية من فناجين الشاي.»

«لقد اعتقد الدكتور باركر أن الكركند هو السبب. نتيجة تناولي كركنداً معلباً، رغم أنني أعددت سلطة شتائية، وخبز وزبدة. بمفردي بالطبع، على صينية. لم يكن لدي كركند طازج، طبعاً. من أجلي فقط، وبهذه الأسعار. مع أنه ربما كان يعني الكركند نفسه، وليس كونه معلباً.»

وبينما جلست فجأة، دون أن تعير قالب الحلوى على الطاولة أو فناجين المطبخ أي اهتمام: «كانت هذه رسالة موجهة إليّ، وإنني خائفة.»

«إننا جميعاً نخاف المجهول»، قال ببطء، والفتات يسقط من قطعته، «ولكن كمسيحيين نمارس الدين المسيحي، مؤمنين بالحياة الآخرة التي تشحب إلى جانبها هذه الحياة الدنيا...»

قالت: «أوه، لا تستعمل تلك الكلمة يا سيد كنيون Kenyon، وبالإضافة إلى ذلك، فإنني لست متأكدة على نحو مطلق من حياة الآخرة. ليس حين تصل القضية إلى الحد الأخير. حين يكون المرء في الكنيسة، أو حين يكون شاباً، أو حين لا يفكر إلى حد كبير بالمسألة، فإن الجنة تبدو ممتعة جداً. ولكن على نحوٍ ما – حين يواجهني المشهد المتوقع – فإنني غير قادرة على أن أستسيغه.»

قال وهو ينظر بكآبة داخل الفنجان الفارغ، إذ كانت الريح شديدة البرودة، «من المحتمل أن هذه.. الرؤيا... هي مجرد تذكير لترتيب المشكلات المبعثرة الصغيرة التي تقلقنا. انظري إليها على هذا النحو. تذكير ودّي من العلي القادر. رغم أنني متأكد أنه لا تزال أمامك سنوات عديدة مفيدة وسعيدة. إنه ببساطة يريدك أن تكوني على استعداد. العريس الذي ينتظر العذارى الذكيات. إذا كنت تذكرين... الزيت في المصابيح...»

«لقد مضت أربعة عقود،» قالت السيدة مانرنغ بلهجة جافة، «منذ كنت شابة وعذراء. ولم أدّع أبداً أنني ذكية.»

«ولكن كلنا أطفال في نظره.»

«فجأة يبدو كل شيء وقد تقهقر مبتعداً عني.»

تذكرت أن تدعوه لتناول المزيد من الشاي، وقَبِل ذلك.

«لقد عشت حياة فاضلة بقدر ما استطعت. وقد ربيت ثلاثة أطفال، كلهم في حالة جيدة. لقد تمتع زوجي بكل عناية وراحة. كانت بيتي مفتوحاً للأصدقاء والأقارب. لقد كنت، كما أعتقد أنك قد توافق، عضوة مخلصة في الكنيسة، رغم أنني أنشئت في الكنيسة المنهجية التي هي مختلفة بعض الشيء. ومع ذلك فالرب هو الرب.»

وهل يتوجب عليها أن تموت؟

«كنت أفضل لو أنني لم أعرف أيَّ شيء عن الأمر. كنت أفضل لو أنني مت في نومي دون أن أعرف. لا أريد أن أعرف.»

لم تكن بيده حيلة، وهو يبلل سبابتيه لالتقاط الفتات.

قال: «في أي وقت تتعرضين فيه للمضايقة فإنَّ زوجتي وأنا...»

«العدو الأخير،» قالت بحزن.

«ربما الصديق الأخير؟»

هزت رأسها بالنفي.

«لن أكون صادقة تماماً إذا وافقتك.»

رأت يده تتحرك نحو قبعته ثم تعود إلى مكانها.

قالت: «لقد كنت في غاية اللطف. لقد كنت لطيفاً جداً.»

«أشعر أنني عديم الجدوى. رغم أنني كنت أريد كثيراً مساعدتك.»

«لقد قمت بأفضل ما يمكنك. ليس بإمكان أحد فعل المزيد.»

«في أي وقت يا سيدة مانرنغ. في أي وقت.»

إذ إنَّ وقته لم يكن أبداً ملكاً له.

تحت تأثير حافز مفاجئ أعدت حقيبة وأمضت أسبوعاً عند ابنتها الكبرى. لقد أرادت أن تكون ذات فائدة بحيث يمكنها أن تختبئ. إذ أنها في هذه الغرفة الإضافية الضيقة ذات الستائر المتواضعة والأثاث المدهون شعرت بالأمان. من الصعب أن يستطيع الفارس عبور عتبة غريبة دون أن يكون مدعواً. حتماً لن يفكر أن يبحث عنها هنا.

بين ضجة الحياة العائلية اليومية، الملأى بالتفاصيل المطمئنة، حرصت على أن تكون لطيفة وذات فائدة. وقد كانت على الرحب والسعة في قدومها وذهابها. لم تكن هذه حياتها بل حياتهم.

فيما بعد زارت ابنتها الأخرى. ثم زارت ابنها. وفي كل بيت، رغم أنهم كانوا يريدونها لنفسها، فإنهم لم يكونوا يريدونها لأنهم بحاجة لها. عادت إلى البيت. حنت رأسها منكبّة على غطاء المذبح ساعات وساعات. أكملته.

«لماذا؟» سألت نفسها، «لماذا؟»

إذ ما هو مغزى الحياة حين تكون قد انتهت؟ وما الفائدة؟ لقد كانت رغم كل شيء مسألة عادية جداً. إنها لم تقم بأي شيء ذي أهمية بعد كل هذه السنين.

دقت الساعة بنشاط كل واحدة من ساعاتها الباقية، وتمزق التقويم بحدة في كل يوم من أيامها الباقية، ومالت الفصول نحو الفراغ.

عانت أكثر أنواع الحزن مرارة، حزن الشفقة على الذات. الذات المسكينة التي حلمت بالكثير، حلمت بنضارة شديدة، في الأيام التي ولّت. أغرقت نفسها في بحر من الغسيل والكوي والطبخ والرفو والتنظيف، في الثرثرة المحبّة البيتية. هي التي في الواقع لم يكن أحد راغباً بها، أي من أولئك الذين ضيعت نفسها من أجلهم. المواهب التي دفنت. الوعد الذي لم يحقق.

عند نهاية الشهر أخذت غطاء المذبح إلى الكنيسة وتلقت الامتنان.

«كيف تشعرين يا سيدة مانرنغ؟» سأل القسيس وعيناه قلقتان.

لقد فشل في مساعدتها.

«أعتقد»، قالت برفق، وقد عاد تفكيرها ينصب على نفسها، «لا بد أن الكركند كان السبب.»

لم تفشل هي في مساعدته.

«إننا لا نستطيع وزن مقدار من النار، ولا قياس مقدار من الريح»، قال متأملاً، «ولا أن نستدعي من جديد اليوم الذي فات. إذ كيف يمكن أن يتوقع منها أن نفهم؟ لا يمكننا سوى القبول، بشجاعة وإشراق، وبما يتوفر لدينا من الإحسان.»

«كنت منهكة الأعصاب،» قالت السيدة مانرنغ. «يجب أن أطلب منك أن تسامحني.»

في عصر ذلك اليوم دخلت أكبر محل للأدوات الفنية في المدينة وانتقت مجموعة محترمة من الألوان الزيتية. هذا التبذير الذي يصعب تبريره سيجعلها تقنن بعض الضروريات. ولكن لم يكن ذلك مهماً. لا فائدة ترتجى من شراء معطف شتائي جديد، إذا كانت سترتديه فصلاً واحداً فقط. ولكيلا يتحول طموحها المندفع وكأنه يلتهب في داخلها الآن إلى رماد. اشترت كتاباً اسمه **كيفية الرسم بالألوان الزيتية**.

استدع لي من جديد اليوم الذي فات. استدع لي ذلك اليوم. ذلك اليوم حين كانت بعد دوام المدرسة، في مسرح المدرسة، وقد تحررت على نحو غير متوقع، ترسم المشاهد إلى أن تتشنج يدها. ذلك اليوم حين صاحت لدى رؤية مهرجان من الألوان يلتهب على رقعة اللوحة، «من هذا؟» وأجابوها. ماثيو سميث Matthew Smith. استدع لي من جديد تلك الأيام التي فاتت. ولكن، وكانت تلك بالطبع هي النقطة المريرة المحتمة، ليس ذلك اليوم حين قال أبوها وتفكيره منصب على المستقبل، «ستتعلمين الاختزال وضرب الآلة الكاتبة، وسترسمين في أوقات فراغك.» لأنه بالطبع لم يكن هناك أي وقت

فراغ قط. الزمن لا يعطى ولكن يؤخذ، أو أنه يمضي في طيرانه وهو يذكرك عند مرحلة انعطاف لاحق أنك لم تقم بفعل أي شيء.

عثرت على ثلاث لوحات قديمة ورهيبة، سعر كل منها بضعة شلنات، وأصرت على أن تقوم هي بحملها بنفسها إلى البيت في تلك اللحظة.

«هذه لوحات بديعة يا سيدتي»، قال صاحب محل المهملات، وهو ينقب. «إن لديك عيناً متذوِّقةً للفن. أجل.»

عين متذوقة للفن؟ شموس الغروب هذه وهي تلفح صبايا كئيبات؟ بقرات المسرح هذه ذات الأقدام المتعثرة في عشب وردي اللون على شكل غير محتمل؟ هذا الوادي النجدي البني والمهدم والكئيب على نحو يثير الفزع في قلب أكثر الاسكتلنديين تعصباً؟

صاحت السيدة مانرنغ: «يا للسماوات، إنني لم أبتعها من أجل فنها، بل من أجل إطاراتها.»

واشترت أيضاً قماش لوحات وغراء ومسامير كبس. وفي الساعة الخامسة تناولت الشاي في مقهى وهي تراقب من خلال النافذة العابرين.

أمضت المساء وهي تعمل بأصابع تتزايد رشاقتها، مكونة ثلاث رقع باهرة بيضاء من الفراغ غير المرسوم. ثم تناولت الطعام واستحمت وأوت إلى السرير وهي تشعر بالأسف. صلت أن تبقى حية حتى الصباح، إذ إنّ اللوحة الأولى قد تشكلت في عقلها.

وجدها دونالد باركر منهمكة ومستغرقة، وجلي يوم كامل مصفف على رفوف التنشيف، وأصابعها مشرقة بالألوان. مسحت يدها بصبر نافذ بخرقة من القماش.

«جئت لأسألك كيف تشعرين، أيتها المرأة الصحيحة الجسم إلى درجة تبعث على الاشمئزاز،» صاح، وهو يبدو مشرقاً ومتورداً وبردان بسبب الصقيع.

«لا يمكنك أن تنتظر حتى تكتمل هذه،» قالت أولاً، وهي تدير اللوحة بحيث لا يراها، ثم أضافت، «إذن أنت تعتقد أن الأطباء يعرفون كل شيء؟.»

«هل يعرف المرضى أكثر؟»

«أحياناً. ولكنني ممتنة لزيارتك يا دونالد، وأشكرك مرة أخرى.»

«لم أكن أعرف أنك فنانة.»

«من المحتمل أنني لست فنانة.»

شعر بالحيرة، فقد كانت دائماً تلح عليه أن يبقى ليتحدثا. بلا انتباه دعته لتناول القهوة وشعرت بالامتنان حين رفض.

«كنا نفكر أنا وإيفلين Evelyn، أنك وحيدة إلى حد كبير في هذه الأيام. هل تودين تناول العشاء معنا في أحد أيام الأسبوع القادم؟»

«سيسعدني ذلك. في يومي الثلاثاء والخميس سأذهب إلى المسرح. وما عدا ذلك ليس لدي أي ارتباط.»

«يا إلهي. هل حصلت على إرث يا جولي؟»

قالت بفتور: «لا، لكنني أنوي أن أصرف ما كنت سأورثه على نفسي بدلاً من تركه من أجل مستقبل شخص آخر.»

جلس دون أن تدعوه للجلوس.

«ما الذي يزعجك يا جولي؟.»

ترددت، لكن كانت تمتد بينهما سنوات من الثقة، لم تنقطع، على شكل سلسلة ودية.

«حلمتُ أنني سأموت، واتخذ الأمر صبغة نهائية، ولم يكن باستطاعة أحد مساعدتي. ثم خطر لي أنني أنا وحدي الذي أستطيع مساعدة نفسي، وفكرت في المواهب المدفونة ونقبت عن إحداها وأخرجتها. كيلا أذهب ويديَّ

فارغتان إن صح التعبير. إنها موهبة علاها شيء من الصدأ، لكن المتعة لا تقل عن أي وقت مضى.»

«جولي، ليس بك علة من الناحية الجسمية.»

«إنني أصدقك. ولكننا لا نعرف سوى الأشياء غير الهامة مثل الطقس والأسعار. أما الأحداث الكبيرة فإنها تحدث خارج حساباتنا. إنني على سبيل المثال أدرك تماماً أن هذا البيت بحاجة إلى ديكور جديد. وهناك جزء مني يشعر بالرعب مما أقوم بفعله بدلاً من ذلك. ولكن في داخلي، حيث أعرف حقاً، أشعر أن طريقتي صحيحة. وفي النهاية حتى سخافاتنا يجب أن تكون خاصة بنا.»

رفع كتفيه معبراً عن اللامبالاة.

«خصصي أمسية لنا على كل حال. خابري إيفيلين واتفقي معها على الموعد.»

«شكراً لكما كليكما. سأخابرها غداً.»

هز رأسه، وأدرك أنها تنتظره أن يذهب، وذهب.

استدع لي من جديد اليوم الذي فات. هناك أيام كثيرة يجب استدعاؤها ثانية. شموع من السعادة، تضيء البقع الرمادية والسوداء من ذكرياتها. الشعور بالنشوة حين ولدت أطفالها. الإحساس بكونها هي وجاك Jack حصناً منيعاً في سنوات زواجهما الأولى. المغزى الهائل لإبريق من الحليب على طاولة المطبخ تحت شمس الصباح؛ للضحك، والبهجة التي كانت أعمق من الضحك؛ للحزن العنيف والمرير إلى درجة أنه كان مطهراً وتركها نظيفة؛ للوجوه والصداقات والحنان المبارك؛ للبدايات الجديدة والشجارات القديمة.

كل هذه الأشياء شعرت بها فيالق من الناس قبلها، وستشعر بها فيالق لاحقة. وفجأة، وهي ترسم متبلدة الأحاسيس «الطبيعة الصامتة» التي لن تستطيع حتى بعد ألف عام أن تلمس حافة رداء ماثيو سميث البراق، أحست بالفارس على حصانه الشاحب.

عبقت الغرفة بالصمت.

أخذت تفكر: ولكنني أحيا بحيوية كبيرة الآن. لماذا؟

ببطء شديد، وهي تقبض بقوة على فرشاتها ولوح ألوانها مستمدة منهما الشجاعة، واجهته. وأمال هو خوذته بعناد ولكن بأدب. كان كل منهما يعرف الآخر، هو وهي. استراح قفاز الدرع بخفة على لجام الحصان. وكان الحصان نفسه رهيباً وجميلاً إلى حد لا يصدق. العينان السوداوان الناعمتان. الجلد الحليبي. الغطاء الشديد الحسن والبهاء. آه كم تتمنى لو أنها ترسم... ولكن لن تستطيع خلال مليون سنة... ولا حتى ماثيو سميث... رامبرانت ربما... أبداً لن تستطيع هي. بين الرؤيا واللوحة تخبط فرشتها التي تعوزها الفصاحة. كان يقف هناك، جزء لا يتجزأ من الحياة التي سوف ينهيها. هل هو اللغز الأخير؟ أو فقط الرسول؟ علامة الطريقة التي تؤشر إلى مكان آخر.

الشموع المرتعشة في الريح الليلية. البحار المجهولة.

تذكرت أيامها المجوهرة وتزايد بريق تلك الأيام. لقد بدا لها الآن – وقد زادتها الأبدية حدة في التفكير – أنه لم تسعد مثلها أية امرأة قط. كيف كان بإمكانها ألا تعرف؟ كانت مشغولة بالتجربة إلى حدٍّ أن الحساب لم يُجْرَ قط. حياة حافلة – فكرت باعتزاز – تستحق أن يحصدها فارس الرؤيا الرابع.

«حين تريد، وبالشكل الذي تريده إذن،» قالت السيدة مانرنغ وجلست على كرسي لكي تموت بأكثر ما يمكن من اللياقة.

هل كان هناك وميض من الدعابة خلف الخوذة؟ أم هل بلغ الرسالة المنْويِّة؟ إنه يجب عليها وهي تواجه الموت أن تستغل ما تبقى لديها من الوقت على خير وجه. إنه لا يجب عليها بأي شكل أن تأسف على حياة عادية وجيدة مثل الخبز والزبدة. كلاهما كان ضرورياً.

سار الجواد والراكب. راقبتهما وقد أصبحا صغيرين إلى حد غير متناه، ومع أنها شعرت بالارتياح، فإنها شعرت أيضاً بالأسف. مثلما يتذكر شخص

استضاف الأسرة الملكية بناء على دعوة مسبقة لتناول الشاي في عزبة في الضواحي أن البيت غدا أصغر حجماً بعد ذهابهم.

وجدها القسيس – وقد دفعته للقدوم طبيعته الخاصة وطبيعة رسالته – تتأمل لوحة صغيرة مرضية جيداً تمثل طبقاً من الفاكهة وزجاجتي نبيذ فارغتين وصحيفة مسائية.

«يا للموهبة!.» صاح وقد سرته المفاجأة.

ووجدت هي، وهي تلتفت إليه بعينين جديدتين مضايقته لها بحد ذاتها، شيئاً ثمنياً.

«إنك تبدين أكثر سعادة،» قال، وقد أدخل الارتياح على نفسه وجود شخص على الأقل لا ينوي التوجه إليه بطلب.

«لقد اكتشفت،» قالت السيدة مانرنغ برزانة، «إنني أستطيع استدعاء اليوم الذي فات من جديد.»

قال القسيس، وقد دُغدغت روح الدعابة والحكمة لديه، «وهل ذلك أمر مفيد؟»

«لقد وجدت،» قالت السيدة مانرنغ، وهي تتأمل بمتعة اللوحة الثانية، «أن ذلك يعمق اليوم الحاضر، ويلقي النور على اليوم الذي سيأتي.»

حين رآها تأتي بأفضل الفناجين لديها على شرفه قال، بنفس القدر من الجفاف والرزانة التي استعملتها في جوابها له: «إذن كل ما نحتاجه هو أن نزن النار ونقيس الريح، وحين ذلك تكونين قد حصلت على الجواب الذي تريدينه.»

«آه! حلوى القهوة بالجوز.. الحلوى المفضلة لدي»، وقد تشتت انتباهه للحظة.

وتابع برقة، «ربما استطعت أن تنوريني فأنا غالباً في الظلام.»

واستقر على كرسيه لتناول طعام أقل رفعة.

إليزابيث غاسكل

زوجان من مانشستر(١)

إليزابيث غاسكل (١٨١٠–١٨٦٥) كاتبة روائية وقصصية بريطانية من العصر الفكتوري. كتبت العديد من الروايات والروايات القصيرة novellas والمجموعات القصصية، ونقل الكثير من أعمالها إلى التلفزيون على شكل مسلسلات متعددة الحلقات أو أفلام قصيرة. كانت تربطها صداقة حميمة بالكاتبة تشارلوت برونتي Charlotte Brontë كما كان يزورها وزوجها العديد من المشاهير منهم تشارلز ديكنز Charles Dickens والكاتبة الأمريكية هارييت بيتشر ستاو Harriet Beecher Stowe. ركزت غاسكل في أعمالها على قيم استيعاب جميع الأديان والتسامح الديني.

أتى السيد أوبنشو Openshaw وزوجته من مانشستر إلى لندن. كان الزوج فيما سبق يعمل – حسب التسمية المستعملة في لانكاشير Lancashire – بصفة مندوب مبيعات لشركة صناعية كبيرة، وسَّعت عملها وافتتحت مستودعاً لبضائعها في المدينة، حيث سيشرف السيد أوبنشو على شؤونه.

---

(١) هذه ترجمة قصة "The Manchester Marriage" للكاتبة Elizabeth Gaskell. والترجمة الدقيقة للعنوان هي "ألزواج المانشستري." نشرت القصة في مجلة **كلمات منزلية** *Household Words* في العدد الخاص بعيد الميلاد، عام ١٨٥٨.

وقد استمتع إلى حد ما بالتغيير، فقد كان لديه بعض الفضول حول لندن، لم يسبق أن أشبعه في زياراته المختصرة للمدينة الكبرى. في الوقت نفسه، كان يشعر باحتقار غريب ولاذع لسكانها، الذين يصورهم لنفسه دائماً على أنهم أشخاص أنيقين كسالى، لا يهتمون بشيء سوى التقليعات في الأزياء والأرستقراطية، ويمضون أيامهم في التسكع في شارع بوند Bond والأماكن المماثلة، ويخربون اللغة الإنغليزية السليمة، وهم على استعداد بدورهم لاحتقاره بصفته شخصاَ ريفياً. كما صدمته ساعات العمل التي يطبقها رجال الأعمال في المدينة، إذ كان معتاداً على وجبات العشاء الباكرة، التي هي من عادات سكان مانشستر، وما يتبعها من أمسيات أطول جداً. لكنه مع ذلك سُرّ بالذهاب إلى لندن، رغم أنه لم يكن ليعترف بذلك، حتى لنفسه، بأي حال من الأحوال، وكان دائماً يتحدث مع أصدقائه عن هذه الخطوة على أنها من متطلبات مصالح أرباب العمل وعلى أن زيادة كبيرة في راتبه جعلتها أقل وطأة. كانت هذه الزيادة في الواقع كريمة إلى حد يبرر له أن يحصل على منزل أكبر جداً من المنزل الذي اختاره، لولا أنه شعر بأن من واجبه أن يجعل من نفسه مثالاً لأهالي لندن عن قلة اهتمام رجل أعمال من مانشستر بالمظاهر. لكنه وفر في داخل المنزل درجة غير معتادة من وسائل الراحة، ففي الشتاء كان يصر على أن تكون نيران المدفأة عالية إلى أقصى حد يسمح به مَنْصَبُها في كل غرفة فيها شيء من البرودة مهما كان ضئيلاً. وفوق ذلك، فإن إحساسه بواجب الكرم في الضيافة كان قوياً بحيث أنه حين يكون في المنزل قلّ أن سمح لزائر بالخروج قبل أن يفرض عليه اللحوم والشراب. وتوفر لكل خادم وخادمة في البيت مقداراً كبيراً من الدفء والطعام والمعاملة الكريمة، فقد كان سيدهم يزدري كل جهود الاقتصاد التافهة في أي شيء يساعد على توفير الراحة، في حين كان يسلي نفسه باتباع جميع عاداته المألوفة وأساليبه الفردية، متحدياً ما قد يفكر به جيرانه الجدد.

كانت زوجته امرأة جميلة لطيفة، تناسبه في سنها وشخصيتها. كان هو في الثانية والأربعين وهي في الخامسة والثلاثين. كان صوته عالياً ولا يتردد في اتخاذ القرارات، وهي خافتة الصوت ومتقبلة. كان لهما طفلان، أو يجب بالأحرى أن أقول إنه كان لها طفلان، إذ أن الطفلة الأكبر البالغة أحد عشر عاماً كانت ابنة السيدة أوبنشو من فرانك ويلسون Frank Wilson، زوجها الأول. والطفل الأصغر كان صبياً يدعى إدوين Edwin، لم يكن يستطيع التفوه بأكثر من ثرثرة الأطفال التي لا تُفهم، وكان والده يجد سروراً كبيراً في التحدث إليه بأكثر لهجات لانكاشير تحرراً من القيود واستعصاء على الفهم، من أجل الحفاظ على ما يسميه اللهجة الساكسونية الصحيحة.

كان اسم السيدة أوبنشو الأول آليس Alice، وكان زوجها الأول ابن عمها. كانت يتيمة وابنة أخ قبطان بحري في ليفربول Liverpool، وكانت وهي في سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة مخلوقة هادئة رصينة صغيرة الحجم تحظى بمفاتن شخصية عظيمة، ذات قسمات متناسقة وبشرة مزدهرة. لكنها كانت شديدة الخجل، وتعتقد أنها غبية وخرقاء جداً، وكانت تتعرض للتأنيب المتكرر من زوجة عمها الثانية. لذلك حين عاد ابن عمها فرانك ويلسون إلى بيته بعد غياب طويل في البحر، وكان في البداية لطيفاً معها ويدافع عنها، ثم ثانياً مولياً اهتمامه لها، وثالثاً، واقعاً في غرامها إلى حد مستميت، لم تكد تعرف كيف تكون ممتنة له امتناناً كافياً. صحيح أنها كانت تفضل لو أنه بقي في المرحلتين الأولى والثانية من سلوكه معها، لأن حبه العنيف حيرها وأرعبها. أما عمها، فلم يشجع قصة الحب ولم يقف في طريقها، رغم أنها كانت تجري تحت ناظريه. وكان لزوجة والد فرانك مزاج متقلب، بحيث ما كان من الممكن معرفة ما إذا كانت ستحب غداً ما تحبه اليوم أم لا. ولكنها في النهاية وصلت إلى درجات متطرفة من الانزعاج جعلت آليس تشعر بالسرور بأن تغلق عينيها وتندفع بشكل أعمى لتقبل فرصة الهرب من الطغيان المنزلي التي وفرها لها الزواج من ابن عمها، وباعتبار

أنها كانت تميل إليه أكثر من أي شخص في العالم (باستثناء عمها الذي كان في تلك الأثناء يجوب البحار)، خرجت ذات صباح وتزوجته، وكانت وصيفة عرسها الوحيد خادمة امرأة عمها. نتيجة لذلك، انتقل فرانك وزوجته إلى بيت مستأجر، ورفضت السيدة ويلسون مقابلتهما، وطردت نورا Norah الخادمة ذات القلب الدافئ، والتي بناء عليه أصبحت خادمتهما. وحين عاد القبطان ويلسون من رحلته البحرية، أبدى للزوجين الشابين الكثير من الود، وأخذ يمضي الكثير من الأمسيات في بيتهما المستأجر يدخن غليونه ويحتسي مشروبه الكحولي، لكنه أخبرهما أنه من أجل الحصول على الهدوء لا يستطيع أن يدعوهما إلى بيته، لأن زوجته تشعر بالمرارة تجاههما. لكن ذلك لم يقلل كثيراً من سعادتهما.

استقرت بذرة التعاسة المستقبلية في مزاج فرانك المتقد والانفعالي، الذي جعله يستاء من حياء زوجته وافتقارها إلى إظهار مشاعرها، ويعتبرهما إخفاقين في واجبها كزوجة. وقد بدأ فعلاً يعذب نفسه، ويعذبها أيضاً إلى درجة أقل، بمخاوفه وتخيلاته عما يمكن أن يحصل لها خلال غيابه الوشيك في البحار. وفي النهاية، ذهب إلى أبيه وحثه على الإصرار على استقبال آليس مرة أخرى تحت سقفه، خاصة بوجود احتمال أن تلد أثناء غياب زوجها في رحلته. كان القبطان ويلسون، حسب تعبيره هو، يقترب من نهايته ولم تكن لديه الرغبة في التعرض للإثارة الناجمة عن ثورة من الغضب، لكنه شعر أن ما يقوله ابنه صحيح، لذلك ذهب ليفاتح زوجته. وقبل أن يرحل فرانك، ارتاح لرؤية زوجته وقد أعطيت عليّة صغيرة قديمة في منزل والده. أما وضعها في أفضل الغرف الاحتياطية فقد كان خطوة تتجاوز دوافع الخضوع أو الكرم لدى السيدة ويلسون. لكن أسوأ ما في هذا الأمر هو أن نورا المخلصة تعرضت للطرد، فمكانها كخادمة لم يعد شاغراً، وحتى لو كان شاغراً، فهي قد خسرت حسن ظن السيدة ويلسون بها إلى الأبد. لكنها عزّت سيدها وسيدتها الشابين بتنبؤات سارة عن زمن آت يكون لهما فيه أسرة

خاصة بهما، وأياً ما كان المكان الذي تخدم فيه في ذلك الوقت، فمن المؤكد أنها ستصبح جزءاً من أسرتهما. وكان آخر عمل يقوم به فرانك تقريباً قبل أن يبحر، هو اصطحاب آليس لرؤية نورا مرة أخرى في بيت أمها، ثم رحل.

ازداد حمو آليس وهناً بشكل مضطرد مع تقدم الشتاء. وقد كانت ذات فائدة كبيرة لزوجة عمها في تمريضه وتسليته، وعلى الرغم من وجود ما يكفي من القلق في المنزل، فقد ساد السلام ربما أكثر من أي وقت منذ سنوات طويلة، إذ أن السيدة ويلسون لم تكن سيئة الطوية، وقد لانت بتأثير ما ظهر من اقتراب موت من تحب، كما أثر فيها حال المخلوقة الشابة الوحيدة، وهي تنتظر أول ولادة لها في غياب زوجها. وهذا المزاج من اللين والشفقة هو الذي سمح لنورا بأن تأتي وترعى آليس عند ولادة طفلتها، وأن تبقى للعناية بالقبطان ويلسون.

قبل أن تصل رسالة واحدة من فرانك (الذي أبحر إلى جزر الهند الشرقية والصين)، توفي والده. وكانت آليس تشعر دائماً بالسرور لأنه أمسك بطفلتها بين ذراعيه وقبلها وباركها قبل موته. بعد ذلك وما تلاه من فحص للأوضاع، تبين أن القبطان خلّف من الأملاك أقل جداً مما توقعه الناس، الذين بنوا حكمهم على أسلوبه في الحياة، وقد وهب ما بقي لديه من مال لزوجته ووضعه تحت تصرفها بعد وفاته. لكن هذا لم يعنِ الكثير بالنسبة لآليس، باعتبار أن فرانك أصبح الضابط الأول على سفينته، وسيصبح قبطاناً بعد رحلة أخرى أو رحلتين. كما أنه ترك لها ما يزيد على مائتي جنيه (وهي كل مدخراته) في المصرف.

حان الوقت ليصل إلى آليس خبر من زوجها. لقد وصلتها رسالة من رأس الرجاء الصالح، وكان المفروض أن تعلن الرسالة التالية وصوله إلى الهند. وحين مر أسبوع تلو الآخر ولم يصل إلى مكتب أصحاب السفينة ما ينبئ أنها وصلت إلى هناك، وكانت زوجة القبطان في الحالة نفسها من القلق الناتج عن الجهل بما جرى مثل آليس، فقد ازدادت قسوة مخاوف آليس. وبعد

طول زمن، أتى اليوم الذي أخبرها فيه مكتب الشحن إجابة على استفسارها أن أصحاب السفينة – التي تدعى بتسي-جين Betsy-Jane – لم يعد لديهم أي أمل في سماع أي شيء عنها، وأنهم أرسلوا مطالبتهم إلى الجهة المؤمنة عليها. والآن بعد أن ذهب زوجها إلى غير رجعة، شعرت في البداية بحب مليء بالشوق والحنين لابن عمها وصديقها العزيز وحاميها العطوف الذي سوف لن تراه ثانية على الإطلاق – شعرت في البداية برغبة جامحة لأن تريه طفلته، التي حتى الآن كانت كل رغبتها تنحصر في الاحتفاظ بها لنفسها، ملكية لها لا يشاركها أحد بها. لكن حزنها كان صامتاً وهادئاً – مما صدم السيدة ويلسون، التي ناحت على ابن زوجها كما لو أنها عاشت دائماً معه في انسجام كامل، والتي من الواضح أنها اعتقدت أن واجبها يملي عليها أن تطلق العنان لدموعها كلما قابلت شخصاً غريباً، مسهبة في الحديث عن حالة أرملته الحزينة وعجز الطفلة اليتيمة، بحماسة زائدة وكأنها تحب الإثارة الكامنة في القصة المحزنة.

هكذا مرت الأيام الأولى بعد ترمّل آليس. ثم شيئاً فشيئاً انحسرت الأمور لتعود إلى مجراها الطبيعي والساكن. لكن كما لو أن هذه المخلوقة الشابة حكم عليها بأن تكون دائماً عرضة لمشكلات كبيرة، فقد بدأت صحة حِمْلها الصغير تعتل وينحل جسمها وتمرض. وتبين أن مرض الطفلة الغامض هو مرض في النخاع الشوكي، من المرجح أن يؤثر على الصحة دون أن يقصِّر الحياة – على الأقل هذا ما قاله الأطباء. لكن من الصعب التطلع إلى معاناة طويلة حزينة لمخلوق تحبه أمه مثلما تحب آليس طفلتها. ولم يخمن أحد ما تشعر به آليس سوى نورا، ولم يعرف أحد معرفة اليقين سوى الله.

وهكذا فإنه حين جاءت السيدة ويلسون الكبرى إلى آليس في أحد الأيام وهي في حالة عنيفة من الحزن الناجم عن نقصان لا يستهان به في قيمة الملكية التي تركها لها زوجها، وهو نقصان جعل دخلها لا يكاد يكفي لأن تعيل نفسها، ولا يكفي لإعالة آليس، لم تتمكن آليس من فهم كيف يمكن لشيء

لا يؤثر على الصحة أو على الحياة أن يسبب حزناً كهذا، وسمعت الخبر بتمالك للأعصاب مثير للسخط. ولكن حين أحضرت الطفلة الصغيرة المريضة في فترة الظهر من اليوم نفسه، وبدأت الجدة – التي في الواقع كانت تحبها كثيراً – تندب خسائرها من جديد على مسامع الطفلة غير الواعية، وتقول إنها كانت تنوي استشارة هذا الطبيب أو ذاك، وأن توفر لها وسيلة الراحة هذه أو تلك بعد سنوات، لكن الآن فاتت فرصة كل ذلك، فقد لمس ذلك قلب آليس واقتربت أكثر من السيدة ويلسون وعانقتها على نحو غير مألوف، وبروح لاتختلف عن روح روث،(١) توسلت لها أن تبقيا معاً مهما حصل. وبعد الكثير من النقاش في الأيام التالية، تم ترتيب أن تحصل السيدة ويلسون على منزل في مانشستر، وتؤثثه جزئياً بما لديها من مال وتؤمن باقي الأثاث بالمئتي جنيه المتبقيتين لآليس. كانت السيدة ويلسون نفسها من مانشستر، ومن الطبيعي أن تتوق إلى العودة إلى بلدتها، كما أن بعض معارفها كانوا في ذلك الوقت بحاجة إلى منزل مُستأجَر، وكانوا مستعدين أن يدفعوا أجرة جيدة جداً. تولت آليس الإشراف الفعلي والعمل الأرفع مقاماً في المنزل، وتطوعت نورا، نورا المخلصة والمستعدة للعمل عن طيب خاطر، بالقيام بالطبخ والتنظيف وباختصار بكل شيء، مقابل مجرد البقاء معهم.

نجحت الخطة لبضع سنوات، وبقي مستأجروهم الأوائل معهم، وكل شيء جرى بلا عقبات – باستثناء وحيد، هو ازدياد تشوه الطفلة. وليس للكلمات ان تعبر عن مدى حب الأم لتلك الطفلة!

ثم جاء فاصل من سوء الحظ، فقد غادر المستأجرون ولم يخلفهم أحد. وبعد بضع شهور، اصبح من الضروري الانتقال إلى منزل أصغر، ووقع ضمير آليس الرقيق تحت عذاب فكرة أنها يجب ألا تكون عبئاً على حماتها،

---

(١) في العهد القديم، تطلب حماة روث Ruth منها العودة إلى أهلها بعد أن توفي زوجها كي يتاح لها الزواج من جديد، لكنها ترفض وتقول لحماتها: "سأذهب حيث تذهبين وأسكن حيث تسكنين."

بل عليها ان تخرج وتبحث عن إعالة خاصة بها. وتترك الطفلة! ووقعت الفكرة على قلبها مثل الصوت الجارف لجرس الجنازة عندما يقرع.

بعد مضي بعض الوقت، أتى السيد أوبنشو ليسكن معهم. كان قد بدأ حياته كساعٍ وكنّاس لحساب أحد المخازن، وكافح صعوداً من درجة من الوظائف إلى أخرى، يناضل وهو يشق طريقه عبر الحياة في مانشستر الصعبة على الكفاح، بطاقة دافعة في شخصيته. وكان صارماً في تكريس كل لحظة فراغ من وقته لتعليم الذات. كان محاسباً ممتازاً، ودارساً جيداً للغتين الفرنسية والألمانية، وتاجراً متوقد الذكاء بعيد النظر، يفهم الأسواق وعواقب الأحداث، القريبة منها والبعيدة، على التجارة، ومع ذلك يتمتع باهتمام حي بتفاصيل الحاضر، إلى حد أنني لا أعتقد أنه كان يرى مجموعة من الزهور في الحقول دون أن يفكر ما إذا كانت ألوانها تشكل تباينات متناغمة في الأقمشة القطنية والأقمشة المطبوعة التي ستصنَّع للربيع القادم. كان يرتاد جمعيات النقاش ويرمي بنفسه في السياسة بكل روحه وقلبه، لكن لا بد من الإقرار بأنه كان يقيّم كل رجل أحمقاً أو محتالاً إذا اختلف معه، ويتغلب على خصومه بارتفاع صوته وعنف لغته وليس بقوة منطقه الهادئة. كان هناك في هذا كله شيء من طبع الأمريكي القادم من الولايات الشمالية (اليانكي)، ونظريته كانت موازية للشعار الأمريكي المشهور: "إنغلترا تجلد جميع المخلوقات، ومانشستر تجلد إنغلترا." وكما قد يتخيل البعض، لم يكن لدى رجل كهذا وقت للوقوع في الحب، أو لأي هراء من هذا القبيل. وفي العمر الذي ينشغل فيه معظم الشباب باكتساب ود الفتيات وبالزواج، لم تتوفر له إمكانية إعالة زوجة، وكان عملياً جداً بحيث لم يفكر بالزواج. والآن بعد أن أصبحت ظروفه سهلة، وصار رجلاً صاعداً، اعتبر أن النساء يكدن أن يكن عقبات العالم، وأن من الأفضل للرجل أن يكون تعامله معهن محدوداً إلى أبعد حد ممكن. كان انطباعه الأول عن آليس غير واضح. لو أحرج واضطر إلى وصفها لقال: "امرأة حلوة من النوع الذي يقتصر على نعم ولا." كان يخشى

في البداية أن تكون أساليبها الهادئة نابعة من شخصية فاترة الهمة كسولة، وهذا سيكون متنافراً إلى حد بعيد مع طبيعته النشيطة المليئة بالحيوية. ولكن حين اكتشف الدقة التي تلبى بها رغباته ويتم بها عملها، حين كان يُدعى في الصباح تماماً عندما تعلن الساعة مرور ساعة، ويجد ماء الحلاقة الذي سيستعمله حاراً جداً، ونار مدفأته ساطعة، وقهوته محضرة بالضبط كما تشتهيها نفسه (فقد كان رجلاً له نظرية حول كل شيء بناء على ما يعرفه من العلوم الطبيعية، وكثيراً ما تكون نظرية أصلية كلياً) – عندها بدأ يفكر، ليس أن آليس تتمتع بأية فضيلة خاصة، بل أنه موفق إلى حد كبير في السكن الذي استأجره، وبدأ تململه يتلاشى، وبدأ يعتبر نفسه أنه قد استقر تقريباً في هذا السكن.

كانت مشاغل السيد أوبنشو في جميع أيامه فيما سبق تمنعه من الاستبطان. لم يكن يعلم بوجود أي حنان في طبيعته، ولو بدأ يدرك وجوده التجريدي، لاعتبره دليل على مرض في أحد أجزائه. لكنه وقع في شرك الشفقة دون أن يعي حدوث ذلك، والشفقة قادته إلى الحنان. الطفلة الصغيرة العاجزة – التي تحملها دائماً إحدى النساء الثلاث ذوات المشاغل، أو في خلاف ذلك تنظم حبات مسبحة ملونة وهي على الكرسي الذي لن تستطيع التحرك منه أبداً بجهدها الخاص وحده – العينان الزرقاوان الكبيرتان الرصينتان، المليئتان بتعبير جدي لا يخلو من البهجة، واللتين تمنحان الوجه الرقيق الصغير مظهراً يتجاوز سنها – الصوت الخافت الحزين الذي لا يصدر سوى بضع كلمات، تختلف جداً عن ثرثرة الأطفال المستمرة – كل هذا استحوذ على انتباه السيد أوبنشو رغماً عنه. وقد قام ذات يوم بعمل كاد أن يحتقر نفسه بسبب فعله، إذ أنه اختصر الساعة المخصصة لغدائه وذهب للبحث عن لعبة ما، لتحل محل حبات المسبحة الأبدية. وقد نسيتُ ما اشتراه، ولكن حين قدَّم الهدية (وقد حرص على أن يفعل ذلك بطريقة موجزة مبتورة، وفي وقت لا يوجد فيه من يراه)، كاد أن يثيره وميض السرور الذي بدا على وجه الطفلة، ولم يستطع منع نفسه طوال فترة الظهيرة من أن يستعيد المرة

تلو المرة الصورة التي تركها في ذاكرته التأثير المشرق الذي أحدثه الفرح المفاجئ على وجه الطفلة. حين عاد إلى المنزل، وجد خفّه المنزلي موضوعاً عند مدفأة غرفة الجلوس، ووجد أن اهتماماً أكبر حتى من المعتاد قد أولي لرغباته في هذا السكن النموذجي. وبعد أن أزالت آليس آخر أغراض الشاي الذي شربه – وقد كانت صامتة كالمعتاد حتى تلك اللحظة – وقفت برهة وهي تمسك الباب بيدها. بدا السيد أوبنشو وكأنه غارق في كتابه، رغم أنه في الواقع لم يستطع رؤية سطر واحد، لكنه كان يرغب من قلبه ان تمضي المرأة في سبيلها، وألا تخوض في أي لغو من الامتنان. لكنها قالت فقط:

"إنني ممتنة جداً لك يا سيدي. شكراً جزيلاً،" ومضت حتى قبل أن يتاح له أن يصرفها بقوله : "حسبك يا سيدتي الطيبة، هذا يكفي!"

بعد ذلك لم يبد أي اهتمام ظاهر بالطفلة لفترة من الزمن. بل إنه جعل قلبه يقسو بأن يتجاهل تدفق اللون المفاجئ إلى وجهها وابتسامتها الخجولة التي تعبر عن معرفتها له، حين تراه بالصدفة. ولكن في واقع الأمر لم يكن من الممكن لهذا الحال أن يستمر إلى الأبد، وبعد أن استسلم للحنان مرة أخرى، لم يحدث ارتداد إلى الوضع السابق. فبعد أن دخل العدو الماكر قلبه على هذا النحو، تحت قناع التعاطف مع الطفلة، سرعان ما اتخذ الشكل الأكثر خطراً، وهو الاهتمام بالأم. لقد أدرك هذا، واحتقر نفسه بسببه، وصارع ضده؛ لا بل في الواقع استسلم له في داخله وتمسك به، قبل وقت طويل من أن يسمح لأي تعبير عنه مهما صغر أن يصدر عنه بالكلام أو الفعل أو النظرة. كان يراقب أسلوب آليس مع زوجة عمها السهل الانقياد والمطيع، والحب الذي ألهبته في قلب نورا الخشنة الطباع (بعد أن دفعه إلى الخشونة ما أتلفه وأبلاه الحزن والزمن)، ولكن فوق كل شيء رأى العاطفة المتقدة العميقة الجامحة التي تربط بين الأم وطفلتها. كانت لا تتحدثان كثيراً مع أي شخص آخر، أو بوجود أي شخص آخر على مقربة، أما حين تكونان على انفراد

معاً، فإنهما تتحدثان وتتمتمان وتهدلان وتثرثران بشكل مستمر إلى حد أن السيد أوبنشو تساءل في البدء ما الذي تجدانه لتقوله إحداهما إلى الأخرى، وبعدها ضايقه أنهما كانتا دائماً وقورتين وصامتتين معه. وفي هذا الوقت كله، كان دائماً يستنبط مسرات صغيرة جديدة للطفلة. واستعرضت أفكاره بشكل متواصل الحياة المقفرة التي تنتظرها، وكثيراً ما كان يعود من عمله في نهاية النهار وهو يحمل الشيء نفسه الذي كانت آليس تتمناه، ولكنها لم تتمكن من شرائه. في إحدى المرات، كان ذلك الشيء كرسي صغير لجر الطفلة المريضة في الشوارع، وفي أمسيات كثيرة في الصيف التالي كان يجرها فيه بنفسه، متجاهلاً تعليقات معارفه. وفي أحد أيام الخريف، وضع جريدته جانباً حين دخلت آليس تحمل طعام الفطور، وقال بصوت غير مبال إلى الحد الذي استطاع الوصول إليه:

"يا سيدة فرانك، هل هناك من سبب يمنعنا نحن الاثنين أن نضع جوادينا معاً؟"

وقفت آليس ساكنة بتعجب محتار. ما الذي يعنيه؟ كان قد استأنف قراءة جريدته كما لو أنه لم يتوقع جواباً، لذلك وجدت الصمت أسلم سبيل تنتهجه، وأخذت بهدوء ترتب إفطاره دون تبادل أية كلمة أخرى بينهما. ولكن عندما كان في سبيله لمغادرة المنزل للذهاب إلى المخزن كالمعتاد، التفت وأدخل رأسه في المطبخ المشرق النظيف المرتب، حيث تتناول جميع نساء البيت إفطارهن في الصباح:

"ستفكرين بما قلته لك يا سيدة فرانك" (كان هذا هو الاسم الذي يخاطبها المستأجرون به) "وأريد معرفة رأيك به الليلة."

شعرت آليس بالامتنان لأن حماتها ونورا كانتا مشغولتين بالتحدث معاً إلى حد أنهما لم تنتبها كثيراً لكلامه. وقد صممت على ألا تفكر به بتاتاً طوال اليوم، وبالطبع فإن الجهد المبذول من أجل ألا تفكر، جعلها تفكر أكثر. في

الليل أرسلت الشاي مع نورا. لكن السيد أوبنشو كاد أن يتسبب بسقوط نورا على الأرض وهي خارجة من الباب، وذلك بأن شق طريقه وهي هناك ونادى: "سيدة فرانك!" بصوت نافذ الصبر من مكانه في أعلى السلم.

صعدت آليس إليه كيلا تبدو وكأنها أعطت معنى لكلامه أكثر مما ينبغي.

قال: "حسن يا سيدة فرانك، ما الجواب؟ لا تطيلي في الإجابة، فلدي مقدار كبير من العمل المكتبي الذي أريد إنجازه الليلة."

قالت آليس الصادقة: "لا أكاد أعرف ما عنيتَه يا سيدي."

"حسن! كنت أعتقد أنك خمنت قصدي. أنت لست جديدة على هذا النوع من العمل، بينما أنا جديد عليه. لكنني سأكون واضحاً هذه المرة. هل تقبلين بي أن أكون زوجاً لك، وأن تخدميني وتحبيني وتحترميني وكل ما إلى ذلك؟ لأنني إن قبلتِ فسأفعل الشيء نفسه تجاهك، وسأكون أباً لطفلتك – وهذا أكثر مما هو موجود في كتاب الأدعية. وأنا رجل أحترم كلمتي، وما أقوله أشعر به، وما أعد به أنفذه. والآن، أعطني جوابك!"

صمتت آليس. وبدأ هو يحضر الشاي، وكأن جوابها كانت مسألة لا تعنيه على الإطلاق، لكن فور انتهائه من ذلك، نفذ صبره.

قال: "إذن؟"

"ما طول المدة المتوفرة لي يا سيدي للتفكير بالمسألة؟"

قال وهو ينظر إلى ساعته: "ثلاث دقائق. وقد مضت حتى الآن دقيقتان، مما يجعل المجموع خمس. كوني سيدة حكيمة وقولي نعم، واجلسي لتناول الشاي معي، وسنتحدث معاً عن الموضوع، لأنني سأكون مشغولاً بعد الشاي؛ قولي لا (وهنا تردد لحظة كي يحاول الحفاظ على نبرة صوته نفسها) ولن أقول لك كلمة أخرى، بل سأدفع إيجار سنة عن سكني وأغادر. انتهى الوقت! نعم أو لا؟"

"إذا سمحت ياسيدي، -- لقد كنت شديد اللطف تجاه إيلسي Ailsie –"

"تعالي اجلسي وارتاحي إلى جانبي على الكنبة ولنتناول الشاي معاً. يسرني أن أجد أن ظني بك أنك طيبة وعاقلة لم يخب.""

وكان هذا هو التودد لآليس ويلسون وخطب ودها الثاني.

كانت إرادة السيد أوبنشو قوية وظروفه جيدة إلى درجة أتاحت له أن يجرف كل شيء أمامه. وقد أمّن للسيدة ويلسون منزلاً مريحاً خاصاً بها وجعلها تستغني عن المستأجرين تماماً. والقليل الذي ذكرته آليس فيما يخص خطط المستقبل كان من أجل نورا.

قال السيد أوبنشو: "كلا، ستعتني نورا بالسيدة المسنة طالما بقيت على قيد الحياة، وبعد ذلك، إما أن تأتي وتعيش معنا، أو إذا فضلت، فستُخَصَّص لها إعالة طول حياتها – من أجل خاطرك يا سيدتي. كل شخص كان لطيفاً تجاهك أو تجاه الطفلة سينال مكافأته. لكن حتى الصغيرة ستكون في حال أفضل بوجود ناس جدد حولها. ابحثي لها عن فتاة ذكية عاقلة لتكون ممرضة لها، فتاة لا تمسح جلد الطفلة بمرهم قَدَم العِجْل كما تفعل نورا، وتضيع مواد جيدة في غير ما ينبغي أن تستخدم له، بل ستتبع تعليمات الطبيب، وهو شيء لا بد أنك ترين بوضوح الآن أن نورا لن تفعله، لأن تلك التعليمات تسبب الألم لتلك الفتاة الصغيرة المسكينة. أنا نفسي لست أرفع من أكون ليناً من أجل الآخرين. يمكنني تحمل ضربة قوية دون أن يتغير لوني أبداً، ولكن ضعيني في غرفة العمليات في المشفى، وسترين أنني سأصاب بالدوار وكأنني بنت. ومع ذلك إذ احتاج الأمر فسأضع الفتاة الصغيرة على ركبتي وهي تصرخ من الألم، إذا كان ذلك سيعود بالفائدة على ظهرها المسكين. كلا، كلا، يا فتاتي! وفري شحوبك للوقت الذي يحين فيه ذلك – ولا أقول إنه سيحين أبداً. لكن هذا شيء أعرفه: نورا ستجنب الطفلة الألم وتغش الطبيب، إن استطاعت. ما أقوله الآن هو أن تعطي الطفلة فرصة عام أو عامين، وبعد ذلك، حين يكون جمع الأطباء قد قام بأفضل ما لديه – وربما تكون السيدة المسنة قد ولّت – فسنعيد نورا، أو نقوم بشيء أفضل تجاهها.

لم يستطع جمع الأطباء تقديم شيء مفيد لإيلسي الصغيرة، فقد كان مرضها يتعدى قدراتهم. لكن أباها (إذ أنه أصر على أن يدعى أباها، وكذلك أصر أن تتخلى آليس بعد الآن عن كلمة "ماما" وتصبح منذ ذلك الحين فصاعداً "أمي") بما له من أسلوب بهيج وسليم، ومن قرار وهدف واضحين، ومن لفتات ونكات فكاهية، إضافة إلى حبه الحقيقي للفتاة الصغيرة العاجزة، أدخل عنصراً جديداً من الشروق والثقة في حياتها، ورغم أن ظهرها بقي على ما هو عليه، فإن صحتها العامة قويت، وآليس – التي لم تتجاوز الابتسام قط – شعرت بالسعادة لرؤية ابنتها وهي تتعلم أن تضحك.

أما بالنسبة لحياة آليس الخاصة، فقد كانت أسعد مما كانت عليه في أي وقت سابق. لم يتطلب السيد أوبنشو منها إظهاراً لعاطفتها أو التعبير عنها. وبالتأكيد كانت هذه الأشياء ستثير اشمئزازه. وكانت آليس قادرة على الحب العميق، لكنها لا تقدر على الحديث عنه. لقد كان المطلب الدائم لكلمات الحب ونظراته وعناقاته، والتفسير الخاطئ لغيابها على أنه غياب للحب، هو الامتحان الكبير في حياتها الزوجية السابقة. الآن كان كل شيء يسير بوضوح واستقامة، تحت إرشاد ما يتمتع به زوجها من عقل راجح وقلب دافئ وإرادة قوية. وعند وفاة السيدة ويلسون، عادت نورا إليهم، لتكون حاضنة إدوين Edwin الصغير الحديث الولادة، وهي وظيفة لم تحصل عليها إلا بعد خطبة قوية جداً من جانب الأب الفخور والسعيد، الذي أعلن أنه إذا اكتشف أن نورا تحاول ولو مرة واحدة أن تحمي الطفل بشيء باطل، أو تضعفه إما جسدياً أو عقلياً، فإنها ستغادر في اليوم نفسه. فلم تكن العلاقة بين نورا والسيد أوبنشو ودية خالصة، إذ أن كلاً منهما أخفق في إدراك أفضل خصال الآخر وتقديرها حق قدرها.

كان هذا التاريخ السابق لهذه العائلة من لانكاشير التي انتقلت الآن إلى لندن.

كان قد مضى عليهما سنة هناك، حين أخبر السيد أوبنشو أنه قد صمم على علاج بعض النزاعات التي طال أمدها، وأنه قد طلب من خاله تشادويك

Chadwick وزوجته أن يأتيا لزيارته ورؤية معالم لندن. لم تكن السيدة أوبنشو قد قابلت خال زوجها هذا وزوجته. فقبل زواجها بسنوات حدث شجار. كل ما كانت تعرفه هو أن السيد تشادويك كان صناعياً صغيراً في بلدة ريفية في لانكاشير. وقد سرها سروراً بالغاً أن المقاطعة سوف تنتهي، وبدأت تعد العدة لجعل زيارتهما سعيدة.

وصلا أخيراً. وكان القدوم لمشاهدة لندن حدثاً هاماً بالنسبة لهما بحيث أن السيدة تشادويك قامت بصنع ملابس كتانية جديدة لهذه المناسبة – من أغطية الرأس الليلية نزولاً، أما الأثواب والشرائط والياقات، فلم يكن مخزونها ليختلف لو أنها ذاهبة إلى براري كندا حيث لا يوجد أي متجر. وقبل أسبوعين من تاريخ سفرها إلى لندن، قامت بزيارات رسمية لتودع جميع معارفها، قائلة إنها ستحتاج إلى كل جزء من الوقت المتبقي كي تحزم أمتعتها. كان الحدث كأنه زفاف ثان في مخيلتها، ولإكمال الشبه بين الحدثين الذي نتج عن تحضير مجموعة كاملة من الملابس الجديدة، أحضر لها زوجها معه من مانشستر في آخر يوم تَسَوُّق قبل رحيلهما لؤلؤة رائعة الجمال ودبوساً من حجر كريم أرجواني اللون، قائلاً: "يجب أن ترى لندن أن أهالي لانكاشير يعرفون الشيء الجميل حين يشاهدونه."

لفترة من الوقت بعد وصول السيد تشادويك وزوجته إلى منزل أوبنشو لم تأت مناسبة للتزين بالدبوس، ولكن بعد محاولة طويلة حصلوا على دعوة لمشاهدة قصر بكنغام Buckingham، واستدعت روح الولاء أن ترتدي السيدة تشادويك أفضل ملابسها عند زيارة مسكن مليكها. وعند عودتها غيرت فستانها بسرعة، لأن السيد أوبنشو كان قد خطط أن يذهبوا إلى رتشموند Richmond ويشربوا الشاي ويعودوا في ضوء القمر. وبناء عليه، انطلق السيد أوبنشو وزوجته والسيد تشادويك وزوجته في حوالي الساعة الخامسة.

جلست الخادمة والطباخة في الطابق السفلي، ولم تكد نورا تعرف أين بالتحديد. كانت دائماً مشغولة في غرفة الحضانة، وفي العناية بالطفلين، وفي الجلوس بجانب إيلسي المتململة والسريعة التهيج إلى أن يغلبها النوم. بعد فترة نقرت الخادمة بيسي Bessy بلطف على الباب. ذهبت نورا إليها، وتكلمتا همساً."

"أيتها الممرضة! هناك شخص في الأسفل يريدك."

"يريدني! من هو؟"

"سيّد –"

"سيد؟ كلام سخيف!"

"رجل إذن، وهو يطلب رؤيتك، وقد قرع جرس الباب الأمامي ودخل إلى غرفة الطعام."

"ما كان ينبغي أن تسمحي له بالدخول قط،" صاحت نورا، "فكلا السيد والسيدة خارج المنزل –"

"لم أرده أن يدخل، لكن حين سمع أنك تقطنين هنا تجاوزني ودخل وجلس على أول كرسي، وقال: 'قولي لها أن تأتي وتكلمني.' ولا يوجد مصباح غازي في الغرفة، والعشاء موضوع على المائدة بأكمله."

"سيهرب بالملاعق!" صاحت نورا وهي تعبر بالكلمات عن الخوف الذي انتاب الخادمة، واستعدت لمغادرة الغرفة، ولكنها قبل ذلك ألقت نظرة عل إيلسي النائمة بهدوء وعمق.

نزلت إلى الطابق السفلي، ومخاوف مضطربة تجيش في نفسها. قبل أن تدخل غرفة الطعام زودت نفسها بشمعة، ودخلت وهي تحملها بيدها وتنظر هنا وهناك في الظلام بحثاً عن زائرها.

كان واقفاً، يمسك الطاولة. تبادلت نورا معه النظرات، وبدآ تدريجيان يتعرفان أحدهما على الآخر.

سأل بعد برهة طويلة: "نورا؟"

سألته نورا بنبرات حادة تنم عن الانزعاج وغياب التصديق: "من أنت؟" محاولة، من خلال كلمات عقيمة توحي بأنها لا تصدق، أن تتخلص من الحقيقة الرهيبة الماثلة أمامها.

قال بلهجة تدعو للشفقة: "هل تغيرتُ إلى هذا الحد؟ لا بد أنني تغيرت. ولكن أخبريني يا نورا!" قال وهو يتنفس بصعوبة: "أين زوجتي؟ هل هي – هل لا زالت على قيد الحياة؟"

اقترب أكثر من نورا، وكان على وشك أن يمسك بيدها، لكنها تراجعت مبتعدة عنه، وهي تنظر إليه طوال الوقت بعينين محدقتين، كما لو كان شيئاً مرعباً. لكنه كان شخصاً وسيماً مسمرّاً جميل الطلعة، وله شارب ولحية يضفيان عليه صبغة أجنبية؛ لكن عينيه! لم يكن هناك مجال للخطأ حول هاتين العينين المتعطشتين الجميلتين – العينين نفسيهما التي كانت نورا تراقبهما قبل أقل من نصف ساعة، إلى أن غلب النوم الرقيق عليهما.

"أخبريني يا نورا – أستطيع أن أتحمل – ما أكثر ما خشيت ذلك. هل هي ميتة؟" بقيت نورا صامتة. "لقد ماتت!" وانتظر كلمات نورا ونظراتها، بانتظار أن تؤكد أو أن تنفي.

تأوهت نورا: "كيف أتصرف؟ يا سيدي، لِمَ أتيتْ؟ كيف وجدتني؟ أين كنت؟ اعتقدنا أنك ميت، اعتقدنا ذلك بالتأكيد!" تدفقت منها الكلمات والأسئلة كي تكسب الوقت، كما لو أن الوقت سيساعدها.

"نورا! أجيبيني على هذا السؤال بلا مواربة، إما بنعم أو لا – هل زوجتي ميتة؟"

قالت نورا ببطء وثقل: "كلا، ليست ميتة!"

"آه كم أرحتِني! هل استلمتْ رسائلي؟ ولكن من المحتمل أنه ليست لديك معرفة بذلك. لِمَ تركتِها؟ أين هي؟ نورا، أخبريني بسرعة!"

"سيد فرانك!" قالت نورا أخيراً، وقد شعرت بأنها حشرت في زاوية تقريباً بدافع من رعبها من أن تعود سيدتها في أية لحظة وتجده هناك، وشعرت بأنها غير قادرة على التفكير في أفضل شيء يمكنها أن تفعله أو تقوله، واندفعت إلى شيء حاسم لأنها لم تستطع أن تتحمل الوضع الحالي: "سيد فرانك! لم يصلنا سطر واحد منك، وقال أصحاب السفينة أنك قد غرقت، أنت وجميع الآخرين. اعتقدنا اعتقاداً قاطعاً أنك مُتّ، والآنسة آليس المسكينة وطفلتها الصغيرة المريضة العاجزة! آه يا سيدي، لا بد أنك تخمن ما حدث،" صاحت المسكينة أخيراً وقد انفجرت في نوبة انفعالية من البكاء، "لأنني بالتأكيد لا أستطيع قوله. لكن لم يكن ذلك خطأ من أي طرف. فليساعدنا الله جميعاً هذه الليلة!"

جلست نورا، فقد كانت ترتجف إلى درجة أنها لم تستطع الوقوف. أمسك بيديها بين يديه، وعصرهما بقوة وكأن الضغط الجسدي سيخرج الحقيقة.

قال وهو يتحدث هذه المرة بلهجة هادئة وراكدة مثل اليأس. "نورا! لقد تزوجت مرة أخرى!"

هزت نورا رأسها بحزن، وتراخت القبضة ببطء. فقد أغمي على الرجل.

أدخلت نورا قطرات من البراندي الذي كان موجوداً في الغرفة في فم السيد فرانك وفركت كفيه ورفعته – حين عادت إليه الحياة الحيوانية المحضة وقبل أن تتدفق في عقله فيضانات الذكريات والأفكار – رفعته وأراحت رأسه على ركبتيها. ثم وضعت بعض فتات الخبز الذي أخذته من مائدة العشاء في فمه بعد أن غمسته بالبراندي. فجأة قفز واقفاً على قدميه.

"أين هي؟ أخبريني هذه اللحظة!" بدا جامحاً وغاضباً ومستميتاً إلى حد جعل نورا تشعر أنها مهددة بخطر جسدي، لكن وقت الرعب قد فات. كانت خائفة من أن تخبره الحقيقة، كما أنها كانت جبانة. والآن شحذ الإحساس بحالته المستميتة ذهنها. لا بد أن يغادر المنزل، وستشفق عليه فيما بعد، لكن

الآن الأحرى بها أن تأمر وأن توبخ، إذ لا بد أن يغادر المنزل قبل عودة سيدتها. هذه الضرورة مثلت واضحة أمامها.

"ليست هنا، ويكفيك معرفة ذلك. كما أنني لا أستطيع أن أخبرك أين هي بالضبط" (وهذا صحيح حرفياً وإن كان غير صحيح في روحه). |اذهب، وأخبرني أين يمكنني أن أجدك غداً، وسأخبرك بكل شيء. فمن المحتمل أن يعود سيدي وسيدتي في أي لحظة، وعندها ما سيحل بي بوجود رجل غريب في المنزل؟"

كانت هذه الحجة أتفه من أن تؤثر في عقله المهتاج.

"لا يهمني سيدك وسيدتك. إذا كان سيدك رجلاً، فلا بد أن يتعاطف معي – وأنا البحار المسكين الذي تحطمت سفينته، والذي أمضى سنوات في الأسر عند المتوحشين، ودائماً، دائماً، دائماً أفكر بزوجتي وببيتي – أحلم بها في الليل وأتحدث إليها في النهار، رغم أنها لا تسمعني. لقد أحببتها أكثر من السماء والأرض مجتمعتين. أخبريني أين هي، هذه اللحظة، أيتها المرأة البائسة، التي خففتْ عليها فظاعة ما قامت به، كما تفعلين معي الآن!"

دقت الساعة العاشرة. الأوضاع اليائسة تتطلب إجراءات يائسة.

"إذا تركتَ المنزل الآن، سآتي إليك غداً وأخبرك كل شيء. والأكثر من ذلك أنك سترى طفلتك الآن. آه يا سيدي، أنت أب لطفلة، ولم تعرف ذلك حتى الآن – طفلة صغيرة معتلة – ذات قلب وروح يتجاوزان عمرها. لقد ربيناها بعناية كبيرة! راقبناها، لأننا على مرور سنوات عديدة كنا نظن أنها قد تموت في يوم، ورعيناها، ولم تواجه أي شيء صعب، ولم تُخاطب بأية كلمة نابية قط. والآن أنت تأتي أنت، وستأخذ حياتها بين يديك، وستسحقها. كان الغرباء عنها لطافاً معها، ولكن أباها بالذات – سيد فرانك، أنا ممرضتها، وأحبها وأرعاها وأنا على استعداد أن أفعل من أجلها أي شيء أقدر عليه. وقلب أمها ينبض مثلما ينبض قلبها، وإذا تعرضت

لألم، فإن أمها ترتجف من رأسها إلى قدميها. وإذا كانت سعيدة، فأمها هي التي تبتسم وتشعر بالسرور. وإذا أخذت تكتسب القوة، فأمها في صحة جيدة، وإذا تقهقرت تهن أمها وتضنى. وإذا ماتت – لكنني لا أعرف، فليس بإمكان أي شخص أن يستلقي على ظهره ويموت حين يرغب في ذلك. تعال إلى الأعلى يا سيد فرانك، وشاهد الطفلة، فرؤيتها ستفيد قلبك المسكين. ثم اذهب بحق الله لهذه الليلة فقط، وغداً إذا احتاج الأمر يمكنك أن تفعل أي شيء – اقتلنا إن شئت، أو أظهر نفسك أنك إنسان عظيم رائع، سيباركه الله إلى ابد الآبدين. تعال يا سيد فرانك، فمن المؤكد أن منظر طفلة نائمة سيجلب السلام."

قادته إلى الطابق العلوي، وكانت في البداية تكاد تساعده في صعوده، إلى أن اقتربا من غرفة الحضانة. وكانت قد نسيت تقريباً وجود إدوين الصغير. وقد خطر لها ذلك برعب لكون النور المظلل يقع على المهد الأخر، لكنها بمهارة أحاطت تلك الزاوية من الغرفة بالظلمة، وتركت النور يقع على إيلسي النائمة. كانت الطفلة قد رمت الأغطية، مما جعل التشوه في جسمها وهي مستلقية وظهرها إليهما واضحاً من خلال ثوب نومها الرقيق. بدا وجهها الصغير وقد جُرِّد من لمعان عينيها نحيلاً وذابلاً، وعليه تعبير يستدعي الشفقة، رغم كونها نائمة. نظر الأب المسكين ونظر، بعينين متعطشتين تواقتين، تجمعت فيهما دموع كبيرة ببطء وسقطت بثقل، وهو واقف يهتز ويرتجف من رأسه إلى قدميه. شعرت نورا بالغضب من نفسها لنفاذ صبرها بسبب طول الوقت الذي استغرقته تلك النظرة المحدقة الطويلة المتريثة. ظنت أنها انتظرت نصف ساعة كامل قبل أن يتحرك فرانك. وبعد ذلك – بدلاً من أن يمضي – جثا على ركبتيه إلى جانب السرير ودفن رأسه في الأغطية. تحركت إيلسي الصغيرة متقلقلة. شدته نورا إلى الأعلى وهي في رعب، فلم يكن بإمكانها وهي في خوفها البالغ إضاعة المزيد من الوقت، حتى من أجل الدعاء، فمن المؤكد أن اللحظة التالية ستعيد سيدتها إلى منزلها. شدته بالقوة

من ذراعه، ولكن بينما هو ماضٍ، وقعت عينه على السرير الآخر، وتوقف. عاد الذكاء إلى وجهه، وتكورت قبضتاه.

سأل: "طِفْلُه؟"

أجابت نورا: "طفلها. فليحرسه الله." قالت ذلك بدافع غريزي، لأن نظرات فرانك أثارت مخاوفها، واحتاجت لأن تذكر نفسها بالرب حامي العاجزين.

قال بلهجة يائسة: "أنا لم يحرسني الله،" ومن الواضح أن أفكاره ارتدت إلى حاله المهجور والمقفر. لكن لم يكن لدى نورا وقت للشفقة. غداً ستكون متعاطفة إلى الحد الذي يمليه عليها قلبها. وفي النهاية، قادته إلى الأسفل وأغلقت الباب الخارجي، وقفلته بالمزلاج، كما لو أن المزلاج سيبقي الحقائق في الخارج.

ثم عادت إلى غرفة الطعام وأزالت كل آثار وجوده، بقدر ما استطاعت. صعدت إلى غرفة الحضانة وجلست فيها، ورأسها فوق يدها، تفكر بما سينتج عن كل هذا البؤس. بدا لها أن وقتاً طويلاً مر قبل أن يعود سيدها وسيدتها، لكن الوقت لم يتعد الساعة الحادية عشرة. سمعت أصوات أهل لانكاشير الجهورة المتحمسة على السلم، وللمرة الأولى أدركت التباين في إقفار حياة الرجل المسكين الذي غادر المكان قبل قليل في حالة من اليأس والشعور بالوحدة.

وكاد أن ينفذ صبرها حين رأت السيدة أوبنشو تدخل وهي تبتسم بهدوء، سعيدة، على هونها، لتسأل عن حال طفليها.

همست لنورا: "هل خلدت إيلسي إلى النوم مرتاحة؟"

"أجل."

انحنت الأم فوق طفلتها، وهي تنظر إلى نومها بعيني الحب الحانيتين. ما أقل ما حلمتْ الأم بمن كان آخر من نظر إلى طفلتها! ثم استدارت إلى إدوين، ربما بقلق أقل حزناً في محياها، ولكن باعتزاز أكبر. خلعت أشياءها كي تتنزل لتتناول العشاء، ولم ترها نورا بعد ذلك في تلك الليلة.

بالإضافة إلى وجود باب في غرفة نوم الطفلين يفضي إلى الممر، هناك باب آخر يؤدي إلى غرفة السيد أوبنشو وزوجته، من أجل أن يكون الطفلان تحت أنظارهما بسرعة أكبر. في وقت باكر من الصباح التالي، استيقظت السيدة أوبنشو على نداء أيسلي المروَّع: "أمي! أمي!" قفزت من سريرها وارتدت الروب دو شامبر وذهبت إلى الطفلة. كانت إيلسي نصف مستيقظة وفي حالة من الرعب ليست غريبة عنها.

"من كان ذلك الشخص؟ أخبريني؟"

"من يا حبيبتي؟ لا أحد هنا. كنت تحلمين يا حبي. استيقظي تماماً. انظري، لقد حل النهار!"

قالت إيلسي وهي تنظر حولها، ثم تشبثت بأمها، "لكن كان هنا رجل الليلة الماضية يا أمي."

"كلام فارغ، يا وزتي الصغيرة. لم يقترب منك أي رجل قط!"

"نعم، حصل ذلك. وقف هناك، إلى جانب نورا. رجل له شعر ولحية. وقد ركع وقال أدعيته. نورا تعرف أنه كان هنا، يا أمي." (هزت السيدة أوبنشو رأسها نصف غاضبة وعلى وجهها ابتسامة تظهر أنها لا تصدق.)

قالت السيدة أوبنشو بلهجة ملطِّفة: "حسن! سنسأل نورا حين تأتي. لكننا لن نتحدث عن الموضوع الآن أكثر مما فعلنا. لم تبلغ الساعة الخامسة بعد، ومن الباكر جداً لك أن تستيقظي. هل أحضر كتاباً وأقرأ لك؟""

قالت الطفلة متشبثة بها: "لا تتركيني يا أمي." لذلك جلست السيدة أوبنشو على طرف السرير تتحدث مع إيلسي وتخبرها بما فعلوه في رتشموند في الأمسية السابقة، إلى أن أُغلقت عينا الطفلة ببطء وخلدت إلى النوم من جديد.

سأل السيد أوبنشو حين عادت زوجته: "ما الأمر؟"

"لقد استيقظت أيلسي خائفة، وروت قصة عن رجل كان في الغرفة ليتلو أدعيته – حلم على ما أعتقد." ولم يقل أحد شيئاً آخر في ذلك الوقت.

كانت السيدة أوبنشو قد نسيت المسألة بأكملها تقريباً حين استيقظت في الساعة السابعة. لكن بعد فترة سمعت جدالاً حاداً يدور في غرفة الحضانة – نورا تكلم إيلسي غاضبة، وهو شيء غريب جداً. وأصغى كلا السيد أوبنشو وزوجته بدهشة.

"احفظي لسانك، يا إيلسي! لا تدعيني أسمع المزيد من أحلامك؛ لا تدعيني أسمع هذه القصة مرة أخرى!" وبدأت إيلسي تبكي.

فتح السيد أوبنشو الباب الفاصل بين الغرفتين قبل أن تتمكن زوجته من التفوه بكلمة.

"نورا، تعلي هنا."

وقفت الممرضة عند الباب متحدية. أدركت أن صوتها قد سُمِع، لكنها كانت مستميتة.

قال بصرامة: "لا أريد أن أسمعك تكلمين إيلسي بهذا الأسلوب مرة أخرى،" وأغلق الباب.

شعرت نورا بارتياح لا حد له، لأنها كانت في رعب من توجيه أسئلة إليها، وشيء من اللوم بسبب حدتها في الكلام هو شيء تستطيع تحمله إذا نجت من التحقيق.

نزلوا إلى الدور الأسفل، وكان السيد أوبنشو يحمل إيلسي، وإدوين القوي ينزل درجة بعد الأخرى، وقدمه اليمنى تسبق اليسرى، ودائماً ممسكاً يد أمه. ووُضع كل من الطفلين على كرسي عند مائدة الفطور، ثم وقف السيد أوبنشو وزوجته معاً قرب النافذة قي انتظار ظهور ضيفيهما وأخذا يخططان ليومهما. ثم حدث توقف. وفجأة التفت السيد أوبنشو إلى إيلسي وقال:

"ما أمر إحدى البنات الشبيهة بالوزة مع أحلامها، توقظ أمها المسكينة التعبانة في منتصف الليل، لتحكي قصة عن رجل في الغرفة."

"أبي! أنا متأكدة أنني رأيته." قالت وهي تكاد تبكي. "لا أريد أن أغضب نورا، لكنني لم أكن نائمة، رغم كل قولها أنني كنت؛ نعم كنت نائمة قبل ذلك – وقد استيقظت استيقاظاً كاملاً، مع أنني كنت في رعب. أغلقت عيني بشكل شبه كامل، ورأيت الرجل واضحاً تماماً. رجل كبير الجسم أسمر وله لحية. وقد قال أدعيته. ثم نظر إلى إدوين، وبعدها وضعت نورا ذراعها بذراعه، بعد أن تهامسا معاً لفترة."

"الآن على سيدتي الصغيرة أن تتكلم كلاماً معقولاً،" قال السيد أوبنشو الذي اعتاد أن يكون دائماً صبوراً مع إيلسي. "لم يكن هناك رجل في المنزل الليلة الماضية بتاتاً. لا أحد يدخل إلى المنزل كما تعرفين إذا فكرتِ، وهذا ينطبق أكثر على الصعود إلى غرفة الحضانة. لكننا أحياناً نحلم بحدوث شيء، ويكون هذا الحلم مشابهاً للحقيقة إلى حد كبير، وأنت أيتها السيدة الصغيرة لست أول شخص يصر على أن الشيء قد حدث حقاً."

قالت إيلسي وقد شرعت بالبكاء: "ولكن من المؤكد أنه لم يكن حلماً."

في تلك اللحظة بالذات نزل السيد تشادويك وزوجته، يبدو عليهما الجدّ والقلق. وخلال فترة الفطور بكاملهما، كانا صامتين ومنزعجين. وفور أن أزيلت أشياء الفطور وحُمل الطفلان إلى الطابق العلوي، بدأ السيد تشادويك، بأسلوب واضح فيه أنه خطط كلامه مسبقاً، بالتساؤل عما إذا كان ابن أخته متأكداً من أمانة جميع خدمه، لأن السيدة تشادويك افتقدت ذلك الصباح دبوساً ثميناً جداً كانت تضعه في اليوم السابق. وهي تتذكر أنها نزعته حين وصلت إلى المنزل من قصر بكنغام. تقلص وجه السيد أوبنشو وتصلبت خطوطه وبدا مثلما كان قبل أن يتعرف على زوجته وطفلتها. قرع الجرس، حتى قبل انتهاء خاله من الكلام، وأتت الخادمة مستجيبة.

"ماري،[١] هل كان في المنزل أحد أمس أثناء غيابنا؟"

"لقد أتى رجل يا سيدي ليتحدث مع نورا."

"ليتحدث مع نورا! من هو؟ كم من الوقت مكث هنا؟"

"من المؤكد أنني لا أستطيع الإجابة يا سيدي. فهو أتى – ربما في حوالي التاسعة. وقد صعدتُ إلى نورا في غرفة الحضانة، ونزلت كي تكلمه. وهي التي أخرجته يا سيدي. هي ستعرف من الرجل والمدة التي بقي فيها في المنزل."

انتظرت لحظة لِتَلَقّي أي أسئلة أخرى، لكنها لم تُسأل شيئاً، فذهبت.

بعد دقيقة تحرك السيد أوبنشو وكأنه سيخرج من الغرفة، ولكن زوجته وضعت كفها على ذراعه:

"لا تكلمها أمام الطفلين،" قالت بصوتها الخافت الهادئ. "سأصعد وأستجوبها."

"كلا! لا بد أن أتحدث إليها،" قال والتفت إلى خاله وزوجته: "يجب أن تعرفا أن زوجتي لديها خادمة قديمة، وأنا أعتقد تماماً أنه لا توجد امرأة أكثر منها إخلاصاً من حيث الحب – لكنها في الوقت نفسه لا تصدق في كلامها، كما لا بد حتى لزوجتي أن تقر به. والآن ما أفكر به هو أن نورا هذه قد تعرضت لتأثير شاب من النوع الذي لا يصلح لشيء (فهي قد بلغت السن الذي يقولون إن النساء يبتهلن فيه إلى الله للحصول على أزواج – 'أي زوج، يا ربي، أي زوج') وأدخلته إلى المنزل، وأن الشاب غادر ومعه دبوسك، ومن المحتمل أنه حمل معه أشياء كثيرة أخرى. وهذا لا يعني سوى أن نورا ذات قلب طيب ولا تتمسك بكذبة بيضاء – هذا كل شيء، يا مدام."

ومن المثير للفضول ملاحظة الكيفية التي تغيرت بها نبرته وعيناه ووجهه بأكمله أثناء توجيه كلامه إلى زوجته، لكن تصميمه لم يختلف خلال

---

(١) قبل بضع صفحات ورد اسم الخادمة على أنه بيسي، وهذا ما جاء في الأصل.

كلامه كله. وكانت تدرك أن الأفضل هو ألا تعارضه، لذلك صعدت إلى الطابق العلوي وأخبرت نورا أن سيدها يريد التحدث إليها، وأنها ستعتني بالطفلين أثناء ذلك.

نهضت نورا لتذهب دون أن تقول كلمة واحدة. كانت أفكارها كالتالي:

"إذا مزقوني إرباً فلن يعرفوا بالأمر مني. قد يأتي هو –وعندها ليشملنا الله جميعاً برحمته! لأن بعضنا سيموت لا محالة. لكن سيقوم هو بإخبارهم، ولست أنا."

يمكنك أن تتخيل الآن نظرة التصميم في وجهها وهي تواجه سيدها وحدها في غرفة الطعام، فقد ترك السيد تشادويك وزوجته بين يدي قريبهما، بعد أن شاهدا أنه تولى الأمر بكل هذه القوة.

"نورا! من كان الرجل الذي أتى إلى بيتي الليلة الماضية؟"

"رجل ياسيدي؟" كما لو أن دهشتها كانت بلا حدود، ولكن ذلك كان لمجرد كسب الوقت.

"نعم: الرجل الذي أدخلته ماري، الذي صعدت إلى غرفة الحضانة لتخبرك بأمره، الشاب نفسه الذي ليس لدي شك أنك أخذته إلى غرفة الحضانة لتجري حديثك معه، الرجل الذي رأته إيلسي، ثم حلمت به فيما بعد، واعتقدت المسكينة أنها رأته يتلو أدعيته، في حين أراهن على أنه لم يكن هناك شيء أبعد عن تفكيره من الأدعية، الرجل الذي أخذ دبوس السيدة تشادويك، الذي قيمته عشرة جنيهات. والآن يا نورا! لا تذهبي. أنا متأكد، مثلما أنا متأكد أن اسمي هو توماس أوبنشو، أنك لا تعرفين شيئاً عن السرقة. لكنني أجزم أنك وقعت فريسة للاحتيال، وتلك هي الحقيقة. كان أحد الأشخاص الذين لا يصلحون لشيء يتقرب منك، وأنت تصرفت تماماً مثل جميع النساء، ومنحته مكاناً دافئاً في قلبك، وأتى الليلة الماضية متودداً وصعدت به إلى غرفة الحضانة، واستغل فرصته فسرق بعض الأشياء أثناء نزوله! هيا الان، يا

نورا: لا يوجد لوم عليك، وإنما يجب ألا تكوني حمقاء على هذا النحو مرة أخرى!" وتابع يقول: "أخبرينا، ما الاسم الذي أعطاه لك يا نورا، فأنا أراهن أنه لم يكن الاسم الصحيح، لكنه سيكون دليلاً تهتدي به الشرطة."

استحمعت نورا نفسها: "يمكنك أن تسأل هذا السؤال وتعيرني لكوني عازبة ولكوني سريعة التصديق كما تشاء يا سيد أوبنشو. لكن لن تحصل على جواب مني. أما بالنسبة للدبوس وقصة السرقة، فلو أن صديقاً جاء لمقابلتي (وهو شيء أتحداك أن تثبته، وأنا أنكره)، لكان إلى حد كبير رفيعاً عن فعل ذلك كما أنت يا سيد أوبنشو – بل وأكثر ايضاً، لأنني لست واثقة من أن كل شيء تملكه أتى عن طريق صحيح، أو أنه سيكون ملكك لفترة طويلة لو حصل كل امرء على ما يخصه." كانت تعني بالطبع زوجته، لكنه فهم أنها تقصد أملاكه من البضائع والأملاك المنقولة.

قال: "الآن أيتها المرأة الطيبة، سأقول لك الحقيقة، أنا لم أثق بك أبداً ثقة كاملة في كل شيء، لكن زوجتي تحبك، وأنا اعتقدت أن لك عدة خصال جيدة. فإذا بدأت مرة بالتواقح معي، سأحضر لك الشرطة وأستخرج الحقيقة منك في محكمة عدلية، إذا لم تخبريني بها الآن بهدوء وأدب. إن أفضل ما تفعلينه الآن هو إخباري من هو ذلك الشخص. افهميني! شخص يأتي إلى بيتي، ويسأل عنك، وتصعدين به إلى الأعلى، ويتبين في اليوم التالي أن دبوساً ثميناً قد فُقد؛ إننا نعرف أمانتك وأمانة ماري والطباخة، لكنك ترفضين إخبارنا من هو الرجل. ومن المؤكد أنك كذبت مرة علينا، حين قلت إنه لم يكن هناك أحد هنا ليلة البارحة. والآن سأسألك، ما ذا تعتقدين أن رجل شرطة أو قاض سيقول عن هذا؟ القاضي سيجعلك تقرين بالحقيقة بسرعة، أيتها المرأة الطيبة."

قالت نورا: "لا يوجد مخلوق على الأرض سيحصل على الجواب مني، إلا إذا اخترت أن أخبره به."

قال السيد أوبنشو وقد أثار التحدي غضبه: "لدي ميل كبير لأن أرى." ثم ضبط نفسه، وفكر قبل أن يتكلم من جديد:

"نورا، من أجل خاطر سيدتك لن ألجأ إلى إجراءات متطرفة. كوني عاقلة إن استطعت. ففي الواقع ليس عاراً كبيراً أن ينخدع المرء. أسألك مرة أخرى، بصفة صديق، من كان هذا الرجل الذي أدخلته إلى بيتي الليلة الماضية؟"

لا إجابة. كرر السؤال بلهجة من نفذ صبره، ومع ذلك لا إجابة. وقدعُقِدت شفتا نورا في تصميم على ألا تتكلم.

"إذن لم يعد هناك سوى سبيل واحد. سأرسل لإحضار شرطي."

قالت نورا، وهي تخطو إلى الأمام: "لا لن تفعل. يجب ألا تفعل، يا سيدي! لن يلمسني أي شرطي. أنا لا أعرف اي شيء عن الدبوس، لكنني أعرف هذا: منذ أن كان عمري أربعاً وعشرين سنة، كنت أفكر بزوجتك أكثر مما أفكر بنفسي؛ منذ أن رأيتها، فتاة يتيمة مسكينة بلا أم تتلقى معاملة سيئة في منزل عمها، فكرت بخدمتها اكثر مما فكرت بخدمة نفسي؛ لقد رعيتها هي وطفلتها عناية لم أحصل أنا عليها من اي شخص. أنا لا القي اللوم عليك، يا سيدي، لكنني أقول إن من السيء تكريس حياتك لأي شخص، لأنهم في النهاية سينقلبون عليك ويتخلون عنك. لِمَ لا تأتي سيدتي نفسها لتخبرني بشكوكها بي؟ ربما أنها ذهبت إلى الشرطة؟ لكنني لست باقية هنا، لا من أجل الشرطة ولا القاضي ولا السيد. أنتم جماعة تعيسو الحظ. أعتقد أن لعنة نزلت بكم. سأترككم هذا اليوم بالذات. نعم! سأترك إيلسي المسكينة أيضاً. سأفعل! لن يأتيكم أي خير ابداً!"

شعر السيد أوبنشو بدهشة تامة لسماع هذا الخطاب، الذي كان معظمه مستعص على فهمه كلياً، كما يمكن للكثيرين أن يفترضوا. وقبل أن يقرر ما يقوله أو ما يفعله، كانت نورا قد غادرت الغرفة. لا أعتقد أنه كان ينوي حقاً في اي وقت من الأوقات أن يرسل في طلب الشرطة لهذه الخادمة القديمة

لزوجته، لأنه لم يشك ولو للحظة واحدة في نزاهتها التامة. لكنه كان ينوي أن يجبرها أن تخبره من هو الرجل، واخفق في هذا الشأن، مما جعله بالتالي شديد الانزعاج. عاد إلى خاله وزوجته في حال من الضيق والحيرة البالغين، وأخبرهما أنه عجز عن استخلاص أي شيء من المرأة، أن رجلاً كان في المنزل في الليلة السابقة، لكنها رفضت أن تخبره من هو. في هذه اللحظة دخلت زوجته في اهتياج شديد وسألت ما الذي حدث لنورا، إذ أنها لبست ملابسها في عجلة انفعالية وغادرت المنزل.

قال السيد تشادويك: "يبدو هذا مريباً. فليست هذه هي طريقة رد فعل شخص نزيه."

بقي السيد أوبنشو صامتاً. كان في حيرة مؤلمة. لكن السيدة أوبنشو التفتت إلى السيد تشادويك بضراوة لم يرها أي شخص بها من قبل.

"أنت لا تعرف نورا، يا خال! لقد مضت لأن الشك فيها آلمها كثيراً. كم أتمنى لو أنني رأيتها – أنني تكلمت معها بنفسي. كانت ستخبرني بأي شيء أطلبه." وفركت آليس يديها.

تابع السيد تشادويك كلامه مع ابن أخته بصوت أكثر انخفاضاً: "لا بد لي من الاعتراف بأنني لا افهمك. لقد اعتدت أن تتصرف بكلمة وضربة، وفي أكثر الأحيان الضربة أولاً، والآن حيث يتوفر كل سبب للارتياب، لا تفعل أي شيء. زوجتك امرأة طيبة جداً، أقر لك بذلك، لكنني أظن أنها قد تكون انخدعت كما انخدع اشخاص آخرون. إن لم ترسل في طلب الشرطة، فسأطلبهم أنا."

أجاب السيد أوبنشو بوجه مكفهر: "حسن جداً. أنا لا أستطيع تبرئة نورا. هي لا تقوم بتبرئة نفسها كما أعتقد أنها ستنجح في ذلك لو أرادت. لكنني أغسل يديّ من المسألة، لأنني واثق أن المرأة نفسها نزيهة، وقد عاشت زمناً طويلاً مع زوجتي، ولا أريد لها أن تتحمل أي عار."

"لكنها عندئذ سترغم على تبرئة نفسها. وهذا في كل الأحوال سيكون شيئاً جيداً."

"حسن جداً، حسن جداً! لقد أمرض قلبي هذا الأمر بأكمله. تعالي يا آليس، لنصعد إلى الطفلين، فسيكونان الآن في حالة سيئة." ثم قال وهو يلتفت مرة أخرى بشكل مفاجئ وحاد إلى السيد تشادويك، بعد أن وقعت عينه على وجه آليس الذابل القلق الدامع: "أقول لك ياخال، لن أقبل بإرسال أحد في طلب الشرطة، رغم كل شيء. سأشتري لزوجة خالي دبوساً في ضعف جمال السابق هذا اليوم بالذات، ولكن لا أقبل بوضع نورا موضع الشك وجعل زوجتي تتعذب."

غادر هو وزوجته الغرفة. وانتظر السيد تشادويك إلى أن أصبح خارج مرمى السمع، ثم قال لزوجته: "بالرغم من جميع بطولات توم، فأنا ذاهب بهدوء لإحضار محقق سري يا امرأة. وأنت لست بحاجة لأن تعرفي اي شيء عن الأمر."

ذهب إلى قسم الشرطة وقدم تصريحاً حول القضية. وقد أرضاه الانطباع الذي بدا أنه أعطاه حول الدليل ضد نورا، فجميع الرجال وافقوه في رأيه، وتقرر أخذ خطوات فورية لاكتشاف مكانها. وقد اقترحوا أن الاحتمال الأكبر هو أن تكون قد ذهبت إلى الرجل، الذي توحي جميع المظاهر بأنه عشيقها. وحين سأل السيد تشادويك كيف سيجدونها، ابتسموا وهزوا برؤوسهم وتكلموا عن طرق ووسائل غامضة لكنها لا تخطئ. عاد إلى بيت ابن أخته برأي مريح جداً عن حصافته وذكائه. وقابلته زوجته بوجه ينم عن الندم:

"آه يا سيدي، لقد وجدت الدبوس! كان عالقاً في حاشية ثوبي الحريري البني الذي لبسته أمس. وقد خلعت الثوب في عجلة، ولا بد أنه اشتبك به، وعلّقت ثوبي في الخزانة. وقبل قليل، حين أردت طويه وجدت الدبوس! إنني مغتاظة جداً، لكنني لم أحلم قط سوى أنه قد ضاع!"

تمتم زوجها بشيء يشبه جداً: "الخزي لك ولدبوسك أيضاً! ياليتني لم أهدك إياه." والتقط قبعته وهرع عائداً إلى قسم الشرطة، على أمل أن يصل في الوقت المناسب ليوقف بحث الشرطة عن نورا. ولكن كان أحد المحققين قد انطلق للقيام بتلك المهمة.

أين كانت نورا؟ لم تكن قد نامت طوال الليل بعد أن جعلها ضغط السر المخيف في حالة نصف جنون وهي تفكر بما يجب فعله. وفي هذه الحالة الذهنية الرهيبة انهالت عليها أسئلة أيلسي، التي أوضحت أنها رأت الرجل، وهو الاسم الذي أطلقته الطفلة الغافلة على أبيها. وفي النهاية جاءها الشك في نزاهتها. كانت أقل قليلاً من مجنونة حين هرعت تصعد السلم ووضعت قلنسوتها وشالها بسرعة، تاركة كل شيء آخر وراءها، بما في ذلك جزدانها. فهي لن تمكث في ذلك المنزل. كان هذا كل ما تعرفه وما هو واضح لها. بل إنها لن ترى الطفلين مرة أخرى، خوفاً من أن يضعفها ذلك. وما أخافها أكثر من اي شيء آخر هو أن يعود السيد فرانك ليطالب بزوجته. لم تكن تدري ما علاج حزن بهذه الضخامة، بحيث تبقى وتشهد ما يجري. كانت الرغبة في الهرب من الحدث القادم دافعاً لمغادرتها المنزل أقوى من ألمها حول الشك الذي وجه إليها، رغم أن هذا الشك كان المهماز الأخير لدفعها في الطريق الذي سلكته. ابتعدت بسرعة تكاد تكون طائشة، وهي تنتحب في طريقها، بشكل لم تجرؤ عليه خلال الليلة الماضية خشية إثارة التساؤل لدى من يسمعها. ثم توقفت. أتتها فكرة أن تغادر لندن كلياً وتمضي بنفسها إلى مدينتها الأصلية ليفربول. تحسست جيبها بحثاً عن الجزدان، وهي تقترب من محطة ساحة يوستون Euston Square بهذه النية. لقد تركته في المنزل. وبينما كان رأسها المسكين يؤلمها وعيناها متورمتان من البكاء، اضطرت إلى الوقوف بلا حراك لتفكر، بقدر ما تستطيع، بالهدف التالي الذي ستتوجه إليه. فجأة لمعت في ذهنها فكرة أن تذهب وتعثر على السيد فرانك المسكين. كانت شبه فظة تجاهه في الليلة السابقة، رغم أن قلبها

كان يدمى لحاله منذ ذلك الحين. وتذكرت أنه أخبرها حين سألته عن عنوانه، وهي تكاد تكون قد دفعته خارج الباب، عن فندق ما في شارع لا يبعد مسافة كبيرة عن ساحة يوستون. توجهت إلى هناك وهي لا تكاد تعرف ما تنويه، ولكن كي تريح ضميرها بإخباره مدى شفقتها عليه. في حالتها الحالية، شعرت أنها لا تصلح لإبداء المشورة أو للكبح أو للمساعدة أو لفعل أي شيء آخر سوى التعاطف والنحيب. قال لها أصحاب النُزُل أن شخصاً بأوصافه كان هناك، وكان قد وصل في اليوم السابق فقط، وترك متاعه في رعايتهم، لكنه لم يرجع بتاتاً. طلبت نورا الإذن في أن تجلس وتنتظر عودة الرجل، فاصطحبتها صاحبة الفندق –وهي آمنة إلى حد كبير لوجود المتاع مودعاً لديها لتغطية أي أذى يحصل – إلى غرفة، وأقفلت الباب عليها من الخارج بهدوء. كانت نورا منهكة كلياً وغلبها النوم – نوم مرتجف جافل مقلقل استمر عدة ساعات.

في تلك الأثناء كان المحقق السري قد عثر عليها قبل دخولها الفندق بوقت قصير، وتبعها إليه. وبعد أن طلب من صاحبة الفندق أن تحتجزها، دون إبداء سبب سوى أنه أطلعها على سلطته (وهذا جعل صاحبة الفندق تهنئ نفسها إلى درجة كبيرة لكونها أقفلت عليها الباب)، عاد إلى قسم الشرطة ليبلغ عما جرى معه. كان من الممكن أن يأتي بها على الفور، لكن هدفه، إن أمكن، كان تعقب الرجل الذي يفترض أنه ارتكب السرقة. ثم علِم بالعثور على الدبوس وبالتالي لم يكن لديه اهتمام بأن يعود.

نامت نورا إلى أن بدأ مساء الصيف يهبط. ثم استيقظت جفلة. كان هناك شخص عند الباب. لا بد أنه السيد فرانك، فقامت وهي تعاني من دوار بدفع شعرها االرمادي المتشعث إلى الوراء، إذ كان قد سقط على عينيها، ووقفت تنتظر رؤيته. بدلاً عن ذلك دخل السيد أوبنشو مع رجل من الشرطة.

قال السيد أوبنشو: "هذه هي نورا كينيدي Kennedy."

قالت نورا: "يا سيدي، أنا لم ألمس الدبوس، أؤكد ذلك أنني لم أفعل. إنني لا أستطيع يا سيدي أن أعيش والناس يفكرون بي تفكيراً سيئاً،" ولكونها تعاني من الدوار والضعف، فقد هوت فجأة على الأرض. لكنها فوجئت بأن السيد أوبنشو رفعها بحنان شديد. بل حتى الشرطي ساعد في وضعها على الكنبة، وبناء على رغبة السيد أوبنشو، ذهب لإحضار بعض النبيذ والساندويتشات، إذ أن المرأة الهزيلة المسكينة استلقت على الكنبة وكأنها ميتة من التعب والإنهاك.

قال السيد أوبنشو بألطف لهجة لديه: "نورا، لقد تم العثور على الدبوس، فقد كان مشبوكاً بثوب السيدة تشادويك. وأنا أطلب منك السماح. بكل صدق أطلب منك السماح لأنني أزعجتك بشأنه. إن زوجتي مكسورة القلب تقريباً. كلي يا نورا – أو بالأحرى اشربي أولاً كأساً من النبيذ،" قال ذلك وهو يرفع رأسها ويصب بعض النبيذ في حنجرتها.

تذكرت وهي تشرب أين هي ومن الشخص الذي تنتظره، إذ أنها فجأة دفعت السيد أوبنشو بعيداً عنها وهي تقول: "آه يا سيدي، عليك أن تذهب. لا ينبغي أن تمكث دقيقة واحدة. إذا عاد فسيقتلك."

"واحسرتاه ياا نورا! لا أعرف من 'هو' الذي تقصدينه، لكن شخصاً قد مضى ولن يعود أبداً: شخصاً كان يعرفك وأخشى أنك كنت مهتمة به."

قالت نورا، وقد حيرها أسلوب سيدها اللطيف والحزين أكثر حتى مما حيرتها كلماته: "لا أفهمك يا سيدي." كان الشرطي قد غادر الغرفة بناء على رغبة السيد أوبنشو، وأصبحا لوحدهما.

"تعرفين ما أعني حين أقول إن شخصاً قد مضى ولن يعود أبداً. أعني أنه ميت!"

قالت نورا وجسمها يرتجف بأكمله: "من؟"

"لقد عُثِر على رجل مسكين في نهر التيمز هذا الصباح – غريق."

سألت نورا بصوت رزين: "هل أغرق نفسه؟"

أجاب السيد أوبنشو باللهجة نفسها: "الله وحده يعلم. وقد عُثِر على اسمك وعنوان منزلنا في جيبه، ولم يعثر معه على شيء آخر سوى ذلك وجزدانه. ويؤسفني أن أقول ذلك، يا نورا المسكينة، ولكن المطلوب منك أن تتعرفي عليه."

سألت نورا: "ماذا؟"

"أن تقولي من هو. وهذا شيء يُجرى دائماً من أجل العثور على سبب ما لانتحاره – إذا كان قد انتحر. وليس لدي أي شك أنه الرجل الذي أتى لمقابلتك في منزلنا الليلة الماضية. أنا أعلم أنه أمر حزين جداً." كان يتوقف بعد كل جملة قصيرة، من أجل أن يعيد إليها وعيها، الذي كان يخشى أنه يتشتت –كانت نظرتها جامحة وحزينة جداً.

قالت أخيراً: "سيد أوبنشو، لدي سر رهيب علي أن أخبرك به – ولكن ينبغي عليك ألا تبوح به لأي شخص، وعلينا أنا وأنت أن نخفيه إلى الأبد. لقد اعتقدت أنني سأقوم بذلك لوحدي، ولكنني أرى أنني لا أستطيع. أيها المسكين – نعم! أخشى أن المخلوق الميت الغريق هو السيد فرانك، زوج سيدتي الأول!"

جلس السيد أوبنشو وكأن رصاصاً أطلق عليه. لَمْ يتكلم، ولكن بعد فترة أشّر لنورا أن تتابع حديثها.

"لقد أتى إلي في الليلة السابقة حين – والحمد لله! – كنتم جميعاً في رتشموند. وسألني إن كانت زوجته ميتة أو حية. وتصرفت بوحشية، وفكرت فيكم جميعاً وأنتم في طريقكم إلى البيت أكثر مما فكرت بمحنته المؤلمة: تكلمت معه بحدة شديدة، وقلت إنها تزوجت مرة أخرى وأنها راضية وسعيدة جداً: وتقريباً طردته، وهاهو الآن يرقد ميتاً."

قال السيد أوبنشو: "ليغفر الله لي!"

قالت نورا: "ليغفر الله لنا جميعاً! ربما أن حاجتك أيها الرجل المسكين إلى الغفران أقل من أي شخص آخر منا. لقد عاش بين المتوحشين – وقد غرقت سفينته – لا أعرف ماذا – وكان يكتب رسائل لم تصل أبداً إلى سيدتي المسكينة."

"وقد رأى الطفلة!"

"رآها – نعم! صعدت به إلى الأعلى لأجعل تفكيره يتخذ منحى آخر، لأنني اعتقدت أنه بدأ يجن بين يدي. وقد أتيت لأبحث عنه هنا، باعتبار أنني أعطيته أكثر من نصف وعد بذلك. وبدأ يساورني الشك حين علمت أنه لم يعد أبداً. آه يا سيدي، لا بد انه هو الغريق!"

قرع السيد أوبنشو الجرس. وكانت نورا في حالة تقرب من الذهول المفرط لتسأل عما يفعله. طلب معدات للكتابة، ثم قال لنورا:

"إنني أكتب لآليس لأقول لها أنني مضطر للغياب بضعة أيام، وأنني وجدتك، وأنك في حال جيدة وتودين إبلاغها حبك، وستعودين إلى البيت غداً. ولا بد أن تأتي معي إلى قسم الشرطة، إذ لا بد أن تتعرفي على الجثة، وسأدفع مبلغاً جيداً لمنع ظهور الأسماء والتفاصيل في الصحف."

"لكن أين ستذهب يا سيدي؟"

لم يجبها مباشرة. ثم قال:

"نورا! لا بد لي أن أذهب معك وأنظر إلى وجه الرجل الذي سببتُ له الكثير من الأذى – صحيح أن هذا دون قصد، لكن يبدو لي وكأنني قتلته. سأضع رأسه في القبر كما لو كان أخي الوحيد، ولا بد أنه كرهني إلى حد كبير! لن أستطيع الذهاب إلى بيتي وزوجتي إلا بعد أن أقوم بكل ما يمكن فعله من أجله. ثم سيكون لديّ سر مروّع في باطني، ولن أتحدث عنه ثانية أبداً، بعد انقضاء هذه الأيام. أنا أعرف أنك أنت أيضاً لن تتحدثي عنه." ثم صافحها، ولم يذكرا الموضوع بعد ذلك قط، أحدهما للآخر.

ذهبت نورا إلى البيت وإلى آليس في اليوم التالي، ولم ينبس أحد بكلمة واحدة عن سبب خروجها المفاجئ قبل يوم أو يومين. فقد تلقت آليس طلباً من زوجها في رسالته ألا تذكر سرقة الدبوس المزعومة، لذلك فهي – المطيعة للأشخاص الذين تحبهم بدافع من طبيعتها وكذلك بحكم العادة – صمتت كلياً حول هذا الموضوع، وعاملت نورا بأقصى درجات الاحترام والحنان، كما لو أنها تريد تعويضها عن الشك الظالم الذي تعرضت له.

كما أن آليس لم تتقص سبب غياب السيد أوبنشو أثناء زيارة خاله وزوجته، بعد أن قال أن ذلك ضرورة لا يمكن تحاشيها. بعد ذلك، عاد رصيناً وهادئاً، ومن ذلك الحين تغيّر بشكل غريب. أصبح أكثر تفكيراً، وربما أقل نشاطاً، واستمر سلوكه في كونه حاسماً بالدرجة نفسها، لكن ذلك السلوك استرشد بقواعد جديدة ومختلفة. ما كان من الممكن أن يزيد لطفه تجاه زوجته أكثر كثيراً مما كان عليه دائماً، لكن بدا الآن أنه ينظر إليها كشخص مقدس يجب أن يعامل بتبجيل بالإضافة إلى الحنان. وقد ازدهر عمله وكوّن ثروة طائلة، كتب نصفها باسمها.

بعد هذه الأحداث بسنوات طويلة – بعد وفاة والدة إيلسي ببضع شهور – انطلقت هي و"أبيها" (فذلك هو الاسم الذي تنادي السيد أوبنشو به دائماً) إلى مقبرة بعيدة قليلاً عن المدينة، وحملتها خادمتها إلى كومة معينة من التراب، ثم أُرسلت الخادمة إلى العربة. كانت هناك شاهدة عليها الحرفان ف. و. وتاريخ محدد. ولا شيء غير ذلك. جلس السيد أوبنشو إلى جانب القبر وأخبرها االقصة، ومن أجل ذلك الأب المسكين الذي لم تره على الإطلاق، ذرفت الدموع الوحيدة التي شاهدها السيد أوبنشو تنهمر من عينيها.

ميفس غالنت

قلبي محطم(١)

ميفس غالنت كاتبة كندية ولدت في مونريال بكندا في ١١ آب ١٩٢٢، وقد حازت على عدد من الجوائز الأدبية الكندية وعلى دكتوراه فخرية من جامعة كوينز Queen's. وأطرى النقاد على تحكمها باللغة وابتكارها في الأشكال السردية وقدرتها على إعادة بناء حالة عقلية أو عاطفية معينة.

قالت السيدة تومبسون Thompson مخاطبة جيني Jeanie: "عندما ماتت جين هارلو(٢)، كنت في الترام رقم ٨٣ ومعي بين ذراعي رزمة كبيرة ثقيلة ملفوفة بالورق. لم أكن قد مضى على زواجي فترة طويلة، وحين كنت أزور أمي، كانت تزودني بكثير من الأشياء المعلبة والمربيات. كنت واقفة في الترام لأنه لم يعطني أحد مقعده. كان جميع الرجال عاطلين عن العمل في

(١) هذه ترجمة قصة "My Heart Is Broken" للكاتبة Mavis Gallant. والقصة نشرت لأول مرة في مجلة **النيويوركر** *The New Yorker* في عام ١٩٦١، ثم في مجموعة للكاتبة تحمل عنوان القصة نفسه. كذلك نشرت في كتاب:

The Norton Anthology of Short Fiction. Third Edition. R. V. Cassill, ed. New York: W. W. Norton & Co., 1978. Pp. 605-11.

(٢) Jean Harlow (١٩١١-١٩٣٧) كانت نجمة سينمائية شهيرة في هوليوود ماتت بسبب الفشل الكلوي.

تلك الأثناء، وكانوا يجلسون في أي مكان يتاح لهم أينما صدف وجود ذلك المكان. لا يمكنك أن تتذكري كيف كانت مونريال في تلك الأثناء. لم **تكوني** قد ظهرت على وجه البسيطة بعد. ولأعود إلى ما كنت أخبرك به، فإن أحد أولئك الرجال الجالسين كان يحمل صحيفة أمريكية – أعتقد أنها كانت **الأخبار اليومية** *The Daily News* – وكنت منحنية فوقه، وشاهدت بخط عريض: "وفاة جين هارلو." يمكنك أن تصدقيني أو لا، كما تشائين، لكن كانت تلك أسوأ صدمة تلقيتها في حياتي على الإطلاق. ولم أتجاوز تأثيرها قط."

لم يكن لدى جيني ما تجيب به. كانت مستلقية في وضع مسطح على ظهرها على السرير وكعبيها يلمسان الصندوق الخشبي المستخدم كطاولة إلى جانب السرير. وكانت تتوازن على بطنها زجاجة مفتوحة من طلاء الأظافر الزهري المرجاني من نوع كيوتكس Cutex. كانت رافعة يديها إلى الأعلى فوق رأسها وتجد صعوبة في استخدام الفرشاة لطلاء أظافر اليد اليمنى. ولم تكن ترتدي شيئاً سوى بنطالاً قصيراً وأحد قمصان زوجها. وكانت قدماها حافيتين.

السيدة تومبسون هي زوجة محاسب الرواتب في مخيم لبناء الطرق في شمال كوبك Qubec. وزوج جيني مهندس يعمل في المشروع نفسه. والطريق يشق عبر أراض لم يكن يوجد فيها شيء حتى الآن سوى صخور وبحيرات ومستنقعات. أقيم المخيم بين بحيرة برية وخط التراب العاري الذي كان هو الطريق. لم تكن هناك أية بلدات تقع بين المخيم وخط السكة الحديدية الفرعي(١) الذي يقع على مسافة ستين متراً.

كانت السيدة تومبسون التي تكبر جيني بسنوات كثيرة صديقة جيني المفضلة. كانت من نوع من الأشخاص يجعلها لطيفة وبسيطة وسمينة وقادرة على المواساة، ذات رجلين مصابتين بالدوالي وحذاء غير مربوط ومفتوح بغرض الراحة، وروب دو شامبر صوفي أزرق تلبسه طوال الوقت، وقصة

(١) قطعة الخط الحديدي المستخدمة لوقوف القطارات وانتظارها.

شعر دائرية، وشعر رمادي خشن. كان من الممكن أن تكون والدة جيني، أو خالتها بيرل Pearl. أخذت تهز جسدها السمين على الكرسي الهزاز وتتابع ما تقول: "ما بدأت أقوله لك هو أنك تذكريني بها: جين هارلو. فأنت لك الفم الصغير نفسه، يا جيني، وأعتقد أن شعرك كان أجمل إلى حد كبير قبل أن بدأت العبث به. ذلك البروكسيد[١] غير جيد، فهو يشق الأطراف. أعرف أنك ستقولين لي إن ما تستخدمينه ليس البروكسيد وإنما هو شيء أكثر حداثة، لكن النتيجة واحدة."

كانت هناك بقع مرجانية زهرية على قميص فيرن سقطت من الأجمة. فيرن لن يهتم، على الأقل لن يقول إن ذلك يهمه. إذا لم يكن قد اعترض على أي شيء فعلته جيني إلى الآن، فلن يبدأ بالشكوى حول قميص. كان المخيم كما يُشَاهَد من النافذة الخالية من الستائر صامتاً ومظلماً. والقمر المتضائل لن يظهر حتى الفجر. سلسلة من الأفكار دفعت السيدة تومبسون لأن تقول: "الشتاء قريب."

تحركت جيني بعنف وأمسكت بزجاجة الطلاء قبل أن تندلق. السيدة تومبسون مجنونة، فأيلول لم يحل بعد.

أقرت السيدة تومبسون: "قريب جداً. قريب جداً. هو فصل طويل هنا، لكنني من الأشخاص الذين لا يشتكون. لقد كنت هنا أو في مكان قريب كل شتاء خلال حياتي الزوجية، باستثناء ذلك الشتاء الذي كان بوبس Pops يقوم أثناءه باحتلال ألمانيا."

قالت جيني بصوتها المنخفض: "أنا هنا منذ اثنين وسبعين يوماً. غداً سيكون الثالث والسبعين."

"هل هذا صحيح؟" سألت السيدة تومبسون وهي تهز الكرسي إلى الأمام، وتصبح فجأة حادة اللسان. "هل هذه حقيقة؟ إذن من طلب منك القدوم إلى هنا؟

---

(١) أوكسيد يحتوي نسبة عالية من الأكسجين ويستخدم لصبغ الشعر.

من طلب منك القدوم والبدء بعدّ الأيام وكأنك في سجن من نوع ما؟ لا بد أنك عرفت حين تزوجتِ فرن إلى أين سيأخذك. قال لك، أليس كذلك، إنه يحب أعمال الطرق، أعمال البناء، وما إلى ذلك. لقد أخبرك، أم هل أنه لم يخبرك؟"

"آه، لقد أخبرني.""

قالت السيدة تومبسون: "أتعرفين ماذا يا جيني؟ لو أنك سمعت كلامي لما حصل أي شيء من هذا. قلت لك أول يوم، يوم وصولك هنا بحذائك العالي الكعب، قلت: 'أعرف أن هذا الكوخ لا يبدو فخماً، لكن جميع المتزوجين يقطنون في نوع المكان نفسه.' أتتذكرين أنني قلت ذلك؟ قلت: 'كل ما عليك هو أن تضعي بعض الستائر وبعض السجاد، وسيكون المكان بيتاً.' واصطحبتك لتري بيتي، وقلتِ إنك لم تشاهدي في حياتك شيئاً بهذا الجمال."

قالت جيني: "كنت أعني ما قلت. إن كوخك جميل وحسب. لا أدري السبب، لكنني لم أتمكن قط من جعل هذا المكان يشبه بيتك."

قالت السيدة تومبسون: "هذا واضح وضوحاً كافياً." نظرت إلى الشحم البارد المتناثر خلف الموقد، والخرقة المستعملة كمنشفة الموضوعة قرب المجلى. قالت بلطف: "الخبرة جزء من المسألة. كانت هي وزوجها يعرفان تماماً ما يجب أن يأخذاه معهما حين يسافران في مهمة، فقد كانا يفعلان ذلك منذ سنوات كثيرة جداً. كانا يحضران صناديق للزهور الصناعية، ودقاقة باب نحاسية، وبار محمول مزين بأصداف البحر، ومدفأة من الورق المقوى تبدو حقيقية، ومدفأة كهربائية تطلق أمواجاً من الضوء تتموج على السقف والجدران. كما كان صندوق سمع مخبأ يدير الاسطوانات التي يحبانها ويشعران أنها عزيزة عليهما – الألحان القديمة الجميلة. وكان لديهما اسطوانات فكاهية تعود إلى العام ١، واسطوانات سوبرانو حزينة عن تحطم السفن والنكث بالوعود وقبور الأطفال الصغار. في أول مرة سمعت جيني فيها إحدى الاسطوانات الفكاهية كادت تموت رعباً. كانت تقوم بزيارة

رسمية، وتجلس منتصبة على كرسيها، وتنورتها ملفوفة حول ركبتيها. وكان فيرن وبوبس تومبسون يتحدثان عن الجيش.

قال بوبس الهرم: "أتمنى من الله لو أنني عدت إليه."

قال فيرن: "ألا أتمنى أنا ذلك أيضاً؟" كان أكبر من جيني بخمسة عشر عاماً وخاض تجارب كثيرة.

في البداية لم تصدر سوى أصوات احتكاك وهمس، ثم بدأت أوركسترا من البعوض تعزف، وانتشر في الغرفة صوت قزم: "جوني غرين الصغير، سالي براون الصغيرة، يتطارحان الغرام في الحديقة والعشب يحيط بهما من كل جانب،" صرخ القزم بصوت أعلى وأسرع مما يستطيعه أي مخلوق بشري.

صاحت جيني: "أين هو؟" بينما انفجر السيد والسيدة تومبسون ضحكاً وابتسم فيرن. تابع القزم غناءه: "وكل طائر صغير في أعالي الأشجار، غنى 'آه يا فتى' وغمز بعينه."

كانت تلك أسطوانة امتلكتها والدة بوبس تومبسون. وقد كان يضحك لسماعها طيلة حياته. كان السيد والسيدة تومبسون يحبان الحياة في الشمال ولا يفتقدان المدن أو صحبة الآخرين. وكانت تنتشر في كوخهما رائحة الكاكاو والخبز المحمص. فوق سرير كل منهما عُلِّقت صورة بيضوية للآخر أثناء طفولته، وكان لديهما عدد من الدبب الدمى وحوالي اثنتي عشرة من العرائس.

أحكمت جيني غطاء زجاجة الطلاء، وأولت اهتمامها لمنع أن تضغط الزجاجة على أظافرها التي لم تجف بعد. نهضت جالسة بحركة واحدة ووضعت الزجاجة على الصندوق بجانب السرير. ثم التفتت لتواجه السيدة تومبسون. جلست وإحدى ساقيها فوق الأخرى ، ويداها ممدودتان أمامها. كان وجهها هادئاً.

قالت السيدة تومبسون: "لا توجد أونصة من الشحم في جسمك. أتعرفين شيئاً؟ يؤسفني أنك ستغادرين. يؤسفني ذلك حقاً. غداً ستكونين قد رحلت.

تعرفين هذا، أليس ذلك؟ كنت تعدّين الأيام، لكنك لن تكوني مضطرة للاستمرار في ذلك. أعتقد أن فيرن سيعود بك إلى مونريال. ماذا تعتقدين؟"

خفضت جيني نظرتها الثاقبة، وبدأت بتسوية الغضون في غطاء السرير. تمتمت بشيء لم تفهمه السيدة تومبسون.

تابعت السيدة تومبسون: "غداً ستكونين قد رحلت. أعرف أن هذه حقيقة. في هذه اللحظة فيرن يقبض أجوره، ويستعير سيارة جيب من السيد شيرمان Sherman، وسائق بولندي ليوصلكما إلى القطار. من المؤكد أنه مخلص لك. أتعرفين ماذا سمعت السيد شيرمان يقول؟ لقد قال لفيرن: 'إذا أردت إرسالها من هنا يا فيرن، فبإمكانك دائماً أن تبقى.' وقال فيرن: 'لا يمكنني ذلك يا سيد شيرمان.' وقال السيد شيرمان: 'هذه هي المرة الثانية التي تضطر فيها لترك وظيفة بسببها، أليس هذا صحيحاً.' ثم قال السيد شيرمان: 'في رأيي، لا يمكن لرجل بمفرده أن يغتصب فتاة، لذلك إما أنهما كانا رجلين أو أنها اخترعت القصة بأكملها.' ثم قال: 'فيرن، أنت إما قديس أو أحمق لعين.' كان هذا هو كل ما سمعته. وجئت فوراً إلى هنا يا جيني، لأنني اعتقدت أنك قد تكونين بحاجة إلي." انتظرت السيدة تومبسون أن تسمع أن هناك احتياج لها. توقفت عن الهز وجلست وقدماها مسطحتان وبعيدتان إحداهما عن الأخرى. ضربت ركبتيها براحتيها المفتوحتين وصاحت: "لقد **قلت** لك أن تبتعدي عن الرجال. قلت لك ذلك سيخلق المتاعب، كل هذه الدلع والرقص هنا وهناك. قلت لك وأنا أتذكر أنني قلت ذلك، قلت لا شيء يسبب المتاعب في مكان كهذا مثل امرأة بالغة تتصرف كفتاة صغيرة. ألا تتذكرين؟"

قالت جيني: "كل ما فعلته هو أنني ذهبت أتمشى. لا أحد يصدقني، لكن هذا كل شيء. ذهبت أتمشى على الطريق."

"بكعب عال؟" قالت السيدة تومبسون. "وأنت تحملين حقيبة على ذراعك وتضعين قبعة على رأسك؟ المرء لا يذهب ليتمشى في الأجمة بهذا الشكل.

وذلك ليس مكاناً للمشي. لا توجد نقطة يمشي المرء **إليها**. إلى أين كنت تعتقدين أنك ذاهبة؟ كان بإمكاني أن أشم رائحة 'المساء في باريس' عن بعد ربع ميل."

"لا يوجد مكان يذهب المرء إليه، ولكن ما الشيء الآخر الذي يمكن القيام به؟ المسألة هي مجرد أنني شعرت برغبة في التأنق والخروج."

"كان يمكن لك أن تنظفي بيتك قليلاً،" قالت السيدة تومبسون. "هذا شيء يجب القيام به دائماً. انظري فقط إلى ذلك المجلى. وسلة الكوي تلك موجودة تحت السرير منذ تموز. أعرف أن الإنسان يشعر بالضجر هنا، لكنك تمتعت بأفضل شيء. أمضيتِ الصيف. في الشتاء يهبط الظلام حوالي الساعة الثالثة. عندئذ يحق للزوجات أن يشعرن بالجنون. وقد عرفت واحدة منهن كانت تنام طوال الليل والنهار. وحين نفذ النيمبوتال[1] لديها، تناولت حوالي مائة حبة أسبيرين. وكنت أعرف زوجة أخرى في هذا المكان تعلمت تقطير شرابها الكحولي الخاص، فقط لقتل الوقت. وأحياناً يصل الرجال إلى مرحلة يتوقفون فيها عن حب الحياة، وهذا موت بالنسبة للزوجات. لكنك أنت تمتعت بصيف لطيف، وفيرن يحب هذه الحياة."

قالت جيني: "يحبها أكثر من أي شيء. لقد أحب الجيش، لكن هذه برغم كل شيء هي حياته المفضلة."

قالت السيدة تومبسون: "فإذن. إن لديك جميع الأسباب لأن تكوني سعيدة. ما ستفعلين إذا أرسلك بعيداً الآن كما نصحه السيد شيرمان؟ ستكونين وحدك وستضطرين إلى العمل. لا تعرف النساء أن أحوالهن جيدة حين تكون كذلك. هنا لديك زوج جيد وعاقل يعمل من أجلك وأنت لا تقدرين هذا. بل كان عليك أن تخرجي وتفعلي شيئاً شنيعاً."

قالت جيني: "لم أفعل سوى أن ذهبت أتمشى. هذا كل ما فعلته."

---

(١) Nembutal عقار منوم.

قالت السيدة تومبسون: "هذا محتمل. لكنه شيء شنيع. وهو تقريباً أسوأ شيء حدث هنا على الإطلاق. لا أدري لم أتحتِ له أن يحدث. المرأة تستطيع دائماً الدفاع عن الشيء الثمين، حتى حين تتعرض للهجوم. آمل أن تكوني قد تذكرت التفكير بالبكتيريا."

"ما ذا تقصدين؟"

"أقصد جافيل(١) أو شيئاً ما."

بدا على جيني عدم الفهم وهزت رأسها بالنفي.

قالت السيدة تومبسون بعد فترة، وهي تنظر إلى النافذة المظلمة: "يا ترى كيف تجري هذه الأمور. أعني، فكري ببرلين وأولئك الروس وكل ذلك. فكري بشخص مقرف لا تعرفينه. بل لم تقولي له مرحباً قط. لكن بعض الفتيات يتسببن بذلك لأنفسهن. ولا يمكنك أن تلومي الرجل دائماً. الرجل يخسر عمله، وزوجته إن كان متزوجاً، كل شيء، وكله بسبب فتاة سخيفة."

قطبت جيني وهي ذاهلة. ضغطت على أظافرها لتختبر الطلاء. لعقت شفتيها وقالت: "لقد تعرضت للضرب العنيف يا سيدة تومسون. لم يكن الأمر كما تعتقدين تماماً. لم يخطر لي إلا فيما بعد أنني اغتصبت وكل شيء."

شهقت السيدة تومبسون وهي تسمع الكلمة من جيني. قالت: "هل توجد أي علامات على جسمك؟"

"على ذراعيّ. وهذا سبب ارتدائي هذا القميص. أول ما قمت به هو أنني غيرت ملابسي."

فكرت السيدة تومبسون بهذا، ثم انتقلت إلى شيء آخر: "هل تفكرين بأمك أبداً؟"

"بالطبع."

---

(١) Javel . اسمه العلمي صوديوم هايبوكلورايت، وهو مادة تبييض تستعمل كمطهر.

"هل تُصلِّين؟ إذا حدث هذا في التاسعة عشرة —"

"أنا في العشرين."

"— كيف ستكونين حين تَصِلين لسن الثلاثين؟ ها أنت لديك من الآن ذكرى شنيعة شنيعة ستلاحقك طيلة حياتك."

قالت جيني: "إنني الآن غير قادرة على تذكر ما حدث. فيما بعد، بدأتُ أمشي نحو المخيم، لكنني كنت أمشي في الاتجاه الخاطئ. قابلتُ السيد شيرمان. كانت مؤخرة سيارته مليئة بالبن والسكر والطحين وكل تلك الأشياء. أعتقد أنه كان يأتي باحتياجاته من المؤن. قال: 'اركبي.' لم يسأل أية أسئلة في البداية، وعلى أية حال لم يكن بقدرتي أن أتكلم."

"صدمة،" قالت السيدة تومبسون بلهجة حكيمة.

"أتعرفين، إن علي أن أرى الأمر يحدث كي أعرف ما حدث. كل ما أتذكره هو أننا في بادئ الأمر كنا نتحدث . . ."

"أنت والسيد شيرمان؟"

"كلا، كلا، قبل ذلك. عندما كنت أتمشى."

"لا تقولي من هو،" قالت السيدة تومبسون. "لا حاجة لدى أي شخص منا لأن يعرف."

"كنا نتكلم، وفجأة أصبح غاضباً وأمسك بذراعي."

صاحت السيدة تومبسون: "لا تذكري الاسم."

"كما كان الأمر حين كنت صغيرة، فقد عرض فيلم للانا ترنر.[١] وقد ولدت توأمان. كانت هناك وجاءتها الممرضة بالتوأمين. لم أكن قد تزوجتُ أو أي شيء، ولم أكن أعرف شيئاً، وكنت أفكر أنني إذا استمررت في مشاهدة

---

(١) Lana Turner نجمة سينمائية أمريكية.

الفيلم سأعرف كيف حصلت على التوأمين، لكنني شاهدت الفيلم حوالي ست مرات، ومع ذلك ففي النهاية لم أكتشف أي شيء جديد قط. فقد كانوا يأتون لها بالتوأمين وحسب."

جلست السيدة تومبسون هادئة تماماً، محاولة فهم هذا الأمر. ثم علّقت: "استغلال المرأة عمل إجرامي. لقد سمعت السيد شيرمان يقول شيئاً آخر، يا جيني. قال: 'إذا أرادت زوجتك أن ترفع قضية وتستشير محامياً، دعني أقول لك، فإنك لن تحصل على عمل آخر أبداً.' هكذا قال. وقال فيرن: 'أعرف ذلك يا سيد شيرمان.' وقال السيد شيرمان: 'وأنا أقول لك، إذا بدأ أي صحفيين أو محققين بالمجيء إلى هنا، فإنهم سيحصلون على نصيبهم من . . . ولن يتمكنوا أبداً . . .' لقد كان غاضباً. وقال فيرن: 'لقد أتيت إلى هنا لأخبرك أنني سأترك العمل، يا سيد شيرمان.'" كانت السيدة تومبسون تؤدي هذا بحيوية، مستخدمة صوتاً هادئاً حين تتحدث على لسان فيرن ولهجة متوعدة حين تستشهد بالسيد شيرمان. وبصوتها الطبيعي قالت: "إذا كنت تتساءلين كيف أتيح لي الاستماع إلى هذا كله، فقد كنت أتمشى بجانب نافذة مكتب السيد شيرمان، أي بيته. وكنت قد أخذت معي مورين Maureen في عربتها." كانت مورين أصغر عرائس السيدة تومبسون.

من المحتمل أن جيني كانت تصغي. لكنها بدأت تقول شيئاً آخر: "أتعرفين، حيث كنا من قبل في مكان عمل فيرن السابق، لم نكن في مخيم. كان يغيب كثيراً ويتركني في آموس Amos، في فندق. وقد أحببت ذلك. آموس ليست كبيرة جداً، لكنها أفضل من هذا المكان. وكان هناك شخص ألماني في الفندق. كان يبيع سيارات. وكان يوصلني بسيارته إذا أردت الذهاب إلى السينما أو اي شيء آخر. ولم يكن فيرن يحبه، لذلك تركنا. لم يكن ذلك ذنب أي شخص."

قالت السيدة تومبسون: "إذن تخلى عن عملين. أحدهما لأنه لم يستطع تركك بمفردك، والآن هذا العمل. عملين، ولم يمض على زواجكما خمسة

أشهر. لِمَ يجب طرد رجل آخر من عمله؟ لسنا بحاجة لمعرفة أي شيء. سأكون آسفة إذا كان جيمي كوين Jimmy Quinn،" تابعت كلامها ببطء، "فأنا أحب ذلك الفتى. لا تقولي الاسم، يا عزيزتي. هناك إيفانز Evans. سوسيني Susini. بالمر Palmer. لكن من الممكن أن يكون أي شخص آخر، أيضاً. والآن لنأمل أن يتمكنوا من العودة إلى التفكير بعملهم."

"ظننت أنهم جميعاً يحبونني،" قالت جيني بحزن. "إنني أنسجم مع الناس. وفيرن لا يتشاجر معي أبداً."

"فيرن لا يتشاجر مع أي شخص، أما **أنت** فكان ينبغي أن يجلدك."

"لو أنه . . . كما تعرفين. لن أذكر الاسم. لو أنه كان معجباً بي، لما كان لدي مانع. لو كان ودوداً. وأنا أعني ذلك فعلاً. ولما كنت تجولت على الطريق، وأحدثت كل تلك الضجة."

قالت السيدة تومبسون: "جيني، أنت لا تدركين ما تقولين."

"كان يمكن على الأقل أن يعجب بي،" قالت جيني. "لكنه لم يكن حتى ودوداً. هذه هي المرة الأولى في حياتي التي لا يعجب بي أحد الأشخاص. إن قلبي محطم يا سيدة تومبسون. قلبي محطم وحسب."

فكرت السيدة تومبسون ان على جيني أن تبكي. يجب أن تخرج ما بداخلها. هزت نفسها ببطء، وهي تضرب بقدمها، محاولة أن تتذكر كيف كانت تشعر بالنسبة للأشياء حين كانت في العشرين، وتساءلت ما إذا كان قلبها أيضاً قد تحطم قط.

شيرلي آن غراو

حفلة الشاطئ(١)

ولدت شيرلي آن غراو في نيو أورليانز عام ١٩٢٩. تختلف قصتها المترجمة هنا عن معظم أعمالها من حيث مشهد الأحداث، الذي يكون عادة منزلاً يشهد الحياة النفسية والعاطفية لأفراد العائلة المقيمة فيه، ومن حيث أن أعمالها تتناول عادة المسألة العرقية، التي تتميز فيها عن كثير من الكتاب البيض في أن شخصياتها السود ليست كاريكاتورية. وتهتم غراو أيضاً بموضوع الجنس (من حيث الذكورة والأنوثة). وقد نالت روايتها الملحمية **حماة المنزل** The Keepers of the House جائزة بوليتزر للأدب القصصي عام ١٩٦٥. وتُقارن غراو بكاتبات جنوبيات من أمثال يودورا ولتي.

انحرفت سيارة الجيب الزرقاء المشرقة عن الطريق الرئيسي وحرثت طريقها فوق الكثبان، وإطاراتها الثلجية تجعل الرمل يدور خلفها وكأنه ماء يدور خلف سفينة. وبعد عشرين دقيقة انزلقت جانبياً وهبطت على آخر

---

(١) هذه ترجمة قصة "The Beach Party" للكاتبة Name. والقصة نشرت في مجلة **رِدبوك** *Redbook* عام ١٩٦٥، كما نشرت في العام التالي في كتاب **أفضل القصص القصيرة الأمريكية لعام ١٩٦٦**:

The Best American Short Stories 1966, ed. Martha Foley & David Burnett, Houghton Mifflin 1966.

منحدر وتوقفت على رمل الشاطئ المتماسك. خرج ثلاثة شبان منها وأخرجوا ثلاثة رفوش ومبرّد ماء عليه مربعات صفراء وسوداء مشرقة. وزمجرت الجيب عائدة من حيث أتت. كان الوقت آنذاك حوالي الساعة الرابعة.

دفع الشبان الثلاثة رفوشهم في الرمل، وجلسوا والكثيب العالي وراء ظهورهم وشرب كل منهم علبة بيرة. ثم ملؤوا العلب بحصوات صغيرة وألقوا بها في المحيط، وراء الخط المتجعد الذي تتكسر الأمواج عنده. وأخيراً خلعوا قمصانهم وبدؤوا يحفرون حفرة. وحين أصبح عمقها بعلو الركبة، قاموا بجمع حجارة وغطوا قاع الحفرة بها. ثم جلسوا وشربوا البيرة مرة أخرى.

انزلقت الجيب الزرقاء اللامعة هابطة على الكثيب مرة أخرى. كانت فيها هذه المرة خمس فتيات، وعدة أكياس ورقية، وثلاث أكياس مبللة، وقفص خشبي كبير. حمل اثنان من الشبان القفص إلى المحيط، وهم يخطون بحذر فوق القاع المليء بالحجارة، ويتجهون إلى بركة خلفها الجزْر. وضعوا القفص هناك في الماء الذي يصل علوه إلى الركبة، ووضعوا صخوراً على سقفه لتثقله. وجمع الآخرون كميات من الخشب الطافي وأشعلوا ناراً في الحفرة المبطنة بالحجارة. وبعد ذلك مدوا بطانياتهم وخلعوا ملابسهم بحيث لم يبق منها سوى ملابس السباحة، وأداروا أجهزة الراديو الترانزستور التي يحملونها. ذهب بعضهم للسباحة، وهم يتحسسون طريقهم بحذر بين الصخور الساقطة. واكتفى البعض بالتمدد تحت الشمس في لحظاتها الأخيرة. كانت الشمس تنسحب بسرعة فوق حافة الكثبان، وأخذ ظل عشب بعض النباتات البحرية يمتد أكثر فأكثر على المنحدر.

قررت فريدا ماثيوز Frieda Matthews أن تتمشى. كانت الشمس قد أحرقت جلدها من قبل، والاستلقاء على الرمل الحار جعل جلدها يحك ويخز في كل بقعة منه. أغلقت جهاز الراديو الترانزستور الأخضر ووضعته بعناية فوق منشفتها.

رفعت أُرسولا لوغان Ursula Logan رأسها: "هل أنت ذاهبة لتتمشي؟"

"ليس على النحو الذي تقصدينه. مشي حقيقي."

"ستتركين الراديو؟"

قالت فريدا: "يمكنك تشغيله إن أردتِ، ولكن لا تدعي الرمل يصل إليه." كان الجهاز هدية التخرج من عائلتها قبل أقل من ستة أسابيع. وهو جهاز جيد، باهظ الثمن، أغلى جداً من طاقة عائلتها المادية على اعتبار أن أخاها يدرس في الجامعة ويريد دخول كلية الطب، كما إن فواتير رسومها الجامعية على وشك أن تبدأ . . .

قالت فريدا: "انتبهي، واعتن به."

قالت أرسولا: "طيب، سأحميه بحياتي."

"فقط أبعديه عن الرمل."

مشت حتى حافة الماء وحدقت بالأطلسي المفتوح خلف الصخور. كان السباحون هناك، ينثرون الماء حول فرشة منفوخة برتقالية اللون مشرقة. رأت رأس أخيها، أملس وقاتماً كرأس الفقمة. لوحت له: "مرحباً يا إفريت Everett!"

صاح: "تعالي انزلي في الماء!"

هزت رأسها سلباً وتابعت سيرها على الشاطئ. كانت تخاف المحيط، وخوفها متعلق باللون القاتم، بصوت الأمواج وحركتها. في المسابح كانت تسبح جيداً وهي سعيدة – فالبلاط الأخضر والأبيض ودود ومتلألئ. اما أعماق المحيط المعتمة – فلا.

مشت تتبع خط المد الأعلى، تبحث بين الحطام الذي جرفه البحر. وجدت خطاً من صناديق بيض الحلزون الكبير، مغضنة ومرتبطة ببعضها بعضاً كأنها ورق مقوى. شقت بإظفر إصبعها الغلاف السميك القرني لإحدى الحجيرات، وسقطت دستة من الأصداف الصغيرة على يدها. ووجدت غصينا

من الطحلب الأيرلندي، مكتملاً وأبيض اللون، ودسته في عروة زر قميصها. (كانت جدتها قد صنعت شيئاً في مطبخها القديم الطراز في منزلها الرمادي الضخم – حلوى الأعشاب البحرية – مستخدمة هذا العشب البحري نفسه.) وجدت علامة لصندوق مما يستخدم لصيد الكركند، مخططة بألوان صاحبها. لم تستطع تمييزها. لا بد أن العلامة انجرفت مسافة طويلة على جزء من الساحل لا تعرف رموزه.

ألقت بها جانباً وهي منزعجة، وشعرت بالشعور نفسه تماماً مثلما شعرت حين كانت طفلة ووجدت زجاجة عائمة ورسالة مطموسة بحيث لا يمكن قراءتها.

لكنها بعد ذلك التقطت العلامة مرّةً أخرى وحملتها وهي تسير قدماً تجاه لسان صخري بارز إلى داخل المحيط، يقسم الساحل إلى خليجين ضحلين صغيرين. وحين وصلت فريدا إلى تلك النقطة، وجدت أن هناك جماعة من المتنزهين في الخليج الآخر أيضاً. شعرت بالدهشة، فقد كان الوصول إلى ذلك المقطع من الساحل صعباً إلى حد أن قلة من الناس كانوا يأتون إليه. لكنهم كانوا هناك وسيارات الجيب التي أتت بهم تقف جنباً إلى جنب.وبينما كانت تراقب، جاهد ثلاثة رجال في ارتداء ملابس الغوص العميق وتقهقروا بنشاط داخل الأمواج، وهم يحملون بنادقهم بعناية. لم تكن على ظهورهم أوعية هواء، مما يعني أنهم سيسبحون تحت الماء على مقربة من الساحل. وكانت مجموعة من النساء ينتظرن على الشاطئ، وبما أن الريح كانت تهب في وجه فريدا، فقد استطاعت سماع صوت ضحكاتهن. وكان صبيٌّ لم يكتمل نموه يتسلق إلى قمة الكثبان ثم ينزلق مندفعاً على الرمل. وكان طفلان صغيران يجريان صعوداً وهبوطاً على السطح المائل نحو المحيط، ينثران الماء ويصرخان.

كانت الساعة آنذاك حوال الخامسة، منتصف فترة الجزر المنحسر.

هبطت الشمس؛ تباطأ النور ثم اضمحل. قامت الجيب الزرقاء بآخر رحلاتها، وبدأت حفلة الشاطئ فعلاً. كان يوجد غيتار الآن، ونار صغيرة أخرى، وحوض مليء بعلب البيرة. كان السابحون قد عادوا قبل فترة طويلة – في الوقت نفسه تقريباً الذي عادت فريدا فيه من مشيتها – وارتدوا ملابسهم. كات الريح قد تناقصت، وكذلك الأمواج. وانحسر المحيط بهدوء إلى أدنى جَزْر الربيع.

كان اثنان من الشباب يعملان عند الحفرة. فقد أخرجوا ما تبقى من الخشب المشتعل ورشوا الصخور بالماء. ثم جاؤوا بكيس من الأعشاب الصخرية وهزوا الجدائل السوداء اللامعة لتسقط في الحفرة.

سألت فريدا: "ألا يمكنني القيام بأي شيء؟"

قال إفريت: "ساعديني في تبليل الذرة."

حملا كيس الذرة وهبطا به إلى حافة الماء.

قال إفريت: "لا تغطسيه هنا، فالرمل كثير."

نظرت إلى الماء المظلم: "أنت تعرف أنني لا أستطيع."

"آه، بحق السماء!" سحب الذرة مبتعداً عنها، وتراجعت هي إلى الرمل الجاف. عاد بعد دقيقة، والكيس على كتفه يقطر ماء. "بفضلك تبلل قميصي."

مدت يديها على نحو بائس: "إفريت، أنت **تعرف** أن –"

سار مبتعداً نحو الحفرة. وساعدته فتاة ذات شعر أسود معقوص بإنزال الكيس عن كتفه. وحين انحنت لتشاهد ما في الحفرة قام بنقر نقرتها بفمه، فقهقهت دون أن تبدو عليها الدهشة. حولت فريدا نظرها عنهما.

فكرت فريدا: ما كان يجب أن آتي. وتذكرت كيف قالت أمها: "إفريت، لا بد لك بكل بساطة أن تعمل على أن يكون لفريدا بعض الأصدقاء. بعد أربعة فصول صيف في المخيم، أصبحت لا تعرف أحداً هنا على الإطلاق."

قال: "طيب، سأصطحبها إلى حفلة الشاطئ."

نظر إفريت الآن إليها والعرق يتدفق من وجهه من حرارة الحفرة. سألها: "أين الفتى رفيقك، يا أختي الصغيرة؟"

صبي طويل نحيف يدرس في كلية هندسة في مكان ما اسمه جون John... كان إفريت قد رتب الأمر.

قالت فريدا: "لا أدري اين هو."

"يبدو أنه واقف خلفك تماماً."

استدارت فريدا.

قال جون: "لست مضطرة لأن تندهشي إلى هذا الحد."

قالت: "آه، لم أرك منذ عصور."

"وأنا لم أرك. ما الذي كنت تفعلينه؟"

قالت وهي غير متأكدة: "لا شيء. لا شيء يستحق الذكر."

"رأيتك تمضين راكضة على الشاطئ."

"كنت أراقب بعض غواصي الأعماق هناك."

"لا!" قالها بلهجة عدم تصديق مبالغ فيها.

"لا تتساخف. بالطبع كنت أراقبهم."

"طيب، سنذهب إذن ونلقي نظرة."

شدها معه ويده على معصمها. حاولت المقاومة لكنه شدد قبضته، إلى أن شعرت بوخزات من الألم تصعد وتهبط على ذراعها. ثم استسلمت، وبقفزتين تمكنت من مجاراته في السير.

قالت: "فقط إلى تلك النقطة، وسيمكنك عندئذ أن ترى."

نظرا. وعلى الرغم من خفوت الضوء استطاعا رؤية أن المجموعة قد غادرت – الكلاب والأطفال والنساء. لم يكن هناك سوى صبي واحد يجلس بجانب كومة من المناشف والملابس. كان يكتب على الرمل الناعم المتصلب.

قال جون لفريدا: "حسن، حصلت على علامة ممتاز على هذا."

"لنعد."

"هذا الصوت المرتجف المشابه لصوت بنت صغيرة... هل لك من فضلك أن تتوقفي عن الخوف مني؟"

قالت: "لست خائفة."

"إنني لن أغتصبك. بل حتى لن أقبلك."

قالت بلهجة جعلتها رسمية بقدر ما استطاعت: "لا أدري ما تفكر به. قد أكون أصغر الأشخاص في هذه الحفلة، لكنني لست طفلة ولست ساذجة إلى هذا الحد."

قال: "سأذهب وأحضرلنفسي علبة بيرة."

واضطرت للإقرار بأنه اثناء سيرهما البطيء في طريق العودة، لم يكن ضغط يده على معصمها مزعجاً على الإطلاق.

كان عازف الغيتار واقفاً. "سيغر Seeger يغنيها على هذا النحو." وغنّى جزءاً من أغنية. "ولو كان معي بانجو، لأريتكم طريقة سكرَغس Scruggs في أدائها. بهذه الملاوي يا صاحبي، إنها رائعة، عظيمة."

لاحظت فريدا بصورة مفاجئة تماماً أن له لحية صغيرة مشذبة. كانت شقراء إلى حد أنها لم ترها من قبل. وفي النور الخافت المنبعث من النار لمعت بإشراق مفاجئ.

قال أحدهم لفريدا: "إنه أعظمهم."

"من؟ سكرُغس؟"

"سيغر."

قالت بأدب: "آه، آه."

قال عازف الغيتار وهو يهز شعرات لحيته الملتمعة: "كل هذا الاهتياج الملحوظ، ليس أسهل منه."

لم تكتشف فريدا قط ما عناه لأنه في تلك اللحظة تماماً، التفت الجميع تجاه الصرخات الصاخبة: "ها نحن قادمون! أفسحوا الطريق!"

كانوا يحملون حيوانات الكركند من الأمواج – رجلان وفتاة ترتدي ثوب سباحة أزرق مشرقاً. ترنحوا تحت وطأة القفص المُرْبِك، وتركوا أثراً من الماء كالدم خلفهم. قلبوا الصندوق عند حافة الحفرة، وفتحوه. (رأت فريدا أن إفريت كان واحداً منهم. فكرت: من الغريب أنني كدت ألا أعرفه. إنه يبدو مختلفاً.) بدؤوا يخرجون الكركند ويلقون به على الأعشاب التي تخرج منها الأبخرة لشدة حرارتها.

عاد جون بعد أن أحضر البيرة، وكان يمسك العلبة بيده. "هل تعلمين أن هناك اعتقاد خرافي أن الكركند يصرخ عندما تضعينه في ماء يغلي؟"

أحست فريدا بمؤخرة حنجرتها تنغلق بحدة.

"تقول أمي إنها سمعت الصرخات، برغم أني لا أعرف كيف يمكن أن تسمعها، لأن الكركند إذا علمتِ ليست له حبال صوتية. ومع ذلك يوجد أشخاص كثيرون مستعدون للقول إنهم سمعوا الصراخ."

أشاحت فريدا بوجهها ومشت ببطء إلى أن وجدت كثيباً يحميها. استقرت هناك وظهرها إلى النار.

تبعها جون، وجلس إلى جانبها. "يضايقك ذلك، صحيح؟ لكنه حقيقة."

قالت بعناد: "وكذلك لن أسبح في المحيط. وهذه أيضاً حقيقة مساوية لتلك تماماً."

قال: "ستكونين على ما يرام حين تكبرين. هل تريدين رشفة من البيرة."

قبلت، وأخذت العلبة منه وهي صامتة. جرى السائل البارد على حنجرتها المتوجعة.

التفت ليراقب الجماعة. "لقد غطوا الحفرة بمشمع ووضعوا رملاً فوقه، لذلك يمكنك إن أردتِ أن تعودي."

"أظن أنني سأبقى هنا."

وضع ذراعه حولها، وأدركت أنه أساء فهم جوابها. لكنها شعرت أن الأمر لم يعد ذا أهمية. انبعثت من سترته رائحة العرق، وضغط معدن السحاب على خدها، لكن رغم ذلك، كان الوضع أفضل من أن تكون وحدها. رغم ذلك.

رفعت فريدا رأسها، وقالت: "أسمع شيئاً. شيء ما يحدث." انتبهت إلى ذلك بشكل تدريجي وبدون إدراك عقلي واضح، مع ارتفاع صوت الضجيج. بدا أن الضجة بدأت على الطرف الآخر من النار، على بعد مسافة كبيرة. قالت لجون: "انظر هناك."

بدا أن الناس يبتعدون، كما يخرج السكر من الورق: بلطف وسرعة.

"ما الذي يحدث؟"

هز جون رأسه. "أتريدين الذهاب لرؤية ما يجري؟"

في تلك اللحظة بدا أن الجميع يركضون على الشاطئ نحو الرأس الصخري. ما عدا شخص واحد – صبي يجلس إلى جانب النار.

سألت فريدا: "من ذاك الصبي؟"

قال جون: "لم أره من قبل قط."

نادته فريدا: "مرحباً. ما الأمر؟"

جلس بهدوء شديد ولم يجب ولم ترف عيناه، واكتفى بالتحديق بألسنة اللهب المتصاعدة من الأخشاب وكأنه لم يسمع.

قال جون: "تعالي نكتشف ما يجري."

كانت المجموعة قد توقفت وأخذت تدور عند حافة الرأس الصخري. وجدت فريدا إفريت وأمسكت ذراعه بإحكام، وقالت: "إفريت، هل تعرف ما يجري؟"

"توقفي!" بدأ يشد نفسه ليبتعد، لكنه توقف. ""هل رأيت الصبي، أم كنت مشغولة جداً في معانقة جون؟"

"الصبي عند النار؟"

"حسن، لقد أتى وطلب منا المساعدة." قام إفريت بحك ذقنه بعصبية. "قال إن أحد الغواصين لم يعد."

لا حظت فريدا أن البدر قد ظهر على حافة الأفق، وأحدث أثراً أصفر يشبه الزبدة فوق الماء. وكان الجزر يتقهقر ببطء، واستمر ظهور صخور مبللة لامعة غير متوقعة في النور الخافت.

قالت: "لقد رأيناهم، في وقت سابق. كان هناك ثلاثة غواصين أو أربعة وبعض الأطفال."

قال إفريت: "بالطريقة التي وصفها لنا، عاد أخوه ليقوم بمحاولة أخرى بينما ذهب الآخرون إلى بيوتهم، وكان الصبي هو الوحيد الذي بقي ليكون في صحبته."

سأل جون: "الأخ موجود هناك في البحر؟"

رفع إفريت كتفيه. "أعتقد أن علينا أن نبحث عنه."

أشعل أحدهم مصباحين يعملان بالغاز، وجاء أحدهم بجميع المصابيح اليدوية، وحدد ثالث اتجاه الماء عند الشاطئ. وأخذ أفراد مجموعة حفلة الشاطئ يخوضون الواحد تلو الآخر ليبدؤوا البحث.

قالت فريدا: "ألا تعتقد أنه يجب ذهاب شخص لطلب المساعدة؟"

قال جون: "لقد ذهب أحدهم." أفلت يد فريدا، وبسبب اندفاع الهواء البارد الذي لامس يدها، لاحظت أنه كان يمسك بها لفترة طويلة.

قال، مخاطباً القمر الصاعد بمقدار ما كان يخاطب أي شخص آخر: "ليس لدي مصباح يدوي ولن أستطيع رؤية أي شيء، لكن أعتقد أنني سأبحث أيضاً." التفتت إلى فريدا وابتسمت عيناه لها. "على الرغم من أن ما كنا نفعله كان أكثر متعة، لكن احفظي لي مكاني، موافقة؟"

خلع سترته وأعطاها لها. "انتبهي. توجد بعض النقود في الجيوب." ربط بإحكام حزام لباس السباحة الذي يرتديه ونظر إلى الماء، ورفع كتفيه. "حسن، قد أدوس فوقه، لكنني لن أراه أبداً."

أمسكت فريدا بالسترة بعناية. "أظن أن بإمكانك أن ترى لون بشرته، فهي بيضاء إلى حد ما."

"يا عزيزتي،" قال جون، "سيكون مرتدياً لباس غوص مطاطياً أسود.... لا تتركي نقودي تتساقط." وخاض في الماء.

عادت فريدا إلى الشاطئ، وهي تكوّر السترة بعناية، وتطوي الجيوب إلى الداخل.

فكرت: ربما استطيع أن أدخل قليلاً في الماء وأساعد.... ولكن حتى هي لم تصدق نفسها.

ثم تذكرت الصبي جالساً وحده قرب النار. قالت لنفسها: سأذهب إليه ليكون شخص بصحبته. هذا شيء أستطيع فعله.

مشت نحوه بخطوات رشيقة. كان جالساً بالطريقة نفسها كما كان حين رأته أول مرة – ركبتاه مرفوعتان وذراعاه ملفوفان حولهما. فكرت: لا بد أن هذا هو الصبي الذي كان يتسلق الكثيب الخلفي حين رأيتهم أول مرة، حين كانت الشمس لا تزال مشرقة.

قالت: "أيمكن لي أن أحضر لك شيئاً؟" كان يرتدي قميصاً قصير الكمّين، ووضعت يداً على كتفه. من خلال النسيج الرقيق شعرت ببرودة جلده التي وصلت إلى العظم. "أتريد أن أحضر لك معطفاً؟"

لم يجب، لكنها بحثت إلى أن وجدت معطفاً زائداً سقط من أحدهم ووضعته حول كتفيه. لم يتحرك – بل حتى لم تتحرك عيناه، لكنه حدق بثبات في رأس حذائه المطاطي الأبيض.

توقفت عن المحاولة، ومشت على الشاطئ لتشاهد البحث.

كانت معظم البنات على مقربة، في المياه الضحلة المزبدة. أما الرجال فكانوا أبعد، يكادون يتجاوزون خط الموج. وانعكست أنوارهم على السطوح المتكسرة للصخور السود المتناثرة. وبينما كانت تنظر، أمسكت موجة بأحد الرجال ودحرجته. خرج منها وهو يشتم، ومصباحه اليدوي لا يزال مشتعلاً.

فكرت فريدا: مثل قطيع من صيادي السمك المسطّح. كل ما ينقصهم هو مجموعات صنانير الصيد. . . .

لا بد أن فترة طويلة قد مضت، فقد انطفأت جميع المصابيح اليدوية ما عدا واحداً منها، وصعد القمر في السماء؛ كانت جميع الفتيات وبعض الرجال قد عادوا إلى الشاطئ، وكانوا يقفون قرب النار يرجفون. ولا بد أن البحث استغرق وقتاً طويلاً لكنهم وجدوه.

صرخة مكتومة: "هنا، تعالوا!" تأرجح أحد مصباحي الغاز مشكلاً قوساً كإشارة وتحرك المصباح اليدوي المتبقي بسرعة إلى البقعة نفسها. هجر اثنان من الرجال دفء الشاطئ وهرعا مرة أخرى إلى الماء. وبعد بضع صرخات أخرى بدؤوا رحلتهم، وهما يجرون شيئاً عبر الماء الذي غطاهم حتى الخصر. وتجاوزوا أكبر الصخور الغرانيتية، إلى داخل الملاذ المحمي من الريح، حين أدركهم الموج العاتي. انقلب المصباحان وغمرتهما المياه واختفيا. وفي الظلمة المفاجئة تعثر الرجال إلى الصخر، والتيار تحت السطح يسحبهم

ويقلّبهم، استطاع ثلاثة منهم الثبات، وجاهدوا وقوفاً على اقدامهم وشقوا باقي طريقهم وهم يحملون حملهم.

حملوه فوق الشاطئ الذي بللته الأمواج إلى الرمل الجاف، والزعانف الخلفية لطقم الغوص الذي يلبسه تنجر وراءهم مثل ذيل سمكة. تركوه هناك – تركوه للآخرين الذين احتشدوا حوله – وأسرعوا إلى النار وأجسامهم المبللة ترتعش في ريح الليل الباردة. ألقوا بمصابيحهم اليدوية عديمة الفائدة، ومصباحيهما المكسورين، على الرمل. وجدوا مناشف وفركوا اجسامهم بعنف، وهم يقفزون للحصول على الدفء، وسعلوا وطفق كلٌ وافد منهم يضرب الآخر على ظهره. قال أحدهم للآخر: "أقسم أنني لم أر الموجة آتية." "بوجود الصخرة هناك، أول شيء تدركه هو أعلى الموجة وقد اصبح فوقك."

توقف الرجل الذي كان يحمل أحد المصباحين عن السعال أخيراً وبدأ يرتدي قميصه. قال: "أشعر وكأنني ابتلعت المحيط بأكمله. هل سمعتم رأس الفتى يصدم الصخرة؟"

قالوا: "كلا."

"المصباح في إحدى يديّ وأنا ممسك به بالأخرى، والموجة . . ." وجد سترته وبدأ يرتديها. "لقد قضينا كل ذلك الوقت للعثور عليه، ومن المؤكد كأي شيء أننا لم نكن سنفلته."

وقفت فريدا في مكانها، صامتة، مفتونة.

"كان بيل Bill ممسكاً بالذراع الأخرى، ولكن حين جاءته الضربة اضطر أن يفلته، وهذا الشخص المسكين، برغم أن ثلاثة منا ممسكون به، يدور إلى الجانب ويضرب رأسه بالصخر. تحت الماء، ضربة قوية جداً."

"كان قد مات قبل ذلك."

"هكذا شعرنا. لم أشعر قط بأي شيء أكثر ثقلاً منه."

"أتدرون، لا أزال أشعر بالرأس وهو يصطدم –"

قالت فريدا فجأة: "اخرسوا! ألا تستطيعون أن تخرسوا!"

كان الصبي يراقبهم، وعيناه قد ارتفعتا من النظر إلى رأس حذائه، وكان يراقبهم مباشرة. كان جالساً وظهره مستقيم تماماً والسترة المستعارة قد انحسرت عن كتفيه. كان ينظر إليهم مباشرة وكان يصغي.

حاولوا إنعاشه باستخدام الطريقة الوحيدة التي يعرفونها، وهي نفث الهواء من الفم إلى الفم. كان جون أولهم. وحين انتهى مشى مسافة قصيرة إلى الشاطئ وانحنى وتقيأ. ثم رفس الرمل ليغطي البقعة وغسل وجهه وتمضمض مرتين بماء البحر. وحين التفت كانت فريدا تحمل منشفة سباحة لتعطيها له. قال: "شكراً."

قالت: "تعال إلى حيث النار، فستشعر أنك أفضل."

سألها: "أتعتقدين أن بإمكانك أن تجدي لي علبة من البيرة؟"

اقترب إفريت منهما، وقال: "أنا التالي. هل الأمر سيء؟"

قال جون: "كلا، وإنما هي الفكرة بصورة رئيسية." ثم أضاف، وكأنه يدلي بفكرة لاحقة: "والإحساس."

فرك شفتيه بيديه. ناولته فريدا البيرة ثم جلست بجانبه، تنتظر ما يحتاجه أيضاً. لكنه لم يطلب شيئاً. لم يتكلم على الإطلاق. ومرة وضعت ذراعها على كتفيه، لكنه سحب نفسه عنها. "أنا على ما يرام." وحين أكمل البيرة، نهض بنفسه وأحضر علبة أخرى.

لذلك لم يكن لديها شيء آخر تفعله. أخذت سترتها وتسلقت أقرب كثيب إلى منتصفه واستقرت في ذلك المكان، فمددت نفسها فوق البياض الأملس، وشعرت بنفسها تنتفض وتموت تحت ضوء القمر، ممصوصة وهشة كأنها صَدفة.

لم يلاحظ أحد أنها ذهبت، وسيكون دور إفريت الآن قد حان لينفث الهواء في الرئتين المتوقفتين عن الحركة. وسيكون جون لا يزال قابعاً بجانب النار يقاوم شعوره بالغثيان. وذلك الصبي الذي لا تعرف اسمه يجلس وينتظر ويحدق في الفراغ.

بعد فترة، أتت سيارة جيب كبيرة مسرعة على المنحدر ثم على الشاطئ، وتبعتها الجيب الزرقاء ببطء. نزل رجلان من شرطة الولاية من الجيب الكبيرة فور توقفها عن الحركة. خاضا بين الحشد الصغير من الأشخاص وكأنهما يخوضان في بركة من الماء، والقطرات المفردة تطير من تحت أقدامهما إلى الجانب. رفعا الشكل الأسود – في نور القمر الساطع استطاعت فريدا أن تشاهد على بذلة الغوص المطاطية اللطخات التي خلفها الرمل حيث كان ممدداً. مدداه في مؤخرة الجيب الكبيرة وصعد أحدهما إلى جانبه. وقبل أن تُغلق البوابة الخلفية، شاهدت فريدا الشرطي ينهمك في إدخال شيء في الفم الرخو.

عادت فريدا للاستلقاء على السرير الرملي وتناست كل شيء عن جر الأقدام وعن النسق المتقاطع لأضواء السيارات الأمامية تحتها. لم يكن من شيء تستطيع أن تفعله. لم يكن أيّ شيء من ذلك يخصها.

رفعت بصرها إلى النجوم التي أخفت القمر أنوارها وبدأت تعدها بعناية. وصلت إلى خمس عشرة قبل أن تضيع المكان الذي وصلت إليه وتوجب عليها أن تبدأ من جديد.

حين كلفت نفسها عناء النظر إلى الأسفل مرة أخرى كانت السيارات قد غادرت. وكانت النار قد غطيت بالرمل، والحفرة لا تزال مغطاة بالرماد لتبقى مشتعلة، وخيط دقيق من البخار يتصاعد من إحدى الزوايا، ناشط ورمادي تحت ضوء القمر.

فكرت: لقد نسوني. ولكنني لم أكن موجودة، أليس هذا صحيحاً؟

انزلقت هابطة من كثيبها ووقفت على الرمل المسطّح الذي ظهرت عليه آثار الأقدام المسرعة، وكذلك الآثار العميقة لإطارات الثلج.

رأت العلامة القاتمة على الرمل حيث كان الغواص ممدداً. تساءلت عن السبب في أن ذلك لم يعد يزعجها، لكنه لم يعد يبدو أكثر ترويعاً من أي شيء آخر، من الكركند وهو يصرخ أو يصمت في الحفرة، أو من الأمواج التي تطحن الأجسام الكيتينية[1] لحيوانات لا تعدّ وتقطعها إرباً، أو من الرائحة الحادة لعرق رجل، أو من الضغط الخشن على الجسم من جسم آخر.

أخذت وهي واقفة بمفردها على الرمل الموطوء والمغطى بالقمامة تحدث نفسها بصمت.

على كل الأحوال، أتمنى لو أن الصبي لم يشاهد ما شاهده. يا ليته لم يسمع ذلك الجزء عن ارتطام الرأس بالصخرة. ولكنه بالطبع كان يجلس ساكناً، لذلك لم يلاحظوا وجوده فعلاً. ليس فعلاً . . . ومع ذلك لم يكن من الضروري أن يسمعه.

تمنت لو أن الصبي سمع كلامها. تمنت لو استطاعت أن تلف ذراعيها حوله وتخبره برفق.

لكنها في التجويف الخاوي بين الكثبان أدركت بعد فترة مدى عقم ذلك، أدركت أن تدفق الرغبة في الحماية كان جزءاً من جنسها كأنثى – تماثل في طبيعتها وفي عقمها البيوض التي نضجت ثم اضمحلت في جسدها طوال هذه السنوات الست التي مضت.

لاحظت أن القمر الآن عالٍ في السماء وأبيض، توقف الجزر وبدأ المد، وانجرف الزبَد من أمواجه فوقَ الكثبان وكأنه ضباب. وكان المحيط نفسه أسود وساكناً، وأمواجه المتدحرجة ترتفع وتهبط كالأنفاس.

---

(١) أي المغطاة بطبقة قرنية.

سيتذكرها الآخرون وسيعودون لإحضارها. كل ما عليها هو الانتظار. وهذا ما لم يكن باستطاعتها. لم يكن بإمكانها البقاء قريبة إلى هذا الحد من الماء الأسود الذي يتنفس ككائن حي.

كلا. لم يكن باستطاعتها انتظارهم.

أرادت أن تجري، لكنها لم تسمح لنفسها بذلك. رأت أن جهاز الراديو الخاص بها لا يزال ملقى على منشفتها، التي لا زالت ممدودة. كانت الريح أو الأقدام قد جرفت بعض الرمل على المنشفة، رمل كسا السطح العلوي للراديو. التقطته ونظفته وأدارته، فاشتغل. ثم التقطت المنشفة وهزتها وطوتها بعناية. أدارت ظهرها للمحيط وبدأت تفكر بالمشوار الطويل الذي ينتظرها. سينبغي عليها العثور على ممر عبر اللبلاب الشوكي السام ومجموعات زهور الرغوسا الشائكة. سيكون سيرها بطيئاً عبر الرمال إلى أن تصل إلى الطريق، ومن هناك كانت المسافة إلى بيتها ثلاثة أميال أو أربعة. ما لم تقابل أحداً في طريقها، فسيستغرق المشوار معظم الليل.

وضعت منشفتها على كتفها الأيسر وأمسكت الراديو بيدها اليسرى. ثم بدأت تمشي. كان صوت الراديو علامة صغيرة في الظلام الذي يضربه البحر، لكنها شعرت بالامتنان لتلك العلامة وانطلقت في طريقها بثقة، آمنة داخل صدفة صوت الراديو الصغيرة.

إيلين غلاسغو

جوردانز إند(١)

ولدت إيلين غلاسغو (١٨٧٤ – ١٩٤٥) في ولاية فرجينيا، وانصب اهتمامها على مجتمع في طريق الزوال، وهو المجتمع الأرستقراطي الزراعي في جنوب الولايات المتحدة. ونجد هذا واضحاً تماماً في قصة "جوردانز إند،" حيث تمثل عائلة جوردان هذه الطبقة مثلما تمثلها عائلة كومبسون Compson في رواية "الصخب والعنف" لوليم فوكنر William Faulkner. وقد كتبت غلاسغو تسع عشرة رواية، أولاها **السليل** ***The Descendant*** التي نشرتها دون أن تضع اسمها عليها. كما نشرت مجموعة واحدة من القصص القصيرة تضمنت القصة المترجمة هنا. وتتميز أعمال غلاسغو بتقديرها للتراث العائلي، وتعمقها في سبر الشخصية الإنسانية أكانت طبيعية أم شاذة، وفهمها الحاذق للنساء ذوات الطبيعة المركبة، ومعرفتها بالحياة الريفية في فرجينيا، وأسلوبها السلس والدقيق. وجميع هذه العناصر متوفرة في هذه القصة.

عند تفرع الطريق انتصبت الشجرة الميتة التي جثمت النسور عليها، ومن خلال أغصانها شاهدتُ آخر وميض للغروب. على كلا الجانبين، ارتمت

---

(١) هذه ترجمة قصة "Jordan's End" للكاتبة Ellen Glasgow. والقصة نشرت لأول مرة في المجموعة القصصية الوحيدة التي نشرتها غلاسغو في عام ١٩٢٣ تحت عنوان **الثالث المبهم وقصص أخرى** *The Shadowy Third and Other Stories*. ويلاحظ هنا أن عنوان القصة هو اسم مكان، ولكنه في ذات الوقت يعني "نهاية جوردان" ولا بد أن القارئ سيدرك قيمة هذا الازدواج في المعنى لدى قراءة القصة.

غابات تشرين في مجموعات متكسرة في وجه السماء. حين توقفتُ بدت كأنها تقترب مني وتحيطني بأشكال مبهمة براقة. خيل لي أنني أمضيت ساعات في الطريق، ولكن الزنجيّ العتيق الذي أوصل لي الخبر، قال لي أن أتبع طريق أولد سيتج Old Stage إلى أن أصل إلى "شجرة النسور" عند التفرع. "من تلك النقطة تصبح قريباً جداً من بيت السيد جوردان،" أكد العجوز لي، مضيفاً برجفة، "وتقول الآنسة(١) الشابة إنّ عليك المجيء بأسرع ما يمكنك." كنت شاباً حينذاك (كان ذلك قبل أكثر من ثلاثين عاماً) وكنت قبل فترة قصيرة قد بدأت ممارسة الطب في إحدى مقاطعات فرجينيا الأكثر انعزالاً.

توقفت فرسي، وانحنيت إلى الأمام أنظر عبر كل من الطريقين المتعرجين، من نقطة بدء تفرعهما تحت أغصان نصف عارية، وأحدق في السديم الخريفي على البعد. بعد قليل سيتلاشى اللون الأحمر من السماء. وستجدني الليلة الباردة وأنا لا أزال أتردد بين هذين الطريقين المحيرين اللذين امتدا على ما يبدو إلى عزلة هائلة. بينما أخذت أنتظر متردداً، اهتزت الأغصان فوقي وسقطت ريشة نسر مُستقرَّةً على الرداء الذي كان يغطي ركبتي. في محاولة للتغلب على الكآبة، ضحكت ضحكة عالية وخاطبت فرسي بلهجة مرحة:

"سنختار أكثر الطريقين وحشة، وسوف نرى أين يقودنا."

لدهشتي، جاءني من الأشجار التي كانت خلفي جواب على كلماتي. "إذا كنت ذاهباً إلى دكان إيشام Isham، فابق على طريق أولد سيتج."

استدرت بسرعة، ورأيت رجلاً عجوزاً جداً قلص الهرم شكله، واحدودب ظهره، وكان يجر حملاً من حطب الصنوبر، ويخرج به من الغابة. رغم أنه انحنى بحيث لم يكد رأسه يعلو عن دولاب عربتي، فقد بدا ذا حيوية

---

(١) إحدى صفات اللغة التي يستعملها أمثال هذا العجوز هي إطلاق كلمة "آنسة" على أية سيدة شابة.

غير معتادة لرجل في مثل سنه وضعفه. كان يلبس معطفاً خشناً لونه بني كلون بعض الأخشاب، واستطعت أن أرى تحته وزرته وبنطاله الأزرق. لمعت عيناه الذكيتان بمكر تحت كتلة من الشعر الشائب، وبرزت ذقنه المشعثة إلى الأمام بحيث كادت أن ترتطم بانحناء أنفه الهابط. أذكر كيف فكرت أن سنه قارب المئة عام حتماً، فقد تغضن جلده ولاحت عليه آثار تقلبات الطقس إلى حدّ أنني على البعد ظننت خطأ أنه من الزنوج.

انحنيت بأدب وقلت مجيباً: "شكراً، ولكنني أقصد جوردانز إند."

قال بصوت منخفض يشبه صوت الدجاج: "إذن عليك اتباع الطريق الرديئة. ذاك هو منعطف جوردان." وأشار إلى الطريق الغائرة الموحلة في الجهة اليمنى. "وإذا لم يكن لديك اعتراض على صحبة قصيرة، فسأكون شاكراً إن أركبتني معك. إنني ذاهب هناك أيضاً وعلي أن أجر قطع الحطب هذه مسافة طويلة."

بينما كنت أسحب ردائي وأوسع مكاناً له، أخذت بمراقبته وهو يكدس حطب الصنوبر الراتنجي في العربة، ثم يندفع برشاقة إلى مكانه بجانبي.

"اسمي بيتركن Peterkin،" قال معرفاً نفسه. "إنهم يدعونني الأب بيتركن مثلما يفعل أحفادي." اعتقدت أنه كان شخصاً مهذاراً ولن يكره إعطائي المعلومات التي أردتها.

"ليس هناك كثيرون يسلكون هذه الطريق،" قلت مبتدئاً حديثي ونحن ننطلق من الفسحة المكشوفة إلى نفق الأشجار العميق. طوقنا الشفق على الفور، رغم أن الإشعاع الغسقي لم يزل يلوح جلياً في السماء بين الفينة والأخرى. كان الهواء قارساً بسبب لذعة الخريف وبسبب أبخرة الأوراق العفنة وهبوب دخان الحطب ونكهة التفاح المهروس الناضج.

"لا أستطيع تذكر أي شخص غريب قام بزيارة جوردانز إند حتى ولو كان طبيباً. ألست الطبيب الجديد؟"

"نعم أنا الطبيب." نظرت إلى الشبح الذي بدا شبيهاً بقزم من أقزام الجان في معطفه البني الحطبي. "هل لا زال المكان بعيداً؟"

"كلا سيدي، سنكون تقريباً هناك حالما نخرج من غابة وتن Whitten."

"إذا لم تكن الطريق مطروقة كثيراً، فكيف صدف أنك ذاهبٌ هناك؟"

دون أن يلفت رأسه، هز العجوز وجهه الذي بدا من زاوية جانبية كالهلال. "أوه، إنني أعيش هناك. ابني توني Tony يعمل في جزء من المزرعة محاصصة، وأنا أساعد أيضاً وقت الحصاد أو حين تذرية الذرة. وبين الفينة والأخرى أقوم بالمساعدة في تحضير شراب التفاح. كان السيد الكبير يدير المكان بهذا الشكل قبل أن يصاب بالخبل، والآن بما أن الشاب مريض، ليس هناك من يعنى بالمزرعة سوى الآنسة جوديث Judith. ليس لتلك السيدات الهرمات أي اعتبار. إنهن ثلاث ولكنهن جميعاً مشوشات الفكر ويبدو منظرهن وكأن النسور قامت بنقرهن. أظن أن هذا نتيجة مكوثهن منغلقات مع أناس مجانين في ذلك البيت القديم المتداعي هناك. لم يصلح السطح منذ زمن بعيد ومعظم ألواحه قد تعفنت، وهناك كما يقول توني بعض الأحيان التي يصعب عليك فيها أن تسمع شيئاً بسبب الضجيج الذي تحدثه العصافير والجرذان فوق رأسك."

"ما الذي ألم بهم – أعني عائلة جوردان؟"

"مجرد أنهم تدهوروا كما أعتقد سيدي."

"ألم يبقَ أي رجل في العائلة؟"

لفترة دقيقة لم يعطِ الأب بيتركن أية إجابة. ثم غير مكان حزمة أحطاب الصنوبر، واستجاب للسؤال بحذر. "الشاب آلان، فهو لا يزال يعيش في ذلك المكان القديم، ولكنني سمعت أنه أصيب وسيرحل مثل جميع الآخرين. إنها محنة قاسية للآنسة جوديث، يا لها من شابة مسكينة، ولها صبي في التاسعة هو صورة مطابقة تماماً لأبيه. آه، أذكر الزمن البعيد حين كان السيد تيموثي Timothy

جوردان أكثر الناس اعتزازاً في جميع هذه الأرجاء، ولكن بدأت الأمور بعد الحرب تتدهور بالنسبة إليه بعض الشيء واضطر لأن يصبح أكثر حذراً."

"هل لا زال على قيد الحياة؟"

هز العجوز رأسه. "ربما كان وربما لم يكن. لا أحد يعرف سوى آل جوردان. وهم لا يخبرون من يسألهم."

"أعتقد أنّ الآنسة جوديث هي التي أرسلت في طلبي؟"

"أغلب الاحتمال أنها هي سيدي. لقد كانت واحدة من آل ياردلي Yardley الذي يعيشون هناك في "حقل ياردلي،" وحين بدأ السيد آلان Alan يبدي اهتماماً نحوها، كانت تلك أول مرة منذ زمن بعيد جداً يتودد فيها رجل من عائلة جوردان لفتاة من خارج العائلة. ذلك هو السبب في أن الدم فسد بالطريقة التي حدثت، كما أعتقد. هناك قول سائد في هذه الأنحاء وهو أنه لا يمكن امتزاج شخصين من آل جوردان"[1].

"هل مضى وقت طويل على زواجهما؟"

"عشر سنوات أو نحو ذلك سيدي. إنني أتذكر كما لو كان البارحة اليوم الذي أحضرها آلان الشاب إلى المنزل كعروس له، ولم يكن هناك من شخص يستقبلها سوى تلك العجائز الخرفات الثلاث. لقد حضرا في عربة ابني توني القديمة. ولكنها كانت جديدة براقة في ذلك الحين. كنت ذاهباً إلى البيت في مهمة ووقفت تماماً عند بركة الجليد هناك حين مرا. لم تكن قد زارت هذه الأرجاء كثيراً ولم يرها أي منا من قبل. حين رفعت بصرها إلى الشاب آلان كان وجهها متورداً بأكمله وعيناها تبرقان كالقمر. ثم انفتح الباب الأمامي واندفعت تلك العجائز – سوداً كالغربان – خارجات إلى الشرفة. ما كان أبداً

---

(١) يعلق راوي القصة هنا على طريقة لفظ العجوز لاسم العائلة قائلاً إن الأسماء قلما لفظت حسبما تكتب في فرجينيا. (ينطق العجوز اسم Jordan كما لو كان Jurdin) وقد اضطررنا إلى حذف هذا التعليق القصير بسبب طبيعته اللغوية التي تستعصي على الترجمة.

من شخص أكثر جمالاً من الآنسة جوديث حين قدمت إلى هنا، ولكنها سرعان ما بدأت بالذبول، رغم أنها لم تفقد أعصابها وتستسلم للكآبة مثل بقية النساء في جوردانز إند. لقد تزوجا زواجاً مفاجئاً، ويقول الناس إنها لم تعرف أي شيء عن العائلة، وأن آلان الشاب لم يعرف أكثر منها بكثير. لقد أخفت العجائز السر عنها. معتقدات إلى حد ما أن عدم المعرفة يبعد الأذى، وعلى كل لن يسمحن للأمر بالتسرب إلا بعد ولادة الطفل. لم ينجبا أي طفل آخر، وتقول العمة جروسلي Jerusly العجوز أنه ولد وغشاء يغطي وجهه،[1] فإذن قد تسير الأمور على ما يرام بالنسبة له في المستقبل."

"ولكن من هن العجائز؟ هل أزواجهن على قيد الحياة؟"

حين أجاب الأب بيتركن على السؤال خفض صوته إلى همس أجش. "مخبولون؛ كلهم صاروا مخبولين،" قال مجيباً.

شعرت بالقشعريرة، إذ بدا أن موجة من البرد قد انبثقت من الغابات التشرينية. بينما أخذنا نتابع طريقنا، تذكرت حكايات كئيبة عن غابات مسحورة فيها وجوه شريرة وأصوات هامسة. هاجمت روائح أرض الغابة والأوراق المتعفنة ذهني مثل تعويذة سحرية. على كلا الجانبين كانت الغابة ساكنة كالموت. لم تهتز أية ورقة ولم يتحرك أي طائر ولم تصدر حركة عن أي مخلوق بري بين الشجيرات. أوراق القطيِّم اللامعة وثماره القرمزية وحدها بدت على قيد الحياة بين أغصان الأشجار المتشابكة العارية. بدأت أتوق إلى فسحة خريفية وإلى الضياء الأحمر الذي يأتي بعد التوهج الغسقي.

"لقد سمعت ثرثرة غريبة،" أجاب العجوز إجابة عصبية، "ولكن ليس بإمكان أحد أن يجزم. يقول الناس أن والد الشاب آلان محبوس في مكان تحت الحراسة، وأن جده مات هناك بعد تمضية ثلاثين عاماً. لقد جن أعمامه أيضاً، وبدأ الخرف يظهر بين الناس. كان الرجال هم وحدهم الذين يصابون حتى

---

(١) الاعتقاد السائد في أمريكا هو أن ولادة طفل بهذا الشكل هي بشارة خير.

الآن. أذكر مرة السيد بيتر جوردان يحاول حرق المكان في سكون الليل. هاهي نهاية الغابة، يا سيدي. أرجو أن تدعني أنزل هنا، فسأصل إلى بيتي عبر الحقل القديم، وشكراً لك."

أخيراً انتهت الغابة نهاية مفاجئة عند حافة حقل مهجور انتشرت فيه بكثافة أشجار الصنوبر والوزّال القصيرة. كان الإشعاع في السماء قد تضاءل الآن وغدا اخضراراً مصفراً ضئيلاً. طغى على الطبيعة شفق كئيب. في ضوء هذا الشفق نظرات إلى الأغنام القليلة التي تلاصقت ببعضها على مرج مهترئ، ورأيت المنزل المتداعي تحت اللبلاب الغض الذي نما عليه. بينما أخذت أزداد قرباً انتابني شعور أن القفر المحيط بالبيت كان يجثم في مكانه وكأنه مؤثر خبيث.

على الرغم من أن جوردانز إند بدت مهجورة لدى اقترابي الأول هذا ، فقد استنتجت أن المكان حظي فيما مضى بالجمال والامتياز حتماً. كانت أبعاد المقدمة الجورجية Georgian تترك في النفس تأثيراً بالغاً، وكان هناك جمال في تصميم المدخل القديم الطراز وفي الدرجات المصنوعة من أحجار مستديرة والتي زينتها الآن نماذج من الطحلب الزمردي اللون. لكن المكان بأكمله كان بحاجة ماسة للإصلاح. حين نظرت إلى الأعلى لدى توقفي، شاهدت أن الأفريز كان يتساقط، وأن مصاريع النوافذ تدلت من مفصلات لم تعد ثابتة، وأن قصاصات مختلفة من أكياس الخيش أو القماش الزيتي حشيت في النوافذ حيث كانت بعض الألواح الزجاجية ناقصة. عندما وطئت أرض الشرفة، شعرت بالألواح العفنة تهبط تحت قدميّ.

بعد قرع الباب قرعاً راعداً دون فائدة، هبطت الدرجات، ومشيت على الممر المطروق الذي يدور حول جناح المنزل الغربي. حين تجاوزت شجرة بقس قديمة عند الزاوية، رأيت امرأة وصبياً في حوالي التاسعة يخرجان من كوخ صغير، استنتجت أنه مخصص لتدخين اللحوم. ويبدآن بتجميع الأخشاب

من أكوام الحطب. كانت المرأة تحمل في ذراعها سلة مصنوعة من خشب الصفصاف، وبينما انحنت لملئها، أخذت تتحدث إلى الطفل بصوت موسيقي خافت. ثم لدى سماع صوت صدر عني وضعت السلة جانباً ونهضت واقفة لتواجهني في نور السماء الشاحب. كان رأسها يميل إلى الخلف، وفوق ثوبها القطني القاتم، التف على جسمها شال رمادي ممزق. كان ذلك قبل ثلاثين عاماً؛ لم أعد شاباً. وقد زرت بلداناً كثيرة منذ ذلك الحين، ونظرت إلى نساء كثيرات؛ لكن وجهها بذلك الضوء الخافت الذي انعكس عليه هو آخر وجه سوف أنساه في حياتي. الجمال؟ إن تلك المرأة ستكون جميلة حتى حين تصبح هيكلاً عظمياً، كانت تلك هي الفكرة التي ومضت في ذهني.

كانت طويلة جداً، ونحيلة إلى حد أن لحمها بدا مشعاً إشعاعاً خفيفاً، كما لو أن نوراً داخلياً اخترق المادة الشفافة. لم يكن الجمال جمال الأرض بل جمال الروح المنتصرة. إنني اعتقد أن الكمال هو أكثر الأشياء ندرة، من بين الأمور التي نحققها في هذا العالم، عالم التنازل المستمر والقبول بالأشكال الأدنى؛ لكن المرأة التي وقفت هناك في ذلك المكان الخرب بدت لي وكأنها قدمت لتوها من أسطورة أو حكاية رمزية. كان محيط وجهها إيطالياً في بيضويته المتكاملة؛ شعرها مسرح بشكل أجنحة من الغسق فوق جبهتها الصافية؛ وكانت العينان اللتان نظرتا إلي من التجويف تحت حاجبيها المظللة تظليلاً خفيفاً بنفسجتين، مثل زهر البنفسج القاتم.

"لقد قطعت الأمل من قدومك،" بدأت تقول بصوت منخفض، كما لو أنها تخشى أن يسمعها أحد. "أنت الطبيب."

"نعم، أنا الطبيب. لقد اتخذت الطريق الخاطئة وضعت . أنت السيدة جوردان؟"

حنت رأسها. "السيدة آلان جوردان. كانت هناك ثلاثة نساء أخريات كل منهن السيدة جوردان بالإضافة لي. جدة زوجي وزوجتا اثنين من أعمامه."

"وزوجك هو الشخص المريض؟ "

"زوجي، نعم. لقد كتبت رسالة منذ بضعة أيام إلى الدكتور كارستيرز Castairs." (قبل ثلاثين عاماً كان كارسيترز – من مدينة بالتيمور – أهم طبيب أمراض عقلية في البلاد). "إنه سوف يحضر صباح الغد؛ ولكن زوجي غدا مضطرباً ليلة البارحة بشكل جعلني أستدعيك اليوم." جعلني صوتها الغني الذي تشع منه المشاعر المكبوتة أفكر بالواجهات الزجاجية المزينة وبموسيقى الأرغن الخافتة.

سألت: "قبل أن ندخل، هل لك أن تخبريني بكل ما تستطيعين تذكره؟"

بدلاً من الإجابة على طلبي، استدارت ووضعت يدها على كتف الصبي. قالت: "خذ الأخشاب إلى العمة أغاثا Agatha يا بنجامين Benjamin، وأخبرها أن الطبيب قد وصل."

بينما التقط الطفل السلة وجرى صاعداً الدرجات الغائرة إلى الباب، راقبَتْه بقلق مكتوم الأنفاس. لم ترفع بصرها إلى وجهي إلا بعد أن اختفى في الممر. ثم تمتمت دون أن تجيب على سؤالي: "لقد كنا ذات مرة سعداء هنا." كانت تحاول كما لاحظت أن تجعل قلبها فولاذياً يقاوم اليأس الذي يهدده.

ألقيت نظرة شاملة على الأفق القاتم. ثم عدت ببصري إلى كومة الأخشاب المهترئة حيث كنا نقف. كان الاخضرار المصفر قد ذوى إلى السماء، والنور الوحيد جاء من البيت الذي اشتعلت فيه بضعة مصابيح متفرقة. استطعت من خلال الباب المفتوح أن أرى الممر، عارياً كما لو كان المنزل خاوياً، والدرج اللولبي الذي صعد إلى الطابق الأعلى. كان المكان القديم جميلاً ذات يوم، ولكنه الآن يبعث على الاشمئزاز في تفسخه المدقع، مثقل دم كان شاباً في الأيام الغابرة وغدا خرفاً.

"هل بإمكانك أن تحصلي على ما يقيم أودك من الأرض؟" - سألت، لأنني لم أستطع التفكير بأية كلمة أخرى تظهر قدراً أدنى من الشفقة.

"القليل في البداية،" أجابت ببطء. "لقد عملنا بجد، بدأب يفوق دأب أي زنجي يعمل في الحقول، لكي نحافظ على الأشياء كما هي، ولكننا كنا سعداء ثم أتى هذا المرض قبل ثلاث سنوات، وبعد ذلك أخذ كل شيء يسير ضدنا، كان في البداية مجرد فترات من التأمل الطويل، نوع من الكآبة، وحاولنا أن نتخلص منها بالتظاهر بأنها لم تكن حقيقية، إننا كنا نتخيلها. فقط مؤخراً، حين غدت أسوأ بكثير، اعترفنا بالحقيقة، وواجهنا الواقع...."

كان لهذه الهمهمة الانفعالية وقع يكاد يشبه نشيداً نابعاً من الشعور بالوحدة، ولم تكن موجهة لي، بل إلى قوة مجردة لا سبيل إلى تهدئتها. وبينما كانت تفوه بها ماثل هدوؤها سكينة الموتى. لم ترفع يدها لتمسك شالها، الذي كان ينزلق دون أن تلاحظ ذلك من على كتفها، ولم تلتفت عن وجهي عيناها الشبيهتان إلى حد كبير بزهرتين قاتمتين في نعومتهما.

قلت: "إذا أخبرتني كل شيء، فقد أستطيع مساعدتكما."

"ولكنك تعرف قصتنا،" أجابت. "لا بد أنك سمعتها."

"إذن فهي صحيحة؟ وراثة، تزاوج من العائلة نفسها، جنون؟"

لم تجفل من فظاظة كلامي. "إن جد زوجي في مصح، لا يزال حياً بعد مضي ما يقارب ثلاثين عاماً. وأبوه – أبو زوجي أعني – كان هناك قبل بضع سنوات. واثنان من أعمامه هناك. لا أدري متى بدأ الأمر ولا إلى أي زمن في الماضي يعود. إننا لم نتحدث عنه أبداً. حاولنا دائماً أن ننساه – وحتى الآن لا أستطيع أن أعبر عن الأمر بكلمات – لقد ماتت والدة زوجي مكسورة القلب، ولكن الجدة والمرأتين الأخريين لا زلن على قيد الحياة. ستراهن حين تدخل المنزل. إنهن هرمات الآن ولا يشعرن بأي شيء."

"وكانت هناك حالات أخرى؟"

"لا أدري. أليست أربع حالات كافية؟"

"هل تعلمين إذا كان المرض قد اتخذ دائماً نفس الصيغة؟" كنت أحاول أن أقتضب قد ر الإمكان.

أجفلت، ورأيت أن هدوءها غير الطبيعي قد اهتز أخيراً. "نفسها، على ما أعتقد. في البداية تظهر الكآبة، الانقباض – كما تدعوه الجدة – ثم...." قذفت ذراعيها في إشارة يائسة، ومرة أخرى تذكرت إحدى الشخصيات الأسطورية المأساوية.

"أعرف، أعرف" كنت شاباً، وبالرغم من كبريائي، ارتعش صوتي. "هل خطرت أية حالة من الشفاء الجزئي، الذي يتجدد على فترات؟"

"في حالة جده. نعم. لكن ليس في أية من الحالات الأخرى. بالنسبة لهم كان الأمر ميؤوساً منه منذ البداية."

"وكارستيرز قادم؟"

"في الصباح. كان عليّ أن أنتظر، ولكن الليلة الماضية..." تكسر صوتها، وسحبت الشال الممزق تلف نفسها به وهي ترتجف، "الليلة الماضية حدث شيء. حدث شيء." أعادت ولم تستطع الاستمرار. ثم استجمعت قوتها بجهد جعلها ترتعش مثل ورقة عشب في الريح واستمرت بقدر أكبر من الهدوء، "إنه اليوم أفضل. لقد نام للمرة الأولى. وتمكنت أن أتركه. هناك اثنان من عمال الحقول في الغرفة." تغيرت لهجتها فجأة، وساورها شيء من الحيوية. وأدخل تصميم غامض ما مسحة من اللون على خدها الشاحب. أضافت "يجب أن أعرف ما إذا كانت هذه حالة ميؤوساً منها مثل جميع الحالات الأخرى."

مشيت خطوة نحو المنزل. "إن لرأي كارستيزر قيمة تفوق رأي أي رجل على قيد الحياة،" أجبتها.

"ولكن هل سيخبرني بالحقيقة؟"

هززت رأسي. "إنه سيخبرك بما يعتقده. ليس من إنسان لا يخطئ حكمه."

تحركت بخطوات حيوية نحو المنزل، مبتعدة عني. حين تبعتها إلى الممر أصدرت العتبة صريراً تحت وطء قدمي، وأصابني شيء من التوجس، أو، إذا شئتم، من الرعب الخرافي من الطابق فوقي. آه، لقد تخلصت من هذا النوع من المشاعر قبل مضي عدد كبير من السنوات؛ رغم أنني في النهاية اعتزلت الطب، واتجهت إلى الأدب كمتنفس أكثر أمناً لمخيلة مكبوتة.

ولكن الرعب كان موجوداً في تلك اللحظة، ولم تخفف منه اللمحة التي لمحتها عند أسفل الدرج اللولبي، لغرفة ضئيلة الأثاث، حيث تجمعت ثلاث نساء نحيفات يرتدين أثواباً سوداء، ساكنات مثل آلهات القدر، أمام نار حطبية. كن يشتغلن بشيء ما بأيديهن، يقمن بالحياكة أو بالحبك أو بضفر القش.

عند رأس الدرج توقفت المرأة والتفتت إلي. سقط عليها النور من مصباح الكاز المعلق على الجدار، ومن جديد استوقفتني روعة جمالها الأجنبية، ولكن أكثر من ذلك نظرة الإخلاص، الوفاء المشوب بالعاطفة الذي أضاء وجهها.

"إنه قوي جداً،" قالت هامسة. "قبل أن يحل هذا المصاب لم يمرض يوماً واحداً في حياته قط. كان أملنا أن ينقذنا العمل الشاق وعدم وجود الوقت للتفكير والتأمل؛ ولكن ذلك جلب لنا الشيء الذي خشيناه بسرعة أكبر."

كان هناك سؤال في عينيها، وأجبت أنا بنفس اللهجة الخافتة. "صحته العامة حسبما تقولين جيدة؟" ما الذي كان بإمكاني أن أسأله غير هذا وقد فهمت كل شيء؟

سرت رعدة في جسدها، "كنا نظن أن هذه نعمة، ولكن الآن." توقفت ثم أضافت بصوت لا حياة فيه، "إننا نبقي اثنين من عمال الحقول في الغرفة ليلاً ونهاراً، خشية أن ينسى أحدهما مراقبة النار أو يغلبه النوم."

صدر صوت من الغرفة عند نهاية الممر ودون أن تنهي جملتها، تحركتْ بخفة نحو الباب الموصد. كان التوجس أو الرعب أو أيما شئتم

تسميته قوياً بالنسبة لي إلى حد أن سيطر علي حافز يدفعني للاستدارة والتقهقر هابطاً على الدرج اللولبي. نعم، إنني أعرف لِمَ يصبح بعض الرجال جبناء في المعركة.

"لقد عدتُ، يا آلان Alan،" قالت بصوت عصر أوتار قلبي.

كانت الإنارة خافتة في الغرفة، ولبرهة بعد دخولي لم أستطع رؤية أي شيء بوضوح سوى وهج النار الحطبية التي كان أمامها زنجيان يجلسان على مقعدين خشبيين واطئين. كان وجهاهما لطيفين، هذان الرجلان؛ كان هناك تواضع بدائي في تقاسيمهما، ربما من تأثير أرض الحقول القاتمة.

نظرت حولي في اللحظة التالية ورأيت شاباً يجلس بعيداً عن النار، جاثماً على كرسي مغطى بقماش "الكريتون،" عالي المسند، عميق الجناحين. لدى دخولنا رفع الزنجيان بصرهما بدهشة، ولكن الرجل الجالس على الكرسي المجنح لم يرفع رأسه ولا التفت بعينيه نحونا. جلس هناك، ضائعاً في قفار المجانين التي لا سبيل على سبرها، بعيداً عنا وعن ضجيج أصواتنا كما لو كان يسكن في عالم غير مرئي. كان رأسه محنياً إلى الأمام، وعيناه تحدقان بثبات في صورة ما لم نستطع رؤيتها، وأصابعه تتحرك بلا استقرار تضفر وتفك طرف شال ذي نقشة مربعة. بالرغم من ذهوله، كان لا يزال يملك وقار الكمال الجسدي المجرد. لا بد أن طوله حين يقف منتصباً لم يكن يقل عن ستة أقدام وثلاث بوصات، وكان شعره في لون القمح الناضج؛ وعيناه – بالرغم من تحديقهما الثابت – زرقاوان مثل السماء بعد المطر. وكانت هذه هي البداية فقط، كما لاحظت. فبمثل هذه البنية وهذا القوام الجسدي قد يعيش حتى التسعين.

"آلان!" همست زوجته ثانية بهمهمة متوسلة.

إذا كان قد سمع صوتها، فإنه لم يبدِ أي دليل على ذلك. فقط حين مشت عبر الغرفة وانحنت فوق كرسيه، مد يده لها، في إشارة تدل على الضيق،

ودفعها بعيداً، كما لو كانت حجاباً من الدخان وقف بين يديه وبين الشيء الذي كان ينظر إليه. ثم سقطت يده من جديد إلى مكانها القديم، وعاد هو إلى ضفره الآلي لطرف الشال.

رفعت المرأة عينيها نحو عيني. "قام والده بفعل ذلك لمدة عشرين عاماً،" قالت في همس لا يزيد على أنة معذبة.

عندما انتهيت من معاينتي المختصرة، غادرنا الغرفة مثلما دخلنا، وهبطنا الدرج معاً. كانت العجائز الثلاث لا يزلن يجلسن قرب النار الحطبية. لا أعتقد أنهن تحركن منذ صعدنا إلى الطابق العلوي؛ لكن، حين وصلنا إلى الممر في الأسفل، نهضت إحداهن – أصغرهن، كما أتصور – من كرسيها، وخرجت لتلحق بنا. كانت تحيك شيئاً ناعماً وصغيراً – طاقية طفل رضيع، كما تبينت حين اقتربت – من الصوف القرنفلي. تدحرجت الكرة من حضنها حين نهضت، وتبعتها، مثل وردة من القطن، على الأرض العارية. حين شدتها الخيطان، التفت وتوقفت لتلقط الكرة، وأعادت لفها بأصابع حانية. يا إلهي، طاقية طفل في ذلك المنزل!

"هل هو نفس الشيء؟" سألت.

"صه"! أجابت المرأة الشابة برفق. والتفت إلي وقالت: "لا نستطيع التحدث هنا،" وفتحت الباب وخرجت إلى الشرفة. لم تتكلم إلا بعد أن وصلنا المرج، ومشينا في صمت إلى حيث وقفت عربتي تحت شجرة خرنوب قديمة.

ثم قالت فقط: "أنت تعرف الآن؟"

"نعم، أعرف،" أجبت، متحاشياً النظر إلى وجهها أثناء إعطائي توجيهاتي باقتضاب قدر ما يمكن. "سأعطيه مسكّناً،" قلتُ. "غداً، إذا لم يحضر كارستيرز، أرسلي في طلبي ثانية. أما إذا أتى، فسأتحدث معه ثم أراك فيما بعد."

"شكراً،" أجابت بلطف؛ وأخذت الزجاجة من يدي والتفت مبتعدة عائدة بسرعة إلى المنزل.

راقبتها أطول فترة ممكنة؛ ثم امتطيت عربتي، وأدرت فرسي باتجاه الغابة، وسرت في ضوء القمر، ماراً بـــ "شجرة الصقور" وعلى طريق "أولد ستيج" إلى بيتي. آخر فكرة في رأسي تلك الليلة قبل أن أنام كانت: "يجب أن أرى كارستيرز غداً."

ولكن مع ذلك رأيت كاستيرز لدقيقة واحدة فقط بينما كان يستقل القطار. كانت الحياة في بدايتها وفي نهايتها قد ملأت صباحي؛ وحين وصلت أخيراً إلى المحطة الصغيرة، كان كارستيرز قد قام بزيارته، وينتظر على الرصيف القطار السريع القادم. في البداية أبدى ميلاً لتوجيه الأسئلة إليَّ حول مسألة إطلاق النار، ولكن حالما استطعت أن أوضح مهمتي، تغضن وجهه.

"إذن كنت هناك؟" قال. "لم يخبروني. حالة مثيرة للاهتمام، لولا وجود المرأة المسكينة. لا علاج لها، حسبما أخشى، إذا أخذنا بالاعتبار الأسباب الوراثية. إن العرق قد تدهور إلى حد كبير، على ما أعتقد. يا إلهي! يا للعزلة! لقد نصحتها أن ترسله بعيداً. هناك ثلاثة آخرون، كما ذكروا لي، في ستونتن Staunton."

أقبل القطار، وقفز يركبه وأبعده الزحام بينما كنت أتابعه ببصري. بالرغم من شهرة كارستيرز العظيمة، لم أزدد علماً أو معرفة.

لم أسمع أي خبر من جوردانز إند طيلة ذلك اليوم؛ ثم في الصباح الباكر من اليوم التالي، أحضر لي نفس الزنجي العاجز رسالة.

"الآنسة الشابة طلبت مني أن أسألك أن تأتي معي بأسرع ما يمكنك."

"سأتوجه إلى هناك أيها العم، وسآخذك معي."

كانت عربتي وفرسي تقفان عند الباب. كل ما احتجت أن أقوم به كان أن أرتدي معطفي، وآخذ قبعتي، وأترك كلمة لأي مريض محتمل أنني سأعود قبل الظهيرة. كنت أعرف الطريق الآن، وأخبرت نفسي وأنا أنطلق أنني سأجعل رحلتي سريعة بقدر ما يمكن. طيلة ليلتين طاردتني ذكرى

ذلك الرجل الجالس على الكرسي، يضفر ويفك الشال المصنوع من قماش ذو نقشة مربعة. ولقد قام والده بفعل ذلك، كما أخبرتني المرأة، طيلة عشرين سنة!

كان صباحاً خريفياً بني اللون، ساكناً، سماؤه ملبدة، ويخلق وهماً غريباً يجعل المسافات قريبة. هبت ريح قوية طوال الليلة السابقة، ولكنها سكنت فجأة عند الفجر. والآن لم يكن هناك أي تموج في الأشجار فوق الحقول. حين خرجنا من الغابة، كانت خيوط الدخان الأزرق الرفيعة ساكنة مثل بيت العنكبوت. بدا المرج المحيط بالمنزل أصغر مما كان قد بدا لي في الغسق، كما لو أن الحقول العارية زحفت إلى مكان أقرب منذ زيارتي الأخيرة تحت الأشجار، حيث كانت الأغنام القليلة ترعى، ركدت أوراق الشجر التي جرفتها الريح وجمعتها في أكوام على طول الممشى الوعر وعلى حواف المنزل.

حين قرعت الباب فتحته إحدى العجائز ممسكة بشريط من القماش الأسود أو من "الكريب"(٤) الصدئ.

"تستطيع الصعود فوراً إلى الطابق العلوي،،" قالت مقوقئة، ودون أن أنتظر أي تفسير، دخلت الممر وصعدت الدرج بسرعة.

كان باب الغرفة مغلقاً، ففتحته دون أن أحدث صوتاً وخطوت فوق العتبة كان أول ما شعرت به لدى دخولي هو إحساسي بالبرد. ثم شاهدت أن النوافذ كانت مفتوحة على مصاريعها، وأن الغرفة بدت غاصة بالناس، رغم أنه – كما لاحظت بعد وهلة قصيرة – لم يكن هناك أحد سوى زوجة آلان جوردان وابنها الصغير والعمتين العجوزين وزنجية هرمة شمطاء. على السرير كان هناك شيء ما تحت ملاءة صفراء من الكتان الفاخر (ما يسميه الزنوج "ملاءة دفن،" على ما أعتقد). خلَّفها جيل كان أكثر وفرة.

---

(٤) قماش يستعمل في صنع ملابس الحداد.

حين اقتربت، بعد دقيقة، وقلبت إحدى زوايا الغطاء، شاهدت أن مريضي الذي رأيته مساء يوم فائت قد مات. لم يشوه ملامحه أي تغضن سببه الألم، ولم يختلط بشعره الذهبي القمحي أي خيط من الشيب. لا بد أنه بدا بهذا الشكل – كما فكرت – حين أحبَّتْه أول مرة. لم يغادر الحياة هرماً ضعيفاً ومثيراً للاشمئزاز، وإنما غادرها ووهم عاطفتهما الرومانتيكية لا يزال يغلفه.

حين دخلتُ، تراجعت العجوزان، اللتان كانتا منهمكتين قرب السرير، لإفساح مكان لي، ولكن الساحرة الزنجية لم تتوقف عن أغنيتها الغريبة، التي كانت تعويذة من التعاويذ تهمهم بها. من على البساط أمام المدفأة الخاوية، حدق الصبي – الذي كان له شعر أبيه وعينا أمه – بي بصمت، بكآبة، كما لو كنت متطفلاً؛ وبقرب النافذة، وقفت الزوجة الشابة ساكنة، وعيناها ترقبان النهار التشريني الرمادي، بينما أخذت أنظر إليها طار طائر "كاردينال" من بين أغصان شجرة أرز، وتبعته بنظرها.

"لقد أرسلتِ في طلبي؟" قلت لها.

لم تلتفت. كانت أبعد مما يصل إليه صوتي، أو أي صوت، كما أتخيل؛ ولكن إحدى النساء العجائز أجابت على سؤالي.

"هكذا كان حين وجدناه هذا الصباح،" قالت. "لقد أمضى ليلى سيئة وسهرت جوديث والعاملان معه حتى طلوع الصباح. ثم بدا وكأنه أخلد للنوم. وأرسلت جوديث العاملين ليتناولا الإفطار."

بينما كانت تتكلم وقع نظري على الزجاجة التي تركتُها هناك. قبل ليلتين كانت ملأى، والآن فارغة، بدون غطاء، على الرف. لم يقوموا حتى بالتخلص منها. إنه مما ينسجم مع القصور الذي خيم على المكان أن تبقى الزجاجة موضوعة هناك في انتظار عودتي.

للحظة أفقدتني الصدمة القدرة على الكلام؛ حين عثرت على صوتي أخيراً، سألت: "متى حدث ذلك؟"

تابعت المرأة التي تكلمت من قبل روايتها. "لا أحد يدري. إننا لم نلمسه. لم يقترب منه أحد منه سوى جوديث." تلاشت كلماتها في دمدمة غير مفهومة. إذا كانت لديها القدرة تماماً على التفكير، فإن خمسين عاماً في جوردانز إند قد أفقدتها هذه القدرة تماماً كما أتصور.

التفت إلى المرأة عند النافذة. في وجه السماء الرمادية وأغصان الأرز السوداء المتقاطعة، كان وجهها، بكماله الوقور، محاطاً بجو الأساطير الحالم. من المحتمل أن أنتيغوني Antigone بدت هكذا في يوم التضحية بها، كما خطر لي. لم أرَ قط أي مخلوق بدا منزوياً ومنعزلاً عن جميع الروابط البشرية إلى هذا الحد. كان الأمر كما لو أنه عزلة روحية فصلت بينها وبين أبناء جنسها.

"لا أستطيع القيام بأي شيء،" قلت.

لأول مرة نظرتْ إلي، ولم يكن من الممكن سبر غور عينيها: "لا، لا تستطيع القيام بأي شيء،" أجابت. "لقد مات واستراح."

كانت الزنجية لا تزال تدندن، والعجوزان تروحان وتقدمان بقنوط. كان من المستحيل، أثناء وجودهما، حسبما شعرت أن أعبر بالكلام عما أردت قوله.

"هل لك أن تنزلي معي" سألت. "خارج هذا المنزل؟"

التفتت بهدوء وخاطبت الصبي. "اخرج والعب أيها الغالي. هذا ما كان يود منك أن تفعله."

ثم، دون أن تلقي أية نظرة على السرير أو العجائز المتلفات حوله. تبعتني فوق العتبة وعلى الدرج وعلى المرج المهجور في الخارج. لم يكن بإمكان النهار الرمادي أن يمسها، كما رأيت حينئذٍ. إما أنها كانت بعيدة جداً عنه أو جزءاً منه لا يتجزأ، بحيث لم ينفذ حزنه إليها. لم يزدد وجهها الشاحب صفرة حين سقط النور عليه، ولم تزدد عيناها المأساويتان عمقاً، ولم يرتعش

جسمها الناحل تحت الشال الرقيق في الهواء البارد. لاحظت فجأة أنها لم تشعر بأي شيء.

ملتفة بذلك الصمت كما لو كان عباءة، مشت عبر أكوام الشجر إلى حيث كانت فرسي تنتظر. كانت خطواتها بطيئة جداً، لا عجلة فيها بشكل أنني أذكر كيف فكرت حينذاك بأنها كانت تتحرك مثل شخص لديه الأبد كله أمامه. آه، إن المرء يكوّن انطباعات غريبة، كما تعلمون، في لحظات كهذه.

في وسط المرج، حيث كانت الأشجار قد تعرت أثناء الليل، والأوراق مكدسة في أكوام طويلة مثل قبور مزدوجة، وقفتْ ونظرت في وجهي. كان الهواء ساكناً كما لو أن المكان بأكمله وقع في غيبوبة أو سبات. لم يتحرك أي غصن، لم تصدر أية ورقة حفيفاً على الأرض، لم يزقزق أي عصفور في اللبلاب، حتى الغنمات القليلة وقفت ساكنة، وكأنها تحت تأثير السحر. في الأمكنة الأبعد، خلف محيط أشجار البردي، حيث لم تهب أية ريح، رأيت عزلة الأرض المسطحة. لم يتحرك شيء على وجه البسيطة، ولكن في الأعلى، تحت السحب الرصاصية، كان صقر يحلق.

بللت شفتي قبل أن أتكلم. "الله يعلم أنني أود مساعدتك"! كان سؤال بشع يقرع في مؤخرة ذهني. كيف حدث الأمر؟ أيمكن أنها قتلته؟ هل سيطرت هذه المخلوقة الناعمة على أعصابها، واستجمعت إرادتها للقيام بالفعل الذي لا يمكن ذكره؟ ذلك بعيد عن التصديق. ذلك بعيد عن التصور. ومع ذلك....

"لقد انتهى أسوأ ما في الأمر،" قالت بهدوء، بذلك العذاب الذي لا دموع فيه والذي هو أقسى بكثير من أي انفجار من الحزن. "مهما حدث، فلن أستطيع أبداً تحمل الأسوأ من جديد. مرة عند البداية أراد أن يموت. كان خوفه الأكبر أنه يعمر أطول مما يجب، إلى أن يفوت أوان إنقاذه لنفسه. لقد جعلته ينتظر حينذاك. لقد أوقفته بإعطائه وعداً."

فكرت: إذن فقد قتلته. تابعت كلامها بثبات، بعد دقيقة، وساورني الشك من جديد.

"الحمد لله، كان الأمر أسهل مما خشي أن يكون،" قالت متمتمة.

كلا، كانت المسألة أبعد من التصور. لا بد أنه رشى أحد الزنجيين. ولكن من وقف وراقب دون أن يعترضه أحد؟ من كان في الغرفة؟ ولكن أياً كان الأمر! "سأفعل كل ما بوسعي لمساعدتك؟" قلت.

لم ترتعش نظرتها الثابتة. "ليس هناك الكثير مما يمكن للمرء القيام به الآن." وكأنها لم تفهم ما عنيت. فجأة، دون التحذير الذي ينجم عن النحيب، صدرت عنها صرخة يأس. كما لو أنها انشقت من صدريها. "كان هو حياتي،" صرخت "وعلي أن أمضي الآن."

كان الصوت مملوءاً بالألم بحيث بدا وكأنه يسير كهبة من الريح فوق شجر البردي. انتظرت إلى أن انفتح الخواء واحتواه. ثم سألت بقدر ما استطعت من الهدوء:

"ما الذي ستفعلينه الآن؟"

استجمعت نفسها برعشة من الألم. "إنني مرتبطة هنا، طالما بقيت العجائز على قيد الحياة. علي أن أتحمل حتى النهاية. حين يمتن، سأذهب بعيداً وأجد عملاً ما. سأرسل ابني إلى المدرسة. سيعنى به الدكتور كارستيرز، وهو سيساعدني حين يحين الوقت، طالما هو بحاجة إليّ، لن يكون هناك أي فكاك."

بينما كنت أستمع إليها، عرفت أن السؤال الذي كان على شفتي لن يصدر أبداً. سأبقى دائماً على جهل بالحقيقة. أخشى ما خشيته، وأنا واقف هناك وحدي معها، أن تكشف صدفةٌ ما السر قبل أن يتاح لي الهرب. حولت عينيَّ عن وجهها وتجولت فوق الأوراق الميتة عند أقدامنا. كلا، ليس لدي شيء أسأله.

"هل أجيء مرة أخرى؟" كان ذلك كل شيء.

هزت رأسها سلباً. "إلا إذا أرسلت في طلبك. إذا احتجت إليك، أرسل في طلبك،" أجابت؛ ولكن في سري عرفت أنها لن ترسل في طلبي أبداً.

مددت يدي، ولكنها لم تأخذها؛ شعرت أنها قصدت أن أفهم من رفضها أنها أبعد من أية تعزية وأي تعبير عن الصداقة. كانت أقرب إلى السماء القاتمة والحقول المهجورة منها إلى أفراد جنسها.

حين التفتت مبتعدة، انزلق الشال من على كتفيها ساقطاً على الأوراق الميتة التي كانت تسير فوقها، ولكنها لم تتوقف لالتقاطه. ولم أقم أنا بحركة لأتبعها. لفترة طويلة بعد دخولها المنزل وقفت هناك، محدقاً في الرداء الذي أسقطته. ثم صعدت عربتي، وسرت عبر الحقل إلى داخل الغابة.

وِلا كيثر

جنازة النحّات[(١)]

ولا كيثر (١٨٧٣–١٩٤٧) كاتبة أمريكية قامت بتصوير مجتمع مختلف تماماً هو مجتمع الغرب الأمريكي، ولكنها لم تصور هذا المجتمع بالصورة الرومانتيكية التقليدية، بل ركزت على الجذب الفكري والروحي فيه وعلى انشغاله بالمادة واعتبارها مقياساً للنجاح. والموضوع الذي اختارته في قصصها ورواياتها هو موضوع مألوف: الصراع بين الفنان والجمهور، بين القلب وما يعتبره الناس نجاحاً، بين الروح والمادة. ونجد جميع هذه العناصر متوفرة في القصة المترجمة هنا التي كانت ضمن أول مجموعة قصصية نشرتها الكاتبة. وقد كتبت ولا كيثر عدداً من الروايات التي كانت أولها "أيها الرواد!" *O Pioneers* (١٩١٣) وأهمها "الموت يأتي في طلب الأسقف" *Death Comes for the Archbishop* (١٩٢٧)، التي تعتبر من الروائع الأدبية الأمريكية. ويعتبر غوستاف فلوبير Gustave Flaubert الأديب الذي تأثرت ولا كيثر به والذي يمكن القول إنه أستاذها.

وقفت مجموعة من أهالي البلدة على رصيف مدينة صغيرة من مدن كانساس Kansas تنتظر قدوم القطار الليلي، الذي تأخر عن موعده عشرين دقيقة

---

(١) هذه ترجمة قصة "The Sculptor's Funeral" للكاتبة Willa Cather. والقصة نشرت لأول مرة في عدد كانون الثاني ١٩٠٥ من **مجلة مكلور** *McClure's Magazine* ثم ظهرت بع ذلك في مجموعتين مختلفتين من قصص المؤلفة.

حتى الآن. كان الثلج قد هطل سميكاً فوق كل شيء، وفي نور النجوم الباهت، قامت سلسلة من الأجراف المرتفعة على عرض السهول البيضاء الشاسعة جنوبي البلدة بتشكيل انحناءات لطيفة دخانية اللون في وجه السماء الصافية. وقف الرجال المجتمعون على الرصيف على قدم واحدة في البداية، ثم على القدم الأخرى، ملقين بأيديهم في عمق جيوب بناطيلهم ومعاطفهم الخارجية المفتوحة، وأكتافهم محدودبة من البرد؛ من وقت لآخر ألقوا نظرة تجاه الجنوب الشرقي حيث كان الخط الحديدي ينحني بحذاء النهر. كانوا يتحدثون بنبرات منخفضة ويتحركون بصبر نافذ هنا وهناك، تاركين انطباعاً بأنهم لا يدرون ما الذي يُتوقع منهم. كان هناك شخص واحد فقط بين المجموعة يبدو وكأنه يعرف تماماً سبب وجوده هناك، وكان يقف بعيداً عنهم بشكل يلفت النظر، يتمشى إلى الطرف البعيد من الرصيف، ويعود إلى باب المحطة، ثم يسير من جديد بموازاة الخط الحديدي، وذقنه غائصة في ياقة معطفه العالية وكتفاه العريضتان تتدليان إلى الأمام وخطواته ثقيلة عنيدة. بعد فترة قصيرة، اقترب منه رجل طويل هزيل أشيب يرتدي ملابس عسكرية قديمة باهتة، وكان قد انفلت من المجموعة واقترب بشيء من الاحترام، يميل برقبته إلى الأمام بحيث شكل ظهره معها زاوية كزاوية موسى مفتوحة ثلاثة أرباع الفتحة.

"أتصور أنه سيتأخر تأخراً كبيراً في هذه الليلة أيضاً يا جيم Jim،" قال بصوت حاد عالي الطبقة. "أفترض أن الثلج هو السبب."

"لا أدري،" أجاب الرجل الآخر، بمسحة من الانزعاج، وصدر كلامه من داخل شلال يبعث على الدهشة من الشعر الأحمر الذي هو لحيته والذي نما نمواً متوحشاً وكثيفاً في جميع الاتجاهات.

نقل الرجل الهزيل عود الأسنان الذي كان يمضغه إلى جانب فمه الآخر وتابع كلامه متأملاً: "ليس من المرجح أن يأتي أي شخص من الشرق مع الجثة، على ما أعتقد."

"لا أدري،" أجاب الآخر باقتضاب أشد من السابق.

"من المؤسف أنه لم ينتمِ إلى أي جمعية أو ناد. إنني شخصياً أحب الجنازات المنظمة. إنها تبدو أكثر ملاءمة للأشخاص ذوي الشهرة،" تابع الرجل الهزيل، وفي صوته الحاد تسليم متملق، بينما وضع عود الأسنان بعناية في جيب صداره. كان هو الرجل الذي يحمل العلم دائماً في جنازات "جيش الجمهورية الكبير"[1] في البلدة.

استدار الرجل الضخم دون أن يجيب، ومشى على الرصيف. عاد الرجل الهزيل للانضمام إلى المجموعة المضطربة. "إن جيم معبأ كالقرادة، كما هي العادة،" قال معلقاً برثاء.

في تلك اللحظة، سُمع صوت صفارة بعيدة، وتحركت الأقدام على الرصيف. ظهر عدد من الفتيان الطوال النحيفين، من جميع الأعمار، بشكل فجائي وموحل كما تظهر أسماك الحنكليس التي يوقظها قصف الرعد؛ أتى بعضهم من صالة الانتظار، حيث كانوا يتدفؤون بواسطة المدفأة الحمراء، أو ينامون نصف نومة على المقاعد الخشبية؛ ونهض آخرون من عربات المتاع أو خرجوا من عربات القطار السريع. وهبط اثنان منهم من مقعد القيادة في عربة لدفن الموتى أوقفت بحيث كانت مؤخرتها عند الجدار الخشبي. رفعوا أكتافهم المائلة ورؤوسهم، وسبب وميض الحيوية المؤقتة بريقاً في أعينهم الخابية لدى سماع الصرخة المتموجة البادرة، النداء الموجه للرجال في جميع أنحاء العالم. لقد دفعتهم إلى الحركة مثل صوت بوق؛ تماماً كما كانت تدفع الرجل العائد إلى بلدته هذه الليلة، في صباه.

اندفع قطار الليل السريع، أحمر كالصاروخ، خارجاً من الأراضي المستنقعية الشرقية والتف على ضفة النهر تحت الصفوف الطويلة من أشجار

---

(١) منظمة أسسها في الولايات المتحدة مجموعة من الرجال الذين اشتركوا في الحرب الأهلية مع القوى الشمالية. وكان تأسيسها في عام ١٨٦٦.

الحور المرتجفة التي وقفت تحرس المروج، والبخار الهارب معلق في كتل رمادية في وجه السماء الشاحبة، ماحياً طريق المجرة. في لحظة اندفع الوهج الأحمر الصادر عن الأضواء الأمامية على السكة المغطاة بالثلج أمام المحطة، والتمع فوق السكة السوداء المبللة. مشى الرجل الضخم ذو اللحية الشعثاء بخفة على الرصيف باتجاه القطار القادم، كاشفاً رأسه أثناء سيره. ترددت مجموعة الرجال التي وقفت خلفه، ونظر الواحد منهم إلى الآخر بتساؤل، ثم حذوا حذوه مرتبكين. توقف القطار، واندفع الجمهور إلى عربة القطار تماماً حين انفتح بابها، ومد الرجل المرتدي اللباس العسكري رأسه إلى الأمام بفضول. ظهر الرجل المسؤول عن القطار السريع عند الباب. يصاحبه شاب يرتدي معطفاً فضفاضاً وقبعة سفر.

سأل الشاب: "هل أصدقاء السيد ميريك Merrick هنا"؟

تأرجحت المجموعة الواقفة على الرصيف بقلق. بوقار أجاب فيليب فِلبس Philip Phelps، صاحب المصرف: "لقد أتينا لتولي أمر الجثمان. إن والد السيد ميريك ضعيف جداً وليس بإمكانه أن يكون هنا."

"أحضروا الوكيل هنا،" دمدم المسؤول عن القطار السريع، "واطلبوا من العامل أن يمد يد المساعدة."

أُخرج الكفن من صندوقه الخشن، ووضعه على الرصيف المغطى بالثلج. تراجع أهل البلدة بشكل كافٍ ليفسحوا مكاناً له. ثم شكلوا نصف دائرة متراصة حوله، ينظرون بفضول إلى ورقة النخيل الموضوعة على الغطاء الأسود. لم يتفوه أي شخص بكلمة. وقف الرجل المسؤول عن المتاع بجانب عربته ينتظر استلام الحقائب. لهث المحرك متثاقلاً، واندفع الوقّاد داخلاً وخارجاً بين العجلات حاملاً شعلته الصفراء وعلبة الزيت الطويلة، يغلق صناديق الوشائع. نظر الشاب القادم من بوسطن – تلميذ من تلاميذ النحات المتوفى رافق الجثمان – حوله بيأس. التفت إلى صاحب المصرف، الشخص

الوحيد بين المجموعة السوداء القلقة المحدودبة الأكتاف الذي بدا ذا شخصية متميزة إلى حد يكفي لأن يقوم المرء بمخاطبته.

"ألا يوجد أي من أشقاء السيد ميريك هنا؟" سأل بريبة.

للمرة الأولى تقدم الرجل ذو اللحية الحمراء وانضم للآخرين. "لا، إنهم لم يأتوا بعد؛ العائلة مبعثرة. سيؤخذ إلى البيت مباشرة." انحنى وقبض على أحد مماسك الكفن.

"اتبع الطريق الطويلة على الهضبة يا تومبسون Thompson، فإنها ستكون أسهل للأحصنة." صاح صاحب العربة بينما قام الحانوتي بفتح باب عربة الدفن وتهيأ للصعود إلى مقعد السائق.

التفت ليرد Laird، المحامي ذو اللحية الحمراء، إلى الغريب مرة ثانية، وقال: "لم ندرِ ما إذا كان سيأتي أي شخص معه أم لا. إن المسافة طويلة، فالأفضل أن تصعد إلى العربة." وأشار إلى عربة محطمة الجوانب وحيدة، ولكن الشاب أجاب بتصلب: "شكراً. ولكن أظن أنني سأذهب مع عربة الدفن. إذا لم يكن لديك اعتراض،" قال ملتفتاً إلى الحانوتي، "سأركب معك."

تسلقا بجهد فوق العجلات ومضيا في ضوء النجوم على الهضبة البيضاء الممتدة باتجاه البلدة. كانت المصابيح تشع في القرية الهادئة من أسفل السقوف المنخفضة التي أثقل الثلج كاهلها. ووراءها، على كل جانب، امتدت السهول حتى وصلت منطقة خاوية، مسالمة، شاسعة كالسماء الناعمة نفسها، ويطويها هدوء أبيض ملموس.

عندما دخلت عربة الدفن، وهي تسير إلى الوراء، ممشى خشبي أمام منزل عارٍ عركه الدهر، كانت نفس المجموعة المركبة التي يصعب وصفها والتي وقفت على رصيف المحطة متجمعة حول البوابة. كان الفناء الأمامي مستنقعاً متجمّداً، وشكل لوحان خشبيان ملتويان امتدا من الممشى إلى الباب ما

يماثل جسراً متداعياً. كانت البوابة ترتكز على مفصل واحد وتم فتحها فتحة غير تامة بصعوبة.

لاحظ ستيفنس Steavens، الشاب الغريب، أن شيئاً أسود قد ربط بمقبض الباب الأمامي.

أُجيب الصوت الخشن الذي أحدثه التابوت بينما كان يسحب من عربة الدفن بصرخة من المنزل؛ انفتح الباب الأمامي واندفعت امرأة طويلة بدينة عارية الرأس خارجة في الثلج ورمت نفسها على النعش وهي تصرخ: "ابني، ابني! وبهذه الطريقة عدت إلى البيت، إليّ !"

بينما التفت ستيفنس مبتعداً وأغمض عينيه وهو يرتجف من الاشمئزاز الذي لا يمكن التعبير عنه، اندفعت امرأة أخرى، طويلة أيضاً ولكنها مستوية القامة بارزة العظام، ملابسها سوداء كلّها، وخرجت من البيت وأمسكت بكتفي السيدة ميريك وهي تصيح بحدة: "تعالي، تعالي يا أمي، يجب ألا تتصرفي بهذا الشكل"! تبدلت لهجتها إلى لهجة وقار خانع حين استدارت نحو صاحب المصرف: "الصالون جاهز ياسيد فِلبس."

حمل الرجال النعش وساروا فوق اللوحتين الضيقتين، بينما جرى الحانوتي أمامهم يحمل سنادات الكفن. حملوه إلى حجرة واسعة غير مدفأة صدرت عنها رائحة الرطوبة وعدم الاستعمال ومستحضر تلميع الأثاث الخشبي، ووضعوه تحت مصباح معلق تزينه مواشير زجاجية رنانة وأمامه إحدى "مجموعات روجرز"(١) تمثل دون آلدن Alden وبرسكيلا Priscilla

---

(١) جون روجرز John Rogers (١٨٢٩-١٩٠٤) نحات أمريكي أصبح مشهوراً بسبب مجموعاته النحتية التي لها عادة طابع عاطفي ووصفي والتي شاعت شيوعاً هائلاً في تزيين غرف الصالونات وخاصة في المناطق الريفية. آلدن هو أحد المستوطنين الأوائل في أمريكا واستخدمه الشاعر الأمريكي لونغفلو كشخصية في إحدى قصائده يحاول آلدن فيها كسب ود برسكيلا.

وتحيط بها باقة من الأوراق النباتية. حدق هنري ستيفنس فيما حوله بيقين بوجود خطـــأ ما، وبأنه غلى نحو ما أوصله طريقه إلى غاية خاطئة ، وأشعره هذا اليقين بالرغبة في التقيؤ. نظر إلى السجادة ذات اللون العشبي وإلى مفارش الأثاث السميكة الطويلة الزغب وبين القطع الخشبية والمعدنية والمزاهر المرسومة باليد بحثاً عن علامة مميزة – عن شيء من الممكن التفكير بأنه كان يوماً يخص هارفي ميريك. لم يشعر بالاستعداد لأن يسمح لأي من هؤلاء الأشخاص بالاقتراب من الكفن إلى أن تعرف على صديقه في اللوحة الشمعية لصبي صغير يرتدي تنورة اسكتلندية وشعره ذو لفائف متدلية فوق البيانو.

"أزح الغطاء يا سيد تومبسون؛ دعني أرى وجه ابني،" قالت المرأة المسنة وهي تعول بين نوبات بكائها. هذه المرة نظر ستيفنس بخوف، تقريباً بتوسل في وجهها الأحمر المنتفخ تحت كتل الشعر الأسود اللامع. تورد وجهه، وخفض عينيه، ثم نظر ثانية نظرة من يكاد ألاّ يصدق. كان هناك نوع من القوة في وجهها – بل ونوع من الوسامة الوحشية؛ ولكن كانت تشوبه ندوب وأخاديد سببها العنف، وقد لونته وصلّبته عواطف أكثر شراسة بحيث إنه لم يبد أن الحزن قد مسه أبداً بيد حانية. كان الأنف الطويل متضخماً ومتكوراً عند نهايته، وأحاطت به خطوط عميقة من كلا جانبيه، والتقى حاجباها السميكان الأسودان فوق جبهتها؛ كانت أسنانها مربعة، متباعدة – أسنان بإمكانها أن تمزق. كانت تملأ الغرفة؛ انمحى الرجال، بدوا وكأنه قد ألقي بهم كقطع الأغصان في ماء هادر، وحتى ستيفنس شعر بأنه ينجرف نحو الدوامة.

أما الابنة – المرأة الطويلة المهزولة التي ارتدت ملابس الحداد، والتي وضعت مشط حداد في شعرها أطال وجهها الطويل بشكل يدعو إلى الاستغراب – فقد جلست بتصلب على الكنبة ، ويداها – اللتان تلفتان الانتباه بضخامة مفاصلهما – مطويتان في حجرها، وفمها منخفض وكذلك عيناها، تنتظر بوقار فتح النعش. قرب الباب وقفت امرأة نصف زنجية، من الواضح

أنها خادمة في البيت، وقفة مستكينة ووجهها النحيل حزين ورقيق بشكل يستدر الشفقة. كانت تبكي بصمت، وطرف وزرتها القطنية مرفوع إلى عينيها، يكتم بين الحين والآخر نشيجاً طويلاً مرتعشاً. خطا ستيفنس نحوها ووقف إلى جانبها.

سُمع وقع أقدام ضعيف على الدرج، ودخل بشيء من عدم الثقة رجل مسن، طويل وضعيف، تفوح منه رائحة دخان الغليون، وله شعر رمادي مشعث غير مسرَّح، ولحية قذرة ملطخة بالتبغ قرب الفم. مشى ببطء نحو النعش ووقف يفتل منديلاً قطنياً أزرق بين يديه، ويبدو متألماً ومحرجاً بسبب عويل زوجته الصاخب بحيث لم يكن واعياً لأي شيء آخر.

"هاكِ، هاكِ، آني Annie، يا عزيزتي، لا تتصرفي بهذا الشكل،" ارتعش بمسكنة ماداً يداً مرتجفة ربَّت بها بطريقة خرقاء على كوعها. التفتت صارخة وارتمت على كتفيه بقدر من العنف جعله يترنح قليلاً. لم يلقِ حتى نظرة سريعة باتجاه النعش، بل تابع النظر إليها وعيناه تحملان تعبيراً بليداً خائفاً متوسلاً كتعبير الكلب حين ينظر إلى السوط. احمرّت وجنتاه الغائصتان ببطء واشتعلتا بشعور بائس بالعار. حين هرعت زوجته خارجة من الغرفة، مشت ابنتها خلفها مضمومة الشفتين. تسللت الخادمة نحو النعش وانحنت فوقه للحظة، ثم خرجت إلى المطبخ تاركة ستيفنس والمحامي والأب وحدهم. وقف الرجل المسن ينظر إلى وجه ابنه الميت. بدا رأس النحات الرائع أكثر نبلاً في سكونه القاسي مما كان في الحياة. كان الشعر الفاحم قد زحف هابطاً على الجبهة العريضة، وبدا الوجه طويلاً بشكل غريب، ولم يكن فيه ذلك السكون الذي نتوقعه في وجوه الموتى. كان الحاجبان مقطبان إلى حدٍّ أن خطين عميقين تشكلا فوق الأنف المعقوف، وبرزت الذقن إلى الأمام بتحدٍ. كان الأمر كما لو أن جهد الحياة كان حاداً مراً لدرجة أن الموت لم يستطع في الحال التخفيف من التوتر وأن يلطف

تعبير الوجه في سلام كامل – كما لو أنه لا يزل يحرس شيئاً ثميناً من الممكن حتى تلك اللحظة أن يُنتزع منه.

كانت شفتا الرجل الهرم تعملان تحت لحيته الملطخة. التفت إلى المحامي باحترام مستكين: "سيعود فِلبس والآخرون للبقاء مع هارف Harve، أليس كذلك"؟ سأل. "شكراً لك يا جيم، شكراً لك" أزاح الشعر بحنان عن جبهة ابنه. "لقد كان ابناً طيباً يا جيم؛ دائماً ابناً طيباً. كان رقيقاً كطفل وأكثرهم حنواً – لكن لم يفهمه أحد منا على الإطلاق." انحدرت الدموع ببطء على لحيته وسقطت على معطف النحات.

"مارتن Martin، يا مارتن! آه، يا مارتن! تعال هنا،،" قالت زوجته معولة من أعلى الدرج. أجفل العجوز بهيبة: "نعم يا آني، إنني قادم." التفت مبتعداً وتردد ووقف لحظة في عجز بائس عن اتخاذ قرار؛ ثم مد يده وربت بنعومة على شعر الرجل الميت، وتعثر خارجاً من الغرفة.

"يا للعجوز المسكين، لم أكن أعتقد أنه بقيت لديه أية دموع. يبدو أنه من المفروض أن تكون عيناه قد جفتا منذ أمد طويل. في مثل عمره لا يستطيع أي شيء أن يترك أثراً عميقاً،" قال المحامي.

شيء ما في لهجته جعل ستيفنس يرفع بصره. بينا كانت الأم في الغرفة، لم يكد الشاب يرى أيّ شخص آخر؛ لكن الآن، منذ اللحظة التي رمق بها وجه جون ليرد، المتورد للمرة الأولى، وعينيه المحمرتين، أدرك أنه قد وجد ما لم يجده من قبل وما سبب له الأسى ألا يجده – وهو الإحساس، الفهم، الذي لا بد أن يوجد في شخص ما.

كان الرجل أحمر مثل لحيته، منتفخ الملامح التي فقدت وضوحها من الانغماس في الشراب، وذا عينين زرقاوين ملتهبتين. كان وجهه مجهداً – إجهاد رجل يكبح نفسه بصعوبة – وكان باستمرار ينتف لحيته بشيء من الغضب الوحشي. أخذ ستيفنس – الذي جلس قرب النافذة – يراقبه وهو

يخفض ضوء المصباح الباهر بحركة غاضبة، ثم يقف ويداه مشبوكتان وراءه، محدقاً في وجه المعلّم. لم يستطع منع نفسه من التساؤل عن الصلة بين وعاء الخزف ومثل هذه الكتلة الهبابية من معجون الخوف.

ترامى من المطبخ صوت جلبة؛ وحين فُتح باب غرفة الطعام، اتضح مغزاه. كانت الأم تعنف الخادمة لأنها نسيت تحضير التوابل لسلطة الدجاج التي كانت تُعدّ للمعزين. لم يكن ستيفنس قد سمع أبداً أي شيء شبيه لذلك ولو شبهاً ضئيلاً؛ كان تعنيفاً متوجعاً دراميا فريداً بليغاً في قسوته المفرطة، عنيفاً وغير مكبوح مثلما كان أساها قبل عشرين دقيقة. برعشة من القرف دخل المحامي غرفة الطعام وأغلق الباب الذي يصل بالمطبخ.

قال حين عاد: "روكسي Roxy المسكينة تنال نصيبها الآن. لقد جاءت عائلة ميريك بها من دار الفقراء قبل سنوات، ولو لا أن إخلاصها للعائلة يكبحها لأمكنها كما أظن أن تقص قصصاً تخثر الدم في عروقك. إنها المرأة النخاسية التي كانت تقف هنا قبل برهة. ومئزرها على عينيها. إن المرأة العجوز دوامة من العنف؛ ليس هناك من شخص شبيه بها أبداً. لقد حولت حياة هارفي إلى جحيم حين كان يعيش في بلدته؛ لقد انتابه الشعور بالعار المرضي من جراء ذلك. ليس بإمكاني معرفة كيف استطاع المحافظة على عذوبة طبعه."

"لقد كان رائعاً،" قال ستيفنس ببطء، "رائعاً؛ ولكن حتى هذه الليلة لم أكن أدري إلى أي حد كانت هذه الروعة."

"ذلك هو الشيء الذي سيظل عجيباً أبداً، على كل حال؛ إن بإمكان ذلك الطبع أن يخرج من كومة روث مثل هذه." صاح المحامي، بحركة شاملة بدا أنها تشير إلى أكثر بكثير من الجدران الأربعة النى كانا يقفان بينها.

"أعتقد أنني سأحاول استنشاق بعض الهواء النقي. هذه الغرفة مغلقة إلى درجة أنني قد بدأت أشعر بشيء من الدوار،" تمتم ستيفنس، وهو يحاول

جاهداً فتح إحدى النوافذ. لكن الإطار كان محكم الإغلاق وأبى أن ينفتح، لذلك جلس بكآبة وبدأ بشد ياقته. اقترب المحامي وأطلق الإطار بضربة واحدة من قبضته الحمراء ورفع النافذة بضع بوصات. شكره ستيفنس، ولكن الغثيان الذي كان خلال نصف الساعة الماضي يصعد تدريجياً إلى حلقه ترك لديه رغبة وحيدة – شعوراً يائساً بأن عليه أن يغادر هذا المكان مصطحباً ما تبقى من هارفي ميريك. آه. إنه يفهم الآن فهماً كافياً المرارة الهادئة في الابتسامة التي طالما رآها على شفتي معلمه!

مرة عند عودة ميريك من زيارة لبلدته، أحضر معه نقشاً بارزاً فريداً في انفعاليته وإيحائه يمثل امرأة عجوز نحيلة ذاوية، جالسة تخيط شيئاً موضوعاً على ركبتها، بينما جلس إلى جانبها غلام ممتلئ الشفتين مليء بالحيوية، بنطاله مثبت بحمالة واحدة، يشد رداءها بصبر نافذ ليلفت انتباهها إلى فراشة اصطادها. سأل ستيفنس – الذي أثر فيه أثراً بالغاً التصميم الدقيق للوجه النحيل المتعب – ما إذا كان وجه أمه. وهو يذكر التورد المعتم الذي التهب في وجه النحات.

كان المحامي يجلس على كرسي هزاز بجانب النعش، رأسه ملقى إلى الوراء وعيناه مغمضتان. نظر إليه ستيفنس بحرارة، وقد أثار عجبه شكل الذقن، ومتسائلاً لماذا يخفي رجل من الرجال جزءاً مميزاً بهذا الشكل وراء كتلة شعر اللحية المشوِّهة. فجأة، وكأنه أحس بنظرة النحات الشاب الحادة، فتح جون ليرد عينيه.

"هل كان دائماً منطوياً إلى حد كبير"؟ سأل بشكل مفاجئ. "لقد كان خجولاً جداً في صباه."

"نعم لقد كان منطوياً طالما اخترتَ هذا التعبير،" أجاب ستيفنس. "رغم أنه كان شغفاً ببعض الناس إلى حدٍّ كبير، كان دائماً يترك الانطباع بأنه منعزل. لم يكن يستسيغ العواطف العنيفة؛ كان من النوع المتأمل، وإلى حد ما

لم يثق بنفسه – إلاّ فيما يتعلق بعمله بالطبع. كانت لديه ثقة كافية في ذلك المجال. كان لا يثق على الإطلاق بالرجال وأكثر حتى بالنساء، لكن بشكل ما دون أن يعتقد بوجود السوء فيهم. كان مصراً بالتأكيد على أن يحسن الظن إلى أقصى درجة، لكن كان يبدو خائفاً أن يتحرى."

"الكلب الذي عانى من الحرق يخشى النار،" قال المحامي بعبوس، وأغمض عينيه.

استرسل ستيفنس في أفكاره، معيداً تركيب ذلك الصبا البائس بأكمله. لقد كانت كل هذه البشاعة الفجة القارصة نصيب الرجل الذي كان ذوقه في كل الأمور مصقولة إلى أبعد من حدود المعقول – الذي كان عقله معرضاً لا ينضب من الانطباعات الجميلة، حساساً إلى حد أن مجرد ظل ورقة صفصاف ترتعش منعكسٍ على حائط مشمس كان يُحفَر ويثبّت في مكانه إلى الأبد. بالتأكيد إذا كان لدى أي رجل كلمة سحرية في أطراف أنامله، فذلك الرجل هو ميريك. وكان يكشف أقدس أسرار أي شيء يلمسه؛ يحرره من السحر ويعيد إليه جماله الأصلي. لقد ترك سجلاً جميلاً للتجربة على أي شيء تفاعل معه – نوعاً من التوقيع الأثيري؛ رائحة، صوتاً، لوناً كان خاصاً به ولا أحد غيره.

فهم ستيفنس الآن المأساة الحقيقية في حياة معلمه؛ لم تكن الحب ولا الخمر كما خمن الكثيرون، بل ضربة هَوَت في زمن أسبق، وجرحت جرحاً أعمق مما كان بإمكان أي شيء أن يفعله – شعور بالعار لا يخصه، ولكن مع ذلك يخصه جداً وبشكل لا مهرب منه، يخبئه في صدره منذ مطلع صباه. وفي الخارج – حرب الحدود؛ توق صبي، ألقي به إلى الشاطئ في صحراء من الجدّة والبشاعة والوساخة، بدلاً من كل ما هو طاهر وقديم ونبيل في التقاليد.

في الساعة الحادية عشرة، أعلنت المرأة الطويلة النحيلة المرتدية السواد أن المعزين قد وصلوا وطلبت منهما "التفضل إلى غرفة الطعام." حين نهض ستيفنس، قال له المحامي بجفاء: "اذهب أنت – ستكون تجربة

جيدة لك. أما أنا فليست لدي القوة لرؤية ذلك الحشد الليلة؛ لقد تحملتهم على مدى عشرين سنة."

حين أغلق ستيفنس الباب وراءه نظر خلفه إلى المحامي، جالساً إلى جانب الكفن في الضوء الخافت، وذقنه مستندة إلى يده.

دخلت غرفة الطعام المجموعة الضبابية نفسها التي وقفت قبل ذلك أمام باب عربة القطار السريع. في ضوء مصباح الكاز تفرقوا وغدوا أفراداً. اتخذ القسيس –رجل شاحب ضعيف المظهر ذو شعر أبيض بينما كان الشعر الذي ينمو على ذقنه أشقر – مجلسه إلى جانب طاولة جانبية صغيرة ووضع كتابه المقدس عليها. جلس رجل "جيش الجمهورية الكبير" خلف المدفأة وأمال كرسيه إلى الوراء بحيث استند بشكل مريح إلى الحائط، ونقب في جيب صدره بحثاً عن عود أسنانه. وجلس المصرفيان – فلبس وإلدر Elder – منعزلين في زاوية خلف طاولة الطعام، حيث كان بإمكانهما متابعة بحثهما قانون ربا جديد وتأثيره على قروض الأموال المنقولة. سرعان ما انضم إليهما صاحب المكتب العقاري، رجل مسن ذو وجه باسم منافق. وجلس تاجر الفحم والخشب وشاحن الماشية على طرفين متقابلين من موقد الفحم وقدماهما على صينية القصدير. أخرج ستيفنس كتاباً من جيبه وأخذ يقرأ. تناول الحديث الدائر حوله مواضيع مختلفة ذات أهمية محلية بينما أخذ البيت يخلد إلى السكون. حين أصبح من الواضح أن أفراد العائلة خلدوا إلى النوم، حرك رجل "الجيش الكبير" كتفيه وإذ حاول أن يفلت إحدى رجليه الطويلتين عن الأخرى اشتبك كعباه بأطراف الكرسي.

"أعتقد أنه ستكون هناك وصية يا فِلبس؟" سأل بصوته الحاد الضعيف.

ضحك المصرفي بشكل يبعث النفور وأخذ يقلم أظافره بموسى صغيرة ذات مقبض لؤلؤي. "ليست هناك حاجة كبيرة إلى وصية، أليس كذلك؟" سأل بدوره.

غير رجل "الجيش الكبير" وضعه من جديد، رافعاً ركبتيه إلى مكان أكثر قرباً من ذقنه، وقال مزقزقاً: "لكن الرجل المسن يقول إن هارف قد حقق نجاحاً لا بأس به مؤخراً."

تكلم المصرفي الآخر. "أظن أنه يعني بذلك أن هارف لم يطلب منه أن يرهن أية مزارع جديدة مؤخراً، من أجل أن يتابع تعليمه."

"لا يبدو أن عقلي يستطيع الرجوع إلى زمن لم يكن هارف يتلقى فيه تعليمه،" قال رجل "الجيش الكبير" هازئاً.

صدرت قهقهة عامة. أخرج القسيس منديله وتمخط بصوت رنان. أغلق المصرفي فلبس موساه بطرقة. "من المؤسف أن أبناء الرجل المسن لم يكونوا أفضل مما هم،" علق بسلطة متأملة. "إنهم لم يتكاتفوا معاً أبداً. لقد صرف على هارف مالاً كافياً لتزويد عشر مزارع بالماشية. وكان كأنه يصب هذا المال في ساند كريك (جدول من الرمل). لو بقي هارف في البلدة وساعد في العناية بالقليل الذي كان لديه، وأصبح شريكاً في مزرعة أبيه السفلى، لربما تحسنت أحوالهم جميعاً. ولكن العجوز اضطر لأن يعهد بكل شيء للمستأجرين وكان يتعرض للغش يمنةً ويساراً."

تدخل تاجر الماشية قائلاً: "لم يكن بإمكان هارف تولي أمر الماشية قط. لم تكن لديه اليقظة الكافية. هل تذكرون حين اشترى بغالساندرز Sanders على أنها في الثامنة من العمر، في حين كان كل شخص في البلدة يعرف أن حما ساندرز قد أعطاهما لزوجته كهدية زفاف قبل ثمانية عشر عاماً، وأنها كانت بغالاً مُسنّة حتى في ذلك الحين؟"

ضحك الجميع بتأدب، وفرك رجل "الجيش الكبير" ركبتيه في فورة من السرور الطفولي.

"لم يكن هارف يساوي الكثير في أي مجال عملي، وبالتأكيد لم يكن شغفاً بالعمل،" بدأ تاجر الفحم والخشب. "أذكر آخر مرة زار فيها البلدة؛ في

يوم مغادرته، حين خرج العجوز إلى المعلف ليساعد أجيره في إعداد عربة لأخذ هارف إلى القطار وكان كال موتس Cal Moots يصلح السياج، خرج هارف ووقف على الدرج يغني بصوته لذي كان يشبه صوت السيدات: كال موتس، كال موتس! أرجو أن تأتي وتربط حقيبتي."

"هكذا كان هارف بالفعل،" قال رجل "الجيش الكبير" موافقاً. "لا أزال أستطيع سماعه وهو يصيح، عندما كان فتى كبير الحجم يرتدي البنطال الطويل وكانت أمه تجلده بالسوط في المعلف لتركه الأبقار تدخل حقل الذرة عندما كان يسوقها عائداً بها إلى البيت من المرعى. لقد قتلت إحدى أبقاري بتلك الطريقة ذات مرة – بقرة أصيلة وأحسن حلوب كانت لدي، واضطر العجوز لتقديم بديل لها. أما هارف فقد كان يراقب غروب الشمس عبر الأراضي المستنقعية حين جنحت البقرة."

"لقد ارتكب الأب خطيئته الأساسية حين أرسل الفتى للدراسة في الشرق،" قال فلبس وهو يربت على لحيته الصغيرة المشذبة ويتكلم بلهجة مدروسة حكيمة. "لقد امتلأ عقله بالهراء هناك. ما كان هارف – من بين كل الناس – بحاجة إليه هو دورة في كلية تجارة في كانساس من كليات الدرجة الأولى."

أخذت الحروف تسبح أمام عين ستيفنس. هل من الممكن أن يكون هؤلاء الرجال لا يفهمون، أن ورقة النخيل على النعش لم تعن شيئاً بالنسبة لهم؟ كان اسم بلدتهم نفسه سيبقى إلى الأبد مدفوناً في دليل دائرة البريد لولا أنه يذكر بين الحين والحين في العالم فيما يتعلق بهارفي ميريك. تذكر ما قاله معلمه له يوم موته، بعد أن أغلق احتقان كلتا الرئتين أي احتمال للشفاء، وطلب النحات من تلميذه إرسال جسده إلى بلدته. "إنها ليست مكاناً لطيفاُ ليستلقي فيه المرء بينما يتحرك العالم وينجز ويتحسن،" كان قد قال وعلى فمه ابتسامة واهنة، "ولكن يبدو وكأنه يجب علينا العودة إلى المكان الذي قدمنا منه، في النهاية. سيأتي أهل البلدة ليلقوا نظرة عليّ؛ وبعد أن يقولوا ما لديهم، لن يكون هناك ما أخشاه خشية كبيرة من قضاء الله."

استلم تاجر الماشية التعليق. "ليس من عادة فرد من عائلة ميريك أن يموت صغيراً في الأربعين؛ فهم عادةً يعمرون جيداً. قد يكون ساعد القدر بتناول الويسكي."

"أهل أمه لم يعمروا طويلاً، ولم يكن هارفي ذا بنية قوية قط،" قال القسيس باستكانة. كان يود لو أنه يقول أكثر من ذلك. لقد كان هو أستاذ الصبي في مدرسة الأحد[1] وكان شغوفاً به؛ لكنه شعر أنه لم يكن في مركز يؤهله لأن يتكلم. فأبناؤه هو لم يفلحوا، ولم تمضِ سنة بعد أن قام أحدهم بآخر رحلة له إلى البلدة في عربة القطار السريع، بعد أن أطلق الرصاص عليه في دار للقمار في "الهضاب السود."

"ومع ذلك، فلا جدال في أن هارف كثيراً ما تطلع إلى النبيذ لدى احمراره، وتلونه بألوان أخرى، وبالتأكيد جعله ذلك أحمق غير عادي." قال رجل الماشية واعظاً.

في تلك اللحظة تماماً أحدث الباب الذي يقود إلى الصالون اهتزازاً ذا ضجة وأجفل الجميع بشكل تلقائي، ثم بدا عليهم الارتياح حين خرج جيم ليرد وحده. طأطأ رجل "الجيش الكبير" رأسه حين رأى الوميض في عينيه الزرقاوين المحمرتين. كانوا كلهم يخشون جيم؛ كان سكيراً، ولكن في مقدوره أن يدير القانون ليناسب متطلبات موكله بشكل لا يستطيعه أي شخص آخر في غرب كانساس بأكمله، وقد حاول ذلك الكثيرون. أغلق المحامي الباب وراءه واستند إليه بظهره وشبك ذراعيه ورأسه يميل بعض الشيء إلى أحد الجانبين. حين يتخذ هذه الوقفة في قاعة المحكمة، فإن الآذان كلها تصغي، لأن هذا الوضع ينبئ أن سخرية مدمرة ستتبع.

---

(١) تقوم الكنيسة بإعطاء دروس دينية (وأحياناً دنيوية) يوم الأحد ويطلق على سلسلة الدروس اسم مدرسة الأحد.

"لقد جلست في صحبتكم أيها السادة من قبل،" بدأ حديثه بلهجة جافة مستوية، "حين جلستم قرب نعوش فتية ولدوا ونشأوا في هذه البلدة؛ وإذا كنت أذكر بشكل صحيح فأنتم لم تكونوا راضين كثيراً في أي من الحالات حين قمتم بتفحصهم. ما الأمر، على كل حال؟ ما السبب أن الشبان اللامعين نادرون ندرة أصحاب الملايين في ساندسيتي (مدينة الرمل)؟ من المحتمل أن يبدو للغريب أن هناك شيئاً خاطئاً ما في بلدتكم التقدمية. لماذا أدمن روبن سيير Ruben Sayer – ألمع محامٍ شاب خرج من بينكم – على الشراب بعد عودته لبلدته من الجامعة نزيهاً كالنرد، وقام بتزوير شيك وأطلق الرصاص على نفسه. لم مات ابن بيل ميريت Bill Merrit مريضاً بالملاريا في حانة في أوماها؟ لم أُطلق الرصاص على ابن السيد توماس Thomas في دار للقمار؟ لم أحرق آدمز Adams الشاب طاحونه لخداع شركات التأمين وانتهى في زنزانة"؟

توقف المحامي وفك ذراعيه عن بعضهما، واضعاً إحدى قبضتيه على الطاولة. "سأخبركم السبب. لأنكم لم تملؤوا آذانهم بغير النقود والاحتيال منذ كانوا يرتدون البناطيل القصيرة؛ لأنكم أسهبتم في انتقادهم لأتفه الأسباب مثلما أخذتم تفعلون هنا الليلة، واضعين صديقينا فلبس وإلدر كممثلين لهما، مثلما اتخذ أجدادنا جورج واشنطن وجون آدمز قدوة لهم. لكن الفتية كانوا لسوء حظهم صغاراً، ولم تكن لديهم الخبرة في العمل الذي عهدتهم به إليهم، وكيف كان باستطاعتهم مجاراة فنانين مثل فلبس وإلدر؟ لقد أردتموهم أن يكونوا محتالين ناجحين؛ ولكنهم كانوا محتالين فاشلين – هذا هو كل الفرق. كان هنا فتى واحد فقط نشأ في هذا الخط الفاصل بين الوحشية والحضارة لم ينتهِ نهاية مؤسفة، ولقد كرهتم هارفي ميريك لنجاحه أكثر مما كرهتم جميع الفتية الآخرين الذي وقعوا تحت العجلات. ياإلهي، يا إلهي، كم كرهتموه! إن فِلبس، هنا، مولع بالقول بأنه يستطيع شراءنا وبيعنا جميعاً في أي وقت يشعر فيه بالرغبة في ذلك، لكنه كان يعرف أن هارف لم يكن ليعطي درهماً زائفاً مقابل

مصرفه ومزارع ماشيته كلها إذا جمعت معاً، وإن عدم التقدير، بهذا الشكل، له تأثير كبير على فلبس.

"نِمرود العجوز يعتقد أن هارف أفرط في الشراب؛ وهذا يصدر عن أمثال نِمرود وأمثالي أنا!

"الأخ إلدر يقول إن هارف تصرف بحرية مسرفة بنقود العجوز – ربما لم يكن ابناً باراً. لكننا جميعاً نستطيع أن نذكر اللهجة التي أقسم الأخ إلدر بها في محكمة الناحية أن والده نفسه كان كاذباً ؛ وكلنا نعلم – أن العجوز خرج من الشراكة مع ابنه عارياً كخروف اجتز صوفه. لكن ربما أنّي أتعرض لمسائل شخصية، والأفضل أن أمضي رأساً إلى ما أود قوله."

توقف المحامي لحظة، ورفع كتفيه العريضتين وتابع كلامه: "لقد ذهبنا – هارفي ميريك وأنا – إلى الجامعة معاً، في الشرق. كنا مخلصين في نوايانا تماماً، وأردناكم جميعاً أن تفخروا بنا يوماً ما. لقد عزمنا أن نكون رجلين عظيمين. حتى أنا – إنني لم أفقد روح الدعابة التي لدي أيها السادة – عزمت أن أكون رجلاً عظيماً، ثم عدت هنا للتمرن، ووجدت أنه لم تكن لديكم أدنى رغبة في أن أكون رجلاً عظيماً. لقد أردتموني أن أصبح محامياً بارعاً – آه، نعم! محاربنا المتقاعد هنا أرادني أن أحصل له على زيادة في الراتب التقاعدي، لأنه يعاني سوء الهضم؛ وأراد فِلبس أن تمسح أراضي الناحية مسحاً جديداً بحيث توضع مزرعة الأرملة ويلسون Wilson الصغيرة الخصبة داخل حدوده الجنوبية؛ وأراد إلدر أن يقرض النقود بفائدة خمسة بالمئة في الشهر وأن تجبى هذه القروض؛ وستارك Stark هنا أراد إغراء بعض النساء العجائز في ولاية فرمونت بأن يستثمرن مخصصاتهن في أملاك مرهونة لا تساوي الورق الذي تكتب عليه، آه، لقد كانت حاجتكم إلي حاجة كبيرة؛ بما فيه الكفاية، وستبقون في حاجة إليّ، ولهذا فلست خائفاً أن أواجهكم بالحقيقة هذه المرة الواحدة.

"إذن فقد عدت هنا وأصبحت المخاتل اللعين الذي أردتموني أن أكونه. إنكم تتظاهرون أنكم تحملون شيئاً من الاحترام نحوي؛ لكنكم تقفون وتلقون بالوحل على هارفي ميريك، الذي لم تستطيعوا توسيخ روحه أو ربط يديه. آه، إنكم فئة من المسيحيين المميزين! لقد مرت أوقات كانت رؤية اسم هارفي في إحدى الصحف الشرقية تجعلني أطأطئ رأسي مثل كلب عوقب بالجلد؛ وكذلك أوقات كنت أحب فيها التفكير به طليقاً هناك في العالم، بعيداً عن مرتع الخنازير هذا بأكمله، يتسلق الطريق الصاعد النظيف الكبير الذي اختاره لنفسه.

"ونحن؟ الآن بعد ما عاركنا وكذبنا وتصببنا عرقاً وسرقنا، وشعرنا بالكراهية كما يعرف المكافحون الخائبون في بلدة غريبة صغيرة مرة ميتة وحدهم كيف يكرهون، ما الذي جنيناه من ذلك؟ لم يكن هارفي ميريك ليبادل غروب شمس واحد فوق أراضيكم المستنقعية بكل ما تملكونه مجتمعاً، وأنتم تعرفون هذا. إنه ليس في متناولي أن أعرف السبب الصادر عن حكمة الله الخفية في أن يبرز عبقري من مكان الكراهية والمياه المرة هذا؛ لكنني أريد لهذا الرجل القادم من بوسطن أن يعرف بأن التخريف الذي سمعه هنا الليلة هو الإجلال الوحيد الذي يمكن لأي رجل عظيم حقاً أن يحصل عليه من حفنة من المفترسين المرضى المنحرفين المعسرين رجال المال في ساندسيتي الحاضرين هنا – وليشمل الله هذه البلدة برحمته"!

مد المحامي يده إلى ستيفنس أثناء مروره به، وأمسك بمعطفه في الممر، وغادر المنزل قبل أن يتاح المجال لرجل "الجيش الكبير" أن يرفع رأسه المنحني ويدير عنقه الطويل حوله نحو زملائه.

في اليوم التالي كان جيم ليرد سكراناً، غير قادر على حضور طقوس الجنازة. ذهب ستيفنس مرتين إلى مكتبه، ولكنه اضطر للتوجه إلى الشرق دون أن يراه. كان لديه شعور أنه سيسمع منه ثانية، وترك عنوانه على طاولة

ليرد؛ لكن إذا كان ليرد قد وجده، فإنه لم يعطِ أي إشعار بذلك. ولا بد أن الشيء الذي كان هارفي ميريك يحبه فيه قد دفن تحت التراب مع نعش هارفي ميريك، لأنه لم يجهر بالحديث ثانية. وقد أصيب جيم بالزكام الذي أودى بحياته بسبب سفره عبر جبال كولورادو للدفاع عن واحد من أبناء فِلبس كان قد تعرض للمتاعب هناك بسبب قطعه أشجاراً تملكها الحكومة.

ماري لافن

الأحياء(١)

ماري جوزفين لافن كاتبة روايات وقصص قصيرة، ولدت عام ١٩١٢ وتوفيت عام ١٩٩٦. وتعتبر مؤلفة رائدة في عالم الأدب الإيرلندي الذي يسيطر عليه المؤلفون الذكور. وتشكل قضايا المرأة ومساواتها والقضايا المتعلقة بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية موضوعاتها المعتادة. ومع أن والدي ماري لافن كانا مهاجرين إلى الولايات المتحدة، وأنها ولدت في ولاية ماساشوستس، فإن والدتها قررت العودة إلى إيرلندا، ومعها ماري البالغة من العمر عشرة أعوام. نشرت أول قصة قصيرة لها عام ١٩٣٨، وتبعتها عدة مجموعات قصصية وروايات. نالت عدة جوائز أدبية ودرجة دكتوراه فخرية من "كلية دبلن الجامعية."

قال ميكسر Mickser فجأة: "كم عدد الأشخاص الموتى الذين تعرفهم؟"

على الفور شعرت وأنا متألم أن الجواب سيظهرني مرة أخرى أقل شأناً منه. كان في الثامنة وأنا أصغر بسنة. قلت ببطء: "أتعني الأشباح؟" كي أربح بعض الوقت.

---

(١) هذه ترجمة قصة "The Living" للكاتبة Mary Lavin. والقصة نشرت في كتاب:
Winter's Tales, vol. 5 (Macmillan, 1958).

كنا جالسيْن كل منا على عمود من البوابة الكبيرة للمدرسة في الطريق الرئيسي.

قال ميكسر: "كلا، إنما أعني الجثث."

صحت: "ولكن ألا تُدفَن؟"

قال ميكسر بلهجة قاسية: "تمر ثلاثة أيام قبل أن تدفن. فلا بد من فركها وتنظيفها وتمديدها والسهر قربها. ولكن ليس من المسموح لك أن تحتفظ بها أكثر من ذلك، لأن عينيها تصبح بهذا الشكل،" ووضع يداه على عينيه وسحب الجفنين السفليين، ليظهر الجفنين الداخليين يسبحان بالدم الممزوج بالماء. وشرح قائلاً: "إنها تتعفن."

"انتبه أن لا تقع،" قلت بعجلة، وفي اعتقادي أنه قد يترك جفنيه إذا اضطر لتعديل جلسته على عمود البوابة.

كنا جالسين هناك نراقب السيارات العائدة من نهائيات كارلو Carlow وكيري Kerry لكرة القدم. لكن لم يكن في ذلك متعة كبيرة. نعم، كانت السيارات تمر بأعداد وافرة، لكن المسافات بينها معتدلة على الطريق، وهي تتحرك ببطء وكأنها في جنازة. وكما قال ميكسر، الشخص الوحيد الذي يعود إلى بيته بعد المباراة مباشرة هو رب العائلة. أما المؤيدون الحقيقيون فلا يعودون إلى أن يهبط الليل – أو ربما مع اقتراب الصباح.

قال ميكسر: "التسلية هي حين يعود السكارى إلى بيوتهم. يتجاوزون أحدهم الآخر على الطريق. ولاحِظْ أنهم يفعلون ذلك عند الزوايا! لكن أمك لن تسمح لفتى صغير مثلك أن يسهر في الخارج وقتاً كافياً لذلك."

كان قوله شديد الصدق. فسماحها لي بالخروج إلى الطريق كان أعجوبة. كانت أمي تشعر بخوف مروع من الخطر. قالت لي: "يمكنك أن تذهب إلى موقع المدرسة وتشاهد السيارات وهي عائدة إذا التزمت الحذر.

واعتن بنفسك! ابتعد جيداً عن الطريق! وانتظر دقيقة. لا تجلس على ذلك السور المرتفع، مثلما شاهدتك تفعل في إحدى المرات."

كان هذا هو سبب تسلقنا على عمودي البوابة، رغم أنهما أعلى بكثير من السور. فقد قال ميكسر بلجة تعريفية: "أعمدة البوابة ليست جدراناً."

هكذا كان ميكسر بلحمه وعظمه. يمكنك الاعتماد عليه ليخلصك من أي شيء. لكنه أيضاً يستطيع توريطك في أي شيء. فأنت لا تعرف أبداً إلى أين ستقودك كلمة ما معه. ومع ذلك، فهذا الحديث عن الموتى بدا آمناً إلى حد كافٍ.

سألت وأنا خائف ولكنني مفتون: "كم تعرف أنت ياميكسر."

قال ميكسر بتعالٍ: "آه، لا يمكنني أن أعدهم. أراهن أنك لا تعرف أحداً على الإطلاق."

"جدّي ميت."

"كم مضى على موته؟"

قلتُ: "لقد مات في العام الذي ولدت أنا فيه." وأضفت بلهجة تنطوي على الأهمية ما سمعت والدتي تقوله لأشخاص كثيرين: "في اليوم التالي تماماً."

قال ميكسر: "تشرفنا! لا يمكنك أن تدخله في الحسبة. فلو أمكن ذلك لأمكنك أن تضيف جد أبيك، وجد جدك، وجد جد أبيك، و . . ." وأضاف: "بالتأكيد، أليست الأرض ملأى بأموات لم يعرفهم أحد؟" مشيراً إلى الأرض حيث ظهر الطين تحت السور أسود وكريهاً من خلال القرّاص. قال: "إذا جئت برفش في هذه الدقيقة وبدأت تحفر هناك، أو في أي مكان، فبعد وقت قصير ستعثر على عظام، عظام شخص ما! آه، كلا!" هز رأسه بالنفي: "لا يمكنك أن تدخل في الحسبة أشخاصاً لم **ترهم** ميتين، مثل عمي بات Bat الذي كان جالساً يأكل بيضة مسلوقة في إحدى الدقائق واستلقى ميتاً في الدقيقة التالية. لكنه أفضل الأشخاص في قائمتي،" أضاف بفخامة. "لقد رأيته حياً

وميتاً. لكن معظمهم لم أرهم إلا ميتين – مثل عمتيّ اللتين ماتتا خلال أسبوع إحداهما تلو الأخرى. قال الجميع إنه مما يؤسف له أنهما لم تموتا في وقت أقرب إحداهما من الأخرى طالما أنهما ستموتان على كل حال، وذلك كي يكون السهر قرب جثتيهما واحداً. كم بلغ العدد؟" قال يسألني: "كم لدي الآن؟"

قلت: "فقط ثلاثة،" وانتعش قلبي، فقد لا يستطيع التفكير بأكثر من ذلك."

نظر إليّ بتجهم. كان لديه شيء من القدرة على قراءة الأفكار، مثلما لديه كل شيء آخر. قال: "أردت أن أنتقي الأمثلة الأفضل لأبدأ بها."

سحقني هذا كلياً. قلت: "بالتأكيد يا ميكسر. لا حاجة لك بأن تجهد نفسك، لأنني لم أرَ أي ميت على الإطلاق. نعم، لقد ماتت عمتي قبل سنة، واضطروا لأخذي إلى الجنازة لأنه لم يوجد أحد يتركوني عنده، لكن لم يدعوني أدخل المنزل إلى أن أصبحت الجنازة جاهزة. فقد تناوبوا في الجلوس في السيارة معي."

"وما الداعي لذلك؟" قال ميكسر بدون أي تعبير على وجهه.

قلت بصوت يشوبه الأسى: "لا أدري،" ولكن بعد وهلة، كي أنصف أمي وأبي، شعرت بأنني مضطر للمجازفة بتقديم سبب لتصرفهما. "من المحتمل أنهما ظنا أنني سأحلم بذلك."

يبدو أن هذا أعطى ميكسر سبباً للتأمل العميق. جلسنا دون أن نقول شيئاً لفترة طويلة. وكنت أنا نفسي أراجع المسألة في ذهني. "هذا لا يعني أن إبقائي في الخارج ساعد كثيراً، لأنني رغم هذا حلمت بذلك طول الليل. وقد جعلتهما غير قادرين على النوم حتى الصباح، بسبب الكوابيس عن الأكفان وسيارات الجنائز!"

كرر ميكسر قولي: "الأكفان وسيارات الجنائز؟ ما الشيء فيها الذي جعلك ترى الكوابيس؟ الجثث هي التي تسبب الذعر." نظر إلي باهتمام صادق

وقال: "أتساءل كيف ستتقبل الأمر لو رأيتَ جثة." ثم فرقع أصابعه، وقال: "وجدتها! ستقام سهرة لميت في كوخ في الطرف الآخر من البلدة."

صحت، بإلحاح هذه المرة: "إحذر أن تقع!" بسبب الطريقة التي أخذ يقفز بها في بنطاله بدافع شعوره بالاهتياج.

"أتعرف الكوخ الذي أعنيه؟ إنه عند تقاطع الطريق وسكة القطارات. أتعرف المرأة التي تقطن فيه، التي تفتح بوابتي السكة وتغلقهما؟ لقد مات زوجها."

"شخص ضخم أحمر الشعر، أليس كذلك؟"

صاح: "هو بذاته! اعتادت أن تجلسه خارج الكوخ في معظم الأيام على كرسي تحت الشمس. لقد كان نوعاً من الأشخاص الذين يحتاجون رعايةً خاصة منذ أن صدمه قطار." ربت ميكسر على قمة رأسه ببراعة. قال: "هنا في رأسه. لقد مات هذا الصباح. أليس من حسن الحظ أنني علمت بالأمر؟ لكن علينا أن نسرع إلى هناك، قال هذا وقفز قفزة واحدة من على عمود البوابة، فوق القرّاص وما إلى ذلك، دون أن يكترث بها كما لو كان كلباً. قال: "قبل الزحام. ستسرهم رؤيتنا بغض النظر من نحن إذا كنا أول الواصلين. فهم دائماً يسرون برؤية العلامات الأولى على وصول الناس بعد التنظيف والعمل الذي قاموا به. ويحبون رؤية الأطفال أكثر من أي شيء آخر – أعني في البداية. يقولون: 'انظروا من أتى،'" وقلّد صوتاً كاد يوقعني أنا عن العمود. وتابع يقول: "'بارك الله قلبيهما الصغيرين. ادخل يا بني.' يقولون ذلك ويدخلونك إلى المنزل، وهم يقولون بعضهم لبعض إنه لا يوجد دعاء مثل دعاء الأطفال. ويأتون بك فوراً إلى السرير، ويجعلونك تجثو على ركبتيك حيث يمكنك إلقاء نظرة جيدة على كل شيء. آه، لكن دعني أخبرك أنها قصة مختلفة تماماً، إذا أجلت ذلك إلى وقت متأخر من المساء. فلن تكون لك أي فرصة في تجاوز عتبة الباب. 'اخرجا من هنا، أيها الشقيين!' هذا كل ما ستسمع منهم. 'ليس هذا مكاناً للأطفال – اخرجا الآن!' وسيضربونك بمكنسة

الباحة إن لم تغب عن أنظارهم بسرعة شديدة. لذلك الأفضل لنا أن نذهب إلى هناك على الفور،" قال ذلك وسأل: "ما ذا تنتظر؟"

كنت متردداً لأكثر من سبب. قلت: "لقد طُلِب مني أن أبقى هنا."

قال ميكسر بسرعة المحامي: "لقد طُلِب منك ألا تتسلق أيضاً. لذلك ليس بإمكانك بأية حال أن تقول أنك تفعل ما طُلِب منك – وعلى فكرة، قيامك بكل ما يطلب منك هو الذي جعل منك ما أنت عليه، لا تعرف أي شيء عن أي شيء. مجرد التفكير أنهم لم يسمحوا لك برؤية عمتك وهي توضع في تابوتها! أنا أعرف أنهم لن يستطيعوا إبعادي أنا عن شيء من هذا النوع. والأكثر من ذلك، أنك أنت أيضاً لا يجب أن تقبل بذلك. ينبغي أن تقول لهم إنه لن يكون هناك كوابيس أو تصرف جامح بسبب الجثث، لو أنه أتيح لك الاعتياد عليها مثلي. هل ستأتي، أم لا؟"

كان الظهر جميلاً معتدلاً ونحن ننطلق نحو طرف البلدة إلى حيث تقاطع الطريق مع السكة الحديدية، وحيث المنزل بسقفه الأردوازي على أحد جوانبه. كان مألوفاً لدي جداً حين كنت أصغر قليلاً وكانت أمي تأخذني لنتمشى خارج البلدة نستنشق هواء الريف. وكثيراً ما كنا نضطر إلى انتظار أن تفتح البوابتان لنا، رغم أن القطار يكون قد مرّ مرعداً.

كانت أمي تسأل بنفاذ صبر: "ما سبب التأخير؟"

وتقول المرأة المسؤولة عن البوابتين: "عليّ أن أنتظر الإشارات يا سيدتي. يمكنك المرور عبر البوابة الصغيرة إن أردتِ، يا سيدتي، ولكن هذا ليس من مسؤوليتي على الإطلاق."

وتقول أمي بعجلة، ولا شك أنها تتكلم لإعطائي قدوة جيدة في الحذر: "لا لسنا مستعجلين."

لكن لا حاجة لذلك. لقد سمعت ميكسر يقول إنه وضع قطعة نصف بنس على السكة في أحد الأيام وحوله القطار إلى بنس. وقد تخيلت أن أُسَطّح

بحيث أصبح في حجم رجل. وعلى أية حال، كان لدي فضول شديد بشأن الرجل الضخم الأبيض الوجه الذي كان دائماً جالساً في الحديقة البالغة الصغر على كرسي – كرسي يُخْرَج من المنزل، وليس كرسياً تود أن تتركه في الخارج، مثلما لدينا في حديقة بيتنا.

سألت مرة: "هل يدخلونه ليلاً؟"

قالت أمي بصوت ينم عن صدمة: "هي بالطبع تفعل ذلك،" لكن لا بد أن أمي ظنت أنني عنيت الرجل. وكانت تقول لي: "أرجوك لا تحدق. ما السبب في أنني مضطرة لأكرر طلب ذلك منك؟"

فقط حين تُفتح البوابتان، ونبدأ في العبور فوق السكة، تُظهر أنها تراه بنفسها. وكان الحال نفسه دائماً، فقد كانت تسأل المرأة: "كيف حاله اليوم؟" وكان جواب المرأة أيضاً نفسه دائماً، فقد كانت تقول: "سيئة." أحياناً ولكن نادراً، كانت تضيف: "إنه صليب كبير بالنسبة لي، لكنني أفترض أن الله يعرف ما يفعل."

وتجيب أمي على ذلك: "علينا أن نأمل ذلك"، وتزيد سرعتها في السير فوق السكة إلى أن نصل إلى الطرف الآخر. وحين نصبح خارج مرمى السمع، تقول لي بنزق: "كيف يصدف أن هاتين البوابتين مغلقتان دائماً حين نريد العبور في أي وقت من النهار؟"

والآن هنا اليوم، لأول مرة في حياتي، البوابتان مفتوحتان فتحة كاملة.

قلت، وأنا أتردد في العبور بعصبية: "هل تعتقد أنهم قد يكونوا نسوها مفتوحة بسبب سهرة الميت؟"

وقف ميكسر في وسط السكة الحديدية والتفت بنظره إلي وقال: "يعلم الله أنه حان الوقت لأن يأخذ أحد بيدك. أنت لست سوى رضيع كبير. ما الأذى الذي سيحصل لو أنهم نسوا؟ أليست لك عينان؟ أليست لك أذنان؟ وإن

احتاج الأمر، أليست لك رجلان؟ تخلص من هذا التفكير!" لكنه هو نفسه أبطأ، ونظر في اتجاهَيّ السكة.

* * *

قال حين وصلنا إلى الكوخ: "نحن أول الناس هنا." تفحص منظر المنزل بعيني خبير، وقال: "هم لم ينتهوا بعد."

بالنسبة لي بدا المنزل وكأنه غُسِل من قمته إلى القاع، بالطريقة التي كنت أُغسَل فيها أنا نفسي كل ليلة أحد، وكانت الحديقة الصغيرة خارجه كذلك: مرتبة ومشذبة، كما بُيِّضت الأحجار الكبيرة التي كنت ألاحظها حول أحوض الزهور والتي تفصل الطين عن العشب؛ بُيِّض كل منها. كان المنظر متعة – الأحجار بيضاء مشرقة، والطين أسود مشرق، ولا عشبة ضارة واحدة من بين جميع تلك الأعشاب التي كان يمكن رؤيتها في كل مكان. لكن الكرسي لم يكن في الخارج.

قال ميكسر، وهو يخطو فجأة نحو النافذة الموجودة على أحد جانبي الباب، وأنا في أعقابه: "لقد بكّرنا جداً." ولكوني وراءه لم أتمكن من رؤية كل ما يراه، لكنني رأيت ما يكفي لأن أفغر فمي. فبين اللحف البيضاء وأغطية الطاولات البيضاء وأغطية المدافئ البيضاء ومناديل الموائد البيضاء، كان المكان قد رُتِّب وكأنه مصلّى في عيد البشارة. وفي وسطه، مثل المذبح العالي، كان هناك سرير كبير، عليه لحاف أبيض وصقيل كالرخام، و . . .

لكن ميكسر لم يتح لي أن أرى أكثر من ذلك. سحبني وأبعدني، قائلاً: "لا أعتقد أنهم جاهزون بعد." بدا وكأنه أخذ يفقد شجاعته بينما كنت أنا أستجمع شجاعتي. وضع يديه في جيبيه وسار متئداً نحو الباب، وصاح: "هاك إذن، ما قلته لك!" في الوقت الذي نجونا فيه بأعجوبة من البلل حتى جلدنا بسبب حوض كبير من الماء الوسخ الذي ألقي خارج المنزل في تلك الدقيقة.

سأل فجأة: "هل مشيت فوق السكة الحديدية قط؟" وعرفت أنه تخلى نهائياً عن الذهاب إلى حجرة الميت.

قلت: "ليس من المسموح لي أن أمشي فوق السكة." وعلى كل حال، كنت حريصاً على رؤية السرير بشكل أفضل ورؤية ما يوجد عليه. قلت: "دعني على الأقل ألقي نظرة عبر النافذة،" وقفزت فوق الزهور وألصقت وجهي بالزجاج.

ما الذي توقعت أن أراه؟ لا أدري. ليس الرجل الضخم الرمادي اللون المسجى على السرير، متصلباً كالحجر، كله باستثناء شعره الأحمر، الذي بدا حقيقياً، كالشعر على دمية. وصحت، وفضولي وشعوري بالإثارة يتزايدان أكثر فأكثر: "قل لي يا ميكسر، أيمكنك أن ترفعني قليلاً إلى حافة النافذة؟"

قال ميكسر: "هل أنت أحمق؟ إذا خرجوا ووجدوك على حافة النافذة فسيخرجونك من هنا بضربك بأحد هذه الأحجار."

صاح صوت في تلك اللحظة: "كلمة صادقة إن كان هناك كلام صادق!" وجاءت امرأة نحيفة ترتدي السواد من طرف الجزء المثلث من الجدار، وكماها مشمّران، وأستطيع أن أؤكد لكم أنه لم ترتسم على وجهها أية ابتسامة. صاحت: "اخرجا من هنا! ليس هذا مكاناً لكما!" وهذا بالضبط الشيء نفسه الذي قال ميكسر إنهم لن يقولوه لنا.

لكن قبل أن يتاح لنا الوقت للخروج من حوض الزهور، أتت امرأة أخرى تجري من الباب الأمامي – المرأة نفسها التي كانت مسؤولة عن بوابتي العبور. قالت بصوت خال من الحدة: "لا يجوز إبعاد أي شخص عن منزل فيه ميت."

قالت الأخرى: "اهدئي الآن، إنهما مجرد صبيين."

قالت امرأتنا: "كان هو مجرد صبي أيضاً في النهاية الأخيرة. مجرد طفل – هذا ما قاله القسيس لي مرات كثيرة. مع أنني لم تتح لي فرصة كبيرة

لمعرفة كيف يكون الطفل الحقيقي، بالتأكيد لم يكن قد مضى على زواجنا وقت طويل حين صدمه القطار. ولم يخطر ببالي يوم زفافنا أن سيكون الطفل الوحيد الذي سأرزق به على الإطلاق!"

قالت الأخرى: "خففي عنك! خففي عنك! أليس من الأفضل أن الله أخذه قبلك، على كل حال؟"

قالت المرأة: "كنت أدعو الله أن يفعل ذلك. لكن ألم يكن ذلك شيء غير طبيعي أن تدعو المرأة الله لتحقيقه، على كل حال؟ ألا تدعو جميع النساء أن يحصل العكس – أن يتوفين قبلهم كيلا يصبحن أرامل يعانين الوحدة؟ آه، ألم يكن أمراً صعباً أن تدعو المرأة الله في إحدى السنين أن يرزقها برجل، ثم في السنة الثانية تدعوه أن يأخذه؟ آه، ما أقل ما تعرفين عن ذلك؟"

بدأ يظهر عليها تعبير جامح، وبدأت المرأة الأخرى تجرها لتعيدها إلى داخل المنزل. "اصمتي الآن، سيكون شعورك مختلفاً مع مرور الزمن."

قالت المرأة: "حقاً؟" وهي تنظر متسائلة إلى الأخرى. "من المحتمل أن شعوري سيختلف حين أنظر إلى الساعة أحياناً ويتوجب عليَ أن أخلع مئزري وأخرج مسرعة لأغلق البوابتين. من المحتمل أن شعوري سيختلف حين تقف إحدى النساء لتتبادل كلمة معي، أو حين آخذ الإبريق وأمضي في الطريق للحصول على كوب من الحليب. لكن في منتصف الليل، أو في بداية الصباح حين يبدأ الغربان بالصراخ في المدخنة وتوقظني من نومي، هل سيختلف شعوري حينئذ؟" ثم صاحت، وهي فجأة تسحب ذراعها لتحررها من قبضة الأخرى: "ولنفترض أنني نسيت، فلن يكون لدي شيء عندئذ! سيكون الأمر وكأنه لم يكن لي على الإطلاق." رفعت يدها إلى رأسها وبدأت تسرّح شعرها إلى الوراء بعيداً عن جبينها.

انتقلت المرأة التي أرادت أن تتخلص منا إلى خلفها وأشارت لنا أن نمضي، لكن كان الأوان قد فات. فزوجة الرجل الميت اندفعت إلى الأمام

وأمسكتنا من يدينا، ثم صاحت: "يجب علينا أن نستغل إلى أقصى حد كل دقيقة يكون فيها معنا! تعالا إلى الداخل لرؤيته." ودفعتنا إلى داخل الممر عند الباب.

"اركعا وادعيا له،" أمرتنا بذلك وهي تدفعنا للجثو على ركبنا، لكن صوتها كان لطيفاً على نحو رائع بعد أن كان جامحاً. قالت بصوت خافت: "لقد مضى وقت طويل منذ أن كان قادراً غلى الدعاء لنفسه. كنت أتمنى له أن يتمكن من النطق بدعاء قصير، ودائماً أحاول تذكيره بالأدعية، لكنه لم يستطع أن يتذكر كلمة واحدة منها. حين كان يجلس في الخارج تحت الشمس على الكرسي، كنت أريه الزهور وأذكره أن من صنعها هو الله. وهل تعرفون جميعاً ما كان يقول؟" أطلقت ضحكة قصيرة قبل أن تخبرنا. "كان يقول: 'من هو ذلك الشخص؟' وكان ينظر إلى الخلف ليرى إذا كان الله خلفه! لكن القسيس قال لي إن الله لن يأخذ ذلك ضده، وقال إنه سيسمح له ببعض التجاوزات."

لم أكن أصغي إصغاء كاملاً. عندما جعلتنا نجثو رفعت يداي إلى وجهي وبدأت أدعو أدعيتي، لكن بعد دقيقة أو دقيقتين فتحت أصابعي وألقيت نظري على الرجل الراقد فوق السرير. لِمَ تقول إنه كالطفل؟ هو رجل إن كنت أعرف ما الرجل! في تلك اللحظة تماماً اندفعت المرأة منحنية عليّ. رأتني أنظر إليه. ظننت أنها ستغضب مني، لكن ما حدث هو العكس.

قالت: "لو أمكنني فقط أن أراك هنا إلى جانبه،" وانحنت من فوقي وبدأت تربت على يديه. قالت: "ها هنا صبيان صغيران لطيفان جاءا لرؤيتك!" ثم أشرقت عيناها إشراقاً شديداً وأصبحتا جامحتين جداً مرة أخرى. "لم يحظ بأي شخص يأتي لزيارته منذ عشرين سنة. لم يحظ بأي مخلوق بشري باستثناء شخص واحد يقوم بأي شيء ولو مجرد مدّ يده ليلمسه – أليس هذا شيء يستدعي الوحدة ويدعو للتفكير؟ هو الذي كان شديد الود قبل حادثته إلى حد أنه كان يعرف كل شخص على الخط بأكمله، حتى بمن فيهم سائقو القاطرات والوقادون. أما بالنسبة للركاب؟ هل أخبركما بشيء. انظرا إلى الحديقة. كل

غصين فيها نبت من شتلة أو غرسة ألقاها إليه في غلاف ورقي أحد الأشخاص الذين يعرفونه وهو يسرع ذهاباً وإياباً عبر البوابتين! آه، لم يوجد رجل مثله من حيث كسب الأصدقاء! ومجرد التفكير أن عشرين سنة مرت منذ صافحه أي شخص. آه، أليس هذا عالم غريب؟"

خطر لي أنه عالم غريب بكل تأكيد. وتساءلت ما إذا كانت مصافحتنا له الآن ستحقق أية فائدة، ومن المحتمل أنها رأت الفكرة في عينيّ.

قالت: "هل سأثقل عليكما كثيراً إن طلبت أن تربتا على يديه؟" وبعد ذلك، كأنها توصلت في ذهنها إلى استنتاج أن ذلك لن يثقل علينا على الإطلاق، فقد اهتاجت إلى حد كبير. قالت: "قفا مثل صبيين عاقلين واربتا على يديه. كلا، انتظرا دقيقة!" وخطرت لها فكرة أخرى، ودفعت بيدها داخل جيبها، وصاحت: "هل يروق لك أن تمشط شعره؟"

كنت أقرب إلى رأس السرير من ميكسر، لكن ميكسر كان أقرب إليها مني، ولم أعرف من منا المخاطب بكلامها. أردت قبل كل شيء آخر أن أكون مهذباً، لذلك وقفت منتظراً في حال أنني أنا المعني بكلامها. كانت تزيل بعض الشعرات الحمراء الطويلة من المشط. ووقف ميكسر أيضاً، ولكنه فعل ذلك فقط كي يدفعني ليزيحني من طريقه.

صاح: "دعوني أخرج من هنا!" ووضعني أنا والمرأة كلاً على أحد جانبيه، واندفع نحو الباب. في اللحظة التالية كان يطير عابراً السكة.

* * *

وتبعته أنا. قلت لكم إنني أردت أن أكون مهذباً تجاه هؤلاء الأشخاص بمن فيهم الميت، ولكن قي واقع الأمر، ميكسر هو الذي جاء بي، وليس من التهذيب تجاهه أن أبقى من بعده. لكنه لم يبد أي تقدير.

كان لدي كلام كثير أود أن أقوله. قلت مبتهجاً "إذن! لدي واحد الآن في قائمتي، على كل حال."

قال بلهجة لا تخلو من التذمر والحسد، حسبما خيل لي: "أعتقد ذلك،" ثم أفسد لي الأمر كله. "الحق يقال، يجب ألا يُحْسَب هذا الميت. فهو لم يكن شخصاً كاملاً حين كان حياً." ربت على قمة رأسه مرة أخرى، وأضاف: "في هذا المكان!"

فكرت بالأمر لمدة دقيقة، ثم قلت: "لقد بدا شخصاً كاملاً تماماً هناك على السرير!"

لكن لم يرق لميكسر على ما يبدو الحديث عنه على الإطلاق. قال: "هيا نعود إلى الطريق الرئيسي. السيارات في طريقها الآن. ألا تسمعني؟ أراهن أن بعض هؤلاء الفتيان تجرعوا بضع كؤوس، بالرغم من الزوجات. هيا بنا!"

قلت: "اذهب وراقبهم بنفسك. أنا ذاهب إلى البيت."

الحقيقة هي أنني كنت مهتاجاً إلى حد لا يتيح لي أن أجلس على أي سور لفترة طويلة. أردت العودة إلى البيت لأعرف من أمي بضعة أشياء، إذا تمكنت من تحويل الحديث إلى موضوع الجثث دون أن أكشف لها من أين حصلت على المعلومات الموجودة لدي.

وأنا أركض مبتعداً عن ميكسر عبر الحقل في طريقي إلى البيت، شعرت أنني رجل جديد، وكنت متأكداً أنهم جميعاً سيلاحظون أن تغييراً طرأ علي حين أدخل المنزل. في المرة التالية التي تكون فيها جنازة لن تستدعي الحاجة أن يتركوني جالساً في السيارة.

"امسح قدميك يا بني!" صاحت أمي عبر باب المطبخ المفتوح في اللحظة التي وقعت فيها عيناها عليّ. قالت: "وهذا لا يعني أنك ستكون الوحيد الذي يترك آثاراً في كل مكان في المنزل،" وفهمتُ ما تعنيه، لأن دراجة أخي القديمة كانت في وسط أرض المطبخ، مقلوبة إلى الأعلى، وعجلتاها في الهواء، وهو مشغول بتصليح ثقب في العجلة. أم هل كانت تعني أبي؟ لأنه كان جالساً إلى الجانب الآخر من الموقد، وقدماه في حوض من الماء.

لا بد أنها كانت تعني أبي، لأنها انقضت عليه في تلك اللحظة تماماً، وقالت: "ليس هذا مكاناً مناسباً لغسل قدميك. توجد مدفأة في الصالون، فلم لا تذهب هناك وتغسلهما؟ لم يعد لي مجال لأن أتحرك بوجودكم جميعاً هنا."

قال أبي بهدوء، وهو يشير إلى الدراجة في وسط أرض المطبخ: "الصالون ليس مكاناً مناسباً لغسل القدمين. حين ينتهي ذلك الفتى من دراجته، ستسرين من وجود بعض الماء على الأرض لتنظيف الفوضى التي سيتركها وراءه. لِمَ لا تجعليه يخرج بها إلى الباحة؟"

تنهدت أمي. كانت دائماً تتنهد، ولكن تنهيداتها لم تكن من النوع الذي يعيره المرء اهتماماً. فهي لم تكن نتيجة شيء فعلناه بها، بل تنهيدات صبر، إن كنتَ تعرف ما أعني، وليست تنهيدات شكوى.

قالت: "هناك بعض البرودة في الطقس في الخارج. أما أنت يا بني،" قالت وهي تلتفت إلي: "لتكن قدوة جيدة وتذهب إلى الصالون للقيام بواجبك المدرسي هناك قرب المدفأة الموقدة."

لكنني لم أكن مستعداً للذهاب إلى الصالون الفارغ.

"الله **أعلم**. لا أدري السبب في أنني أضيع وقتي بإيقاد تلك المدفأة كل يوم ولا أحد منكم يطأ المكان بقدمه قبل أن يقترب الليل. وليتني أتمكن من الدخول إلى هناك والجلوس إلى جانبها. وعندها سأترك لكم المطبخ ومرحباً بكم."

لكن أعتقد أنها تعرف أنها لو ذهبت هناك في تلك الدقيقة، فلن تمر دقائق كثيرة قبل أن ننضم إليها جميعاً: أنا وحقيبتي المدرسية، وأبي وقدماه في الحوض، والدراجة القديمة أيضاً، إذا استطعنا أن نحشر أنفسنا جميعاً بين البيانو والشيفونيه، وجميع قطع الأثاث الأخرى الكبيرة والعديمة الفائدة الموضوعة هناك كي لا تعيق حركتنا.

قال أبي: "نعم بالتأكيد، ألسنا على ما يرام هنا، حيث نستطيع جميعاً النظر إليك؟"

قالت أمي بصوت من نوع أعرفه جيداً: "لا بد أن ما يتوفر لكم لتشاهدونه محدود جداً إذا كنتم تريدون النظر إليّ." بدا كلامها غاضباً لكن ما كان يمكن أن يكون كذلك، لأنها كانت تمط نفسها إلى الأعلى حين تتكلم على هذا النحو، وذلك كي ترى ما تظهره المرآة الصغيرة على الرف فوق الموقد، وكانت دائماً تبتسم لما تشاهده في المرآة. ويحق لها أن تبتسم. فقد كانت امرأة جميلة، أمي، ولم يكن جمالها أروع مما هو حين نكون جميعنا حولها في المطبخ، نضايقها ونجعل وجنتيها تحمرّان بفعل الهرج والمرج الناجمين عن ضبطها لتصرفاتنا.

صاحت في تلك اللحظة مخاطبة أخي: "احذر أن يعلق شعرك في قضبان تلك العجلة."

قال أبي: "احذري أن يعلق شعرك أنت بينها، يا فتاتي!" لأنه حين يبدأ الماء يغلي في غلاية الشاي ويمتلئ المطبخ الصغير بالبخار، كان شعرها ينفك ويتواثب حول وجهها وكأنها فتاة صغيرة. وأمسك بها كما لو كان يريد إبعادها عن الدراجة.

صاحت: "دعني وشأني! ألن تعقل أبداً؟"

قال أبي: "آمل ألا يحدث ذلك. والأكثر من ذلك أنني لا أريد أن أعقل أكثر مما ينبغي."

صاحت: "آه، خلصني منك ومن كلامك القديم، أمام الصبيين وكل شيء!" وحاولت أن تخلص نفسها منه.

قال أبي، وهو يحكم قبضته: "هي ليست قوية بقدر ما يوحي لنا به لسانها، يا أولاد. ثم ضحك. قال: "لن تكوني أبداً رجلاً مثلي!" وهذه المرة أمي هي التي قهقهت.

في تلك اللحظة بالذات، وفي وسط الدغدغة والضحك، تغير وجه أبي، ولم يعد وجه من يمسك بها للتسلية والمتعة، بل الطريقة التي يمسكنا بها حين يكون لديه شيء ضدنا.

صاح: "أنت في حال جيدة في هذه الأيام، أليس كذلك؟ ستخبريني إذا شعرت بمكروه، أليس كذلك؟" ثم تركها ووضع يديه على رأسه، وقال: "يا إلهي، ما ذا سأفعل لو حدث لك أي شيء!"

قالت أمي مرة أخرى: "يا لهذا الحديث،" لكن صوتها بدا مختلفاً أيضاً. ورغم أنها تحررت منه، فإنها لم تطلب أن تبتعد وبقيت واقفة إلى جانبه، وعلى وجهها نظرة حزينة جعلتني أريد البكاء.

وأدركت أنني لا يمكن أن أضايقها بأسئلة عن الرجل المسكين عند تقاطع السكة الحديدية. لكنني فكرت فيه. وفكرت بكلمات الدعاء الذي نتلوه كل ليلة: ". . . الأحياء والموتى . . . ." كنا نقولها مرة بعد مرة، ليلة بعد ليلة، ولكنني لم أعرها اهتماماً قط. والآن شعرت فجأة أنها كلمات رهيبة،، رهيبة، ولو كان علينا في تلك اللحظة أن نجثو ونقول تلك الكلمات، فإنني لن أتحمل ذلك؛ ستبدأ الكوابيس تداهمني في مكاني على الفور، في وسطها جميعاً، والمصابيح مازالت مضاءة، ولا يوجد أي ظلام.

بدأت الغلاية تفور على الموقد، وهرعت أمي ورفعتها بعيداً عن اللهب. صاحت: "ما رأيكم أن نتناول الشاي في الصالون؟ جميعاً. المطبخ ليس أفضل من الباحة الخلفية بسببكم!"

وفي الإثارة التي تبعت ذلك نسيت كل شيء عن الأحياء والموتى. لفترة طويلة.

مارغريت لورنس

طيور الغطّاس[1]

مارغريت لورنس (١٩٢٦–١٩٨٧) كاتبة قصص وروايات ومقالات كندية، عملت بعد تخرجها من الجامعة مراسلةً صحفية تخصصت في مراجعة الكتب، كما كان لها حديث إذاعي يومي، وبدأت في كتابة القصص القصيرة أثناء وجودها مع زوجها في أفريقيا (١٩٥٠–١٩٥٧). وعند عودتها إلى كندا كتبت الرواية التي اشتهرت بها، وهي **الملاك الحجري** *The Stone Angel*. وقد حرصت في جميع أعمالها الأدبية على عرض منظور نسائي للحياة المعاصرة، وتصوير الخيارات المفتوحة أمام المرأة كي تجد لحياتها معنى وهدفاً. وهي من أكثر الكتاب في كندا تمتعاً بالتقدير والمحبة.

تحت ماناواكا Manawaka تماماً – حيث يجري نهر واتشاكاوا Wachakawa، لونه بني وصوته عال فوق الحصى – كانت أشجار البلوط القصيرة والصفصاف الرمادية الخضراء وشجيرات الكرز الأسود تنمو

---

(١) هذه ترجمة قصة "The Loons" للكاتبة Margaret Laurence. والقصة أذيعت لأول مرة عبر هيئة الإذاعة الكندية عام ١٩٦٣، ثم نشرت في مجلة **ذ أتلانتيك أدفوكيت** *The Atlantic Advocate* عام ١٩٦٦، وهي جزء من سلسلة من القصص تحمل عنوان **طائر في المنزل** *A Bird in the House* نشرت كمجموعة عام ١٩٧٠.

مشكلة أجمة كثيفة. في فسحة في منتصف الأجمة قام كوخ عائلة تونير Tonnerre. كان أساس هذا المسكن كوخاً صغيراً مربعاً مصنوعاً من أعمدة الحور التي ملئت الفراغات بينها بالطين، وقد بناه جول Jules تونير قبل حوالي خمسين عاماً، حين عاد من باتوش Batoche وفي فخذه رصاصة في السنة التي شُنِق فيها ريل ودخلت أصوات الميتي في صمتها الطويل.[١] كانت نية جول أن يبقى في سهل واتشاكوا لفصل الشتاء فقط، لكن العائلة كانت لا تزال موجودة في الكوخ في العقد الرابع حين كنت طفلة. ومع زيادة أفراد عائلة تونير، فقد كانت تبنى إضافات لمستوطنتهم إلى أن أصبحت الفسحة الموجودة في الطرف السفلي من البلدة خليطاً فوضوياً من الأكواخ المنحدرة الأسطح، وصناديق الخشب، والأخشاب الملوية، وعجلات السيارات المهملة، وأقنان الدجاج المتداعية، والجدائل المتشابكة من الأسلاك الشائكة، والعلب المعدنية الصدئة.

كانت عائلة تونير هجينة نصف فرنسية، يتكلم أفرادها فيما بينهم لهجة محلية ليست كري[٢] ولا فرنسية. أما لغتهم الإنجليزية فقد كانت مكسّرة ومليئة بالبذاءات. وهم لا ينتمون إلى قبائل الكري في محمية جبل غالوبنغ Galloping الواقعة إلى الشمال، وكذلك لا ينتمون إلى الإيرلنديين-الاسكتلنديين والأوكرانيين في ماناواكا. فهم ليسوا – كما كانت جدتي مكليود McLeod ستصفهم – من الجنس البشري ولا الطيور ولا سمك الرنكة المملح. وحين لم يكن رجالهم يقومون بأعمال متنوعة أو يعملون كعمال مقطع

---

(١) قاد لوي ريل Louis Riel (١٨٤٤-١٨٨٥) تمردين للهنود والميتي Métis (وهم الأشخاص ذوي الدم الهندي الأحمر والفرنسي المختلط). وقد سُحِق التمرد الثاني في معركة باتوش في مقاطعة مانيتوبا Manitoba الكندية، وأنزل حكم الإعدام بريل.

(٢) الكري Cree هم مجموعة من أكبر مجموعات السكان الأصليين في أمريكا الشمالية، ولغتهم تدعى بالاسم نفسه.

من مقاطع السكة الحديدة الباسيفيكية الكندية، كانوا يعيشون من إعانة الدولة. في فصول الصيف، كان أحد فتيان عائلة تونير، بوجه بدا أنه لا عهد له بالضحك بتاتاً، يدق أبواب منازل البلدة الآجرية ويعرض للبيع سطلاً مليئاً بالفريز البري المرضوض، وإذا حصّل ولو ربع دولار، فقد كان يختطف القطعة النقدية ويجري مبتعداً قبل أن تغير الزبونة رأيها. وأحياناً كان جول الهرم، أو ابنه لازاروس Lazarus، يتورط في شجار ليلة السبت، ويضرب أقرب شخص إليه، أو يعوي وهو سكران بين المتبضعين في الشارع الرئيسي الذين تُجرح مشاعرهم، ثم يمضي به أحد رجال الشرطة الملكية الكندية إلى الزنزانة ذات القضبان تحت دار المحكمة حيث يمضي ليلته ثم يخلد إلى الهدوء من جديد في اليوم التالي.

كانت بيكيت Piquette تونير، ابنة لازاروس، في صفي في المدرسة. كانت أكبر مني، لكنها رسبت في عدة سنوات، وربما يعود ذلك إلى أن دوامها كان متقطعاً واهتمامها بالواجبات المدرسة لا يكاد يذكر. وجزء من السبب في أنها غابت كثيراً عن المدرسة هو أنها أصيبت بسل العظام، وذات مرة أمضت عدة شهور في المستشفى. وأنا أعرف هذا عنها لأن أبي هو الطبيب الذي تابعها. ولكن مرضها كان هو الشيء الوحيد تقريباً الذي أعرفه عنها. فيما عدا ذلك لم تكن موجودة بالنسبة لي إلا كحضور محرج على نحو مبهم، بصوتها الأجش ومشيتها العرجاء الخرقاء وفساتينها القطنية الوسخة التي كانت دائماً أطول مما ينبغي بعدة أميال. لم أكون ودودة ولا عدائية تجاهها. لقد كانت تعيش وتتحرك في مكان ما ضمن نطاق بصري، لكنني فعلياً لم أنتبه إليها كثيراً حتى ذلك الصيف الغريب الذي كنتُ فيه في الحادية عشرة.

قال أبي أثناء العشاء في إحدى الأمسيات: "لا أدري ما افعله بشأن تلك الطفلة. أعني بيكيت تونير. فالعظمة اللعينة اندلعت ملتهبة مرة أخرى. لقد

أدخلتها المستشفى ومكثت فيها فترة طويلة حتى الآن، والوضع تحت السيطرة، هذا صحيح، ولكنني أكره كرهاً شديداً أن أرسلها إلى بيتها مرة أخرى."

قالت أمي: "ألم تستطع أن تشرح لأمها أنها يجب أن ترتاح كثيراً؟"

أجاب أبي: "الأم غير موجودة. لقد غادرتهم قبل بضع سنوات. ولا يمكنني أن أقول إنني ألومها. وبيكيت تطبخ للأسرة وتقول إن لازاروس لن يقوم بشيء بنفسه طالما هي موجودة في المنزل. وعلى كل حال، لا أعتقد أنها ستعتني بنفسها كثيراً بعد أن تعود. ولكنها لم تتجاوز الثالثة عشرة بعد. لقد كنت أفكر يا بِث Beth – ما رأيك أن نأخذها معنا إلى بحيرة دياموند Diamond Lake هذا الصيف؟ فاستراحة شهرين ستتيح لتلك العظمة فرصة أفضل جداً."

بدا على أمي الذهول.

لكن يا إوين Ewen – كيف سيكون الأمر بالنسبة لرودي Roddie وفانيسا Vanessa؟"

قال والدي: "إن مرضها غير معدٍ، وسيوفر وجودها صحبة لفانيسا."

قالت أمي بحزن: "اللهم الطف. أراهن بأي شيء أن القمل يملأ شعرها."

قال أبي بغضب: "بحق السماء، هل تعتقدين أن رئيسة الممرضات كانت ستتركها تبقى في المستشفى بتلك الصورة طيلة هذا الوقت؟ لا تكوني ساذجة يا بِث."

والآن شبكت الجدة مكليود يديها ذات العروق البنفسجية معاً وكأنها على وشك أن تصلي، ووجهها بقسماته الدقيقة متصلباً وكأنه حجر كريم.

وأعلنت: "إذا كانت تلك الفتاة المولَّدة ستأتي معكم إلى بحيرة دياموند، فلن أذهب. بل سأذهب إلى دار موراغ Morag لتمضية الصيف."

لم يكن من السهل عليّ مغالبة الحافز الذي يدفعني إلى الضحك، لأن أمي أشرقت بشكل واضح وحاولت بسرعة أن تخبئ إشراقها هذا. فإذا كان

الأمر سيصل إلى الخيار بين الجدة مكليود وبيكيت، فإن بيكيت ستربح بدون جهد، رغم القمل وكل شيء.

قالت وهي تفكّر: "قد يناسبك هذا تماماً في الحقيقة. فقد مضت سنة منذ أن رأيتِ موراغ، وقد تستمتعين بوجودك في المدينة لفترة من الزمن. حسن يا عزيزي إوين، افعل ما يبدو لك الأفضل. إذا كنت تعتقد أن بيكيت ستنال بعض الفائدة، فسيسرنا اصطحابها، على شرط أن تحسن التصرف."

وهكذا فإننا بعد بضعة أسابيع، حين كومنا حقائبنا وصناديقنا ومؤننا والألعاب الخاصة بأخي البالغ عشرة أشهر من العمر في سيارة أبي الناش(١) القديمة، كانت بيكيت معنا بينما غابت الجدة مكليود، وكانت تلك معجزة. كان أبي سيمكث في البيت الريفي أسبوعين فقط، إذ كان عليه العودة إلى عيادته، لكننا نحن الباقين سنمكث حتى نهاية شهر آب.

لم يحمل بيتنا الريفي اسماً كالكثير من البيوت – "نزل قطرة الندى" أو "امكث برهة" أو "بوني دون Bonnie Doon." واللافتة على الطريق اقتصرت على اسم العائلة، مكليود، بحروف بسيطة عارية عن الزينة. ولم يكن بيتاً كبيراً، لكنه كان مواجهاً للبحيرة. كان من الممكن لك أن تنظر من النوافذ وترى عبر المسافات الصغيرة بين أشجار البيسية الماء يلتمع بلون أخضر حيث تقع عليه الشمس. وكان البيت محاطاً بأشجار السرخس وشجيرات توت العليق ذات الأغصان الحادة والطحالب التي تنمو على جذوع الأشجار الساقطة. وإذا دققت النظر بين الحشائش والعشب، ستجد نباتات فريز برية ذات زهور بيضاء الآن لكنها خلال شهر ستحمل الثمر، وكراتها العطرة مدلاة مثل مصابيح قرمزية مصغرة على السوق النحيلة المغطاة بالشعر. كان السنجابان الرماديان لا يزالان في مكانهما، يتبادلان الإشاعات حولنا وهما فوق أعلى شجرة سرخس بجانب البيت.، ومع نهاية الصيف سيكونان مرة

(١) ناش Nash هي ماركة سيارات قديمة، وكانت صغيرة الحجم عادة.

أخرى أليفين إلى درجة أنهما سيأخذان قطعاً من الخبز من بين يديَ. كان قرنا حيوان الموظ العريضان على الباب الخلفي قد ازدادا بياضاً وتشققاً زيادة ضئيلة بعد الشتاء، ولكن فيما عدا ذلك، كان كل شيء على ما هو عليه. أخذت أركض مسرورة في أرجاء مملكتي، أحيي جميع الأماكن التي لم أرها منذ سنة. وكان أخي رودريك Roderick، الذي لم يكن قد ولد حين كنا هنا في الصيف الماضي، يجلس على بساط السيارة تحت أشعة الشمس ويتفحص جوزة سرخس بنية، يقلبها بعناية فائقة مرة تلو المرة بيديه الصغيرتين الفضوليتين. كانت أمي وأبي ينقلان المتاع من السيارة إلى البيت، ويعبران عن دهشتهما من حالة البيت الجيدة بعد الشتاء، فلا نوافذ مكسورة، والشكر لله، ولا أذى ظاهر بسبب الأغصان المكسرة أو الثلج.

لم ألاحظ بيكيت إلا بعد أن انتهيت من تفحص المكان. كانت جالساً على الأرجوحة، وساقها العرجاء ممدودة بتصلب إلى الأمام، وقدمها الثانية تلامس الأرض وهي تتأرجح ببطء جيئة وذهاباً. كان شعرها الطويل مدلى أسود وسبطاً فوق كتفيها، ولا يوجد أي تعبير على وجهها العريض ذي الملامح الفجة – كان كالورقة البيضاء، كما لو أنها لم تعد تسكن في جمجمتها، كما لو أنها في عالم آخر. تقدمت منها بتردد بالغ.

"أتريدين أن تأتي وتلعبي؟"

نظرت إلي بيكيت بوميض مفاجئ من الازدراء.

"لست طفلة."

جُرِحْتُ، وضربت الأرض بقدمي وأنا أبتعد غاضبة، وأقسمت أنني لن أكلمها مرة أخرى طوال الصيف. لكن في الأيام التي تلت، بدأت بيكيت بإثارة اهتمامي وبدأت أرغب في أن أثير اهتمامها. ولم يبدُ سببي وراء ذلك عجيباً لي. فرغم أن هذا قد يبدو بعيد الاحتمال، إلا أنني عندئذ فقط أدركت أن عائلة تونير – التي كنت دائماً أسمع أن أفرادها مولَّدون – هي في الواقع هندية، أو

قريبة جداً من ذلك إلى درجة لا تحدث أي فرق. ولم تكن معرفتي بالهنود واسعة. ولم أتذكر أنني رأيتُ أي هندي حقيقي قط، وإدراكي الجديد أن بيكيت سليلة أتباع **الدب الكبير** وباوندميكر وتكومسِه، والإيوكوا الذين أكلوا قلب الأب بريبوف[(١)] – كل هذا جعلها على الفور تتمتع بجاذبية في عينيَ. كنت في تلك السن قارئة مخلصة لمؤلفات بولين جونسون،[(٢)] وأحياناً كنت أتلو بصوت عال وقوي: "أيتها الريح الغربية، هبي من عشك في النجود؛ / هبي من الجبال، هبي من الغرب" وما إلى ذلك. بدا لي أنه لا بد أن تكون بيكيت على نحو ما ابنة الغابة، نوع من النبيّة الصغيرة قادمة من القفار، ويمكنها أن تطلعني – إن استخدمتُ المدخل الصحيح – على بعض الأسرار التي لا بد أنها تعرفها – أين تبني طائرة السبّد عشها، كيف تربي ذئبة القيوط صغارها، أو أياً كان الشيء المذكور في "هاياواثا."[(٣)]

بدأت أعمل على كسب ثقة بيكيت. لم يكن من المسموح لها أن تسبح بسبب ساقها، لكنني نجحت في إغوائها بأن تنزل إلى الشاطئ – أو بالأحرى أتت لعدم وجود شيء آخر تفعله. كان الماء ببرودة الجليد دائماً، إذ إن بعض الينابيع هي التي تغذي البحيرة، لكنني كنت أسبح كما تسبح الكلاب، أضرب بذراعي وساقي بسرعة كبيرة وبمقدار كبير من الطاقة إلى حد أنني لم أكن

---

(١) الدب الكبير وباوندميكر وتكومسه Big Bear, Poundmaker, & Tecumseh ثلاثة من قادة الهنود في شمال أمريكا. والإيوكوا هو اتحاد لعدد من القبائل من سكان أمريكا الشمالية الأصليين. وجان دو بريبوف Jean de Brébeuf هو مبشر من الجزويت ولد في القرن السادس عشر.

(٢) Pauline Johnson (١٨٦١-١٩١٣) كاتبة وشاعرة كندية، أمها مهاجرة إنغليزية إلى كندا وأبوها زعيم من زعماء قبيلة الموهوك Mohawk الهندية ألأمريكية. والبيتان اللذان تذكرهما راوية القصة هما مطلع قصيدة بولين جونسون: "الأغنية التي يغنيها مجذافي."

(٣) Haiwatha قصيدة رومانسية عن الهنود الأمريكيين للشاعر الأمريكي هنري وادورث لونغفيلو Henry Wadworh Longfellow (١٨٠٧).

أشعر بالبرد بتاتاً. وفي النهاية، حين اكتفيت من السباحة، خرجت وجلستُ إلى جانب بيكيت على الرمل. حين رأتني أقترب، سحقت يدها القلعة التي كانت تبنيها من الرمال، ونظرت إليّ عابسة دون أن تتكلم.

بعد فترة سألتُها: "هل تحبين هذا المكان؟" وأنا أنوي أن أوجه الحديث باتجاه قصص الغابات وأساطيرها.

رفعت بيكيت كتفيها. "لا بأس به. مثله مثل أي مكان."

قلت: "أنا أهواه. ونحن نأتي هنا كل صيف."

"وماذا في ذلك؟" كان صوتها بعيداً، ونظرت إليها وأنا غير واثقة وأتساءل ما الخطأ الذي ارتكبتُه.

سألتها: "هل تريدين أن تأتي معي لنتمشى؟ لا حاجة بنا لأن نبتعد. إذا مشيتِ ودرتِ عند تلك النقطة هناك، ستصلين إلى خليج تنمو في مائه أقصاب كبيرة ضخمة، وجميع أنواع السمك تتجمع هناك. ما رأيك؟ هيا."

هزت رأسها بالنفي.

"قال والدك إنه يفترض بي ألا أقوم بالمشي أكثر مما أنا بحاجة إليه." حاولتُ أسلوباً آخر.

بدأت أتحدث باحترام: "أراهن أنك تعرفين الكثير عن الغابات، وكل ذلك، صح؟"

نظرت بيكيت إلي بعينيها القاتمتين الكبيرتين الخاليتين من الابتسام.

أجابت: "لا أدري ما الذي تتحدثين عنه. هل أنت مخبولة أم ماذا؟ إذا كان قصدك هو المكان الذي يعيش به أبي وأنا وجميع الآخرين، فالأفضل أن تخرسي بحق يسوع، أتسمعين؟"

جفلتُ وانجرحت مشاعري، لكن كان لدي نوع من المثابرة العنيدة، فتجاهلت ما في جوابها من صد.

"أتعرفين شيئاً يا بيكيت؟ هناك طيور غطاس هنا على هذه البحيرة. يمكنك رؤية أعشاشها على الشاطئ هناك، خلف هذه الأخشاب. وفي الليل يمكنك سماعها حتى وأنت في البيت، لكن الإصغاء إليها وأنت على الشاطئ أفضل. يقول أبي إن علينا أن نصغي ونتذكر أصواتها، لأنه بعد بضع سنوات من الآن، حين تكون بيوت ريفية أخرى قد بنيت عند بحيرة دياموند ويأتي المزيد من الناس، ستبتعد طيور الغطاس عن المكان."

كانت بيكيت تلتقط أحجاراً وأصداف حلزون ثم تلقي بها من جديد.

"ومن لديه أدنى اهتمام؟"

أصبح واضحاً على نحو متزايد أن بيكيت كهندية هي رهان خاسر كلياً. في ذلك المساء خرجت وحدي، أشق طريقي بصعوبة عبر الشجيرات التي تدلت على الممر المنحدر، وقدماي تنزلقان فوق إبر السرخس الساقطة التي غطت الأرض. حين وصلت إلى الشاطئ، مشيت فوق الرمل الرطب الراسخ إلى الرصيف الصغير الذي كان والدي قد بناه، وجلست عليه. سمعت شخصاً آخر يحدث ضجة وهو يسير عبر النباتات السفلية والسرخس، وللحظة ظننت أن بيكيت غيرت رأيها، لكن تبين أن الشخص القادم هو أبي. وقد جلس إلى جانبي على الرصيف وانتظرنا، دون أن نتكلم.

كانت البحيرة في الليل مثل مرآة سوداء فيها خط كهرماني هو مسار القمر. وفي كل مكان من حولنا، نبتت أشجار السرخس طويلة ومتقاربة، وأغصانها حادة وسوداء في وجه السماء، التي أضاءها وميض بارد للنجوم. ثم بدأت طيور الغطاس نداءاتها. وارتفعت وكأنها أشباح طيور من الأعشاش على الشاطئ وطارت إلى سطح الماء المظلم الهادئ.

لا يستطيع أحد على الإطلاق وصف ذلك الصوت المعول، صراخ طيور الغطاس، ولا أحد ممن سمعوه يستطيع نسيانه. هذه الأصوات الحزينة، لكنها في الوقت نفسه ذات صبغة هازئة تبعث على القشعريرة، هذه الأصوات

تنتمي إلى كون تفصله دهور عن عالمنا المرتَّب المؤلف من بيوت ريفية صيفية والمصابيح المضاءة في البيت.

علّق أبي: "لا بد أن صوتها كان على هذا الشكل قبل أن يطأ أي شخص بقدمه هذا المكان."

ثم ضحك. "يمكنك بالطبع أن تقولي الشيء نفسه عن عصافير الدوري، ولكن على نحو ما لا يبدو لك الأمر على هذا النحو إلا مع طيور الغطاس."

قلت: "أعرف ذلك."

لم يدر بخلد أي منا أن هذه ستكون آخر مرة على الإطلاق نجلس فيها هنا معاً على الشاطئ، ونصغي. مكثنا ما يقرب من نصف ساعة، ثم عدنا إلى البيت. كانت أمي تقرأ بجوار المدفأة. وكانت بيكيت تنظر إلى خشب البتولا وهو يحترق ولا تفعل أي شيء.

"كان ينبغي أن تأتي معنا،" قلتُ ذلك مع أنني في الواقع سررت بأنها لم تفعل.

قالت بيكيت: "لست أنا الذي أقوم بذلك. لن تشاهديني أمشي نزولاً إلى هناك لمجرد مجموعة من الطيور تصرخ بصوت كالصرير."

بقينا أنا وبيكيت في علاقة متوترة. وقد شعرت أنني بطريقة ما خذلتُ والدي، لكنني لم أعرف ما الأمر ولا السبب في عدم رغبتها في الاستجابة أو قدرتها عليها حين كنت أقترح أن نستكشف الغابة أو نلعب أننا أسرة. اعتقدت أن ما يعيقها هو مشيها البطيء والصعب. كانت تمكث معظم الوقت في البيت مع أمي، تساعدها في جلي الأطباق أو في العناية برودي، ولكن لا تتكلم إلا نادراً. ثم وصلت عائلة دنكان Duncan إلى بيتها، وأخذت أقضي معظم أيامي مع ميفس Mavis صديقتي المفضلة. لم أتمكن من التواصل مع بيكيت على الإطلاق، وسرعان ما فقدت الاهتمام بمحاولة ذلك. لكنها بقيت طوال ذلك الصيف كتأنيب وكلغز لي في الوقت نفسه.

في ذلك الشتاء مات أبي بذات الرئة، بعد مرض استمر أقل من أسبوع. ولفترة من الوقت لم أشاهد أي شيء من حولي، إذ أن ألمي وألم أمي كانا يغمراني كلياً. وحين بدأت أنظر إلى الخارج مرة أخرى لم أكد ألاحظ أن بيكيت تونير لم تعد موجودة في المدرسة. ولا أتذكر أنني رأيتها على الإطلاق مرة أخرى إلا بعد أربعة سنوات، في مساء يوم سبت، حين كنت أنا وميفس نشرب الكوكا كولا في مقهى ريغال Regal Café. كان صندوق الموسيقى يدوي كالرعد الملحَّن، وإلى جانبه كانت فتاة تستند بشكل خفيف إلى غطائه.

لا بد أن بيكيت كانت عندئذ في السابعة عشرة، رغم أنها بدت وكأنها في العشرين. حدقت بها، وقد أذهلني أن يتغير أي شخص بهذا المقدار. وجهها الذي كان متلبد الإحساس وخالٍ من التعبير أصبح الآن مليئاً بالحيوية وبالمرح الذي كاد أن يكون عنيفاً. كانت تضحك وتتكلم بصوت عال مع الصبيان من حولها. وكان أحمر الشفاه على شفتيها قرمزياً ساطعاً، وشعرها ذو قصة قصيرة ومجعّدة. حين كانت طفلة، لم تكن جميلة، ولم تكن جميلة الآن، إذ لا زالت قسماتها ثقيلة ومثلمة. لكن عينيها القاتمتين والمائلتين قليلاً كانتا جميلتين، وتنورتها الضيقة الملامسة للجلد وكنزتها البرتقالية اللون كشفتا عن ميزة من الجسم الطري النحيل تحسد عليها.

رأتني ، ومشت نحوي. ترنحت قليلاً، ولكن لم يكن ذلك بسبب ساقها التي كانت مسلولة، إذ إن عرجها قد اختفى تقريباً.

"مرحبا يا فانيسا." كان صوتها لا يزال أجشاً كالسابق. "لم نرَ بعضنا من زمن طويل، صح؟"

قلت: "مرحباً، أين كنت يا بيكيت؟"

قالت: "كنت هنا وهناك. لقد مضى علي حوالي سنتين الآن وأنا بعيدة عن هنا. لم أترك مكاناً إلا وكنت فيه: وينيبِغ، رجينا، ساسكاتون Winnipeg,

Regina, Saskatoon. يا للمسيح، كم توجد أشياء يمكنني أن أخبرك بها! وسأعود هذا الصيف، لكنني لن أبقى. هل ستذهبان إلى حفلة الرقص؟"

قلت بشكل مبتور: "كلا،" فقد كانت هذه نقطة تؤلمني. كننت في الخامسة عشرة، ورغم أن سني كانت تسمح بأن أذهب إلى حفلات الرقص في أمسيات السبت في الفلامينغو Flamingo، لكن رأي أمي كان مختلفاً.

قالت بيكيت: "يجب أن تأتي. أنا لا أتغيب عن أي منها أبداً. إنها تكاد تكون الشيء الوحيد في هذه البلدة النائية الذي يحتوي على أي متعة. لا يمكنكم أن تجدوني أمكث هنا. إنني لا أكترث بتاتاً بالمكان، فهو نَتِن.

جلست إلى جانبي، ووصلت إلي حلاوة عطرها القاسية المبالغ فيها.

أسرت إلي بصوت لم يخفت إلا قليلاً: "اسمعي يا فانيسا، أتريدين أن تعرفي شيئاً؟ كان أبوك الشخص الوحيد الذي أسدى إلي معروفاً في ماناواكا."

هززت رأسي بالموافقة وأنا عاجزة عن الكلام. كنت متأكدة أنها تقول الحقيقة. لم أكن أعرف سوى القليل زيادة على ما كنت أعرفه في ذلك الصيف عند بحيرة دياموند، لكنني لم أكن قادرة على الوصول إليها الآن أكثر مما كنت آنذاك. كنت خجلة، خجلة من جبني، من النزعة الخائفة إلى النظر في الاتجاه الآخر. ومع ذلك لم أشعر بدفء حقيقي في عاطفتي تجاهها – لكنني شعرت أنه يجب علي ذلك، بسبب ذلك الصيف البعيد ولأن أبي كان يأمل أن توفر لي الصحبة، أو ربما أن أوفرها أنا لها، لكن الأمور لم تسر على ذلك النحو. وفي هذه اللحظة، وقد التقيت بها من جديد، علي أن أعترف أنني نفرت منها وأشعرتني بالإحراج، ولم أتمالك أن أحتقر الشفقة على الذات في صوتها. تمنيت لو أنها تذهب عني، ولم أرد حتى أن أراها. لم أدر ما أقول لها، فقد بدا لي أنه لا يوجد ما تقوله إحدانا للأخرى.

تابعت بيكيت كلامها: "سأقول لك شيئاً آخر. من المؤكد أن جميع البغايا والنساء في هذه البلدة سيفاجَأن، فأنا سأتزوج هذا الخريف – وصديقي

فتى إنغليزي يعمل في فناء الماشية في المدينة هناك، شاب طويل جداً، له شعر مموج أشقر. وهو وسيم جداً. وله اسم راقٍ فعلاً. ألفن جيرالد كمنغز Alvin Gerald Cummings، اسم معتبر، صح؟ وعادة يدعونه آل Al."

عندئذ، لأقصر برهة شاهدتُها. شاهدتها حقاً، للمرة الأولى والوحيدة في كل السنوات التي عشنا فيها كلتانا معاً في البلدة نفسها. فللحظة قصيرة أصبح وجهها المليء بالتحدي بلا حراسة وبلا قناع، وكان في عينيها أمل مرعب.

واندفعت أقول بشكل أخرق: "عظيم يا بيكيت – هذا عظيم. هذا رائع بالفعل. أهنئك – حظاً سعيداً – آمل أن تكوني سعيدة – "

وأنا أتلفظ العبارات التقليدية، لم أخمن سوى مدى ضخامة ما كانت تحتاجه بحيث أرغمت على البحث عن الأشياء نفسها التي ترفضها بمرارة.

حين بلغتُ الثامنة عشرة، غادرت ماناواكا وذهبت إلى الجامعة. وعند انتهاء عامي الأول أتيت إلى بلدتي لتمضية الصيف. وأمضيت الأيام الأولى في الحديث بلا توقف مع أمي، ونحن نتبادل الأخبار التي بطريقة ما لم تجد طريقها إلى رسائلنا – ما حدث في حياتي وما حدث هنا في ماناواكا في غيابي. وكانت أمي تبحث في ذاكرتها عن الأحداث المتعلقة بأشخاص أعرفهم.

سألتني ذات صباح: "هل كتبت لك يا فانيسا عن بيكيت تونير؟"

أجبت: "لا، لا أعتقد ذلك. آخر ما سمعته عنها هو أنها كانت ستتزوج شخصاً من المدينة. هل مازالت هناك؟"

بدت أمي قلقة ومشوشة، ومضت برهة قبل أن تتكلم، كما لو أنها كانت حائرة حول كيفية التعبير عن ما تريد أن تخبرني به وتتمنى لو أنها لا تحتاج أن تحاول ذلك.

قالت أخيراً: "لقد ماتت." ثم حين حدقتُ بها: "آه يا فانيسا، حين حدث ذلك، لم أتمالك نفسي من التفكير بها كما كانت في ذلك الصيف – رصينة وخالية من

اللباقة وملابسها سيئة. لم أتمالك من التفكير ما إذا كنا نستطيع القيام بشيء أكثر تجاهها في ذلك الوقت – ولكن ما الذي كان بإمكاننا فعله؟ كانت تبقى في البيت معي طوال اليوم، وأقول لك بصدق أن كل ما استطعت فعله هو جعلها تنطق بكلمة. بل إنها لم تكلم أباك كثيراً، مع أنني أعتقد أنها كانت تحبه على طريقتها."

سألتُ: "ما الذي حدث؟"

قالت أمي: "إما أن زوجها تركها أو أنها تركته، لا أدري بالضبط. على كل حال، عادت إلى هنا مع صغيرين، كلاهما ما زالا رضيعين – لا بد أن ولادتهما كانت قريبة جداً أحدهما من الآخر. وبدأت على ما أعتقد تقوم بشؤون البيت للازاروس وإخوتها، هناك في الوادي في الأسفل، في مسكن تونير القديم. كنت أراها في الشارع أحياناً، لكنها لم تكلمني قط. كان وزنها قد ازداد كثيراً، وبدت في حالة مزرية إن أردتِ الحقيقة، امرأة قذرة فعلاً، ترتدي ملابسها كيفما اتفق. وقد مثلت أمام المحكمة مرتين – سكرانة ومخالفة للقانون، بالطبع. وفي ليلة من ليالي السبت في الشتاء الماضي، حين كان الطقس هو الأكثر برودة، كانت بيكيت في الكوخ لوحدها مع الطفلين. وكانت عائلة تونير تُخَمِّر جعتها بنفسها دائماً، حسبما علمت، وقال لازاروس فيما بعد إنها كانت تشرب طيلة النهار حين خرج هو والصبيان في المساء. كان لديهم موقد قديم في الكوخ – تعرفين النوع الذي أقصده، الذي له أنابيب مكشوفة. اشتعل حريق بالكوخ، ولم تخرج بيكيت، وكذلك لم يخرج الطفلان."

لم أقل شيئاً. فكما كانت الحالة بالنسبة لبيكيت في أحيان كثيرة، لم يبد أن هناك شيء أقوله. خيم نوع من الصمت حول الصورة في ذهني عن الحريق والثلج، وتمنيت لو أستطيع أن أحذف من ذاكرتي النظرة التي شاهدتها مرة في عيني بيكيت.

ذهبت إلى بحيرة دياموند لبضعة أيام ذلك الصيف مع ميفس وعائلتها. كان بيت مكليود الريفي قد بيع بعد وفاة أبي، ولم أقم حتى بالذهاب لإلقاء

نظرة عليه، إذ لم أرد أن أرى مملكتي التي كانت لي قبل زمن طويل وقد تملكها الغرباء. لكنني في إحدى الأمسيات ذهبت إلى الشاطئ بمفردي.

كان الرصيف الصغير الذي بناه أبي قد زال، وفي مكانه بنت الحكومة رصيفاً كبيراً وصلباً، إذ إن جبل غالوبنغ أصبح الآن منتزهاً عاماً، وأعيدت تسمية بحيرة دايموند فأصبحت بحيرة واباكاتا Wapakata، فقد كان الشعور أن الاسم الهندي سيكون أكثر جاذبية للسواح. والمتجر الوحيد أصبح الآن عشرات من المتاجر، واكتسبت المستوطنة كل صفات المنتجع المزدهر: فنادق، قاعة رقص، مقاه ذات لافتات مضاءة بالنيون، الروائح النافذة لرقائق البطاطا والنقانق (الهوت دوغ).

جلست على رصيف الحكومة، وسرح بصري فوق المياه. في الليل كانت البحيرة على الأقل مثلما كانت دائماً، تلمع في الظلمة وتحمل ضمن زجاجها الأسود عرق الكهرمان الذي يشكل مسار القمر. لم يكن هناك ريح ذلك المساء، وكل شيء كان هادئاً من حولي. بدا الهدوء أشد مما ينبغي، وعندئذ لاحظت أن طيور الغطاس لم تعد موجودة. أصغيت فترة من الوقت كي أتأكد، ولكن لم أسمع ولو مرة واحدة ذلك النداء الطويل، نصفه هزء ونصفه شكوى، يشق السكون عبر البحيرة.

لم أدرِ ما حدث للطيور. ربما ذهبت إلى مكان بعيد لتنتمي إليه. ربما لم تجد مثل ذلك المكان، وببساطة ماتت جميعاً، بعد أن فقدت اهتمامها بأن تعيش أو تموت.

تذكرت كيف ازدرت بيكيت فكرة مصاحبتي حين جلستُ أنا وأبي هناك وأصغينا لطيور البحيرة. وبدا لي الآن، بطريقة ما غير واعية وخالية من الترتيب تماماً، أن بيكيت رغم كل شيء قد تكون الوحيدة التي سمعت صراخ طيور الغطاس.

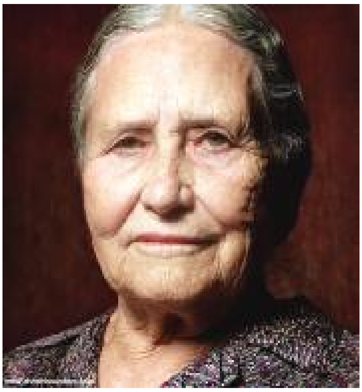

دوريس ليسنغ

عبر النفق(١)

نالت دوريس ليسنغ جائزة نوبل للآداب عام ٢٠٠٧ بالإضافة إلى جوائز أخرى، ووصفتها الأكاديمية السويدية بأنها الكاتبة الملحمية للتجربة الأنثوية. في عام ٢٠٠٨ منحتها صحيفة **التايمز** *The Times* المرتبة الخامسة في قائمة "أعظم الكتاب البريطانيين منذ عام ١٩٤٥." ولدت ليسنغ في إيران عام ١٩١٩ لأبوين إنغليزيين. وبعد ست سنوات انتقلت العائلة إلى جنوب روديسيا التي أصبحت الآن زيمبابوي. تلقت تعليمها في بريطانيا، وفي عام ١٩٥٠ نشرت أول رواياتها، **العشب يغني** *The Grass Is Singing*، وحققت إنجازاً كبيراً في عام ١٩٦٢ بنشر روايتها **الدفتر الذهبي** *The Golden Notebook*. ويقسم النقاد أعمالها إلى ثلاثة موضوعات: الشيوعي والنفسي والصوفي. والقصة المترجمة هنا تختلف عن باقي أعمالها، رغم أنها تشترك معها بموضوع أساسي، وهو تحديات الحياة التي يواجهها الفرد.

توقف الصبي الإنغليزي الصغير، أثناء ذهابه إلى الشاطئ في صباح أول أيام العطلة عند منعطف في الممر ونظر إلى الأسفل حيث

---

(١) هذه ترجمة قصة "Through the Tunnel" للكاتبة Doris Lessing. والقصة نشرت في مجلة **النيويوركر** *The Newyorker* عام ١٩٥٥، ثم نشرت في عام ١٩٥٧ ضمن مجموعة قصصية للكاتبة بعنوان **عادة الحب** *The Habit of Loving*.

يوجد خليج صخري مقفر ثم إلى الشاطئ المزدحم الذي يعرفه جيداً من السنوات السابقة. تابعت أمه سيرها أمامه وهي تحمل حقيبة مخططة بخطوط مشرقة بإحدى يديها. وكانت يدها الأخرى التي تتأرجح حرة شديدة البياض تحت أشعة الشمس. راقب الفتى تلك الذراع العارية البيضاء ثم أشاح بعينيه، ووجهه مقطب خلفهما، نحو الخليج ثم عاد ينظر إلى أمه. حين شعرت أنه ليس معها استدارت وقالت: "إذن أنت هناك يا جيري Jerry!" بدا عليها نفاذ الصبر، ثم ابتسمت: "هل تفضل يا حبيبي ألا تأتي معي؟ هل تفضل..." عبست وهي تقلق بإملاء من ضميرها حول أنواع التسلية التي يحتمل أنه يتوق إليها سراً والتي لم تتخيلها لكونها مشغولة أو مهملة أكثر مما يجب. كانت هذه الابتسامة القلقة المعتذرة مألوفة جداً لديه. جعله الشعور بالذنب يهرع إليها. ومع ذلك، أثناء جريه كان ينظر إلى الخلف من فوق كتفه ليشاهد الخليج المقفر، وطوال الصباح وهو يلعب على الشاطئ الآمن كان يفكر به.

في الصباح التالي، حين حان وقت السباحة والحمام الشمسي الروتينيين، قالت أمه: "هل أضجرك الشاطئ المعتاد يا جيري؟ هل تفضل الذهاب إلى مكان آخر؟"

قال بسرعة: "كلا!" وابتسم لها بدافع نزوة الشعور بالذنب التي لا تخيب – نوع من الفروسية. ولكنه وهو يسير على الممشى معها قال بدون تفكير: "أود أن أذهب وألقي نظرة على تلك الصخور السفلى هناك."

أولت الفكرةَ انتباهها. كان المكان يبدو مقفراً، ولا لأحد موجود فيه، لكنها قالت: بالطبع يا جيري. حين تكتفي تعال إلى الشاطئ الكبير، أو اذهب فوراً إلى الفيلا، إن أحببت." سارت مبتعدة، وذلك الذراع العاري الذي احمر قليلاً بعد التعرض لشمس اليوم السابق يتأرجح. وكاد أن يركض خلفها مرة أخرى، فقد شعر أن ذهابها بمفردها شيء لا يحتمل، لكنه لم يفعل.

كانت تفكر: "بالطبع بلغ من السن ما يجعله آمناً بدوني. هل كنت أبقيه قريباً مني على نحو مبالغ فيه؟ يجب ألا يشعر أن عليه البقاء بقربي. وعليّ أن أكون حذرة."

كان طفلاً وحيداً، في الحادية عشرة من العمر. وكانت هي أرملة، وقد صممت على ألا تستأثر به لنفسها وكذلك ألا تقصر في تفانيها له. ومضت قلقة إلى شاطئها.

أما جيري، فحالما رأى أمه تصل إلى شاطئها، بدأ الهبوط الشديد الانحدار إلى الخليج. من حيث كان واقفاً، في مكان عال بين الصخور الحمراء البنية، كان الخليج تجويفاً من اللون الأخضر المتحرك الذي تشوبه الزرقة ويحيط به البياض على حوافه. لكنه وهو ينحدر، رأى أنه يمتد بين كتل جبلية صغيرة وخلجان صغيرة من الصخور الخشنة الحادة، وأظهر السطح المتموج المرتطم بالصخور بقعاً بنفسجية وزرقاء داكنة. وفي النهاية، رأى وهو يجري منزلقاً وجاهداً على الأمتار القليلة الأخيرة –رأى حافة من الأمواج المتكسرة وحركة المياه الضحلة والمضيئة فوق الرمل الأبيض، وفيما بعد ذلك زرقة متواصلة عميقة.

جرى مباشرة إلى الماء وبدأ يسبح. كان يتقن السباحة. وقد خرج بسرعة فوق الرمل المتلألئ، فوق منطقة متوسطة حيث تتوضع الصخور مثل وحوش عديمة اللون تحت السطح، وبعدها صار في البحر الحقيقي – بحر دافئ، حيث صعدت تيارات باردة غير منتظمة من الماء العميق وأصيبت أطرافه بصدمة.

حين ابتعد داخل البحر بحيث صار بإمكانه النظر وراءه ليس فقط إلى الخليج الصغير، بل إلى ما خلف الكتلة الجبلية التي تفصل بينه وبين الشاطئ الكبير، طفا على السطح المنشِّط وبحث عن أمه. ها هي هناك، بقعة صغيرة من اللون الأصفر تحت مظلة بدت وكأنها قطعة من قشر البرتقال. سبح

عائداً إلى الشاطئ، وهو يشعر بالارتياح أنها موجودة هناك، ولكنه شعر فجأة بوحدة شديدة.

كانت هناك صخور متناثرة غير مترابطة على حافة رأس صغير شَكّل جانب الخليج المبتعد عن الكتلة الجبلية. فوق تلك الصخور كان بعض الصبية يخلعون ملابسهم. وجاءوا يركضون وهم عراة فوق الصخور. سبح الصبي الإنغليزي نحوهم، وأبقى مسافة بينه وبينهم تعادل مرمى حجر. كانوا من ذلك الساحل، جميعهم أحرقت الشمس بشرتهم وجعلتها بنية غامقة ملساء، وكانوا يتخاطبون بلغة لم يفهمها. ملأ جسده بأكمله توق لأن يكون معهم، واحداً منهم. سبح مقترباً مسافة قليلة، فاستداروا وراقبوه بأعين متيقظة مدققة. ثم ابتسم أحدهم ولوح بيده. كفاه ذلك، وفي دقيقة كان إلى جانبهم على الصخور، يبتسم بابتهال عصبي مستميت. صاحوا يرحبون به بسرور، ثم باعتبار أنه أبقى على تلك الابتسامة العصبية التي تنم عن عدم الفهم، فهموا أنه غريب شرد من شاطئه، وشرعوا في نسيان أمره. لكنه كان سعيداً، فهو معهم.

بدؤوا يغوصون المرة تلو الأخرى من نقطة عالية إلى بئر من البحر الأزرق بين صخور خشنة مسننة. وبعد أن يغوصوا ويطفوا، يسبحون ويرفعون أنفسهم وينتظرون دورهم للغوص مرة أخرى. كانوا صبياناً كباراً – رجالاً في عيني جيري. غاص وراقبوه، وحين سبح عائداً ليأخذ مكانه، أفسحوا له مكاناً. شعر بأنه حاز بالقبول، وغاص مرة أخرى بحذر، وهو يشعر بالفخر بنفسه.

سرعان ما وازن أكبر الصبيان جسماً نفسه، وانطلق هابطاً إلى الماء، ولم يطفُ. وقف الآخرون يراقبونه. وبعد أن انتظر جيري ظهور الرأس البني الأملس، أطلق صرخة تحذير، فنظروا إليه نظرات متكاسلة، ثم عادوا ووجهوا نظرهم إلى الماء. بعد وقت طويل، طفا الصبي على الجانب الآخر من الصخرة الكبيرة الداكنة، وأخرج الهواء من رئتيه وهو يلهث ويبقبق، وأطلق

صرخة انتصار. على الفور غاص الآخرون. فخلال دقيقة بدا الصباح مليئاً بصبية يثرثرون، وفي الدقيقة التالية كان الهواء وسطح الماء خاليين. لكن من خلال الزرقة العميقة أمكن رؤية أشكال داكنة تتحرك وتتلمس طريقها.

غاص جيري، وانطلق متجاوزاً المجموعة السابحة تحت الماء، ورأى جداراً أسود من الصخر يظهر وكأنه يهدده، ولمسه، وارتفع على الفور إلى السطح، حيث كان الجدار حاجزاً منخفضاً يمكن الرؤية عبره. ولم يكن أحد ظاهر للعيان، فَتَحْتَه في الماء اختفت الأشكال الخافتة للسابحين. ثم طفا أحد الصبيان ثم صبي آخر على الجانب البعيد من الحاجز الصغير، وأدرك أنهما سبحا عبر فجوة أو فتحة في الحاجز. غاص في الماء من جديد، لكنه من خلال ماء الملح الواخز لم ير شيئاً سوى الصخرة الشاحبة. حين صعد إلى السطح، كان الصبيان جميعاً فوق صخرة الغوص، يستعدون لمحاولة عملهم البطولي مرة ثانية. والآن صرخ بالإنغليزية وهو يشعر بالرعب من الفشل: "انظروا إليّ! انظروا!" وبدأ يرشرش ويرفس في الماء مثل كلب أحمق.

نظروا إليه بجدية وهم مقطبون. ففي لحظات الفشل، حين كان يهرج ليلفت انتباه أمه، كانت تكافئه بمثل هذه النظرة الفاحصة الجادة تماماً. شعر بخزي ملتهب، كما شعر بالابتسامة المتوسلة على وجهه مثل ندب لن يستطيع إزالته، ومن خلال هذا الشعور نظر إلى مجموعة الصبيان السمر الكبار فوق الصخرة وصاح: "بونجور! ميرسي! أو ريفوار! مسيو، مسيو!" وفي أثناء ذلك، شبك أصابعه حول أذنيه وأخذ يهزها.

اندفع الماء إلى فمه؛ اختنق وغاص وطفا. وبدت الصخرة، التي كانت قبل قليل تنأى تحت ثقل الصبية، وكأنها تراجعت خارجة من الماء بعد زوال ثقلهم. كانوا الآن يطيرون نحو الماء ويتجاوزونه، وكان الهواء مليئاً بالأجسام الساقطة. ثم أصبحت الصخرة فارغة تحت نور الشمس الحار. بدأ يعدّ: واحد، اثنان، ثلاثة. . . .

حين وصل إلى خمسين شعر بالرعب. لا بد أنهم جميعاً يغرقون تحته، في كهوف الصخرة المغمورة بالماء! عند المائة، أخذ يحدق حوله في التل الخالي، وهو يتساءل عما إذا كان يجب عليه أن يصيح طالباً النجدة. بدأ يعد بسرعة أكبر، ثم أكبر، لكي يستعجلهم، يحضرهم إلى السطح بسرعة، يغرقهم بسرعة – أي شيء ولا رعب الاستمرار في العد بلا نهاية في خواء الصباح الأزرق. ثم حين وصل إلى مائة وستين، امتلأ الماء خلف الصخرة بالصبيان وكأنهم حيتان بنية اللون. سبحوا عائدين إلى الشاطئ بدون أن يلقوا نظرة واحدة عليه.

تسلق عائداً إلى صخرة الغوص وجلس، وهو يشعر بخشونتها الحارة تحت فخذيه. كان الصبيان يجمعون ملابسهم ويركضون مبتعدين على الشاطئ نحو كتلة جبلية أخرى. كانوا يغادرون المكان ليبتعدوا عنه. بكى علناً، وقبضتاه على عينيه. ما كان هناك أحد يراه، وبكى حتى أنهك من البكاء.

بدا له أن وقتاً طويلاً قد مضى، وسبح إلى المكان الذي يستطيع منه أن يرى أمه. نعم، هي لا زالت هناك، بقعة صفراء تحت مظلة برتقالية. سبح عائداً إلى الصخرة الكبيرة، وغاص في البركة الزرقاء بين الصخور الضخمة الغاضبة ذات المخالب. نزل في الماء إلى أن لمس جدار الصخرة مرة أخرى. لكن الملح آلم عينيه إلى درجة منعته من الرؤية.

طفا إلى السطح، وسبح إلى الشاطئ، وعاد إلى الفيلا لانتظار أمه. وسرعان ما أتت تمشي ببطء على الممر، تؤرجح حقيبتها المخططة، والذراع المتوردة الغارية متدلية إلى جانبها. "أريد نظارة سباحة واقية،" قال لاهثاً، بتحد ورجاء.

نظرت إليه نظرة صابرة مليئة بالتساؤل وهي تقول بعناية: "بالطبع يا حبيبي."

لكن الآن، الآن، الآن! لا بد أن يحصل عليها في هذه الدقيقة، وليس في أي وقت آخر. تذمر وضايقها إلى أن اصطحبته إلى حانوت. وفور أن

اشترت النظارة ، اختطفها من يدها كما لو أنها ستنازعه عليها، وانطلق يجري هابطاً على الممر المنحدر إلى الخليج.

سبح جيري إلى الصخرة الكبيرة الفاصلة، وأحكم وضع النظارة الواقية، وغاص. الاصطدام بالماء خرق الفراغ بين العينين والحلقتين المطاطيتين، وأفلتت النظارة. أدرك أن عليه أن يسبح إلى قاعدة الصخرة من سطح الماء. وضع النظارة بشكل متين وثابت، وملأ رئتيه، وطفا على الماء ووجهه إلى الأسفل. أصبح بإمكانه أن يرى الآن، كما لو أن له عينين من نوع مختلف – عيني سمكة تظهران كل شيء واضحاً وهشاً ومترجرجاً في الماء المشرق.

وجد على عمق ستة أو سبعة أقدام تحته أرضاً من الرمل الأبيض الساطع النظيف نظافة كاملة، أرضاً مموجة على نحو صلب وثابت بفعل المد والجزر. كان شكلان لونهما يميل إلى الرمادي يدوران هناك، مثل قطعتين طويلتين مدورتين من الخشب أو الصخر. كانا سمكتين. شاهدهما ووجهاهما يقتربان أحدهما من الآخر، ثم تتوقفان بلا حراك، وتندفعان إلى الأمام، وتلفان مبتعدتين فجأة، ثم تظهران مرة أخرى. كانت حركاتهما مثل رقصة مائية. وفوقهما ببضع بوصات كان الماء لامعاً كما لو أن قطعاً من البريق تهبط فيه. مرة أخرى كانت الأسماك – مجموعات كبيرة جداً من السمك الصغير بطول أظافره – تتجرف عبر المياه، وخلال دقيقة أخذ يشعر بلمساتها الصغيرة التي لا تحصى على أطرافه. كأنه يسبح في رقائق من الفضة. كانت الصخرة الكبيرة التي سبح الصبيان الكبار عبرها تنتصب شبه عمودية خارجة من الرمل الأبيض، سوداء، عليها شعر خفيف من الأعشاب المائلة إلى الخضار. لكنه لم ير أية فجوة فيها. وسبح هبوطاً إلى قاعها.

كان يطفو المرة تلو مرة، يملأ صدره بالهواء، ويهبط. ومرة تلو المرة أخذ يتحسس سطح الصخرة ويشعر به ويكاد أن يعانقه في حاجته المستميتة

للعثور على المدخل. ثم بعد ذلك، في إحدى المرات التي كان فيها متمسكاً بالجدار الأسود، ارتفعت ركبتاه، وقذف بقدميه إلى الأمام فلم تواجههما أية عقبة. لقد وجد الحفرة.

صعد إلى السطح وتسلق حول الأحجار التي انتثرت على الصخرة الفاصلة، ثم حين وجد حجراً كبيراً وضع ذراعيه حوله وأنزل نفسه من على جانب الصخرة، فهبط بفعل الثقل إلى الأرض الرملية مباشرة. تمسك بقوة بالحجر المرساة، واستلقى على جانبه ووجه نظره إلى ما تحت الرف المظلم حيث دخلت قدميه. استطاع رؤية الفتحة. كانت فتحة غير منظمة ومعتمة، ولم يستطع رؤية عمق داخلها. أفلت مرساته وتمسك بيديه بحواف الفتحة وحاول أن يدفع نفسه إلى الداخل.

أدخل رأسه، ووجد أن كتفيه يعوقان تقدمه فحركهما جانبياً ودخل حتى خصره. لم يتمكن من رؤية أي شيء أمامه. لمس شيء طري بارد ودَبِق فمه، ورأى ورقة نبات بحري مظلمة تتحرك قبالة الصخرة الرمادية اللون، وملأه الذعر. فكر في الأخطبوط وفي الأعشاب البحرية اللاصقة. دفع نفسه إلى الخلف، ولمح وهو يتراجع رأس عشبة بحرية تنجرف داخل مدخل النفق. لكن ذلك كان كافياً. وصل إلى ضوء الشمس وسبح إلى الشاطئ واستلقى على صخرة الغوص. نظر إلى الأسفل حيث بئر الماء الأزرق. أدرك أن عليه أن يجد طريقه عبر الكهف أو الفتحة أو النفق، وأن يخرج من الطرف الآخر.

فكّر أن عليه أولاً أن يتعلم التحكم بتنفسه. أنزل نفسه في الماء مع حجر كبير آخر بين ذراعيه كي يستطيع أن يستلقي بلا جهد على قاع البحر. أخذ يعد: واحد، اثنان، ثلاثة. استمر في العد بثبات، واستطاع أن يسمع حركة الدم في صدره. واحد وخمسون، اثنان وخمسون... شعر بألم في صدره. أفلت الصخرة وصعد إلى الهواء. رأى أن الشمس منخفضة، فهرع إلى الفيلا ووجد أمه تتناول عشاءها. لم تقل سوى: "هل استمتعت؟" وأجاب: "نعم."

طوال الليل كان الصبي يحلم بالكهف المليء بالماء في الصخرة، وفور انتهاء وجبة الفطور هرع إلى الخليج.

في تلك الليلة رعف أنفه رعفاً شديداً. فقد أمضى ساعات تحت الماء، يتعلم حبس أنفاسه، وشعر الآن بالتعب والدوار. قالت أمه: "لو كنت مكانك يا حبيبي، لما بالغت في الأمور."

ذلك اليوم واليوم الذي تلاه، قام جيري بتمرين رئتيه كما لو أن كل شيء متوقف على ذلك، بل كما لو أن حياته بأكملها متوقفة عليه. ومرة أخرى رعف أنفه تلك الليلة، وأصرت أمه أن يأتي معها في اليوم التالي. وكان عذاباً له إضاعة يوم كامل من تدريب نفسه، لكنه بقي معها على الشاطئ الآخر، الذي بدا الآن مكاناً للأطفال الصغار، مكاناً تستطيع أمه أن تستلقي فيه آمنة تحت الشمس. لم يكن ذلك شاطئه.

لم يطلب في اليوم الذي تلى إذناً للذهاب إلى شاطئه. ذهب قبل أن تنظر أمه في الجوانب المعقدة الصحيحة والخاطئة للمسألة. واكتشف أن استراحة يوم قد زادت تعداده بمقدار عشرة أعداد. لقد وصل في العد إلى مائة وستين حين قام الصبية الكبار بعملية العبور، وكان بسبب ذعره يعد بسرعة. من المحتمل الآن أنه إذا قام بالتجربة فسيمكنه عبور النفق الطويل، لكنه لم ينوِ القيام بالمحاولة بعد. وما جعله ينتظر هو مثابرة غريبة ليست من طبائع الأطفال ونفاذ صبر خاضع للتحكم. في الوقت الحالي، استلقى تحت الماء على الرمل الأبيض، الذي تناثرت فوقه الآن الحجارة التي جاء بها من السطح، ودرس مدخل النفق. لقد أصبح يعرف كل نتوء وزاوية فيه، في حدود ما تمكن رؤيته، وكأنه يشعر بحدته عند كتفيه.

كان يجلس قرب الساعة في الفيلا عندما لا تكون أمه قريبة ويقيس الوقت. لم يصدق نفسه في البداية عندما وجد أنه يستطيع حبس نفسه بدون

إجهاد لمدة دقيقتين، ثم شعر بالفخر بذلك. فكلمة "دقيقتين" التي صادقت الساعة عليها جعلت المغامرة التي كانت ضرورية بالنسبة له وشيكة.

قالت أمه ذات صباح بشكل عابر إنه بعد أربعة أيام لا بد لهما من العودة إلى بيتهما. نوى القيام بمغامرته في اليوم السابق للرحيل، وقال لنفسه متحدياً إنه سيفعل ذلك ولو قتله. ولكن قبل يومين من موعد رحيلهما – وكان ذلك يوم نصر، إذ استطاع أن يضيف خمسة عشر عدداً في عدّه – رعف أنفه بشكل رهيب إلى حد أنه أصيب بالدوار واضطر إلى الاستلقاء منهكاً على الصخرة الكبيرة، وكأنه كتلة أعشاب بحرية، وهو يراقب الدم الثخين يتدفق على الصخرة ويسيل ببطء إلى البحر. شعر بالخوف. لو أنه فرضاً شعر بالدوار وهو في النفق؟ لو أنه فرضاً مات وهو محبوس كأنه في مصيدة؟ لو أنه فرضاً – أخذ رأسه يدور تحت الشمس الحارة، وكاد أن يتخلى عن فكرته. فكر في أن يعود إلى المنزل ويستلقي على السرير، وربما في الصيف القادم، بعد أن يكون قد كبر في السن – **عندها** سيمر عبر الفتحة.

ولكن حتى بعد أن توصل إلى قراره، أو ظن أنه فعل، وجد نفسه ينهض جالساً على الصخرة وينظر إلى البحر في الأسفل، وأدرك أن الآن، هذه اللحظة، بعد أن توقف أنفه عن الرعاف وبينما كان رأسه لا يزال يؤلمه وينبض – هذه هي اللحظة التي سيحاول فيها. إن لم يقم بذلك الآن، فلن يقوم به أبداً. كان يرتجف من الخوف من النفق الطويل الطويل تحت الصخرة، تحت البحر. حتى في ضوء الشمس الساطع، بدت الصخرة الفاصلة عريضة جداً وثقيلة جداً، أطنان من الحجارة مضغوطة فوق المكان الذي سيذهب إليه. وإذا مات، فسيبقى جسده هناك إلى أن يسبح أولئك الصبيان الكبار ذات يوم – ربما ليس قبل السنة القادمة – إلى داخل النفق ويجدوه مغلقاً.

وضع نظارة السباحة على عينيه وثبتها جيداً واختبر الفراغ فيها. كانت يداه ترتجفان. ثم اختار أكبر حجر يمكنه حمله وانزلق من على حافة الصخرة

إلى أن أصبح نصفه في الماء البارد الذي أحاط به ونصفه معرض للشمس الحارة. رفع بصره مرة واحدة إلى السماء الفارغة، وملء رئتيه مرة، ثم مرة ثانية، ثم غاص بسرعة إلى القاع مع الحجر. أفلته وبدأ العد. أمسك بحافتي الفتحة بيديه وأدخل نفسه فيها، وهو يهز كتفيه بشكل جانبي، متذكراً أنه لا بد من ذلك، ويرفس ليدفع نفسه إلى الأمام.

سرعان ما أصبح كله في الداخل. كان في فتحة صغيرة محاطة بالصخر يملؤها ماء. كان الماء يدفعه إلى السقف في الأعلى، وكان السقف حاداً وآلم ظهره. أخذ يسحب نفسه بيديه، مسرعاً، مسرعاً، واستخدم قدميه كعتلتين. ارتطم رأسه بشيء ما، وأصابه ألم حاد أشعره بالدوار. خمسون، واحد وخمسون، اثنان وخمسون... أصبح بلا ضوء، وبدا أن الماء يضغط عليه بفعل ثقل الصخر فوقه. سبعون، واحد وسبعون، اثنان وسبعون... لم يشعر بضغط على رئتيه. شعر وكأنه بالون منفوخ، رئتاه خفيفتان ولينتان، لكن رأسه كان ينبض.

كان الضغط عليه باتجاه السقف الحاد مستمراً، وشعر أن السقف لزج بالإضافة إلى كونه حاداً. مرة أخرى فكر بالأخطبوط وتساءل عما إذا كان النفق مليء بالأعشاب التي يمكن أن تلتف حوله. منح نفسه رفسة مذعورة متشنجة نحو الأمام، وطأطأ رأسه، واستمر في السباحة. تحركت قدماه ويداه بحرية، وكأنها في الماء المفتوح. لا بد أن الفتحة ازدادت عرضاً. فكر أنه لا بد له من السباحة بسرعة، وخاف من أن يصدم رأسه إذا ضاق النفق.

مائة، مائة وواحد... شحب لون الماء. ملأه الشعور بالنصر. بدأ يشعر بألم في رئتيه. بضع ضربات أخرى وسيصل إلى الخارج. أخذ يعد بحماسة، ووصل إلى مائة وخمسين، ثم بعد فترة طويلة جداً، إلى مائة وخمسين مرة أخرى. كان الماء حوله صافياً وأخضر كالجوهرة. ثم رأى فوق رأسه شرخاً يخترق الصخرة، وكان نور الشمس ينفذ من خلاله ليظهر صخر النفق النظيف القاتم، وصدفة مفردة من أصداف الرخويات، وبعد ذلك الظلام.

لقد وصل إلى نهاية ما يمكنه فعله. رفع بصره إلى الشرخ كما لو أنه مليء بالهواء لا بالماء، كما لو أنه يستطيع أن يضع فمه عليه ويستنشق الهواء. سمع نفسه يقول داخل رأسه: مائة وخمسون. لا بد له من دخول الظلمة أمامه، وإلا فسيغرق. أخذ رأسه يتورم ورئتاه تتكسران. مائة وخمسون، مائة وخمسون، دوت الكلمتان في رأسه وأخذ يتمسك واهناً بالصخر في الظلام، يسحب نفسه إلى الأمام، ويترك فسحة صغيرة من الماء المنار بضوء الشمس وراءه. شعر أنه ينازع، ولم يعد في وعيه الكامل. تابع النضال في الظلام بين نوبات من انعدام الوعي. ملأ ألم هائل متضخم رأسه، ثم تكسرت الظلمة في انفجار من النور الأخضر. ولم تجد يداه وهما تتلمسان طريقهما إلى الأمام شيئاً من حولها، وقدماه وهما ترفسان دفعتا به إلى البحر المفتوح. طفا إلى السطح ووجهه متجه إلى الأعلى باتجاه الهواء. كان يلهث كالسمكة. شعر أنه سيغوص الآن ويغرق، فلم يكن باستطاعته أن يسبح الأقدام القليلة ليعود إلى الصخرة. ثم وجد نفسه يمسك بها ويرفع نفسه إلى سطحها. استلقى لاهثاً، ووجهه إلى الأسفل. لم يستطع رؤية شيء سوى ظلمة متخثرة ذات عروق حمراء. لا بد أن عينيه انفجرتا. نزع نظارة السباحة، واندفعت لطخة من الدم إلى البحر. لقد كان أنفه يرعف، والدم ملأ النظارة.

رفع بيديه الماء من البحر البارد المالح ليسكبه على وجهه، ولم يدر ما إذا كان الطعم في فمه طعم الدم أو الماء المالح. بعد فترة، هدأ قلبه، وصفت عيناه، ونهض جالساً. استطاع رؤية الصبيان المحليين يغوصون ويلعبون على بعد نصف ميل. لم يردهم. لم يرد شيئاً سوى العودة إلى بيته والاستلقاء على سريره.

بعد فترة قصيرة، سبح جيري إلى الشاطئ وتسلق ببطء الممر المؤدي إلى الفيلا. ألقى بنفسه على السرير ونام، ليستيقظ على صوت أقدام على الممر في الخارج. كانت أمه في طريق العودة. هرع إلى الحمام، وهو يفكر أنها لا يجب أن ترى بقع الدم على وجهه، ولا بقع الدموع. خرج من الحمام واستقبلها وهي تدخل الفيلا، مبتسمة وعيناها تبرقان.

سألته: "هل كان صباحك لطيفاً؟" ووضعت يدها على كتفيه الأسمرين الدافئين للحظة.

قال: "نعم، نعم، شكراً."

"يبدو عليك بعض الشحوب." ثم أضافت بصوت حاد وقلِق: "كيف صدمت رأسك؟"

قال لها: "لقد صدمته وحسب."

أمعنت النظر إليه. كان منهكاً، وبدت عيناه وكأنهما زجاجيتان. شعرت بالقلق، ثم قالت لنفسها: "لا تبالغي في القلق! لا يمكن أن يحدث شيء، فهو يسبح كالأسماك."

وجلسا معاً لتناول الغداء.

قال: "ماما، أنا أستطيع أن أبقى تحت الماء دقيقتين – ثلاث دقائق، على الأقل." خرج الكلام مندفعاً من فمه.

قالت: "أحقاً يا حبيبي. حسن ولكن أنا ما كنت لأبالغ في ذلك. ولا أعتقد أنه ينبغي لك أن تقوم بمزيد من السباحة اليوم."

كانت مستعدة لصراع بين الإرادتين، لكنه استسلم على الفور. فالذهاب إلى الخليج لم يعد له أيّة أهمية.

كاثرين مانسفيلد

حفلة الحديقة(١)

كاثرين مانسفيلد كاتبة نيوزلندية ولدت في ولنغتون Wellington بنيوزلندا عام ١٨٨٨ وتوفيت في فرنسا عام ١٩٢٣. كانت في العاشرة حين نشرت قصصها الأولى في مجلات مدرسية. كانت من أنصار الحداثة البارزين، وتأثرت في ذلك بكتاب من أمثال د. هـ. لورنس وفرجينيا وولف، وتعدّ من أفضل كتاب القصص القصيرة في عصرها، كما تعتبر سابقة لعصرها من حيث افتتانها بالكاتب الروسي الكبير أنطون تشيكوف، الذي تأثرت به في بعض أساليبها القصصية وموضوعاتها. وتعتبر قصة "حفلة الحديقة" من أشهر أعمالها وأكثرها انتشاراً.

على كل حال كان الطقس مثاليا. ما كان يمكن أن يكون يوماً أكثر كمالاً لحفلة في الحديقة حتى لو أوصوا عليه. بلا رياح، طقس دافئ، السماء خالية من السحب. الشيء الوحيد هو أن الزرقة كانت محجوبة بسديم ذهبي فاتح

---

(١) هذه ترجمة قصة "The Garden Party" للكاتبة Katherine Mansfield. والقصة نشرت لأول مرة في صحيفة **ساترداي وستمنستر غازيت** *Saturday Westminster Gazette* عام ١٩٢٢، ثم في مجموعتها **حفلة الحديقة وقصص أخرى** *The Garden Party and Other Stories* التي نشرت في العام نفسه.

اللون، كما تكون أحياناً في أوائل الصيف. كان الحدائقي قد استيقظ منذ الفجر وقام بقص عشب المرج وكنسه، إلى أن بدا العشب والأشكال الوردية التي كانت تزرع فيها أزهار المارغريتا الصغرى تشع وتلمع. أما الورود، فلم يكن بإمكانك تفادي الشعور أنها تفهم كونها الزهور الوحيدة التي تترك انطباعاً قوياً لدى الأشخاص المشاركين في حفلة في الحديقة، الزهور الوحيدة المؤكد أن يعرفها الجميع. المئات، نعم المئات حرفياً، تفتحت في ليلة واحدة، وانحنت الشجيرات الخضراء وكأن بعض كبار الملائكة قد زارتها.

لم تكن وجبة الفطور قد انتهت حين أتى الرجال لينصبوا السرادق.

"أمي، أين تريدين أن يوضع السرادق؟"

"يا ابنتي العزيزة، لا فائدة من سؤالي. فأنا مصممة أن أترك كل شيء لكم يا أولاد هذا العام. انسوا أنني أمكم، وعاملوني كضيفة مكرّمة."

لكن لم يكن من الممكن أن تذهب مِغ Meg وتشرف على الرجال. فقد غسلت شعرها قبل الفطور، وكانت جالسة تحتسي قهوتها وعلى رأسها قبعة منزلية خضراء، وعقصة من الشعر مبللة وقاتمة ملتصقة بكل من الوجنتين. وكانت جوزي Jose، الفراشة، دائماً تنزل إلى الطابق السفلي بتنورة حريرية وسترة على شكل كيمونو.

"عليك أنت ان تذهبي يا لورا Laura، فأنت صاحبة الذوق الفني."

طارت لورا مبتعدة، وهي لا تزال تحمل قطعة من الخبز مع الزبدة، فمن اللذيذ جداً أن يكون للمرء عذر ليأكل في الهواءالطلق. وإضافة إلى ذلك، كانت تعشق ترتيب الأشياء، وتشعر دائماً أن باستطاعتها القيام بذلك على نحو أفضل من ايٍّ شخص آخر."

تجمع أربعة رجال بقمصان قصيرة الأكمام على ممر الحديقة. كانوا يحملون قضباناً تغطيها لفّات من قماش الخيم، وعلى ظهورهم حقائب أدوات

كبيرة. أعطى منظرهم انطباعاً جيداً. تمنت لورا الآن لو أنها لم تحمل معها الخبز والزبدة، لكن لم يوجد مكان تضع القطعة الباقية فيه، ولم يكن من الممكن لها أن ترميها. احمرّ وجهها وحاولت ان تبدو صارمة بل وحتى ضعيفة البصر قليلاً وهي تقترب منهم.

قالت: "صباح الخير،" مقلدة صوت أمها. لكن الصوت بدا متكلفاً بشكل مخيف إلى درجة جعلتها تشعر بالخجل، وتلعثمت كفتاة صغيرة: "آه – همم – هل أتيتم – أمن أجل السرادق؟"

"هذا صحيح يا آنسة،" قال أطول الرجال، وكان شخصاً طويلاً نحيلاً يغطي النمش وجهه، ثم عدل من وضع حقيبة أدواته ورفع قبعته القشية إلى الوراء وابتسم لها. "هذا كل ما في الأمر."

كانت ابتسامته سهلة جداً وودودة جداً مما أتاح للورا أن تستعيد رباطة جأشها. ما ألطف عينيه، صغيرتان، لكنها زرقاوان زرقة غامقة ملفتة للنظر! والآن نظرت إلى الآخرين، وكانوا يبتسمون أيضاً. بدا وكأن ابتسامتهم تقول: "لا تقلقي، فلن نعض." ما ألطف هؤلاء العمال! وما أجمل هذا الصباح! لا يجب أن تتحدث عن الصباح؛ يجب أن تتصرف كشخص يدير عملاً. السرادق.

"إذن، ما رأيكم بمرج الزنبق؟ هل يصلح؟"

وأشارت إلى مرج الزنبق باليد التي لا تحمل بها الخبز والزبدة. التفتوا ونظروا في ذلك الاتجاه. مط شخص بدين قصير شفته السفلى، وقطب الرجل الطويل.

قال: "لا يلائم ذوقي. ليس بارزاً إلى حدٍّ كاف. في واقع الأمر بالنسبة لشيء كالسرادق" والتفت إلى لورا بطريقته السهلة، " إنك تريدين وضعه في مكان يضرب فيه عينيك بشدة، إذا فهمت ما أقصد."

تربية لورا جعلتها تتساءل للحظة ما إذا كان حديث أحد العمال عن ضربات شديدة للعين فيه احترام تام لها. لكنها فهمت قصده تماماً.

اقترحت: "زاوية من ملعب التنِس. لكن الفرقة الموسيقية ستكون في إحدى الزوايا."

"إذن ستكون لديكم فرقة موسيقية، أليس كذلك؟" قال عامل آخر. كان شاحباً، وكان مظهره منهكاً وهو يتفحص بعينيه السوداوين ملعب التنس. ما الذي يفكر به؟

قالت لورا بلطف: "مجرد فرقة صغيرة جداً." ربما لن يمانع كثيراً إذا كانت الفرقة صغيرة إلى هذا الحد. لكن الرجل الطويل قاطعه.

"انتبهي إليّ يا آنسة، هذا هو المكان، أمام تلك الأشجار، هناك. هذا المكان سيصلح."

أمام أشجار الكاراكاس، مما سيخبئ تلك الأشجار. وهي جميلة جداً، بأوراقها العريضة اللامعة وعناقيدها من الفاكهة الصفراء. كانت كأنها أشجار من نوع تتخيل أن ينمو في جزيرة مهجورة، فخورة بنفسها، وحيدة، ترفع أوراقها وثمارها نحو الشمس بنوع من الروعة الصامتة. هل لا بد أن تتخبأ خلف سرادق؟

لا بد من ذلك. فالرجال لم ينتظروا وحملوا قضبانهم على أكتافهم وتوجهوا نحو المكان. لم يبق سوى الرجل الطويل. انحنى، وقرص بأصابعه غصين خزامى، ورفع إبهامه وسبابته إلى انفه واستنشق الرائحة. حين رأت لورا تلك الحركة نسيت أمر الكاراكاس بأكمله في دهشتها من اهتمامه بأشياء كهذا الشيء – الاهتمام برائحة الخزامى. كم من الرجال الذين تعرفهم كانوا سيفعلون شيئاً من هذا النوع؟ فكرت: آه، كم يتمتع العمال بلطف استثنائي. ما الذي يمنع أن يكون أصدقاؤها من العمال بدلاً من الصبيان السخفاء الذين ترقص معهم والذين يأتون لتناول العشاء مساء يوم السبت؟ ستنسجم بشكل أفضل بكثير مع رجال مثل هؤلاء.

وبينما كان الرجل الطويل يرسم شيئاً على الوجه الخلفي لظرف في يده، شيئاً معقوداً إلى الأعلى أو متروكاً كي يعلّق، قررتْ أن الخطأ بأكمله

يعود إلى تلك التمييزات الطبقية المنافية للعقل. ولكنها من جهتها لم تشعر بها. ولا نتفة، ولا ذرة . . . والآن صدر صوت طرق المطارق الخشبية المتتالي. صفّر أحدهم، ورفع أحدهم صوته يغني: "هل أنت هناك يا رفيقتي؟" "رفيقتي!" الود المتضمن في الكلمة، الـــ – الـــ – ولمجرد أن تثبت لورا مدى سعادتها، لتبين للرجل الطويل مدى شعورها بالارتياح، ومدى احتقارها للأعراف الغبية، عضت لقمة كبيرة من الخبز والزبدة وهي تنظر إلى الرسم الصغير. شعرت وكأنها فتاة عاملة.

صاح صوت من المنزل: "لورا، لورا، أين أنت؟ الهاتف، يا لورا!"

"أنا آتية!"

مرت بخفة فوق المرج، وفوق الممر، وعلى السلم، وعبر الشرفة، وإلى الردهة. في الردهة كان أبوها ولوري Laurie ينظفان قبعتيهما استعداداً للذهاب إلى المكتب.

قال لوري بسرعة شديدة: "أقول يا لورا، يمكنك أن تلقي نظرة سريعة على معطفي قبل حلول الظهر لتري إن كان بحاجة للكي."

قالت: "سأفعل." وفجأة لم تتمكن من كبح نفسها. هرعت إلى لوري وعانقته عناقاً خفيفاً سريعاً. قالت وهي تلهث: "آه، إنني فعلاً أحب الحفلات، ألا تحبها أنت؟"

قال صوت لوري الدافئ الصبياني: "إلى . . . حد ما،" وعانق هو أخته أيضاً، ثم دفعها برفق. "اهرعي إلى الهاتف يا فتاتي."

الهاتف. "نعم، نعم؛ آه نعم. كيتي Kitty؟ صباح الخير يا عزيزتي. تأتين إلى الغداء؟ تعالي يا عزيزتي. يسرنا بالطبع. ستكون وجبة متقشفة جداً – مجرد قشور خبز الساندوتش وأصداف حلوى الميرانغ meringue المكسرة، والبواقي. نعم، أليس يوماً رائعاً؟ ثوبك الأبيض؟ من الأكيد أنني

كنت سأختاره. دقيقة – ابقِي على الخط. أمي تناديني." وسندت لورا ظهرها. "ماذا يا أمي؟ لا يمكنني سماعك."

تدحرج صوت السيدة شريدان Mrs. Sheridan على السلم. "قولي لها أن تلبس تلك القبعة الحلوة التي كانت تضعها يوم الأحد الماضي."

"تقول أمي إن عليك أن تلبسي تلك القبعة الحلوة التي كنت تضعينها يوم الأحد الماضي. جيد. الساعة الواحدة. مع السلامة."

أعادت لورا السماعة، وقذفت بذراعيها فوق رأسها، وتنفست بعمق، ومطتهما ثم أنزلتهما. تنهدت: "هه،" وفي اللحظة التي تلت التنهيدة اعتدلت في جلستها بسرعة. كانت ساكنة، تصغي. بدا وكأن جميع أبواب المنزل مفتوحة، فالمنزل كان مليئاً بالحيوية من خطوات لينة سريعة وأصوات متدفقة. والباب القماشي الأزرق الذي يؤدي إلى مناطق المطبخ كان يفتح ويغلق بصوت مكتوم. والآن صدر صوت طويل ضاحك غير معقول. كان صوت البيانو الثقيل وهو يتحرك على دواليبه الصغيرة المتصلبة. لكن الهواء. إذا توقفتَ لتلاحظ، هل كان الهواء دائماً على هذا الشكل؟ كانت رياح خافتة قصيرة تلعب لعبة المطاردة، تدخل من أعلى النوافذ وتخرج من الأبواب. كما كانت توجد بقعتان صغيرتان من أشعة الشمس، إحداهما على المحبرة، والثانية على إطار صورة فضي، وكانتا تلعبان أيضاً. البقعتان الصغيرتان العزيزتان. خاصة تلك الواقعة على غطاء المحبرة. كانت دافئة تماماً. نجمة فضية دافئة صغيرة. كان يمكنها أن تقبّلها.

قرع جرس الباب الأمامي، وجاء صوت حفيف تنورة سايدي Sadie الزهرية اللون على السلم. تمتم صوت رجل، وأجابت سايدي بلا اكتراث: "أنا بالتأكيد لا أعرف. انتظر. سأسأل السيدة شريدان."

أتت لورا إلى الردهة. "ما الأمر يا سايدي؟"

"إنه بائع الزهور، آنسة لورا."

كان ذلك صحيحاً بالتأكيد. فهناك عند الباب من الداخل، انتصبت صينية قليلة العمق مليئة بقدور فخارية زرع فيها الزنبق الزهري اللون، دون أي نوع آخر. لا شيء سوى الزنبق – زنبق كانا، زهوره كبيرة لونها زهري، مفتحة، متألقة، تكاد تكون حية ومخيفة على سوقها القرمزية المشرقة.

قالت لورا: "آه يا سايدي!" وكان صوتها كأنه أنة صغيرة. وانحنت كأنها تريد أن تدفئ نفسها بوهج الزنبق؛ شعرت أن الزنابق بين أصابعها، على شفتيها، تنبت في صدرها.

قالت بصوت ضعيف: "يوجد خطأ ما. لم يطلب أحد كمية بهذا الحجم قط. سايدي، اذهبي وابحثي عن أمي."

"يا ابنتي الحبيبة، لا تودين أن تكون لك أم منطقية، أم تودين؟ لا تفعلي ذلك. هاهو الرجل.

حمل المزيد من الزنبق، صينية أخرى كاملة.

"قالت السيدة شريدان: "صفها عند المدخل تماماً، على كلا جانبي الردهة، من فضلك. ألا توافقينني يا لورا؟"

"بلى يا أمي."

في غرفة الجلوس كانت مِغ وجوزي وهانس الصغير قد تمكنوا أخيراً من نقل البيانو.

"الآن يمكن أن نضع هذه الكنبة عند الجدار ونخرج كل شيء من الغرفة باستثناء الكراسي، ما رأيك؟"

"تماماً."

"هانس، انقل هذه الطاولات إلى غرفة التدخين، وأحضر مقشة لإزالة هذه العلامات من على السجادة، و – لحظة يا هانس –" كانت جوزي تحب إصدار الأوامر للخدم، وهم يحبون إطاعتها. فدائماً كانت توحي لهم

بالشعور بأنهم يشاركون في مسرحية ما. "اطلب من أمي ولورا أن تأتيا هنا على الفور."

"حاضر يا آنسة جوزي."

التفتت إلى مغ. "أريد أن اسمع كيف سيكون صوت البيانو، وذلك في حالة أن طُلِب مني أن أغني في فترة الظهيرة. دعينا نجرّب 'هذه الحياة متعبة.'"

بوم تا-تا-تا تي-تا! دوى صوت البيانو بعاطفة بالغة إلى حد جعل التعبير على وجه جوزي يتغير. ضمت يديها، ونظرت نظرة حزينة ومبهمة إلى أمها ولورا وهما تدخلان.

"هذه الحياة متعبة،

دمعة – تنهيدة.

حب يتغير،

هذه الحياة متعبة،

دمعة – تنهيدة.

حب يتغير،

ثم . . . وداعاً!"

لكن عند كلمة "وداعاً" وعلى الرغم من أن صوت البيانو كان يائساً أكثر من أي وقت سابق، انفرج وجهها بابتسامة مشرقة، خالية من التعاطف تماماً.

أشرقت وهي تسأل: "أليس صوتي جميلاً يا ماما؟"

هذه الحياة متعبة،

الأمل يأتي ليموت.

حلم – استيقاظ."

لكن سايدي قاطعتهن الآن. "سايدي، ما الأمر؟"

"إذا سمحت يا سيدتي، الطباخة تقول إن أعلام السندوتشات عندك؟"

"الأعلام للسندوتشات، يا سايدي؟" كررت السيدة شريدان بصوت حالم. وأدركت الابنتان من تعبير وجهها أن الأعلام ليست عندها. "سأرى." ثم خاطبت سايدي بحزم:

"قولي للطباخة أنها ستكون عندها خلال عشر دقائق."

ذهبت سايدي.

"قالت الأم بسرعة: "الآن يا لورا، تعالي معي إلى غرفة التدخين بسرعة. عندي الأسماء في مكان ما على ظهر ظرف، وعليك أن تكتبيها لي. مِغ، اصعدي إلى الطابق الأعلى هذه اللحظة واخلعي هذا الشيء المبلل من على رأسك. جوزي، اذهبي وأكملي لبسك هذه اللحظة. هل تسمعن يا بنات، أم هل سأضطر لإخبار والدكن حين يأتي إلى البيت هذا المساء؟ و – وجوزي، هدئي الطباخة إذا صدف ودخلتِ المطبخ. إنني في رعب منها هذا الصباح."

تم العثور على الظرف في النهاية خلف ساعة غرفة الطعام، رغم أن السيدة شيردان لم تستطع تخيل كيفية وصوله إلى هناك.

"لا بد أن إحداكن يا بنات سرقته من حقيبتي، لأنني أتذكر بوضوح – جبنة كريمة وخثارة الليمون، هل قمت بذلك؟"

"نعم."

"بيض و –" أبعدت السيدة شريدان بالظرف عن عينيها. "تبدو الكلمة وكأنها جرذون. لا يمكن أن تكون جرذون، صح؟"

"زيتون يا حبوبتي،" قالت لورا وهي تنظر من فوق كتف أمها.

"نعم بالطبع، زيتون. ليس هناك انسجام صوتي على الإطلاق. بيض وزيتون."

انتهتا أخيراً، وحملتها لورا إلى المطبخ. وجدت جوزي هناك تهدئ الطباخة، التي لم تبدُ مخيفة على الإطلاق.

قالت جوزي بصوتها الجذل: "لم أر في حياتي سندوتشات متقنة ورائعة كهذه. كم نوعاً قلتِ أنك أعددتِ، خمسة عشر؟"

"خمسة عشر، يا آنسة جوزي."

"حسن، أيتها الطباخة. أهنئك."

جرفت الطباخة قشر الخبز بسكين السندوتش الطويلة، وابتسمت ابتسامة عريضة.

"أتى شخص من غوبر Gober،" أعلنت سايدي ذلك من حجرة المؤن، فقد رأت الرجل يمر عند النافذة.

معنى ذلك أن كعكات القشدة قد أتت. كان غوبر مشهوراً بصنع كعكات القشدة، بحيث لم يفكر أحد بصنعها في البيت.

أمرت الطباخة: "أحضريها وضعيها على الطاولة يا ابنتي."

أحضرتها سايدي وعادت إلى الباب. وبالطبع كانت جوزي ولورا أكبر من أن تهتما فعلاً بمثل هذه الأشياء. ومع ذلك لم تتمالكا من الاتفاق على أن الكعكات تبدو مغرية جداً. جداً. بدأت الطباخة ترتبها وهي تهزها لإزالة السكر الزائد.

قالت لورا: "ألا تذكرك بكل الحفلات التي كان المرء فيها؟"

قالت جوزي ذات الطبع العملي، "أعتقد ذلك،" رغم أنها لم تكن تحب أن تتذكر أي شيء. "لا بد لي أن أقول إنها تبدو خفيفة بشكل جميل كالريشة."

قالت الطباخة بصوتها المريح: "لتتناول كل منكما واحدة يا عزيزتيّ، فأمكما لن تعرف."

آه، مستحيل. تخيلوا كعكات القشدة بعد الفطور بمثل هذه الفترة القصيرة. الفكرة نفسها تجعل المرء يرتعش." ورغم هذا كله، بعد دقيقتين كانت جوزي ولورا تلحسان أصابعهما وعليهما تعبير لا يأتي إلا من القشدة المخفوقة.

اقترحت لورا: "لنذهب إلى الحديقة من الباب الخلفي. أريد أن أرى ما يفعله الرجال بالنسبة للسرادق. إنهم رجال لطفاء جداً."

لكن الباب الخلفي كان مسدوداً بوقوف الطباخة وسايدي وهانس أمامه.

لقد حدث شيء.

أصدرت الطباخة صوتاً كصوت دجاجة متهيجة: "تَك – تَك – تَك." ووضعت سايدي كفها على خدها كما لو أن سنها تؤلمها. وتلوى وجه هانس وهو يحاول أن يفهم. بدا الرجل الآتي من محل غوبر وحده الذي يستمتع بالموقف.

"ما الأمر؟ ماذا حدث؟"

قالت الطباخة: "حدث حادث رهيب، وقُتِل رجل."

"قُتِل رجل! أين؟ كيف؟ متى؟"

لكن الرجل الآتي من محل غوبر لم يكن مستعداً لأن تُخْطَف القصة من بين يديه.

"أتعرفين تلك الأكواخ الصغيرة الموجودة في الأسفل هنا، يا آنسة؟" تعرفها؟ بالطبع، تعرفها. "حسن، هناك شاب يسكن هناك، اسمه سكوت Scott، صاحب عربة. فزع حصانه من قاطرة بخارية عند زاوية شارع هوك Hawke هذا الصباح، وألقى بالشاب إلى الخلف حيث سقط على رأسه. قُتِل."

"مات!" حدقت لورا بالرجل الآتي من غوبر.

قال الرجل وهو يستمتع: "كان ميتاً حين حملوه. وكانوا ماضين به إلى بيته أثناء قدومي إلى هنا." وقال للطباخة: "لقد خلف زوجة وخمسة صغار."

أمسكت لورا بكم أختها وجرتها عبر المطبخ إلى الجانب الآخر من الباب القماشي الأخضر، وهي تقول: "جوزي، تعالي هنا." توقفت هناك واستندت إلى الباب، وقالت وهي في رعب: "جوزي! كيف سنوقف كل شيء؟"

صاحت جوزي بدهشة: "توقف كل شيء يا لورا! ماذا تعنين؟"

"نوقف حفلة الحديقة بالطبع." ما سبب تظاهر جوزي بعدم الفهم؟

لكن دهشة جوزي ازدادت. "توقف حفلة الحديقة؟ يا عزيزتي لورا، لا تكوني سخيفة. بالطبع لا نستطيع فعل شيء من هذا النوع. لا يتوقع أحد منا ذلك. لا تتطرفي."

"لكن لا يمكن لنا أن نقيم حفلة حديقة بوجود رجل ميت تماماً خارج البوابة الرئيسية."

كان ذلك متطرفاً فعلاً، فالأكواخ الصغيرة كانت في حارة خاصة بها تماماً عند أسفل جادة شديدة الانحدار تؤدي إلى المنزل. وكان طريق عريض يفصل بين الطرفين. صحيح أن الأكواخ كانت قريبة جداً. كانت قذى للعين لا يمكن أن يوجد أسوأ منه، ولم يكن لها الحق أن توجد في ذلك الحي على الإطلاق. كانت مساكن وضيعة صغيرة مطلية بلون بني كلون الشوكولاه. وفي رقع الحدائق لا يوجد سوى نبات الملفوف ودجاجات مريضة وعلب بندورة. حتى الدخان المتصاعد من مداخنها كان فقيراً مدقعاً. نتف صغيرة من الدخان، تختلف جداً عن الدخان المتصاعد من مداخن عائلة شريدان الذي يبدو كريش طائر فضي ينتشر في الهواء. كانت النساء الغسالات تسكن في الحارة وكذلك منظفو المداخن وأحد الاسكافيين، ورجل زينت واجهة منزله بأقفاص طيور شديدة الصغر. وازدحم الأطفال في الحارة. وحين كان أولاد عائلة شريدان صغاراً، كان محرماً عليهم أن يطؤوا المكان بسبب اللغة المقرفة وما يمكن أن يصيبهم. ولكن منذ أن كبرت لورا ولوري، كانا أحياناً يطوفان في

الخارج خلسة ويمشيان عبر الحارة. كانت مقرفة وقذرة. كانا يشعران بقشعريرة حين يخرجان منها. ومع ذلك لا بد للمرء أن يمضي إلى كل مكان؛ يجب أن يرى كل شيء. لذلك كانا يمشيان عبر الحارة.

قالت لورا: "وفكري فقط كيف سيكون وقع صوت الفرقة الموسيقية على المرأة المسكينة."

بدأت جوزي تنزعج انزعاجاً جدياً: "إذا كنت ستمنعين فرقة موسيقية من العزف في كل مرة يحدث فيها حادث لأحد الأشخاص، فستصبح حياتك عسيرة جداً. أنا آسفة لما حدث بقدر ما أنت آسفة، وأشعر بالقدر نفسه من التعاطف." أصبحت عيناها أكثر قسوة، ونظرت إلى أختها تماماً كما اعتادت أن تفعل حين كانتا تتشاجران وهما صغيرتين. قالت بصوت خافت: "لن تعيدي عاملاً سكراناً إلى الحياة حين تسيطر عليك العاطفة."

التفتت لورا بغضب عارم نحو جوزي. "سكران! من قال إنه كان سكراناً؟" قالت ما اعتادت أن تقوله في تلك المناسبات: "سأذهب مباشرة لأخبر أمي."

قالت جوزي بصوت كالهديل: "اذهبي يا عزيزتي."

أدارت لورا أكرة الباب الزجاجية الكبيرة. "أمي، هل يمكنني دخول غرفتك؟"

"بالطبع يا ابنتي. لِمَ، ما الأمر؟ ما الذي جعل لونك هكذا؟" والتفتت السيدة شريدان من طاولة زينتها. كانت تجرب قبعة جديدة.

بدأت لورا: "أمي، لقد قُتِل رجل."

قاطعتها أمها: "ليس في الحديقة؟"

"كلا، كلا!"

"آه، لقد سببت لي رعباً شديداً!" تنهدت السيدة شريدان بارتياح، وخلعت القبعة الكبيرة ووضعتها على ركبتيها.

قالت لورا: "لكن استمعي يا أمي." وروت القصة وهي لا تكاد تلتقط أنفاسها، وصوتها شبه مختنق. "بالطبع لا يمكننا إقامة حفلتنا، أليس كذلك؟" قالت متوسلة. "الفرقة والجميع على وشك الوصول. سيسمعوننا يا أمي؛ هم جيراننا تقريباً!"

كانت دهشة لورا كبيرة إذ تصرفت أمها مثل جوزي؛ كان تَحَمُّل ذلك أصعب لأن الأمر بدا مسلياً لها. ورفضت أن تأخذ لورا على محمل الجد.

"لكن يا ابنتي العزيزة، استعملي حكمتك الفطرية. إننا لم نسمع بذلك إلا بالصدفة. لو مات أحد هناك موتاً طبيعياً – وأنا لا أفهم كيف يمكنهم البقاء على قيد الحياة في هذه الحفر الصغيرة الضيقة – فسنستمر في إقامة حفلتنا، أليس هذا صحيحاً؟"

اضطرت لورا لأن تقول "نعم" إجابة على ذلك، لكنها شعرت أن الأمر خاطئ بأكمله. جلست على كنبة أمها وقرصت هدب الوسادة.

سألت: "أمي، أليس هذا شديد القسوة من قبلنا؟"

"حبيبتي!" نهضت السيدة شريدان وأتت إليها وهي تحمل القبعة. قبل أن تتمكن لورا من إيقافها وضعتها على رأسها. قالت الأم: "يا ابنتي، القبعة لك. إنها مصنوعة لك، وهي لسن أصغر جداً من سني. لمْ أرك قط تبدين وكأنك صورة بهذا الشكل. انظري إلى نفسك!" ورفعت مرآتها اليدوية.

قالت لورا مرة أخرى: "ولكن يا أمي." لم تستطع النظر إلى نفسها، وأدارت بصرها جانباً.

هذه المرة نفذ صبر السيدة شريدان كما حدث لجوزي من قبل.

قالت ببرود: "أنت تتصرفين بشكل غير معقول بتاتاً يا لورا. أمثال هؤلاء الناس لا يتوقعون تضحيات منا. وليس من التعاطف أن نفسد متعة الجميع كما تفعلين أنت الآن."

قالت لورا: "أنا لا أفهم،" وأسرعت خارجة من الغرفة واتجهت إلى غرفة نومها. هناك، بمحض الصدفة، كان أول ما رأته هو هذه الفتاة الفاتنة في المرآة، بقبعتها السوداء المزينة بشريط من زهور الربيع الذهبية وشريط مخملي أسود طويل. لم تتخيل ابداً أنه يمكنها أن تبدو بهذه الصورة. فكرت: هل أمها على صواب؟ والآن راودها أمل بأن تكون أمها محقة. هل أنا أتطرف؟ من المحتمل أنه تطرف. للحظة واحدة فقط لمحت مرة أخرى تلك المرأة المسكينة وأولئك الأطفال الصغار، والجسد وهو يُحمل إلى المنزل. لكن الصورة بدت ضبابية، غير واقعية، كصورة في صحيفة. سأتذكرها مرة أخرى حين تنتهي الحفلة، هكذا قررت. وبشكل ما بدت هذه الخطة أفضل خطة . . .

انتهى الغداء في الواحدة والنصف. حين بلغت الساعة الثانية والنصف كان الجميع مستعدين للنزال. كانت الفرقة الموسيقية بمعاطفها الخضراء قد وصلت ووضعت في مكانها في زاوية من ملعب التِنِس.

قالت كيتي ميتلاند Kitty Maitland بصوت كالغناء: "عزيزتي! أليسوا مثل ضفادع إن صح التشبيه؟ كان يجب أن تضعيهم في دائرة وقائد الفرقة في المنتصف على ورقة شجر."

وصل لوري وحياهن وهو في طريقه لتغيير ملابسه. لدى رؤيته تذكرت لورا الحادث مرة أخرى. أرادت أن تخبره. إذا وافق لوري مع الآخرين، فمن المحتم أن يكون الأمر على ما يرام. لذلك تبعته إلى الردهة.

"لوري!"

"مرحباً!" كان في منتصف المسافة على السلم، لكن حين التفت ورأى لورا نفخ خديه وجحظ عينيه وهو ينظر إليها. قال لوري: "يا إلهي يا لورا! إنك تبدين مذهلة فعلاً. يا لها من قبعة ممتازة بلا أدنى شك!"

قالت لورا بصوت خافت: "صحيح؟" وابتسمت للوري ولم تخبره.

بعد ذلك بفترة قصيرة بدأ الناس يفدون كموجات متدفقة. بدأت الفرقة تعزف، وأخذ النادلون المستأجرون يهرعون بين المنزل والسرادق. أينما نظرت، كنت ترى أزواجاً من الأشخاص يتمشون، ينحنون على الأزهار، يحيون الآخرين، يتحركون على المرج. كانوا مثل طيور مشرقة حطت في حديقة آل شريدان لقضاء عصر هذا اليوم، في طريقها إلى – أين؟ آه، ما أسعد أن يكون المرء مع أناس سعيدين، أن يضغط على الأيدي، وعلى الوجنات، أن يبتسم للعيون.

"حبيبتي لورا، ما أحلاك."

"يا للقبعة الملائمة يا ابنتي."

"لورا، تبدين وكأنك اسبانية. لم أرك قط بمثل هذا الجمال الآسر."

وكانت لورا تجيب وهي متوهجة: "هل شربت الشاي؟ ما رأيك بشيء من البوظة؟ إن بوظة زهرة الحُب ذات مذاق خاص فعلاً." هرعت إلى أبيها وتوسلت إليه: "بابا، ألا يمكن أن نعطي أعضاء الفرقة شيئاً يشربونه؟"

وأخذت فترة العصر المثالية هذه تنضج ببطء، ثم ذبلت ببطء، ثم انطوت وريقاتها ببطء.

"لم تكن هناك حفلة حديقة أكثر بهجة قط ..." "أكبر نجاح ..." "تماماً أفضل ..."

ساعدت لورا أمها في توديع الضيوف. وقفتا جنباً إلى جنب في الردهة إلى أن انتهت الحفلة.

"انتهت تماماً، انتهت تماماً، والحمد لله." قالت السيدة شريدان. "اجمعي الآخرين يا لورا. لنذهب ونتناول قهوة طازجة، فأنا منهكة. نعم، كانت ناجحة جداً. ولكن آه، هذه الحفلات، هذه الحفلات! لِمَ تصرون يا أولاد على إقامة الحفلات!" وجلسوا جميعهم في السرادق المهجور.

"بابا العزيز، كل سندوتش. أنا كتبت العلم."

"شكراً." عض السيد شريدان عضة فأجهز على السندوتش، وأخذ واحدة أخرى. قال: "أفترض أنكن لم تسمعن بالحادث البشع الذي حدث اليوم؟"

"يا عزيزي،" قالت السيدة شريدان وهي ترفع يدها. "لقد سمعنا. وكاد أن يخرب الحفلة. فقد أصرت لورا أننا يجب أن نلغيها."

"أمي!" لم تشأ لورا أن يضايقوها حول هذا الموضوع.

قال السيد شريدان: "ومع ذلك كانت مسألة رهيبة. والشاب متزوج أيضاً. يسكن تماماً في الحارة السفلى، وقد ترك زوجة ونصف دستة من الأطفال، كما يقولون."

خيم صمت قصير غير مريح. تململت السيدة شريدان وهي ممسكة بفنجانها. في الحقيقة، الوالد تصرف بدون لباقة . . .

فجأة رفعت بصرها. هناك على الطاولة كانت جميع هذه السندوتشات والكعكات والحلوى، جميعها لم تؤكل، جميعها ستتبدد. وخطرت لها إحدى أفكارها النيرة.

قالت: "عندي فكرة. سنعدّ سلة. سنرسل إلى المخلوقة المسكينة بعض هذا الطعام اللذيذ الرائع. على أي حال، ستكون أعظم هدية للأطفال. ألا توافقون؟ ولا بد أنه سيكون عندها جيران يزورونها وما إلى ذلك. ما أجمل أن كل شيء جاهز فعلاً. لورا!" وقفزت واقفة. "أحضري لي السلة الكبيرة من خزانة السلم."

قالت لورا: "ولكن يا أمي، أتعتقدين حقاً أنها فكرة جيدة؟"

مرة أخرى كان من الغرابة الشديدة أن تكون مختلفة عنهم جميعاً. أَخْذُ بقايا من حفلتهم. هل ستسر المرأة المسكينة بذلك حقاً؟"

"بالطبع! ما الذي حدث لك اليوم؟ قبل ساعة أو ساعتين كنت تصرين على أن نظهر التعاطف، والآن –"

حسن! ركضت لورا لإحضار السلة، التي قامت أمها بملئها بأكداس من الطعام.

قالت: "خذيها بنفسك يا حبيبتي. اجري إلى هناك كما أنت. كلا، انتظري، خذي أيضاً هذه الزنابق."

قالت جوزي صاحبة التفكير العملي: "ستفسد سوق الأزهار ثوبها."

نعم، صحيح. في الوقت المناسب. "إذن السلة فقط. ويا لورا!" – تبعتها أمها إلى خارج السرادق – "لا تقومي لأي سبب من الأسباب –"

"بماذا يا أمي؟"

لا، من الأفضل عدم إدخال أفكار كهذه في ذهن الفتاة! "لا شيء! عجلي."

كانت ظلمة المساء قد بدأت لتوها حين أغلقت لورا بوابتي الحديقة. ركض كلب كبير إلى جانبها وكأنه ظل لها. كان الطريق أبيض لامعاً، وفي التجويف في الأسفل، قبعت الأكواخ في ظل قاتم. بدا كل شيء شديد الهدوء بعد فترة العصر. هاهي في طريقها تنحدر فوق التل إلى مكان يستلقي فيه رجل ميت، وهي غير قادرة على إدراك ذلك. لم لا تقدر؟ توقفت دقيقة، بدا لها أن القبلات والأصوات ورنين الملاعق والضحك ورائحة العشب المهروس كانت جميعاً في داخلها بطريقة ما. لم يكن لديها متسع لأي شيء آخر. ما أغرب ذلك! رفعت بصرها إلى السماء الشاحبة، وكل ما فكرت به هو: "نعم، كانت أنجح الحفلات."

الآن عبرت الطريق العريض، وبدأت الحارة، مليئة بالدخان ومعتمة. كانت نساء يضعن شالات ورجال يضعون قبعات صوفية يهرعون في طريقهم. واستند الرجال على الأسيجة الخشبية، وكانت لعب الأطفال في المداخل. وصدرت عن الأكواخ الصغيرة الوضيعة همهمة خافتة. كان في بعضها وميض ضوء، وكان ظل يشبه السرطان المائي يتحرك عبر النافذة. طأطأت لورا رأسها وأسرعت في طريقها، وتمنت الآن لو أنها ارتدت معطفاً.

فقد كان ثوبها يلمع بشدةَ والقبعة الكبيرة ذات الشريط المخملي – لو أنها استبدلتها بقبعة أخرى! هل كان الناس ينظرون إليها؟ لا شك في ذلك. كان مجيئها خطأ، كانت تعرف من البداية أنه خطأ. هل تعود أدراجها الآن؟

كلا، فات الأوان. هذا هو المنزل. لا بد أنه هو. فقد وقفت ثلة مظلمة من الأشخاص خارجه. وإلى جانب البوابة جلست عجوز هرمة جداً على كرسي وبيدها عكاز، تراقب ما حولها. وكانت قدماها فوق جريدة. توقفت الأصوات حين اقتربت لورا، وانشقت المجموعة، وكأنهم كانوا يتوقعونها، كأنهم يعرفون أنها قادمة إلى هنا.

كانت لورا في حالة عصبية رهيبة. قالت، وهي تلقي بالشريط المخملي فوق كتفها، مخاطبة امرأة واقفة: "أهذا بيت السيدة سكوت." وقالت المرأة وهي تبتسم ابتسامة غريبة: "نعم يا فتاتي."

آه لو أنها تكون بعيدة عن هذا! بل إنها قالت فعلاً: "ساعدني يا ربي،" وهي تسير على الممر الضيق وتدق الباب. أن تكون بعيدة عن هذه العيون المحملقة أو أن يغطيها شيء ما، حتى لو كان أحد شالات هذه النساء. سأترك السلة وأمضي، هكذا قررت. بل لن أنتظر أن يفرغوها.

فُتح الباب. ظهرت في العتمة امرأة صغيرة الحجم ترتدي السواد.

قالت لورا: "أأنت السيدة سكوت؟" لكن ما أرعبها هو أن المرأة أجابت: "ادخلي يا آنسة،" وانغلق الباب عليها وهي في المدخل.

قالت لورا: "لا، لا أريد أن أدخل. لا أريد سوى أن أترك هذه السلة. أمي أرسلت –"

بدا أن المرأة الصغيرة في المدخل المعتم لم تسمعها. "تعالي من هنا من فضلك يا آنسة،" قالت بصوت متملق، وتبعتها لورا.

وجدت نفسها في مطبخ منخفض صغير بائس، يضيؤه مصباح يصعد منه الدخان. كانت توجد امرأة جالسة أمام النار.

قالت المخلوقة الصغيرة الحجم التي أدخلتها" "إِم Em. إِم! إنها سيدة شابة." التفتت إلى لورا، وقالت بشكل متعمد: "أنا أختها يا آنسة. ستعذرينها، أليس كذلك؟"

"طبعاً، طبعاً!" قالت لورا. "أرجوك، أرجوك لا تزعجيها. أنا – أنا أريد فقط أن أترك –"

لكن في تلك اللحظة التفتت المرأة الجالسة قرب النار. بدا وجهها رهيباً وهو منتفخ، أحمر، متورم العينين، متورم الشفتين. بدا كأنها لم تفهم سبب وجود لورا في المكان. ما معنى ذلك؟ لِمَ تقف هذه الغريبة في المطبخ ومعها سلة؟ ما الغرض من ذلك كله؟ وتغضن الوجه المسكين مرة أخرى.

قالت الأخرى: "حسن يا عزيزتي. سأشكر السيدة الشابة."

ومرة أخرى بدأت تقول: "أنا متأكدة أنك ستعذرينها يا آنسة"، وحاول وجهها المنتفخ أيضاً أن يبتسم ابتسامة متملقة.

لم تكن لورا تريد سوى الخروج، الابتعاد. عادت إلى المدخل. فُتِح الباب. سارت مباشرة إلى غرفة النوم حيث كان الميت ممدداً.

قالت أخت إم: "تودين إلقاء نظرة عليه؟" تخطت لورا واتجهت إلى السرير. "لا تخافي يا فتاتي" – والآن بدا صوتها حنوناً وخجولاً، وبحنان أنزلت الغطاء – "كأنه صورة. لا يوجد شيء يمكن النظر إليه. تعالي يا عزيزتي."

أتت لورا.

تمدد شاب في السرير، في نوم عميق – نوم عميق جداً مستغرق فيه جداً إلى درجة أنه كان بعيداً، بعيداً جداً عنهما. آه كم هو بعيد، كم هو هادئ. كان يحلم. لا توقظوه مرة أخرى أبداً. كان رأسه غارقاً في الوسادة، وعيناه مغلقتان؛ كانتا عمياوان تحت الجفون المغلقة. كان مستسلماً لأحلامه. كان رائعاً، جميلاً. بينما كانوا يضحكون والفرقة الموسيقية تعزف، كانت هذه

الأعجوبة تصل إلى الحارة. سعيد... سعيد... كل شيء على ما يرام يقول وجهه النائم. هذا كله كما يجب أن يكون. أنا راضية.

لكن رغم ذلك يجب عليك أن تبكي، ولم تستطع الخروج من الغرفة بدون أن تقول شيئاً له. بكت لورا بصوت عال وكأنها طفلة.

قالت: "اعذرني على هذه القبعة."

ولم تنتظر أخت إم هذه المرة. وجدت طريقها للخروج عبر الباب، والسير على الممر، متجاوزة جميع هؤلاء الأشخاص القاتمين. عند زاوية الحارة التقت بلوري.

خرج من الظل. "أهذه أنت يا لورا؟"

"أجل."

"بدأت أمي تقلق. هل سار الأمر على ما يرام؟"

"نعم، تماماً. آه يا لوري!" أمسكت بذراعه وضغطت نفسها عليها.

"أنت لا تبكين، أم أنك تبكين؟"

هزت لورا رأسها بالنفي. لكنها كانت تبكي.

وضع لوري ذراعه حول كتفها، وقال بصوته الدافئ المحب: "لا تبكِ. هل كان الوضع رهيباً؟"

انتحبت لورا: "كلا. كان بكل بساطة رائعاً. لكن يا لوري –" توقفت ونظرت إلى أخيها. قالت متلعثمة: "أليست الحياة، أليست الحياة –" لكنها لم تستطع أن تشرح ما هي الحياة. لا يهم، فقد فهم تماماً.

قال لوري: ""أليست كذلك يا عزيزتي؟"

أوليفياماننغ

سيدتان بدون مرافقة(١)

أوليفيا ماننغ (١٩٠٨ – ١٩٨٠) كاتبة بريطانية: شاعرة وروائية وقصصية وكاتبة تمثيليات إذاعية ومراجعات أدبية. تصف أعمالها رحلات وأسفار شخصية، ومسرح أحداثها يشمل إنغلترا وإيرلندا وأوروبا والشرق الأوسط، وتتصف بوصفها الحي للأماكن. تعالج أعمالها مواضيع تتعلق بالنزوح وبالتغرب الجسدي والعاطفي. نشرت أول رواية لها عام ١٩٣٧، وهي بعنوان **تتغير الريح** *The Wind Changes*. وأشهر أعمالها مجموعة من ست روايات تدعى معاً **حظوظ الحرب** *Fortunes of War*، وهي تتألف من الثلاثية البلقانية والثلاثية الشرقية.

بدأ الليل يخيم قبل أن تجدا السفينة. كانت سيارة قد جاءت بالسيدتين في عجلة عبر الميناء الرث – الذي يشبه دكاناً ذا طابع إيطالي مبني بتكلفة زهيدة – ولكن في أحواض السفن ضل السائق طريقه. اصبح سريع الانفعال وبدأ يتمتم لنفسه. كان يدخل أحد الممرات، ويخرج من آخر، ويصل إلى هذا الرصيف أو ذاك، ولكن دائماً الرصيف الخاطئ. كان ينادي "**يوليانا**" للعمال الذين يفرغون السفن ويحملونها وفي كل مرة يوجهونه إلى مكان آخر.

---

(١) هذه ترجمة قصة "Ladies without Escort" للكاتبة Olivia Manning. والقصة نشرت في كتاب: *Penguin Modern Stories 12*. Judith Burnley, ed. Penguin Books, 1972.

شاهدت بام Pam – التي بدأت تضطرب مع ازدياد الرقم على العداد – زياً رسمياً بأزرار ذهبية من خلال الغسق وترجت برندا أن تطلب من السائق التوقف. أشار المسؤول إلى مسافة بعيدة، وتم العثور على **يوليانا** راسية عند أقصى طرف منطقة الأحواض. تلقى السائق – الذي شعر أنه أضاع ما يكفي من الوقت في العثور عليها – بقشيشاً مفرطاً في الزيادة بدون تعليق، ورمى المتاع خارج سيارته ومضى.

كان الرصيف مهجوراً. ونظرت الامرأتان إلى السفينة بحثاً عما يريحهما – بعد أن تُرِكَتا في الصمت الخارجي المحيط بهما – لكن لم يبد ما يدل على الحياة فيها. كان النور الوحيد ينبعث من الوميض الأصفر في السماء الغربية الذي ألقى غلافاً على جناح **يوليانا** جعله يبدو أفضل مما هو بالفعل. هي سفينة شحن تحمل اثني عشر راكباً، لكن طلاءها الأبيض منحها أناقة وجعلها تبدو أكبر من حجمها الحقيقي. قالت برندا Brenda، صاحبة فكرة الرحلة، بارتياب: "ما رأيك؟"

"لا بأس."

"هل نترك المتاع ونصعد إلى السفينة؟"

الرحلة الطويلة بالقطار، وهبوط الليل الباكر (كان الشهر تشرين الأول وهو وقت متأخر جداً بالنسبة للبحر المتوسط)، والرصيف الموحش، ومزاج سائق سيارة الأجرة العكر: هذه الأشياء أحبطت عزيمتهما، لكنهما الآن تستطيعان أن تأملا بالراحة والترحيب.

كان الجزء الرئيسي من ظهر المركب مليئاً بالفتحات المؤدية إلى الأسفل ومنشآت السفينة، لكن برندا صاحبة الخبرة قالت إن الركاب يجلسون على السطح عادة. بدأت تنظر عبر النوافذ متوقعة أن تجد الحجرات، لكنها لم تر سوى غرفة مظللة مليئة بالطاولات والكراسي.

"ما رأيك أن نلقي نظرة؟" كانت برندا توجه أسئلة لكنها تتصرف قبل أن تستطيع بام التقاط أنفاسها كي تجيب. حين فُتِح باب غرفة الطعام صدرت عنها رائحة عتيقة دهنية حسائية. وعلى الفور أشعلت لمبة نفسها خارج النافذة مما مكنهما من رؤية ثمانية طاولات مغطاة بأغطية بلاستيكية صفراء واثنين وثلاثين كرسياً خشبياً.

بينما تفحصت الامرأتان غرفة الطعام، صدر صوت مفتاح كهربائي وشعل مصباح علوي لكنه لم يعط كثيراً من النور وإنما عتمة لامعة. التفتتا وشاهدتا خلفهما رجلاً نحيلاً صغير الحجم، أقصر بمقدار قدم من أي منهما، ووجهه العريض الشاحب مغطى بأكمله بخطوط وكأنه طلاء زجاجي مشوي بحرارة عالية. وقد تعرف على جنسيتهما قبل أن تتكلما. قال وهو يبتسم: "لديكما تذاكر؟ نعم، من فضلكما؟"[1]

"نعم، من فضلك، لدينا تذاكر." ناولته برندا التذكرتين. "وهل لك أن تخبرنا أين نجد البهو؟"

أشار الرجل الذي يرتدي السترة البيضاء التي يلبسها المضيفون إشارة بدا وكأنه يضع بها **يوليانا** وجميع تجهيزاتها عند قدميها: "البهو هنا."

"لكن هذه هي غرفة الطعام. لا بد من وجود مكان للجلوس. قاعة الجلوس، إذا كنت تفضل ذلك. أين قاعة الجلوس؟"

أصبحت عينا المضيف البنية الصفراء حنونتين وكأن كلماتها سحرته. أشار مرة أخرى: "غرفة الجلوس هنا."

"أتعني أن هذه هي الغرفة الوحيدة للركاب؟"

"هذه هي الوحيدة، نعم."

دارت برندا نحو بام: "يا إلهي! لا بد أن ذلك الوكيل كان مجنوناً."

---

(١) يتكلم المضيف بلغة إنغليزية مكسرة.

وبما أن برندا هي التي اكتشفت الوكيل، فقد أسرعت بام لالتماس العذر له. "بالطبع لم يكن بإمكانه أن يعرف. وهو لم ير السفينة في حياته."

"لكننا ندفع له لكي يعرف، وعمله يتطلب منه أن يعرف. وقد نصحنا بهذه السفينة البائسة."

"ومع ذلك فهي رحلة زهيدة الثمن جداً. أعتقد أنه أراد أن يوفر علينا بعض المال."

"صدّقنا أنه يريد أن يوفر علينا المال! لقد اصطادنا. لدي رغبة قوية في الذهاب إلى أفضل فندق ورفع دعوى عليه."

"لن نصل إلى الفندق أبداً، فلا توجد سيارة أجرة. سنمضي الليلة بأكملها على الرصيف."

"هذا صحيح. نحن عالقتان على هذه السفينة إن أعجبنا ذلك أم لم يعجبنا."

ارتاحت بام لسماع هذا وأبدت من الحماسة أكثر مما تشعر به: "ليست بهذا السوء. لا تقلقي سنكون على ما يرام. في الواقع، الوضع ينطوي على شيء من المتعة."

نظرت برندا نظرة تساؤل إلى بام، ثم تنهدت: "حسن إذن، علينا أن نبذل جهدنا لتقبل الوضع. فلنشاهد القمرات."

كانت القمرات على السطح الأدنى، وقادهم المضيف إلى القمرة ذات المضجعين. ورغم أن التذكرتين ذكرتا أن الراكبتين ستشتركان في قمرة واحدة، فإن برندا نظرت إليها بدهشة.

"لا بد أن تكون لكل منا قمرة."

نظر المضيف إلى برندا ببؤس متعاطف، بعد أن آلمته شكاوى برندا السابقة. "جميع القمرات لشخصين. **جميعها**."

توجهت برندا إلى بام: "كيف يمكننا أن نتقاسم هذا المكان لمدة اسبوع؟"

كانت بام قد تقاسمت مع غيرها أماكن أسوأ من هذا، لكنها شعرت أن الفوضى الناجمة عن مؤخرتين متقابلتين في قمرة ضيقة لن تصلح لبرندا. "من اللطيف أن تكون لكل منا قمرتها."

"بالطبع."

فجأة أصبحت برندا – التي كانت حتى الآن متحفظة مع المضيف – ساحرة وودودة واستخدمت لهجة مقنعة، بينما بدأت تفتح حقيبتها وتخرج – كما لو كان ذلك عن غير قصد – ورقة مالية كبيرة ثمينة.

بدت عينا المضيف وكأنهما تذوبان لرؤيتها. "سأحاول. سأحاول." وهرع مبتعداً.

"ولا تنس متاعنا، فهو على الرصيف."

"كلا، كلا، سأحضره."

التفتت برندا إلى بام، ووجهها يشع بتعبير التملق المرتسم عليه. بقيت ابتسامتها ولكن ليس طويلاً، فهي لم ترد أن تقلل من قيمتها بالإفراط في استعمالها. "أعتقد أن شيئاً سيتحقق."

"أنا متأكدة من ذلك."

عاد المضيف يحمل حقيبة في كل يد وحقيبة أخرى تحت كل ذراع وكان في حالة من الاهتياج التآمري. وضع حقيبتي بام في القمرة، وطوى السرير الأعلى وأشّر بما يفيد أن القمرة لها، ثم بطريقة حميمية مرحة، أشار بيده إلى برندا كي تتبعه. غمزتْ بام ومضت بلهفة طفل وعدوه بهدية.

عادت بعد خمس دقائق، ومعها السلة التي تستخدم للنزهات والتي كانت قد حضرتها للقطار: "هل تريدين حقاً أن تذهبي وتأكلي الليلة في غرفة الطعام المقيتة؟ أنا على ثقة أنك لا تريدين. فلنتناول لقمة هنا." أخرجت من بين بواقي السلة علبة غير مفتوحة من خليط الكبد المهروس، وأقراص خبز مشتراة على رصيف القطار في فيرونا ونصف زجاجة من الويسكي.

كانت الامرأتان وهما مضطجعتان على طرفي سرير بام، تأكلان طعامهما وتشربان الويسكي، في حالة من التراخي الممتع، حين قرع جرس العشاء. انبعثت الحياة في السفينة، وسمعتا وقع أقدام تمر في الممر خارج القمرة.

سألت برندا: "من يسافر في مركب كهذا في اعتقادك؟"

"سنرى غداً."

أفرغت برندا آخر سنتمتر من الويسكي في كأس بام، وبام – التي تأثرت بهذا اللطف – ردت عليه باعتراف: "أتعرفين يا برندا، أنا لست حقاً السيدة سبيغت Spigget، بمعنى أنني زوجته. لقد تبنيت اسم روجر Roger العائلي بوثيقة غيرت بها اسمي."

"وما السبب؟ ألم يكن اسمك جيداً بما فيه الكفاية."

"أعتقد أن الواحدة منا تفعل ذلك بسبب صاحبات البيوت المؤجرة."

"ما علاقة الأمر بهن؟"

"إنهن لا يستسغن أن تكوني غير متزوجة. وكثير من الناس لا يستسيغون ذلك، ولا يريدون معرفتك."

وقفت برندا وهي تقول: "كنت أظن أنه لا أحد يهتم هذه الأيام. ليلة باكرة على ما أعتقد. لطيف أن يكون لكل منا قمرتها!"

أمسكت بام حقيبتها وقالت: "لا بد أن تسمحي لي بدفع نصف المبلغ."

"كلا. لا تزعجي نفسك بذلك. إنني مسرورة فقط بأننا هنا على سفينة ذات ادعاءات رأسمالية، لا يزال بإمكان النقود أن توفر للمرء ما يريده."

كانت الامرأتان قد التقتا للمرة الأولى حين حصلتا بالتصويت على عضوية لجنة السوق الخيرية في نادي الحيوانات الأليفة. وبعد ستة أسابيع كانتا تركبان **يوليانا**.

عُقد اجتماع اللجنة في غرفة في فندق قصر بمليكو Pimlico Palace. نظرت برندا وبام إحداهما إلى الأخرى وهما تجلسان إلى طاولة بيضوية وتساءلتا أين يمكن أن تكونا قد التقتا من قبل. وفور انتهاء الاجتماع، اندفعت برندا حول الطاولة لتتحدث إلى بام التي انتظرت وهي تبتسم، لكن دون أن تكون متأكدة، إذ اعتراها الشك الذي يعتري شخصاً حياته الاجتماعية محدودة. وأثناء حديثهما ازداد شعورهما بوجود معرفة، رغم أنه لم تستطع أي منهما تفسيره.

عُهِد إلى برندا، التي تمتلك سيارة فيات صفراء بلون صفار البيض، أن تجمع الهدايا ليانصيب التمبولا[١] وسألت ما إذا أرادت السيدة سبيغت أن تصاحبها. استمتعت الامرأتان بوقتهما معاً، وهما تتجولان بالفيات، وتجمعان الأشياء الرائعة التي تبرع بها محبو الحيوانات عن طيب خاطر، وتكتسبان من نجاحهما في جمع الهدايا إحساساً بالإنجاز والأهمية. ثم اكتشفتا في وقت مبكر أنه على الرغم من شعور كلتاهما بتعاطف عميق مع الحيوانات، فلم يكن لدى أي منهما حيوان مدلل. قالت برندا إنها كثيرة الأسفار وليس من العدل أن يكون لديها مخلوق يتوق إليها في غيابها. بينما أبطأت بام في إبداء السبب، لكنها اضطرت للإقرار أخيراً بأن روجر سبيغت لا يحب الحيوانات.

قالت: "إن أردت الحقيقة، هو يخاف منهم."

"وكذلك ليس لديك أطفال."

"كلا."

"هل يخاف الأطفال أيضاً؟"

ارتسمت على وجه بام نظرة تعاسة شديدة جعلت برندا تشعر بتأنيب الضمير، فأوقفت السيارة عند حانة وقالت إنهما تستحقان كأساً. والشيء التالي الذي اكتشفتاه هو أنهما في وقت متأخر من حياتهما بدأتا تجدان العزاء في الكحول.

---

(١) نوع من اليانصيب يستخدم في المناسبات الخيرية ويفوز أصحاب الأرقام الرابحة فيه بجوائز صغيرة.

قالت برندا وهي تضحك: "يقولون إنه حليب المسنين،" فهما في الواقع كانتا فقط في أوائل العقد السادس من العمر.

زاد هذا الاكتشاف الثاني من الإحساس بالارتياح بينهما. وكما أوضحت برندا: "الكحول رابطة عظيمة."

كانت برندا تعتني بنفسها وتهتم بالمحافظة على مظهرها، وكان شعرها طيفاً غنياً من السمرة المحمرة. قالت: "لا يتطلب الأمر مشقة كبيرة." وحاولت إقناع بام أن تذهب بصحبتها إلى دورة التمارين والباليه.

قالت بام – التي بدأ الشيب يظهر في شعرها ووزنها يزداد – إنه لا أحد حتى روجر سبيغت يكترث إن تحملت أي مشقة أم لا.

كان هذا صحيحاً بشكل واضح إلى حد أن برندا رفعت رأسها إلى الوراء لتضحك، وهي تقول: "لا تبالغي! لا أصدق **هذا** الكلام."

لم تبحثا تفاصيل حياتهما العاطفية، لذلك شعرت كلتاهما أن الوضع يتطلب التحفظ والاحترام. وقد اعتبرت برندا أن من المسلم به أن بام متزوجة من هذا الشخص روجر سبيغت الذي كانت تذكره بين الفينة والأخرى. وكانت بام تعرف أن برندا تزوجت مرتين وطلقت في كلتا الحالتين ومن المحتمل أنها على وشك الزواج مرة ثالثة. وقد قابلت الزوج الثالث المحتمل في السوق الخيرية وأعجبت به إعجاباً كبيراً.

وبما أن برندا تسكن في شارع وِلْبِك Welbeck وبام في ساحة إيرل Earl، لم تتوقع بام أن تتقابلا كثيراً بعد انتهاء السوق الخيرية. ولم تقترح برندا أن تتصلا ببعضهما، فقد قررت بأسف أن العلاقة لا يمكن أن تستمر. ثم في أحد الأيام خابرت بام وقالت باقتضاب: "أعتقد أنك لن تودي مصاحبتي في رحلة بحرية؟" فالثالث المحتمل – واسمه جيمس وايتمان James Wightman – سيكون مسافراً لمدة شهر في رحلة عمل إلى الولايات المتحدة. قالت برندا: "تساءلتُ ما الذي يمنعنا أن نسافر نحن أيضاً؟ أن

نستمتع لوحدنا؟" كان من الواضح لبام من لهجة برندا أنها لم تتوقع منها قبول الفكرة، ومع ذلك قالت:

"في الواقع من المحتمل أن أذهب، ولكن ليس على باخرة ركاب. فلا يمكنني تحمل تكلفة شيء بهذه الفخامة."

"ما رأيك بسفينة شحن؟"

"ستكون سفينة الشحن متعة."

كانت برندا، بحكم أن السفر بالنسبة لها كان عادة، تعرف وكيلاً يتعامل مع مراكب الشحن، وقامت هي وبام بالتوجه في الفيات إلى مكتبه في فكتوريا. كان أسلوبه دافئاً ولطيفاً وربما كان هناك شيء يتعلق ببام، ربما منظرها الذي يوحي بأنها انحدرت عن طبقتها، جعله ينصحهما باختيار **يوليانا**.

قال: "يمكنكما دفع مبلغ أكبر ولكن أشك في أنكما ستحصلان على شيء أفضل."

وشعرت بام – التي ارتاحت حين عرفت السعر المطلوب – بالامتنان لتواضع السفينة وتواضع مطالبها. والآن شعرت بالامتنان لبرندا التي وفرت لهما بجهدها رفاهية الخصوصية. ولدى تحرك المحركات وتأرجح السفينة وارتجافها وهي تنطلق، شعرت بذهنها يقلع بعيداً عن مسؤوليات اليابسة، وخاصة المسؤوليات المتعلقة بروجر سبيغت. وكأنما جعلها هذا التحرر عديمة الوزن، فقد أغلقت عينيها وانجرفت فوراً في مغامرات النوم.

أما برندا فقد كان عليها قبل أن تخلد إلى الراحة أن تقوم بأشياء كثيرة لوجهها وشعرها ويديها. ثم أقفلت باب قمرتها، وأقفلت الحقيبة التي تحتوي على النقود، ووضعت حقيبة يدها بين الوسادة والجدار، ومع ذلك فحتى هذه الاحتياطات التي تمت بالإضافة إلى تناول حبتين منومتين لم تستطع أن تجلب لها الراحة.

قرأت لفترة من الزمن ثم أطفأت النور، لكن الظلمة لم تطرد جو الغرابة المرعبة الذي تتصف به **يوليانا**. فقد كان بمقدورها أن تشمه. ولخوفها من أن تبقى مستيقظة بسببه، كانت على وشك النهوض لتناول حبة ثالثة حين هبط عليها اللاوعي مثل مُطفئة شموع.

وبدأت السفينة وقد انتقلت إلى مياه أكثر عمقاً تهتز وتتأرجح، مما جعل الركاب النائمين يتنقلون من جانب إلى آخر في مضاجعهم مثل حصى في قاع البحر.

استيقظت كلتا الامرأتين في الوقت نفسه تقريباً وكلتاهما شاهدتا كُوَّتَيْهِما وقد أصبحتا رماديتين بحلول الفجر. وكانت السفينة قد توقفت. تقلبت بام ثم عادت إلى النوم، لكن برندا أجفلت وكأنها تستيقظ من تخدير وأدركت أن استراحتها الليلية قد انتهت. كان رأسها يؤلمها، وهو شيء غير مستغرب بعد سفر اليوم السابق، وأخرجت من حقيبتها قطعة من ورق الألمنيوم مغلفة ضمنها أربعة أقراص مسكّنة كبيرة تفور حين توضع في الماء. وضعت قرصان منها في كأس تنظيف الأسنان. وبينما هما يفوران، نظرت إلى الخارج من الكوة ورأت رصيفاً عريضاً عليه أعلام، لونه رمادي بسبب النور الرمادي، وهو خال من الحياة، ويبدو مشؤوماً بسبب ألم رأسها. شربت القرصان المذوبان ورقدت على المضجع، وهي تضغط وجهها على الوسادة، تنتظر الراحة من الألم. قالت، كما تقول دائماً، بصوت عال: "النوم إلى الأبد!" وهي تعلم أنه عاجلاً أم آجلاً، وبغض النظر عما فعلته الحياة بها، سيأتي صباح لن تستيقظ فيه.

لم يحسِّن ضوء النهار غرفة الطعام. فسطوع الشمس جعل البلاستيك أكثر صفرة، والجدران القذرة المكسوة بقطع خشبية ضيقة أكثر قذارة.

راقب الركاب الآخرون برندا وبام، اللتين يرونهما لأول مرة، وهما تجلسان على مقعديهما. أصبحت برندا على الفور مفعمة بالحيوية والود.

تلفتت حولها وتبتسم كي يرى الجميع أنها إلى استعداد لأن تكون ودودة. كان في الغرفة ثلاثة أزواج مع زوجاتهم، جميعهم، ذكوراً وإناثاً، كهول بدناء، وقد بادلوا برندا الابتسام، ولكن للأسف تبين أنهم لا يتكلمون سوى اللغة السلوفانية. وعلى الطاولة المجاورة كان يجلس رجلان. حين نظرت إليهما حوّلا نظرهما، وهمست لبام: "إننا لا نلقى استحسانهما." ألقت بام نظرة عليهما وشهقت وبدأت تقهقه.

حين ظهر المضيف، أتى بسرور إلى طاولة الامرأتين وهو يقول بصوت عال: "صباح الخير. صباح جميل جداً." كانت معه صينية يفترض أن يأخذها لشخص آخر، لكنه وضع كل شيء – خبز رمادي اللون، ومربى سميك قاتم، وقطع من جبن الإيمنتال – أمام برندا وبام، وقال: "خلال لحظة، ستتوفر القهوة، وسأحضرها." وكانت قطعة مربعة صغيرة من الزبدة قد أعطيت لكل من الامرأتين.

صاحت برندا "عفواً!" تطلب منه العودة. "سنحتاج زبدة أكثر من هذه."

"زبدة أكثر؟ نعم، نعم، سأحضرها."

عاد ومعه إبريق قهوة وست قطع مربعة من الزبدة. ولم يشعر الركاب الآخرون الذين ينتظرون نصيبهم بالسخط لعلمهم بأنه لا بد من دفع ثمن هذه الخدمة الخاصة. كذلك أدركت بام هذه النقطة وقالت: "أنا لا أريد المزيد من الزبدة، فأنا أحاول تخفيف وزني."

"الزبدة لا تزيد الوزن، فهي بروتين."

تغلبت روح برندا العالية على الخبز والجبن والمربى، لكن أثبطها السائل الرمادي الذي خرج من إبريق القهوة.

"بحق السماء، لنذهب ونحاول العثور على شيء يمكننا أن نشربه."

كانوا قد وصلوا إلى ريبكا Rejeka، وهو اسم لا تعرفانه. كانت هناك دلائل على أبهة سابقة، فإفريز أحد الأبنية الرئيسية كسي بورق الذهب،

ويوجد طريق تحفه الأشجار على طرفيه ومنصة لفرقة موسيقية، ولكن كم كان الوضع مؤسفاً الآن والطلاء يقشر والدكاكين تكاد تكون خالية من البضاعة. اضطرتا أن تمشيا مسافة طويلة للعثور على مقهى، ولم يكن هذا المقهى سوى بار ضيق يقف زبائنه وقوفاً، لكن في الطريق توقفت برندا وأشارت إلى واجهة دكان مواد غذائية. "هناك! هذا هو الجواب. سنصنع قهوة خاصة بنا." ففي وسط الواجهة كانت علب نسكافيه معدنية معروضة كشيء من الكماليات. كانت العلب صغيرة لكن السعر باهظ جداً.

"لا تهتمي!" اشترت برندا ست علب ولم تسمح لبام أن تدفع حصتها: "القهوة ضرورة، فأنت لا تستيقظين حقاً إلا بعد أن تشربيها. وهذه ستكون ضيافة مني."

كانت الشوارع مزدحمة، فمهما كانت الأشياء التي تفتقر ريبكا إليها، لم تكن تفتقر إلى السكان. كانوا يدققون ببرندا بشعرها اللامع في ضوء الشمس ويحدقون بقميصها وبنطالها الأنيقين. كانت أعينهم لطيفة، لكنها فضولية. لم تكن ريبكا مدينة سياحية، فما الذي تفعله هاتان الامرأتان هنا؟

أشرقت برندا وهي تحمل القهوة في طريق العودة إلى السفينة بسبب كل هذا الاهتمام الذي أثارته. "يبدو عليهم أنهم أناس لطفاء. من المؤسف أنهم يرتدون هذه الملابس الفظيعة."

لم يأت أحد آخر لتناول الغداء. وقام المضيف وقد انفرد بخدمة الامرأتين بخدمتهما بحماس، فأحضر حساء، ونوعاً من اللحم القاتم الغريب، وخضراوات، وسجق. كان لون كل شيء بني وطعمه ذو نكهة بنية، وكان اللحم مخبأً تحت مربى دبق. وكانت أصناف الطعام نفسها ستُقَدَّم على العشاء وفي كل غداء وعشاء على ظهر **اليوليانا**، لكن برندا وبام ستكتشفان ذلك فيما بعد. وقد تحول انتباههما عن الطعام بفعل توقعهما للإثارة التي سيشعر النادل بها حين تطلبان منه ماء مغلياً من أجل النسكافيه. ولم يُخَيِّبْ ظنهما. فقد

أحضر غلاية ثقيلة من مطبخ السفينة، وأمسكها بكلتا يديه وصب الماء في الإبريق. ابتسم بسرور وهما تتذوقان القهوة وتستحسنان طعمها.

أمضيا فترة الظهر على ظهر السفينة، يغالبهما النعاس وهما على كرسيين طويلين تستمعان إلى تثاقل حمولة المركب وقعقعتها وهي تُنْقَل. شعرتا أن الغداء أثقل عليهما وفقدت الشمس حرارة منتصف النهار، واستيقظتا وتمطتا وقالت برندا: "لم نرسل بطاقات بريدية."

"لم يكن مكاناً يشجع كثيراً إرسال بطاقات بريدية. أفترض أنك تعرفين كثيراً من الناس؟"

"نعم، أعرف الكثير . . ." كان يمكن لبرندا أن تقول إنها تعيش في عالم مزدحم، لكنه ليس عالماً مزدحماً بالأصدقاء. "وماذا بالنسبة لك؟ أعتقد أن الطلب عليك كثير."

"لا يمكنني ادعاء ذلك. منذ عدة سنوات لا أكاد أعرف أحداً. فروجر لا يريد وجود أشخاص حولنا. قال إنه يريدني لنفسه، لكنه بالطبع اجتاز تلك المرحلة، وهذا شيء متوقع. لكنني شعرت بأنه وضعني في وضع صعب. كيف يمكن لامرأة في سن الكهولة أن تبدأ بالعثور على أصدقاء؟"

"أعتقد أنها تنضم إلى نوادٍ."

"لقد انضممت إلى نادي الحيوانات الأليفة."

"وعثرت عليّ."

ضحكتا معاً على هذه الخاتمة السعيدة وشعت برندا أن بإمكانها توجيه سؤال أو سؤالين.

"لا تقولي لي انك لا تريدين أن – أنا فقط أود معرفة المزيد عنك. لِمَ لم تتزوجي أنت وروجر؟"

"آه، السبب المعتاد. هو متزوج وله أطفال."

"أفترض أنها لم ترد أن تطلقه؟"

تساءلت بام ما إذا كان روجر قد فكر على الإطلاق بتطليق زوجته ليتزوجها. وشكّت في ذلك. لكن برندا حملت صمتها محمل الموافقة، وقالت:

"يمكنه الحصول على طلاق الآن، كما تعلمين. فالقانون قد تغير."

"كلا، لن أقترح ذلك. لقد قبلته كما هو وقد فات أوان تغيير الأمور."

ابتسمت برندا: "أفترض أنه شديد الجاذبية؟"

ردت بام على ابتسامتها بابتسامة: "ليس بقدر جاذبية خطيبك."

"تعنين جيمس؟ لم يصبح خطيبي بعد."

"ألم تتخذي قرارك؟"

"حين يكون زواجان قد انهارا أمامك فأنت لا تتعجلين زواجاً ثالثاً."

"بدا عليه أنه في منتهى اللطف."

"هو لطيف، وهذا هو السبب في أنني أسأل نفسي: 'هل سيكون من العدل؟' لقد طلَّقتُ مرتين. وفي كل مرة كنت أنا المسؤولة."

"حقاً!" أجفلت بام في البداية ثم شعرت بالإعجاب. ما أجرأ أن تكوني أنت الملامة، ومرتين. لا تَبَاكي بسبب أن زوجك قد سرق منك. برندا هي التي أحبتهما وهي التي تركتهما. "يا ليتني أتمتع بمثل هذه الروح."

"أنت لست بحاجة إليها، فقد عثرتِ على الشيء الحقيقي. لقد وجدته في أول محاولة. أنا لم أجده لا في المرة الأولى ولا في الثانية."

"قد يكون الأمر مختلفاً في المرة الثالثة."

تثاءبت برندا ونظرت إلى الرصيف في الأسفل: "يا ترى أين ذهب جميع الركاب؟ قال جيمس إننا سنتمتع بمشهد رائع للجزر طوال الطريق إلى سبليت Split ولكن ليس من المحتمل أن نراها إن لم ننطلق."

كانت الشمس قد توقفت على حافة المركب العليا قبل أن يعود باقي الركاب، اثنان تلو اثنان، ويصعدوا على الممشى. ومرت ساعة أخرى قبل أن تغلق الفتحات على ظهر السفينة.

وعندما انطلقت **يوليانا** في طريقها، كانت الجزر قد اختفت في الظلام.

ارتدت برندا وبام ملابس رسمية بعض الشيء عند الحضور لوجبة العشاء، لعدم وجود شيء بديل تفعلانه، وذهبتا مبكرتين إلى غرفة الطعام، بام تحمل دفتراً للكتابة، وبرندا تحمل كتاباً رائجاً من كتب سيرة حياة الأشخاص، لكن الكهرباء المحلية أذابت الكلمات فوق الورق وأغلقت برندا الكتاب وهي تشعر بالقرف. وكتبت بام "عزيزي روجر" على الورق، لكن بدا أنها ليس لديها شيء تقوله بعد ذلك. أرادت برندا أن تعرف ما الذي يمكن للمرء على ظهر المركب أن يفعل بعد هبوط الظلام؟ بعد أن تكلمت أتى المضيف إلى غرفة الطعام ومفاتيحه في يده والرجلان الصديقان يتبعانه، وفتح بالمفتاح درفة في الجدار. نزلت الدرفة وأصبحت نضداً وكانت خلفها صفوف من الزجاجات. رفعت الامرأتان نفسيهما في مقاعدهما باهتمام وانتظرتا لتسمعا ما سيطلبه الرجلان. الكلمة التي وصلت إليهما هي **سيلفوفتش**، وهمست برندا مخاطبة بام:

"هل نجربه؟"

التفت أحد الرجلين وانحنى انحناءة صغيرة يقدّم بها نفسه، ورفع كأسه وقال: "شراب جيد."

بملاحظة الابتسامة المفاجئة المغرية التي ارتسمت على وجه برندا، استطاعت بام أن ترى كيف أن برندا، حتى في منتصف العمر، تستطيع أن تهيّج جنس الذكور. "أنت تنصحنا بها!" اصطبغ صوت برندا بنبرة تساؤل: "إذن سنشربه نحن أيضاً."

أحضر المضيف كأسين من **السيلفوفتش** لبرندا وبام، وقد سره هذا التواصل الاجتماعي بين زبائنه." جلس الرجلان على الطاولة المجاورة. وجلس الرجل الذي كلمهما منحرفاً على كرسيه وسأل بلباقة ما إذا كانت السيدتان قد شاهدتا ما يثير الاهتمام في رييكا. قالتا إنهما لم تشاهدا شيئاً كثيراً. وتبين أن المعالم الهامة – كاتدرائية وقوس روماني وقصر – تقع في البلدة القديمة وأن السيدتين أضاعتا وقتهما في الجزء الحديث.

قالت برندا إن رييكا بدت وكأنها كانت في الماضي مكاناً ذا أهمية. وجاءها الجواب بالتأكيد، فقد كانت في السابق ميناء لهنغاريا، وكانت تدعى آنذاك فيومي Fiume.

لم يكن الاسم غريباً عليها، وقد كررته متعجبة، ووصف لها الرجل الذي يحدثها ما رآه هو وصديقه.

"تساءلنا عما حدث لكما."

"آه!" نظر نظرة ذات معنى إلى صديقه وترجم له ملاحظتها إلى الألمانية. هز الرجل الآخر رأسه ببطء، وغمزت برندا بام، فهما ستجدان بعض المتعة مع هذين الاثنين. وعادت بنظرها إلى كارل Karl، وقد عدّلت وجهها وتحولت إلى اهتمام كامل كاهتمام المعجبين:

"إنك تتكلم الإنغليزية بصورة جيدة جداً."

"لكنها كما يمكنك القول صدئة."

"وماذا بالنسبة لصديقك؟ هل يتكلم الإنغليزية أيضاً؟"

"ولا كلمة."

مضى الوقت بمحادثة من هذا القبيل إلى أن أعدّت الطاولات وقرع جرس العشاء. قالت برندا اثناء تناول الوجبة وهي تضع رأسها بجانب رأس بام أن من المحزن أن القدر لم يمنحهما رجلين أكثر إثارة للشهية. قهقت بام وقالت إن الرجل الذي يتكلم الإنغليزية يمكن تحمله أكثر من الآخر.

من المحتمل أنه كان في الماضي وسيماً، نظراً لقوامه النحيل وعينيه الكبيرتين وقسماته المنتظمة. والآن وهو في أواخر متوسط العمر، أصبح مظهره مهترئاً وكأنه قد جفّ وكأنما انتشرت فيه طفيليات الفشل الموهِنة. كان قد أخبرهما أنه نمساوي واسمه كارل، وصديقه سويسري واسمه ليون Leon.

عند التعريف بليون وقف وحاول أن يبدو دمثاً، لكن الامرأتين كانتا متأكدتين أنه بعيد كل البعد عن الدماثة. وعلى الرغم من أنفه الطويل القاتم اللون وفمه المرخي الذي كانت الأسنان فيه اعتباطية كأسنان وحيد القرن، فقد كان تعبيره تعبير شخص مسرور بنفسه. كان أصغر الرجلين سناً، ويرتدي سروال برمودا وقميصاً مفتوح الياقة، بحيث تظهر من ملابسه أطراف بشعة مغطاة بشعر كثيف.

قالت بام: "قد نتقبله بشكل أفضل لو كنا نتكلم لغته."

"أشك في ذلك."

تحول انتباه الركاب الآخرين لرؤية المضيف وهو يحمل غلاية المطبخ، وجعلت برندا من إعداد القهوة أداءً علنياً، فقد حدقت في الإبريق بعد صب الماء فيه، وتظاهرت بالدهشة من اكتشاف وجود قهوة حقيقية فيه.

اعتاد ليون أن يخفض جفونه ولكن لدى سماع صوت برندا المرح، رفع جفنيه وحدق فيها بنظرة تأملية ثابتة. ورأته بام، التي كانت تراقبه، يعلق تعليقاً يلخص به برندا. كان تعبير وجهه ساخراً وخمنت أن استنتاجاته لا تنطوي على إطراء.

كان الليل دافئاً، وعادت الامرأتان إلى ظهر السفينة لتجلسا تحت النجوم.

قالت برندا: "مسكين كارل. أراهن أنه يتحمل عبء زوجة وأطفال، أما ليون فهو حر في أن يصرف جميع ماله على نفسه."

أسكتها على الفور صعود كارل ببذلته الرثة القاتمة السلم وليون خلفه تماماً. انحنى كارل.

"هل تقبل السيدتان كأساً من الكونياك؟"

نظرت برندا إلى بام وبام إلى برندا. رأتا احتمال تحول هذه المعرفة بالرجلين إلى حالة من الضجر. ومع ذلك، كيف يمكنهما الرفض؟ وما الذي يمكن القيام به غير ذلك باعتبارهما محبوستين على هذه السفينة الصغيرة؟

قررت برندا عنهما معاً: "هذا لطف شديد منك."

أسرع كارل عائداً ينزل السلم ونظرت الامرأتان إلى ليون، وشملتاه في شعورهما بأنهما مدينتان للرجلين، لكنن ليون أخذ يحدق في البحر، يسحب أنفاساً من سيجاره ويرسل الدخان نحو الجزر التي لا تُرى. ولم يلتفت إلى أن عاد كارل إلى الظهور ومعه كؤوس كونياك على صينية.

ولكون المرأتين قد التزمتا الآن، فقد قرّبتا كرسييهما أحدهما من الآخر لإفساح مجال لكارل وليون كي يجلسا معهما في الفراغ بين القوارب. وضع ليون كرسيه إلى جانب برندا، وجلس كارل إلى جانب بام، وخيم صمت عليهم جميعاً. أخيراً كسرت برندا الصمت بأن سألت عن طريقة كسب الرجلين لعيشهما. تبين أنهما وكيلان لمنظمة مبيعات عالمية مكتبها الرئيسي في تريست Trieste. ويقوم كارل بالتنقل بين تريست وفيينا وليون بين تريست وبرن، ولكن بما أنهما يمضيان نصف كل شهر في تريست أو على مقربة منها، فقد كانا يمضيان من الوقت معاً أكثر مما يمضياه مع عائلتيهما. وكان المكتب يطل على أحواض السفن وفي كثير من الأحيان يشاهدان **يوليانا** تنطلق في رحلتها نصف الشهرية إلى اليونان. وقررا أنهما ذات يوم سيذهبان معها. وهاهما.

"وتركتما زوجتيكما في الوطن؟"

شرح لها كارل أن زوجته التي لديها متجر هدايا تذكارية في فيينا وجدت من الصعب عليها أن تترك.

"وزوجة ليون؟"

وجه كارل السؤال إلى ليون الذي أطال في الإجابة.

"نعم، صحيح أن ليون متزوج، لكنه يقول إن زوجته ليست لطيفة."

"هذا مؤسف! من المحتمل أنها لا تفهمه؟"

"بالضبط."

بدأت بام بالقهقهة وقالت وهي تلهث: "آه يا برندا، إنك رهيبة."

بدا على ليون أنه لم يلاحظ مرحها لكن كارل حدق فيها بحيرة، ثم نظر إلى برندا طالباً التفسير. تظاهرت برندا بالدهشة التأنيبية وأخذت بام تنزلق أكثر فأكثر على مقعدها إلى أن تحولت إلى كومة تتفجر منها الدموع. أحس كارل أنه ضائع تماماً، وسأل برندا بلباقة:

"وأنتما أيتها السيدتين؟ أنتما متزوجتان؟ صحيح؟"

"آه طبعاً، بالتأكيد."

تُرجم هذا الجواب لليون، الذي هز رأسه، إذ وجده مرضياً. وسأل سؤالاً، وجهه كارل إلى برندا بعد ترجمته إلى الإنغليزية: "هل ستذهب السيدتان إلى آخر الرحلة في أثينا ثم تعودان؟ كلا فستعودان من أثينا إلى لندن بالطائرة. ولم يجد ليون هذا الجواب مرضياً تماماً. أخرج نكاشة أسنان وغطى فمه بإحدى يديه، وبدأ ينكش أسنانه. وعاد الصمت واستمر إلى أن اقترح كارل أن تتناول السيدتان كأساً أخرى من الكونياك.

"كلا، الآن دورنا،" قالت برندا وأخرجت ورقة مالية: "اشتر زجاجة."

أسرع كارل مبتعداً ورفع ليون جفنيه ليتفحص برندا باهتمام جديد. بعد لحظة انزلقت ساقه نحوها وربت على قدمها بإصبع قدمه. نظرت إلى بام ورفعت حاجبيها منزعجة انزعاجاً فكاهياً جعل بام تتكوم مرة أخرى. ربت ليون مرة أخرى مع تأكيد، وحركت برندا قدمها بعيداً عن مجاله. لكن ليون لم يضطرب. ابتسم بطريقة متحفظة، معتبراً كل ما جرى تحية لذكورته. حين

عاد كارل مع زجاجة البراندي، توقف اللعب، لكن بعد كأسين، رفع ليون رأسه إلى الخلف وأخذ يغني، أو بالأحرى كان ينهق بإيقاع رتيب، مصدراً ضجة كبيرة إلى حد أن القبطان خرج من حجرة الدفة ووقف قريباً منهم، يضحك ويلوح بيده تشجيعاً للمجموعة. كان شاباً أشقر الشعر كبير الجسم، ذا وسامة تنم عن طبيعة سمحة، وشعرت كلتا الامرأتين أنهما أصغر سناً لرؤيته. استدار وعاد إلى مركزه، وقفزت برندا واقفة على قدميها وقالت: "سندعوه أن ينضم إلينا!"

لم تستطع تجاوز كرسي كارل، ورفض هو أن يتحرك، قائلاً بوضوح: "ليس هذا ممكناً. فعليه أن يدير السفينة."

شعرت برندا بالاستياء ولم يكن من الممكن إحباطها بسهولة، وكانت ستشق طريقها لولا أن القبطان خرج مرة أخرى، وأحضر معه زجاجة مفتوحة من النبيذ الأبيض قدّمها لكارل، مشيراً إلى أنه يشمل الآخرين بضيافته. رفعت برندا كأسها وأشارت له أن ينضم إليهم، لكنه هز رأسه سلباً. وأشار أولاً نحو ليون وبرندا ثم نحو كارل وبام بشكل عبر بوضوح عن اعتقاده أن كل اثنين منهم متلائمين وجاهزين لعلاقة عاطفية. قطبت برندا حين أخذ يبتعد وهو يضحك وخاصرتاه الضيقتان تتحركان داخل نسيج لباسه الرسمي الأبيض. نهضت.

"أنا ذاهبة لأنام."

نهضت بام وقالت: "وأنا أيضاً،" خائفة من أن تُترك بمفردها. أخذت الامرأتان زجاجة البراندي معهما وذهبتا إلى قمرة برندا حيث ساعدهما كأس إضافي أو كأسان على طرد الشعور بأن ضحك القبطان قد قلل من قيمتهما.

كان يفترض أن يكونوا في سبليت صباح اليوم التالي، لكن، كما أوضح المضيف، **اليوليانا** سفينة عاملة وعليها أن تفرغ بضائع وتحمّل بضائع أخرى. أمضتا الصباح قرب خط سكة حديدي فرعي قصير خارج شيبنك Siebnik

حيث لا يوجد شيء تشاهدانه أو مكان تذهبان إليه. وكانت السفينة ستعود للإبحار ظهراً، لكن لسوء الحظ، حمل البحارة إلى السفينة براميل تحتوي زيت الكاز في حين كان عليهم إحضار زيت اللفت. واستغرق تصحيح هذا الخطأ وقتاً طويلاً.

كانت الشمس تغرب حين دخلوا ميناء سبليت. كان جميع الركاب عند الحاجز على ظهر السفينة، يراقبون المدينة التي كانت تتخثر متحولة إلى ظل أرجواني، وسقوفها ونوافذها تعكسان آخر أشعة النور الأحمر الذهبي. لقد وصوا في لحظة تسلب اللب لكنها وجيزة. وقبل أن يُسمح لهم بالنزول إلى الشاطئ، كانت الشمس قد غرقت خلف الأبنية وخيم الليل على الفور تقريباً.

بدت الحشود المتحركة تحت مصابيح الشوارع لبرندا وبام جامحة وخشنة على نحو غريب. بدا الوضع وكأن البلدة بأكملها قد خرجت من سجن طويل، وحين نظرتا إلى الوراء لم يؤسفهما أن كارل وليون قد تبعاهما في النزول إلى الشاطئ. صاح كارل: "مرحباً. هل يمكن أن نرافقكما؟"

عبروا معاً بوابة المدينة. وأثناء تجوالهما داخل جدران قصر هادريان Hadrian، شاهدوا شوارع ضيقة وفناً معمارياً بدا شاسعاً ومسرحياً في الظلام النصفي، لكنهم سمعوا صفارة **يوليانا** تدعوهم للعودة لتناول الحساء واللحم وسجق الشحم. ولم يمض وقت طويل حتى كان المركب قد أبحر من جديد.

بعد العشاء حين صعدت الامرأتان إلى السطح وجدتا أن الرجلين قد هيآ أربعة كراس طويلة وبدا انهما يتوقعانهما. وقف كارل وانحنى ودعاهما إلى كأس من الكونياك. تملك الغضب برندا لرؤية كؤوس الكونياك الأربع جاهزة في انتظارهما إلى درجة أنها لم تتمكن من الكلام، فهي لا تقبل أن تُعتبر شيئاً مسلماً به. وبما أن الكلام تُرك لبام، فقد سألت ما إذا كان الرجلان يقتسمان شقة في تريست.

"سكن. يمكنك أن تقولي إنه فندق."

"أوه، أتقيمان في فندق؟"

"**يمكنك أن تقولي** إنه فندق."

"أيحتمل أنه بنسيون؟"

"محتمل."

نظرت بام نظرة متوسلة إلى برندا لكن برندا لم تعرض أي مساعدة.

راقبها ليون بعد أن لاحظ صمتها بنصف ابتسامة، وقرر أنها تعاني من الافتقار إلى الاهتمام بها، فرفع يده الحرة ووضعها على ركبتها حيث استقرت فوقها، حارة وثقيلة، مثل العجين. قفزت على قدميها، ولو أن يده كانت عنكبوتاً ذئبياً لما استطاعت أن تصيح بقدر أكبر من الانزعاج. هرعت مبتعدة، ونهضت بام لتتبعها، في حين سقطت اليد نحو أرض السطح وتدلت رخوة ومرضوضة وقاتمة كاللحم الميت، وابتسم ليون دون أن تضعف عزيمته.

وجدت بام برندا في قمرتها. قالت برندا: "إنهما رجلان مضجران إلى درجة مميتة. لقد نفضت يدي منهما. إن أردت مقابلتهما، فعليك أن تقابليهما بمفردك."

"بالطبع لا اريد رؤيتهما، وإنما . . ."

"إذن غداً، إذا وصلنا إلى اي مكان – وهذا لا يبدو محتملاً – سننسى وجبة الفطور ونذهب بمفردنا."

استيقظتا لتجدا أن السفينة راسية في دبروفنيك Dubrovnik. قالت برندا: "مفاجأة سارة،" وارتدت ملابسها بسرعة، ونزلتا إلى اليابسة كما لو أن خطر المطاردة يهددهما. وبعد أن أصبحتا آمنتين داخل المدينة، تسكعتا في الساحة القديمة، وخرجتا من البوابة في الطرف الآخر، حيث لم تجدا البحر فقط، بل أيضاً أحد المقاهي. جلستا في ضوء الشمس، وتمتمتا معبرتين عن رضاهما، وتأملتا الميناء الذي بدا لهما – بجماله الرقيق، وأحجاره البيضاء المبهرة، ومياهه الزرقاء القاتمة – مألوفاً وكأنه منظر في تقويم.

فكرت بام ان الشيء الغريب الوحيد هو مجرد وجودها هناك. لقد أتت بالطبع بناء على مبادرة برندا، فلم تكن ستتوفر لها الشجاعة أبداً لأن تسافر بمفردها. وقد أتت دون أن تخبر روجر، فلو أنها أخبرته أنها ذاهبة، لأخبرها كيف يمكنها أن تستخدم نقودها استخداماً أفضل، وكان ذلك سينهي المسألة.

قالت برندا: "حتى الآن لم نرسل بطاقات بريدية."

"أجل. أعتقد أنني يجب أن ارسل بطاقة إلى روجر. يا ترى ما الذي يفعله في هذه اللحظة؟"

"تعنين كيف يتدبر أموره بدونك؟"

"نعم." كان من الممكن أن يكون ذلك معناها، لكن ما عنته هو: ما كان رد فعله حين وجد الملاحظة التي تركتها له وقالت فيها إنها ستغيب لمدة عشرة أيام؟ اليوم هو السبت وفي أيام الجمعة يصل ليتابع حياته الثانية، حياته معها. كان هذا أول عمل مستقل تقوم به خلال علاقتهما الطويلة. لم تستطع أن تقرر ما إذا كان سيغضب أو ستُجرح مشاعره أو سيسر أن يختلي بالشقة لنفسه وحسب.

وبما أن بام لم تظهر ميلاً للإضافة إلى ما قالته، فقد قالت برندا: "انت تقرئين لحساب شركة أفلام، اليس كذلك؟ هل الأجر جيد؟"

"ليس سيئاً إذا تابعت العمل. حين لا يكون روجر موجوداً، فإنني أتناول جميع وجباتي وأمامي أحد الكتب. إن عدم اضطراري للقراءة هو إجازة."

نظرت برندا إلى ملابس بام القطنية القديمة وتساءلت أين تذهب النقود. وقد ضغط فضولها بشدة على حذرها لدرجة أنه في النهاية حقق الاختراق. "يجب أن تنفقي أكثر على العناية بنفسك."

"أعرف. إن مظهري يدل على الإهمال، أليس هذا صحيحاً؟ – لكنني مضطرة لمساعدة روجر. لقد كبر الأولاد بالطبع، لكن ذلك لا يوقف طلباتهم."

لم تشأ بام أن تتحدث عن علاقتها مع روجر، إذ شعرت أن قصتها شيء تافه بالمقارنة مع حياة برندا الجريئة، لكن برندا كانت تنتظر ولم يكن من المكن المضي في إخفاء التفاصيل عنها لفترة أطول.

"لا أراه إلا في العطل الأسبوعية. من المفترض أنه يأتي إلى شقتي ليكتب. ومن المرجح أن أولاده خمنوا ما يفعله، ولكن من يهتم بذلك؟ فلهم حياتهم الخاصة بهم. أحدهم متزوج وله طفل. فالوضع مستمر منذ فترة طويلة."

"أنت محظوظة، فهناك شخص يعني شيئاً بالنسبة لك، حتى ولو كان يمضي نصف الأسبوع مع زوجته. هو لك، اليس كذلك؟"

بدلاً من الإجابة نظرت بام إلى ساعتها وقالت: "ليساعدنا الله! المفروض أن تغادر السفينة بعد خمس دقائق."

عادتا بسرعة، وكانت سرعة غير ضرورية، إذ أن **يوليانا** لم تظهر أي علامات تشير إلى قرب المغادرة. فقد حصل تأخير جديد، ولكن أُبلغ الركاب أن من الفضل ألا ينزلوا إلى الشاطئ مرة أخرى. وحل الظلام قبل أن يبحروا من دبرونفيك.

أثناء العشاء، قالت برندا بصوت منخفض: "أتريدين التحدث مع هذي المضجريْن مرة أخرى؟"

"ليس بشكل خاص. سأفعل ما تريدين فعله."

قررتا أن تمضيا السهرة في غرفة الطعام، وإذا أتى كارل وليون يبحثان عنهما، فسيتخلصان من كونهما مدينتين لهما بشراء شراب لهما. وحيت تتخلصا من الدين فستبقيان بلا دَيْن.

بقيت بام جلسة إلى الطاولة بينما توجهت برندا إلى قمرتها لإحضار سجائر. غادر الرجلان غرفة الطعام على الفور لكن بعد بضع دقائق عاد

كارل لوحده. ودون أن ينتظر دعوة للجلوس، جلس إلى جانب بام، ووجهه في منتهى الجد، وأسلوبه يوحي بأن لديه غرض معين.

قالت بام: "كنا نأمل أن تشرب أنت وليون كأساً معنا."

نحى كارل الدعوة جانباً بإشارة من يده، فقد كان ذهنه مشغولاً بمسألة أهم من الكونياك. قال بحزم: "إنني مضطر أن أطلب منك عدم التدخل بين ليون وصديقتك."

"عدم التدخل؟"

"نعم. لا بد لك أن تتركيهما وشأنهما. إن لدى ليون . . . كيف سأعبر عن ذلك؟ **حاجة**. لديه حاجة. بالنسبة لي، ليست لدي هذه الحاجة. وليس الأمر عائداً إلى أي خطأ من قبلك. فهو مجرد . . ." رفع كتفيه ومد كفيه: "إنني قانع بالجلوس هنا."

أخرج سيجارة وقدمها لها. هزت رأسها بالنفي وراقبته يضع السيجارة بين شفتيه المجعدتين. عندها فقط خطر لها أنه كان يعني الاعتذار. فهي المرفوضة، وعليها البقاء بعيداً بينما ينفرد ليون ببرندا ويعلن عن حاجته.

لم تتأكد بام ما إذا كان الأفضل أن تبقى أو أن تذهب للبحث عن برندا، لذلك راقبت الباب، على أمل أن تظهر برندا وتنتهي المسألة. وفعلاً ظهرت برندا على الفور تقريباً. كانت في حالة من الارتباك والاهتياج ووجهها زهري اللون، وجرت إلى بام تسألها: "ما ظنك؟ لن تصدقي أبداً! ذلك القرد الأزرق الأنف، ذلك الكائن المقرف ليون، تجرأ... تجاوز كل الحدود وتجرأ أن... أن..." تكسر صوت برندا واقتربت بام منها تسأل: "ما الذي حدث؟ لم يلمسك، أم هل فعل؟"

"لقد حاول محاولة جادة لعينة. لقد جاء بزجاجة من النبيذ الرخيص وأتى إلى باب قمرتي. ما تظنين أنه كان يريد؟ كان يريد قضاء الليل معي."

"هل أنت متأكدة؟"

"بالطبع أنا متأكدة. كان كارل يدربه. قال لي: ’سليب وز مي ذ نخت.‘[1] كدت اموت."

"لست مندهشة. فهذا هنا طلب مني ألا أتدخل."

"يا للوقاحة الكريهة!"

قطب كارل، الذي كان لا يزال جالساً إلى الطاولة، وبدا عليه القرف المندهش، فمن الواضح أنه شعر أن جلبة كبيرة لا داعٍ لها أثيرت حول لا شيء."

كان من الممكن رؤية أنف ليون والانتفاخ الهزيل في بطنه وهو يترصد خارج باب غرفة الطعام. وحين مرت الامرأتان بجانبه، كانت نظرة المقت على وجه برندا قوية إلى حد جعله يخطو خطوة إلى الوراء. كانت بام مستعدة لمشاركتها في انزعاجها من الحادثة، لكنها تعجبت من كل هذا الاضطراب. فمن المؤكد أن امرأة طلقت مرتين لخيانتها الزوجية تستطيع أن تتعامل بهدوء مع ليون وعروضه؟

حتى بعد أن استقرتا على طرفي مضجع برندا وسكبتا لنفسيهما بعض البراندي ليصلح حالهما، استمرت برندا في الاستشاطة غضباً من الإهانة التي وجهت إليها."

قالت وهي ترتجف أثناء كلامها: "كيف يجرؤ؟ كيف يجرؤ أن يضع مخلبيه القذرين عليّ؟ وذلك الآخر، الجرذ كارل، الذي يتصرف وكأنه في حفلة! مجرد التفكير بهما يتآمران معاً لتوفير اتصال جنسي لليون! ’سليب وز مي ذ نخت.‘ **يا إلهي!**"

"وكارل يطلب مني عدم التدخل! كان ذلك شديد الوقاحة."

"أعتقد أنه ظن أنني سأكون بدونك فريسة سهلة."

---

(١) "نامي معي الليلة." يقول ليون هذا بلغة إنغليزية مكسرة، ويستعمل الكلمة الألمانية "نخت" بدلاً من الإنغليزية "نايت" (الليل).

اضطرت بام للضحك على فكرة أن تكون برندا "فريسة سهلة،" لكن برندا بقيت مكتئبة. وبدا عليها بالتأكيد الشعور بأنه لا مكان للضحك بتاتاً، وكانت ستقول ذلك لولا سماعهما نقرة على باب القمرة.

بدا عليها الذهول: "لا يمكن أن يكونا هما الطارقين." وضعت قدميها إلى الأرض وصاحت: "من الطارق؟"

كانت التمتمة في الخارج ذات لكنة ألمانية.

"هما. هما الطارقان. لا أكاد أصدق." رفعت برندا صوتها: "اذهبا من هنا."

تكررت الطرقة.

ذهبت إلى الباب: "اذهبا. أقول لكما اذهبا."

صدرت اعتراضات بلعومية من خارج القمرة. فتحت برندا الباب فتحة كاملة، وظهر ليون وكارل مرتبكين وخجولين، ومع ذلك لا يزال لديهما أمل. لكن سورة غضب برندا بددت ذلك الأمل.

"انطلقا من هنا وإلا سأشتكي للقبطان."

أغلقت برندا الباب بعنف في وجهيهما لكنهم تباطآ في الخارج لفترة، يتهامسان ويتململان غير شاعرين بعد أنهما هُزما نهائياً. أخيراً غادرا المكان، وتنفست برندا الصعداء.

"هذه هي النهاية **معهما**!"

بدأت بام تقهقه، وبعد أن بدأت لم تعد تستطيع أن تتوقف. غصت وهي تشرب البراندي، وامتلأت عيناها بالدموع، وصارت تهتز عاجزة عن السيطرة على نفسها في قبضة الضحك، بينما جلست برندا متعجبة على حافة المضجع. وبالتدريج استعادت بام قدرتها على الكلام.

"آه يا برندا، يجب أن تقري أن الأمر كان مضحكاً."

"ما الذي كان مضحكاً؟"

"ليون المسكين وهو يحاول . . ."

"لم يكن مضحكاً، بل مقرفاً. إنه إهانة."

"حقاً! أنت تعرفين ما هُم الرجال! لا يمكنك لومه على المحاولة."

"ويا لها من محاولة! لقد اعتبر أن من المسلم به أنه سيحصل عليّ بمجرد الطلب. 'سليب وز مي ذ نخت.' –لم يستطع حتى أن يقول 'نايت،' ذلك الجلف الجاهل!"

غرقت بام في الضحك مرة أخرى، وقالت حين استعادت السيطرة: "لا تدعي ما حدث يؤثر عليك تأثيراً سيئاً. ففي واقع الأمر، ما أهميته؟"

"أشعر أنني ملوثة."

ابتسمت بام من فوق كأسها لكنها لم تستطع استدعاء ابتسامة مقابلة. وسألت بام، وهي في حيرة كيف تفسر الأمر: "ما المشكلة؟ لا يمكن أن تكون هذا الشيء السخيف وحده."

"وحده؟" حدقت برندا ببام بنظرة طويلة تنطوي على انتقاص لها ثم انفجرت قائلة: "أنت وضعك جيد، فقد وجدت من يحبك."

"ألم تجدي من يحبك؟ لقد تزوجتِ مرتين والآن لديك هذا الرجل اللطيف جيمس. ماذا تريدين أكثر من ذلك؟"

لم يَلِن التعبير على وجه برندا، لكنه اختبأ خلف غشاوة من الدموع. ووضعت يدها في حقيبتها تبحث عن منديل، وبسطت بام يدها: "أخبريني ما الذي يضايقك."

"كل شيء. لم يكن أي شيء صحيحاً قط. لا يمكنني أن أتزوج جيمس، فستتكرر الغلطة نفسها من جديد."

"أتعتقدين أنك ستخونينه؟"

"كلا، لا أعتقد ذلك."

انتظرت بام، وذكرت برندا لها الحقيقة بمرارة، وهي تنتظر نظرة قاتمة إلى داخلها لترى عيوبها: "لم أقم بخيانة أحد. كل ما فعلته هو أنني تركتهما. هربت منهما. لم أستطع التحمل. سبب طلاقي في كلتا المرتين هو الهجران."

"أتعنين أنهما أساءا معاملتك؟"

"كلا."

"لكنك قلت أنك لم تستطيعي التحمل."

"لم أستطع تحمل تلك المخالب، كل هذا العبث. كل ما أردته هو أن أترك وشأني، لكن لا يمكن الوثوق بأن يفعل أي رجل ذلك. يجب أن أذهب إلى طبيب نفسي، على ما أعتقد – لكنني لا أريد ذلك. أنا على هذا النحو وسأبقى كما أنا."

"لو كنت مكانك لجازفت وتزوجت جيمس، فهو لطيف، وهو . . ."

"أعرف أنه لطيف، وهو لطيف لأنه يريد شيئاً. وهو يعتقد أنني أصده لأنني أريد الزواج، لذلك عرض عليّ الزواج وقلت له إنني لا أدري."

"لم تبقينه معلقاً على هذا النحو؟ أليس من العدل أن تخبريه؟"

"حاولت أن أخبره، لكنه لا يصدقني. وهو يعتقد أن كل شيء سيختلف حين نتزوج. على كل حال، أنا أحب أن أكون في صحبته. أنا ... أنا لا أريد أن أجد نفسي وحيدة."

"نعم، أدري، هي الوحدة. فالمرء يقع في فخ الارتباطات."

رفعت برندا نظرها بدهشة، ثم قالت بصبر نافذ: "لكن وضعك جيد. فأنت تعرفين ما هو الحب، ولا تشعرين بالوحدة. لقد حصلتِ على كل شيء."

طأطأت بام رأسها مدركة أن دورها قد حان. هي لم تخدع برندا لكنها تركت برندا تخدع نفسها. هذا إذا كانت قد خُدعتْ. فمن الأرجح أن ملاحظات برندا التي تأخذ مسألة روجر والحب على أساس أنها مسلم بها لم تكن سوى

محاولات للسبر أَمِلَتْ من خلالها أن تكتشف – ماذا؟ وضع حزين ويائس بمقدار وضعها هي.

تنهدت بام، وهي تشعر بالشفقة على رفيقتها، بل وتشعر بالشفقة على نفسها أيضاً. بدا لها أن عدم تمتع برندا ذات المظهر الشديد التألق والجاذبية والتي بدت مسيطرة تماماُ على الظروف بحظ أفضل من حظها هو أمر مأساوي. قالت:

"الحقيقة هي أنني لم أحصل على أكثر مما حصلتِ أنت عليه. كنت قد اقتربت من الثلاثين حين التقيت بروجر وقبل ذلك لم أعرف أحداً. وبدأت أشعر باليأس. وإن أردت الحقيقة، فقد كنت يائسة إلى درجة أنني غيرت عملي كي أحاول تغيير حياتي. أردت الالتقاء بأشخاص جدد وفكرت أنني قد ألتقي – أقصد بشخص يعني شيئاً خاصاً لي. وقد وظفتني شركة نشر كبرى من النوع الذي ينشر مجلات رائجة. وأصبحت سكرتيرة روجر."

قالت برندا، وهي تراقب بام بفضول متعطش: "إذن هكذا التقيتما."

"هذه هي الطريقة التي يلتقي به كثير من الناس. لكنني اعتقدت أن ما حدث لي كان شيئاً خاصاً. اعتقدت أن الحياة تبسط يدها أخيراً. كان رئيس تحرير مجلة عائلية واعتقدت أنه شخص مهم. وكان هو يعرف تماماً مدى أهميته. فقد بدأ يسر لي ويخبرني أنه يجب أن يكون في عالم النشر الحقيقي، وقال إنه يريد كتابة رواية. قال إنه حاول الكتابة أثناء العطل الأسبوعية، لكن زوجته كانت تطلب منه مساعدتها وتنكد عليه، والأولاد يحدثون ضجيجاً، وما إلى ذلك. كان بحاجة إلى غرفة عمل. في النهاية قلت: 'لِمَ لا تأتي وتعمل في مسكني؟' لا أدري كيف جرؤت – لكنه قبل الاقتراح فوراً. أتى يوم الجمعة التالي، وكنت أنوي الخروج وتركه لوحده، لكنه لم يردني أن أذهب. بل بالأحرى أراد أن يصاحبني. كان يقول 'سأجلس للكتابة بعد أن أتناول كأساً.' ويأخذني إلى حانة ونمضي السهرة هناك. في البداية، شعرت بإثارة شديدة من

أن رجلاً يصحبني خارج المنزل ويكلمني ويخبرني كم أنا فتاة رائعة. فكرت: يا الله، ها أنا **أعيش** فعلاً."

"وما حدث بالنسبة للرواية؟"

"الرواية؟ آه الرواية!" قالت بام بخنة في صوتها تنم عن التسلية. "لم تتبلور."

رفعت برندا حاجبيها.

"هذا ما كان يقوله. 'إنني في انتظار أن تتبلور.' وفي أثناء ذلك كان يضيع وقته ووقتي أيضاً، لكنه استمر في الحضور مساء كل يوم جمعة، وأصبح ذلك برنامجاً ثابتاً. أصبح حياتي. كان الوضع كأنني متزوجة من شخص لا يأتي إلى البيت إلا في العطل الأسبوعية، وكنت أقول: 'على الأقل لديّ روجر.'"

"ألم تكتشف زوجته الأمر؟ ألم تعترض؟"

"لم توجه اعتراضاً لي. أعتقد أنها سرّت بالتخلص منه، فهو كثير المطالب، طفل كبير ضخم في الواقع. بالطبع كان تعاطفي بأكمله معه في البداية وحين اراد أن ينام معي لم أقاوم بشدة. فمرة أخرى، شعرت بالإطراء. وبين الذهاب إلى الحانة وممارسة الحب، كنت مثل كلبة ذات ذيلين. تأثر سلوكي، ولا حاجة للقول إنني خسرت عملي، لكن كل شيء بدا رومانسياً. شعرت انني بطلة من نوع ما. آه ياعزيزتي! هو لا يزال هناك، لكنه لا يشغل الوظيفة نفسها، فهو مجرد مساعد تحرير الآن، وهو يلقي علي باللوم لذلك. يقول إن الإشاعات خربت حياته المهنية."

"وهكذا لم يستطع أن يعيلك؟"

"يعيلني! يا لله، بين عائلته وسكره، كنت أنا الذي أقوم بالإعالة. كنت مضطرة. فقد شعرت بالذنب."

"هل تعرضتِ للابتزاز؟"

"لا أود أن أستعمل هذا التعبير، فقد كنت أعطيه بإرادتي، وكنت أنظر إليه وأفكر: 'فليكن! مسكين روجر!' وسرعان ما أدركت أنه لن يفعل أي شيء."

"لكنك لم تطرديه؟"

"كيف يمكنني أن أفعل ذلك؟ هو كل ما لديّ. هو الآن مجرد عادة، عادة باهظة التكاليف نوعاً ما، لكن بدونه سأعود من حيث بدأت. لن يكون لي أحد."

"هذا سخيف يا بام. أنت امرأة عذبة، ولديك أشياء كثيرة لتعطيها. سرعان ما ستجدين شخصاً آخر."

"إنك لا تفهمين الوضع يا برندا. أنت مختلفة، قد لا تشعرين بالحب، لكنك تجذبينه. أما أنا، فلا. حتى كارل الكئيب هذا اضطر للاعتذار لأنه لا يريدني."

"آه يا بام، لا تقولي ذلك."

"ولكن هذه هي الحقيقة! وأنا لا أريد أن أكون وحيدة."

"لن تكوني وحيدة بالضرورة، وروجر هذا هو عادة سيئة وينبغي أن تقلعي عنها." ابتسمت برندا – واستطاعت بام أن تدرك أن ابتسامة برندا المفاجئة هي شيء يأسر القلب – ورفعت الزجاجة: "أين كأسك؟ فلنتقاسم هذه القطرة الأخيرة."

كان اليوم التالي أكثر أيام الرحلة إثارة للضجر. فالسفينة التي بقيت خارج حدود المياه الإقليمية دارت حول ساحل ألبانيا، بينما منعت شدة الضجر المسافرين من الكلام، مما جعلهم يمضون وقتهم في محاولة القراءة أو النوم تحت وهج السماء البيضاء، وهم يعانون من ريح جافة ومثيرة للأعصاب.

وضع كارل وليون كرسييهما في الميمنة عند حاجز السفينة، يتحاشيان الامرأتين كما تتحاشى السفينة الشاطئ البعيد الذي لا يرحب بها.

قالت برندا: "وشكراً لله على ذلك،" ولكن مع زحف النهار نحو المساء، نظرت نظرة سريعة إلى حيث كان الرجلان يواجهان البحر الفارغ، وقالت:

أعتقد أنك محقة بالنسبة لما جرى مع ليون. فقد كان مضحكاً إلى حد ما. حين فتحت الباب كيف كان منظرهما؟ مثيرين للشفقة. زوج من الطيور الهرمة التي بدأت تفقد ريشها. ما رأيك؟ هل ندعوهما إلى كأس؟"

"لِمَ لا؟ فلنصفح وننسى."

"قبل العشاء أو بعده؟"

"قبله. ثم بعده يمكن أن يدعونا هما إلى كأس."

انتهى اليوم الطويل بدون أي لون في الغروب أو سطوع في سماء المساء. بردت الريح، ولم يكن من شيء يبقي المرء على سطح السفينة بعد الظلام، لكن كارل وليون لم يتبعا الامرأتين إلى غرفة الطعام. حتى حين فُتِح البار لم ينزلا. أعد المضيف الموائد، وقُرِع جرس العشاء. أتى المتزوجون إلى طاولاتهم، لكن لم يظهر كارل وليون إلا بعد أن انتهى تقديم الحساء. ولم يجلسا إلى طاولتهما المعتادة إلى جانب طاولة برندا وبام، لكن على أبعد طاولة عنهما. قالت بام: "**لا بد** لنا من أن نعقد صلحاً. هل أدعوهما للانضمام إلينا بعد العشاء."

حنت برندا رأسها موافقة، فقد قررت أنه على اعتبار أنها هي التي تعرضت للأذى، فإنها ستعامل كارل بنبل لا يخلو من الود لكنها ستكون حريصة على إبقاء ليون بعيداً عنها.

بينما تولت برندا أمر القهوة، عبرت بام الغرفة وهي تتوقع بثقة إجابة من الرجلين تنم عن الأسف، وربما اعتذار خجول بأن تودد ليون كان نتيجة السكر. بدلاً عن ذلك قابلها الرجلان بفتور يشبه الازدراء. أبقى ليون جفنيه منخفضين، وأدار كارل رأسه، ولم يكد، ليقول بلهجة تطلب منها الابتعاد: "من المحتمل أننا فيما بعد سنتناول شراباً معكما."

لدى رؤية وجه بام الخالي من التعبير، سألت برندا: "ماذا قالا؟"

"قال كارل إنهما قد يتناولان كأساً فيما بعد."

"كم يتفضلان علينا! ولكننا سنشرب نحن كأساً على كل حال."

حين غادر الرجلان غرفة الطعام، طلبت الامرأتان زجاجة كونياك وجلستا تشربان قهوتهما وتشعران أنهما وقعتا في فخ وضع يحط من قدرهما. مرت حوالي ساعة قبل أن يعود الرجلان، ثم بدون إلقاء نظرة على برندا وبام، جلس ليون إلى الطاولة البعيدة بينما ذهب كارل إلى البار لإحضار شراب."

"ضاق ذرعي بهذا." حملت برندا الزجاجة وسبقت رفيقتها في الخروج من الغرفة.

في وقت الفطور عاد كارل وليون إلى طاولتهما المعتادة التي كانت قد أُعِدَّت لهما. لاحظ كارل الذي كان يجلس مقابل الباب وصول الامرأتين بنظرة توقع متحفظ.

تمتمت بام مخاطبة برندا: "كأننا نحن الذين أسأنا التصرف." قالت برندا بصوت عال: "قد نكون. إذا كان ليون لديه حاجة، فربما شعرا أن واجبي أن ألبيها."

احمرّت أذنا كارل ومال نحو ليون ليصف له ما قيل، وهو يتكلم مشدداً على كلماته بإلحاح، ثم استدار بحدة: "لم أتيتما هنا، سيدتان بدون مرافقة، إذا لم تكن لدينا رغبة... إذا كنتما..." رفع كتفيه بعنف ثم هز يده في الهواء ليعبر عما لا يمكن التعبير عنه بالكلام.

قالت برندا وهي تحدق به بازدراء لكن توجه خطابها إلى بام: "أي نوع من الرجال هذان؟ هل هما متوحشان ليفترضا أن كل امرأة ملك لهما بمجرد أن يطلباها؟"

نقل كارل إلى ليون ترجمة مقطوعة الأنفاس لهذه الإدانة ثم التفت مرة لأخرى ليقول باحتقار: "نحن نعرفكم أيها الإنغليز. ليس لديكم قلب، وبعد الحرب جعلتمونا نكاد نموت من الجوع."

"بعد الحرب! أي حرب؟"

"الحرب الأولى."

"لم نكن قد ولدنا بعد آنذاك."

حين أحضر المضيف الفطور لاحظ الجو المفعم بالحقد، وفتح فمه تعبيراً عن خيبة الأمل. ورغم أن الأزواج والزوجات اليوغوسلاف لم يفهموا ما يقال، إلا أنهم أشرقوا مسرورين بالخصام الذي اندلع بين متكلمي اللغة الإنغليزية.

"لم تكونا قد ولدتما؟ هل هذا شيء يصدَّق؟ وهو لا يهم. أنا أقصد الشعب بأكمله، وطبيعته، وبروده. من يرغب بأناس كهؤلاء؟ كنتُ أنا طفلاً في فيينا في ذلك الوقت. لقد جعلتم الأطفال الصغار يجوعون."

التفتت برندا بطريقة مشوشة نحو بان: "هل سمعت قط بهذا الشيء من قبل؟"

"بتاتاً. ولست أصدقه."

"**أنت** لا تصدقينه. فإذن! هذا هو النفاق الإنغليزي الشهير." خرج كارل عن طوره. "**أنا** . . . أنا أصدقه. لقد كدت أموت جوعاً ولهذا فإن عظامي ليست قوية. لقد أصبتُ بكساح الأطفال. إذن! **أنتم** – أنتم تدينون النازيين، ولكن فكروا بالأطفال المساكين وما عانوه في النمسا! وطوال حياتي عانيتُ لأن عظامي ضعيفة. ولست وحدي. كلا. غيري، كثيرون، كثيرون غيري. وكنتم أنتم الإنغليز من فعل ذلك." وبعد أن تكلم، نقل كرسيه كيلا يحتاج لإلقاء نظرة أخرى عليهما. كان ليون يأكل بهدوء أثناء الخطبة التقريعية المسهبة.

قالت بام: "من المضحك أننا لم نسمع شيئاً عن هذا حين كان الرجل الآخر يحاول أن يجرّكِ إلى السرير."

"نعم، مضحك،" حاولت برندا أن تتكلم بصوت ينم عن عدم الاكتراث، لكن صوتها اهتز. وضعت قهوتها جانباً وقالت: "لنصعد ونرى أين نحن."

خلال الليل سارت **يوليانا** بين الجزر الأيونية Ionian ودخلت خليج كورينث Corinth. كان المفروض أن تصل إلى أثينا ذلك المساء، لكن قبل ذلك ستتوقف في أيتيا Itéa كي يتمكن من يرغب من الركاب أن يستقل سيارة أجرة إلى دلفاي Delphi ويشاهد روعة جبل بارناسوس Parnassus.

كان مما يعطي نشوة كافية أن تكون اليونان على مرمى البصر، ولكن أن تتوفر فرصة رؤية دلفاي أيضاً وبمثل هذه الشروط السهلة، فقد كاد ذلك أن ينسي برندا وبام الإزعاج الذي حدث على مائدة الفطور. لذلك انحنتا معاً فوق حاجز القوارب، وهما تنظران إلى الشاطئ الصخري، وأشجار الصنوبر، والبساط الرمادي المشكل من بساتين الزيتون، وهنأتا نفسيهما على الوصول إلى تلك النقطة. وكان من الممكن لهما وهما ممتلئتان بالسرور المنبعث من توقعاتهما أن ينسيا كارل وليون كلياً، لولا أن هذين صعدا إلى سطح السفينة ووقفا خلفهما تماماً. وحيت التفتتا بدهشة، لاحظتا أن كارل مستعد لتجديد هجومه.

قالت برندا: "فلنذهب." ولم يستطع الرجلان إيقافهما لكنهما تبعاهما إلى السطح الرئيسي. وحين جلست برندا وبام فوق فتحة على السطح لمشاهدة الشاطئ، وقف كارل وليون مرة أخرى على مقربة منهما، وكأنهما شخصان متجهمان موبِّخان يبديان موقفاً عدائياً كالضباب الجليدي. فتح كارل فمه، لكن قبل أن يتمكن من التكلم، غيرت الامرأتان مكانهما مرة أخرى، وهذه المرة توجهتا إلى الملجأ الوحيد الباقي، وهو السطح الأسفل.

قالت برندا وهما في قمرتهما: "هذا اضطهاد."

"من المؤكد أنه يبدو كذلك."

"عندي فكرة، وهي أن ننزل من السفينة. سنحزم أمتعتنا ونذهب إلى دلفاي. ويمكننا قضاء ليلة أو ليلتين هناك، ثم نستأجر سيارة ونتوجه إلى أثينا."

"ولكن. . ."

"لقد كانت رحلة كارثية، لذلك دعينا نتركها. هنا والآن. لنعتبر أن هذه نهايتها."

"عزيزتي برندا، لا أستطيع. فكري بمقدار التكلفة! أعرف أنني أبدو بخيلة، لكن الحقيقة هي أنني لا أملك هذا المقدار من النقود."

"اللعنة على النقود." أخرجت برندا حقيبة سفر من تحت السرير وأخرجت منها حقيبة زينة مصنوعة من جلد التمساح. فتحت هذه الحقيبة بمفتاح صغير مذهّب معلق بسلسلة تحت قميصها. ثم أمالت الحقيبة على مضجعها فسقطت منها رزم من الجنيهات الإنغليزية من فئتي خمسة وعشرة جنيهات، وأوراق عملات ما لا يقل عن ستة دول أوروبية. وفتحت حقيبة يدها وأخرجت شيكات سياحية وصكات خزينة من كل جيب وحاشية. "أترين ما أحمل معي؟"

"لِمَ أحضرت كل هذا المال؟"

"لا أدري. إنه يجعلني أشعر بالأمان. وكذلك يجعلني أشعر بعدم الأمان. فأنا في رعب من إضاعته وفي رعب إن لم يكن معي. ومع ذلك لا أريده. ما أريد هو رفيق،[١] صديق، شخص يمكنني أن أثق به. يمكنني أن أكلم هذا المال اللعين، لكن لا يمكنه أن يكلمني. ومع ذلك فهو الصديق الوحيد لديّ."

"لديك جيمس."

"ليس هذا صحيحاً. لقد دخل حياتي الكثيرون من أمثال جيمس. وهم يبقون بصحبتي آملين، ثم حين يدركون أنهم لن يحصلوا على شيء، يتلاشون. وما الذي يبقى؟ المال فقط. وحين يتوفر لك، ستندهشين من قلة ما يمكنك تحقيقه به. فإذن لم لا أشاركك به؟ أنت صديقة، أليس هذا صحيحاً؟ لقد أخبرتك بالحقيقة، ولا يفعل المرء ذلك إلا مع صديق. إذا لم أشاركك به، فمن أشاركه؟

"أعرف مدى كرمك يا برندا. وأنا أقدره، لكنني بالطبع لا أستطيع."

(١) ليس المقصود أن يكون الشخص ذكراً بالضرورة.

"بالطبع تستطيعين. بحق الله لا تجادليني. احزمي حقائبك ولنغادر هذا المركب اللعين."

حمل المضيف وعيناه مظلمتان من الحزن متاعهما إلى الشاطئ في أيتيا. توصلت برندا التي تعرف شيئاً من اللغة اليونانية إلى اتفاق مع سائق سيارة أجرة، وأمرت بتحميل الحقائب وهي مشرقة ومبتهجة، تصدر الأوامر، وحين تم كل شيء أمسكت بيد المضيف وأغلقت أصابعه على هدية وداع.

"لقد كنتَ طيباً جداً معنا."

"أنتما أيضاً أيتها السيدتين الطيبتين جداً." تكلم بحماس كبير جعل عيناه تبتلان. وبقي على الرصيف يراقب مغادرتهما بقلق وحزن ومودة.

لم يكن وحيداً. فعلى بعد خطوات كان كارل وليون يراقبان أيضاً، ولكن بدون مودة. بدا عليهما في البداية عدم تصديق هروب الامرأتين، لكن حين دارت سيارة الأجرة حول الرصيف وفيها برندا وبام وحقائبهما وكل شيء، تقاسم وجها الرجلين تعبيراً ينم عن النكد والسخرية.

لم تستطع برندا إخفاء طَرَبِها وجعلت بام تبدأ بالقهقهة. وبينما كانتا تنطلقان نظرتا من النافذة الخلفية ولوحتا بيديهما. رد المضيف عليهما ملوحاً، أما كارل وليون فقد وجدا صعوبة في ضبط شعورهما بالقرف.

قالت برندا: "اللهم استرنا! انظري إلى أسنان ليون!" وتهاوت بام في زاوية ودموعها تهطل من سرورها.

"آه يا برندا. أنت رائعة!"

تخبطت السيارة على الطريق المرصوف بالحصى متخطية الدكاكين التي تبيع عصير الليمون والبطاقات البريدية، وجلود الخراف السوداء والبيضاء، والأواني المعدنية والفخارية، وصور سائق مركبة دلفاي.[١] ومرت السيارة

---

(١) سائق مركبة دلفاي the Delphi charioteer هو أحد أشهر التماثيل الباقية من اليونان القديمة.

بمقهى انبعثت منها رائحة اليانسون. وتخطت بيوت القرية، وصعدت منحدراً شديداً بين أشجار النخيل والزيتون وسفوح التلال الصخرية، واستطاعت الامرأتان أن تريا فوقهما جرف دلفاي وجبل بارناسوس وقد كساه الثلج الباكر بالبياض. صعدتا في السيارة أعلى ثم أعلى، مخلفتين وراءهما **يوليانا** وغرفة طعامها ذات رائحة الحساء، والمضيف الذي يمضي أيامه فيها، والقبطان، رمز الحياة المرغوبة، وليون مع حاجته وكارل مع عظامه الهشة.

أصبح مزاج برندا مزاج شغب وصاحت: ""فليذهبوا كلهم بالجملة إلى الجحيم!"

لكن بام جففت عينيها وقالت: "أعتقد أنني شعرت بالحزن على كارل، فلم أعرف في حياتي رجلاً محطماً إلى هذا الحد!"

"ألسنا جميعاً محطمين؟"

"إذا فكرنا بالأمر، فنعم، أعتقد ذلك."

كارسون مكَلَرز

شجرة. صخرة. سحابة(١)

ولدت كارسون مكَّلرز عام ١٩١٧ في ولاية جورجيا في الولايات المتحدة، ونشرت روايتها الأولى **القلب صياد يعاني الوحدة** *The Heart Is a Lonely Hunter* وهي في سن الثالثة والعشرين، ونجاح هذه الرواية جعلها من الشخصيات الأدبية الأمريكية البارزة في العقدين الخامس والسادس من القرن العشرين. وربما يكفي هنا الاستشهاد بما كتب الكاتب الشهير غراهام غرين عنها: "السيدة مكلرز وربما وليام فوكنر هما الكاتبان الوحيدان منذ وفاة د. هـ. لورنس اللذان يتمتعان بحس شاعري. وأنا أفضل السيدة مكلرز على السيد فوكنر لأنها تكتب بوضوح أكبر، وأفضلها على د. هـ. لورنس لأنه ليس لديها رسالة."

كان المطر يهطل ذلك الصباح، والظلام لا يزال حالكاً. حين وصل الصبي إلى الترام الذي حُوِّل إلى مقهى كان قد أكمل دورته اليومية تقريباً ودخل ليتناول فنجاناً من القهوة. كان المكان مقهى يفتح طوال الليل يملكه رجل لاذع شحيح يدعى ليو Leo. بعد الشارع الخالي الشديد البرودة، بدا المقهى ودوداً ومشرقاً: عند النضد جلس جنديان وثلاثة حائكين من مصنع

---

(١) هذه ترجمة قصة "A Tree. A Rock. A Cloud" للكاتبة Carson McCullers. والقصة نشرت في مجموعة المؤلفة: *The Ballad of the Sad Café*. Hardmonswoth: Penguin, 1965.

القطن، وكان هناك رجل في زاوية محدودباً وأنفه ونصف وجهه في كوب من البيرة. كان الصبي يرتدي خوذة على رأسه تماثل ما يلبسه الطيارون. وحين دخل المقهى، فك ربطة الذقن ورفع لسانها الأيمن فوق أذنه الزهرية اللون الصغيرة، وفي كثير من الأحيان، حين يشرب قهوته يتحدث إليه أحدهم بطريقة ودودة. لكن هذا الصباح، لم ينظر ليو في وجهه وكان جميع الرجال صامتين. دفع الحساب وكان يغادر المقهى، حين ناداه صوت:

"يا بنيّ! أنت يابنيّ!"

التفت وراءه وشاهد الرجل في الزاوية يثني إصبعه ويشير إليه برأسه. كان قد أخرج وجهه من كوب البيرة وبدا فجأة بالغ السعادة. كان الرجل طويلاً وشاحباً، ذا أنف كبير وشعر برتقالي ذابل.

"أنت يابنيّ!"

توجه الصبي نحوه. كان صبياً صغير الحجم في الثانية عشرة تقريباً، أحد كتفيه أعلى من الآخر بسبب وزن حقيبة الصحف. وكان وجهه مسطحاً مليئاً بالنمش، وعيناه عينا طفل مدورتان.

"نعم يا سيد؟"

وضع الرجل يده على كتف الصبي موزع الصحيفة، ثم أمسك بذقن الصبي وأدار وجهه ببطء من جانب إلى الآخر. انكمش الصبي وتراجع منزعجاً.

"ما هذا؟ ما هو قصدك؟"

كان صوت الصبي ثاقباً، وفجأة ساد الهدوء في المقهى. قال الرجل ببطء: "أحبك."

ضحك جميع الرجال الجالسين إلى النضد. ولم يعرف الصبي، بعد أن قطب وانحرف جانباً، ما يفعل. نظر عبر النضد إلى ليو، وراقبه ليو بابتسامة ساخرة هشة ومتعبة. حاول الصبي أن يضحك أيضاً. لكن الرجل كان جاداً وحزيناً.

قال: "لم يكن قصدي أن أضايقك يا بني. اجلس وتناول كوباً من البيرة معي. هناك شيء يجب علي أن أشرحه."

قام الصبي بحذر ومن زاوية عينه باستشارة الرجال الجالسين إلى النضد ليعرف ما يجب أن يفعله. ولكنهم كانوا قد عادوا إلى بيرتهم أو فطورهم ولم يلاحظوه. وضع ليو فنجاناً من القهوة على النضد وإبريقاً صغيراً مملوءاً بالقشدة.

قال ليو: "إنه قاصر."

زلق الصبي نفسه وجلس على المقعد. كان طرف رباط الخوذة مرفوعاً إلى الأعلى يغطي أذنه الشديدة الصغر والاحمرار. كان الرجل يشير إليه برأسه بجد وهدوء. قال: "المسألة هامة." ثم وضع يده في جيبه الخلفي وأخرج شيئاً أمسكه في راحة يده كي يراه الصبي.

قال: "دقق النظر."

حدق الصبي، ولكن لم يكن هناك أي شيء يمكن تدقيق النظر به. فقد كان الرجل يمسك في راحته الكبيرة الكالحة صورة فوتوغرافية. كانت لوجه امرأة لكنه غير واضح، بحيث لم يظهر بوضوح سوى القبعة والثوب اللذين تلبسهما.

سأل الرجل: "أترى؟"

هز الصبي رأسه بالإيجاب، ووضع الرجل صورة أخرى في راحته. كانت المرأة تقف على شاطئ في لباس السباحة. وقد جعل ذلك اللباس بطنها كبيراً جداً، وكان ذلك هو الشيء الرئيسي الذي تلاحظه.

"هل ألقيت نظرة جيدة؟" وانحنى ليكون أقرب وسأل أخيراً: "هل رأيتها من قبل قط؟"

جلس الصبي ساكناً لا يتحرك، يحدق بالرجل بنظرة مائلة. "ليس على حد علمي."

"حسن جداً." نفخ الرجل على الصورتين وأعادهما إلى جيبه. "كانت هذه زوجتي."

سأل الصبي: "ماتت؟"

حرك الرجل رأسه ببطء بالنفي. زم شفتيه وكأنه على وشك أن يصفر وأجاب بطريقة ممطوطة: قال: "كلا – " ومدّ الألف. "سأشرح لك."

كانت البيرة على النضد أمام الرجل في كوب بني كبير. لم يلتقطه ليشرب منه، ووضع وجهه فوق حافة الكوب واستراح في تلك الوضعية للحظة. ثم بكلتا يديه أمال الكوب ورشف منه.

"في إحدى الليالي سيغلبك النوم وأنفك الكبير في الكوب وتغرق،" هكذا قال ليو. "عابرٌ شهير يغرق في البيرة. ستكون تلك ميتة فاتنة."

حاول الصبي موزع الصحيفة أن يعطي إشارة إلى ليو. بينما كان الرجل لا يوجه النظر إليه لوى وجهه وحرك فمه ليسأل بلا صوت: "سكران؟" لكن ليو اكتفى برفع حاجبيه والتفت كي يضع قطعتين مطاولتين من لحم الخنزير المقدد على المشواة. دفع الرجل الكوب بعيداً عنه، وعدّل وضعه وطوى يديه الملتويتين الرخوتين فوق النضد. كان وجهه حزيناً وهو ينظر إلى الصبي موزع الصحيفة. لم ترف عيناه، ولكن من حين إلى حين، انغلق الجفنان برزانة رقيقة فوق عينيه الخضراوين الشاحبتين. اقترب الفجر ونقل الصبي ثقل كيس الصحف من جهة إلى أخرى.

قال الرجل: "إنني أتكلم عن الحب. وهو بالنسبة لي علِْم."

كاد الصبي أن ينزل عن المقعد. لكن الرجل رفع إصبعه، وكان فيه شيء أوقف الصبي ولم يتح له أن يبتعد.

"قبل اثني عشر عاماً تزوجت المرأة صاحبة الصورة. وكانت زوجتي لسنة وتسعة أشهر وثلاثة أيام وليلتين. أحببتها. نعم . . . ." شدّ صوته الذي كان

غير واضح وغير مترابط وقال مرة أخرى: "أحببتها. وظننت أنها هي أيضاً تحبني. كنت مهندساً للسكك الحديدية، وكان لديها كل وسائل الراحة والكماليات المنزلية لم يخطر ببالي قط أنها لم تكن راضية. ولكن هل تعرف ما حدث؟"

"مياو!" قال ليو.

لم يلفت الرجل نظره عن وجه الصبي. "تركتني. أتيت في إحدى الليالي وكان المنزل فارغاً وهي قد غادرت. تركتني."

سأل الصبي: "مع رجل؟"

وضع الرجل راحته بلطف على النضد. "بالطبع، يا بني. المرأة لا تهرب على هذا النحو وحدها."

كان المقهى هادئاً، والمطر الخفيف أسود ومتواصل في الشارع خارجه. ضغط ليو على اللحم المقلي بأسنان شوكته الطويلة. "إذن كنت تطارد الفاسقة منذ إحدى عشرة سنة. يا لك من وغد مهترئ!"

لأول مرة نظر الرجل إل ليو. "لا تكن سوقياً إذا سمحت. وفوق ذلك، لم أكن أتحدث إليك." والتفت من جديد إلى الصبي وقال بصوت خافت ينم عن الثقة والسرية: "لن نعره أي انتباه، موافق؟"

هز الصبي برأسه إيجاباً ولكن بصورة تحمل الشك.

تابع الرجل: "كان الأمر على النحو التالي. أنا شخص أشعر بأشياء كثيرة. وطوال حياتي كان شيء ما يخلف أثراً في نفسي يتلوه شيء آخر. ضوء القمر. ساق فتاة جميلة. شيء بعد الآخر. لكن المهم هو أنني حين كنت أستمتع بأي شيء، يكون هناك إحساس غريب وكأنه يقبع غير ثابت في داخلي. لا شيء بدا وكأنه أكمل نفسه ويتلاءم مع باقي الأشياء. النساء؟ حصلت على حصتي منهن. الشيء نفسه. فيما بعد يقبعن غير ثابتات في داخلي. كنت رجلاً لم يشعر بالحب أبداً."

أغلق جفنيه ببطء شديد، وكانت الحركة تشبه إغلاق ستارة عند نهاية المشهد. حين عاد إلى التكلم كانت في صوته إثارة وتدفقت الكلمات بسرعة، وبدت شحمتا أذنيه الكبيرتين الرخوتين وكأنهما ترتجفان.

"ثم قابلت هذه المرأة. كنت في الواحدة والخمسين من العمر وكانت هي تقول دائماً إنها في الثلاثين. قابلتها في محطة وقود وتزوجنا بعد ثلاثة أيام. أتدري كيف كان الأمر؟ إنني ببساطة لا أستطيع أن أخبرك. كل ما سبق أن شعرت به من قبل على الإطلاق تجمع معاً حول هذه المرأة. لم يعد أي شيء غير ثابت في داخلي بل هي أكملته."

توقف الرجل فجأة وربت على أنفه الطويل. تحول صوته إلى صوت منخفض ثابت ومعاتب: "إنني لا أشرح هذا على النحو الصحيح. ما حدث هو التالي. كانت توجد هذه المشاعر الجميلة والمسرات الصغيرة المفككة داخلي. وكانت هذه المرأة مثل خط تجميع لروحي. إنني أضع هذه القطع الصغيرة من نفسي عبرها وأخرج مكتملاً. هل تتبع الآن ما أقول؟"

سأل الصبي: "ما اسمها؟"

قال: "كنت أدعوها دودو.[1] لكن هذا لا أهمية له.

""هل حاولت أن تجعلها تعود؟"

لم يبد أن الرجل قد سمع. "في تلك الظروف يمكنك أن تتخيل ما شعرت به حين تركتني."

أنزل ليو لحم الخنزير المقدد من المشواة وطوى قطعتين داخل رغيف صغير مستدير. كان له وجه رمادي اللون وعينان متكلفتان، وأنف مضغوط ترهقه ظلال زرقاء طفيفة. أشار أحد عمال المصنع يطلب المزيد من القهوة وصب له ليو ما يريد. لم يكن ليو يعيد ملء القهوة مجاناً. وكان ذلك الحائك

---

(١) تطلق كلمة dodo على الشخص الأحمق.

يتناول إفطاره هناك كل صباح، لكن كلما ازداد ليو معرفة بزبائنه يزداد شحاً في معاملته لهم. وبدأ يقضم رغيفه وكأنه استكثره على نفسه.

"ولم تصل إليها مرة أخرى أبداً؟"

لم يعرف الصبي كيف يفكر بالرجل، وكان الشك ظاهراً في وجهه الطفولي ممتزجاً بالفضول والشك. كانت دورة توزيع الصحف جديدة عليه، وكان لا يزال يجد غرابة في الخروج إلى البلدة في الصباح الباكر المظلم الغريب.

"بلى،" قال الرجل. "اتخذت عدداً من الخطوات لاستعادتها. تجولتُ لكي أعثر على مكانها. ذهبت إلى تولسا Tulsa حيث يوجد لها أقارب. وإلى موبيل Mobile. ذهبت إل كل بلدة كانت قد ذكرتها لي، وسعيت للوصول إلى كل رجل كانت على احتكاك به من قبل. تولسا، أتلانتا، شيكاغو، تشيهو Cheehaw، ممفيس Memphis . . . . ولمدة سنتين تقريباً جلت في أنحاء البلاد محاولاً الوصول إليها."

قال ليو: "لكن الاثنين كانا قد اختفيا من على وجه البسيطة!"

أسرّ الرجل للصبي قائلاً: "لا تصغ إليه. وأيضاً إنس هاتين السنتين. ليستا مهمتين. ما يهم هو أنه مع بداية السنة الثالثة بدأ شيء غريب يحصل لي."

سأل الصبي: "ما هو؟"

انحنى الرجل وأمال كوبه ليرشف رشفة من البيرة. ولكن وهو يتأرجح فوق الكوب، ارتعش منخراه قليلاً؛ شم رائحة البيرة البائتة ولم يشرب. "قبل كل شيء، الحب شيء غريب. لم أفكر في البداية إلا باستعادتها. كان ذلك نوع من الجنون. ولكن بعد ذلك مع مرور الوقت أخذت أحاول أن أتذكرها. ولكن هل تعلم ما حدث؟"

قال الصبي: "كلا."

"حين كنت ألقي بنفسي فوق سرير وأحاول التفكير بها يصبح عقلي صفحة بيضاء. لم أتمكن من رؤيتها. كنت أخرج صورها وأنظر إليها. لا فائدة. لا شيء. صفحة بيضاء. هل يمكنك تخيل ذلك؟"

صاح ليو من طرف النضد: "قل لي يا ماك Mac! هل يمكنك تخيل عقل هذا المهرج صفحة بيضاء؟"

لوح الرجل بيده ببطء وكأنه يبعد الذباب. كانت عيناه الخضراوان مركزتين ومثبتتين على صبي توزيع الصحيفة.

"ولكن الظهور المفاجئ لقطعة من الزجاج على رصيف، أو نغم صادر عن صندوق موسيقى. ظل على جدار في الليل. وعندها أتذكر. قد يحدث ذلك في الشارع فأصيح وأضرب رأسي على عمود كهرباء. أتتابعني؟"

قال الصبي: "قطعة من الزجاج . . ."

"أي شيء. كنت أمشي هنا وهناك ولم تكن لدي القوة لتحديد كيفية وزمن تذكري لها. إنك تعتقد أن بإمكانك أن تضع ترساً من نوع ما. لكن التذكر لا يأتي مواجهاً للمرء، بل يأتي من زاوية جانبية. كنت تحت رحمة كل شيء أراه وأسمعه. فجأة، بدلاً عن قيامي بتمشيط البلاد للعثور عليها، بدأت تطاردني داخل روحي. انتبه: **هي** تطاردني **أنا!** وداخل روحي."

أخيراً سأل الصبي: "في أي جزء من البلاد كنتَ آنذاك؟"

تأوه الرجل: "آه، كنت إنساناً مريضاً. كان الأمر مثل الجدري. أعترف يا بني أنني كنت أسكر. وأزني. وأرتكب كل إثم استهواني بشكل مفاجئ. إنني أكره الاعتراف بذلك، ولكنني سأفعل. حين أتذكر تلك الفترة أجدها بأكملها متخثرة في ذهني، فقد كان الأمر سيئاً جداً."

حنى الرجل رأسه ودق برأسه على النضد. ولبضع ثوان بقي منحنياً بهذه الوضعية، ومؤخرة عنقه النحيفة مغطاة بوبر برتقالي، وراحتا يديه،

بأصابعهما الطويلة الملتوية، متقابلتان في وضع من يصلي. ثم عدل الرجل جلسته، وكان يبتسم وفجأة صار وجهه مشرقاً ومرتعشاً وهرماً.

قال: "حدث ذلك في السنة الخامسة. وبحدوثه بدأت عِلْمي."

اهتز وجه ليو بابتسامة شاحبة سريعة، وقال: "ليس بيننا نحن الرجال من يصغر سناً." ثم بغضب مفاجئ كوّر قماشة لغسل الصحون كانت في يده ورماها بقوة على الأرض. "يالك من روميو عجوز ملطخ بالخطيئة."

سأل الصبي: "ما الذي حدث؟"

كان صوت الرجل الهرم عالياً وواضحاً وهو يجيب: "السلام."

"ماذا؟"

قال: "من الصعب شرح ذلك علمياً يا بني. أعتقد أن التفسير المنطقي هو أننا أنا وهي هربنا هنا وهناك أحدنا من الآخر لفترة طويلة إلى حد أننا في النهاية اشتبكنا معاً واستلقينا واستسلمنا. سلام. خواء جميل وغريب. كان الفصل ربيعاً في بورتلاند Portland والمطر يهطل بعد ظهر كل يوم. طوال المساء مكثت هناك على سريري في الظلام. وهذه كانت كيفية قدوم العِلْم إلي."

كان النور قد جعل نوافذ الترام زرقاء شاحبة. دفع الجنديان ثمن البيرة التي شرباها وفتحا الباب. مشّط أحدهما شعره ومسح غطاء ساقيه الموحل قبل أن يخرجا. وانحنى عمال المصنع الثلاثة فوق فطورهم. وكانت ساعة ليو تطقطق على الجدار.

"الأمر هكذا، واصغ إلي جيداً. لقد تأملت في موضوع الحب ووضعته في قالب عقلاني. فقد أدركت ما الخطأ فينا. يقع الرجال في الحب للمرة الأولى؟ وما الذي يقعون في حبه؟"

كان فم الصبي الناعم مفتوحاً نصف فتحة، لكنه لم يجب.

قال الرجل الكبير في السن: "امرأة. وبدون علم، بدون شيء يستندون إليه، يخوضون أكثر التجارب خطراً وقداسة على أرض الله. يقعون في حب امرأة. هل هذا صحيح يا بني؟"

"نعم،" قال الصبي بصوت خافت.

"إنهم يبدؤون الحب من الطرف الخاطئ. يبدؤون من الذروة. هل يدهشك أن الأمر تعيس على هذا النحو؟ هل تعرف كيف يجب أن يحب الرجال؟"

تمدد الرجل الكبير في السن وأمسك بالصبي من ياقة سترته الجلدية. هزّه برفق وحدقت عيناه الخضراوان فيه دون أن ترفا وبنظرة وقورة.

"يا بني، هل تعرف كيف يجب أن يُبْدَأ الحب؟"

تقوقع الصبي وجلس مصغياً وساكناً. هز رأسه بالنفي ببطء. اقترب الرجل الكبير في السن أكثر وهمس:

"شجرة. صخرة. سحابة."

كان المطر لا يزال يهطل في الشارع خارج المقهى: مطر معتدل رمادي لا ينتهي. انطلقت صفارة المصنع من أجل نوبة الساعة السادسة، ودفع الحائكون الثلاثة حسابهم وذهبوا. لم يعد هناك أحد في المقهى سوى ليو والرجل الكبير في السن والصبي الذي يوزع الصحيفة.

قال: "كان الطقس على هذا النحو في بورتلاند، في الوقت الذي بدأ عِلْمي فيه. لقد تأملت وبدأت بحذر شديد. كنت ألتقط شيئاً ما من الشارع وأذهب به إلى البيت. اشتريت سمكة ذهبية، وركزت عليها وأحببتها. تخرجت من أحد الأشياء إلى شيء آخر. يوماً بعد يوم كنت أطور هذا الأسلوب. في القطار من بورتلاند إلى سان دييغو San Diego . . . ."

فجأة صاح ليو: "اخرس! اخرس! اخرس!"

كان الرجل الكبير في السن لا يزال ممسكاً بياقة سترة الصبي؛ كان يرتجف وكان وجهه جاداً ومشرقاً وجامحاً. "ومنذ ست سنوات إلى الآن وأنا

أتجول بمفردي وأبني علمي. والآن صرت معلّماً. يا بني، إن باستطاعتي أن أحب أي شيء. ولم أعد مضطراً حتى إلى التفكير بالأمر. أرى شارعاً مليئاً بالناس ويدخل نور جميل داخلي. أراقب طيراً في السماء. أو أقابل مسافراً في الطريق. كل شيء، يا بني. وأي شخص. الكل غريب والكل محبوب! هل تدرك ما يعني علم مثل علمي؟"

تصلب الصبي، ويداه ملتفتان بشدة حول حافة النضد. أخيراً سأل: "هل عثرت على السيدة حقاً؟"

"ماذا؟ ما الذي تقوله يا بني؟"

سأل الصبي بلطف: "أعني هل وقعت في حب امرأة مرة ثانية؟"

أفلت الرجل الكبير في السن قبضته من ياقة الصبي. التفت بنظره بعيداً ولأول مرة ظهرت في عينيه الخضراوين نظرة مبهمة ومشتتة. رفع كوبه من على النضد، وشرب ما تبقى من بيرته الصفراء. كان رأسه يهز بالنفي ببطء من جانب إلى آخر. ثم أجاب أخيراً: "كلا، يا بني. فهذه هي آخر خطوة في عِلْمي. فأنا أمضي حذراً. ولست مستعداً تماماً بعد.

قال ليو: "حسن! حسن حسن حسن!"

وقف الرجل الكبير في السن في الممر عند الباب. قال: "تذكر." وبدا وهو يقف ضمن إطار من النور الرطب الرمادي منكمشاً ورَثّاً وهشّاَ. لكن ابتسامته كانت مشرقة. قال وهو يهز رأسه للمرة الأخيرة: "تذكر أنني أحبك." وانغلق الباب بهدوء خلفه.

لم يتفوه الصبي بكلمة لفترة طويلة. أنزل شعر مقدمة رأسه على جبهته وأدار سبابته الصغيرة حول حافة فنجانه الفارغ. ثم بدون أن ينظر إلى ليو سأل أخيراً:

"هل كان سكراناً؟"

قال ليو باختصار، "كلا."

رفع الصبي صمته الصافي درجة أعلى: "إذن هل هو مدمن مخدرات؟"

"كلا."

رفع الصبي نظره إلى الأعلى، وكان وجهه الصغير المسطح يعبر عن اليأس، وصوته ملح وثاقب. "هل هو مجنون؟ هل تعتقد أنه مجذوب؟" انخفض صوت الصبي موزع الصحيفة فجأة بفعل الشك: "ليو؟ هل هو كذلك أم لا؟"

لقد كان ليو يدير مقهى مفتوحاً طوال الليل منذ أربعة عشر عاماً، واعتبر نفسه ناقداً للجنون. كان هناك شخصيات من البلدة وكذلك عابرين تقودهم أقدامهم إليه في الليل. كان يعرف حالات جنون كل منهم. لكنه لم يشأ أن يرضي أسئلة الطفل المنتظر للجواب.

وهكذا أنزل الصبي اللسان الأيمن من ربطة خوذته، وبينما كان يلتفت كي يغادر المكان أبدى التعليق الوحيد الذي كان بدا آمناً بالنسبة له، التعليق الوحيد الذي لا يمكن مقابلته بالضحك والازدراء:

"من المؤكد أنه سافر كثيراً."

سوزان هيل

في المحمّية (١)

ولدت سوزان هيل ولدت في سكاربورو Scarborough في شمال يوركشاير في المملكة المتحدة، وكتبت روايتها الأولى وهي في سن السابعة عشرة، ونشرت الرواية بعد عامين. وبعدها نشرت عدة روايات أخرى، كما كتبت مسرحيتين وعدداً من القصص القصيرة. نالت جائزة سومرست موم في عام ١٩٧١، وتلتها جوائز أخرى. وهي متأثرة في كتابتها بالأسلوب القوطي وبقصص الأشباح.

منذ البداية، كانت علاقتهما الغرامية علنية جداً. أي أنهما جعلاها تدور بصورة رئيسية في أماكن عامة، وهذا باختيارهما وليس بحكم الضرورة. كانا كلاهما يمتلكان مقداراً معيناً من الوقت والمال لينفقاه على تلك العلاقة، بحيث يمكن رعايتها في هدوء وخصوصية فنادق المدينة والريف، بل وحتى في شقة. لكنهما كانا يتقابلان علناً، يريدان بطريقة ما البرهان على حقيقة نفسيهما، بأن يُشَاهِدا ويُشَاهَدا.

---

(١) هذه ترجمة قصة "In the Conservatory" للكاتبة Susan Hill. والمقصود بكلمة المحميّة هنا هو المستنبت النباتي الذي تزرع فيه عادة أنواع مختلفة وغريبة من النباتات من أنحاء العالم. والقصة نشرت في كتاب:

Penguin Modern Stories *7*. Penguin Books, 1971.

بدأت العلاقة في الحفلة التي أقيمت للاحتفال بافتتاح مكتبة نانسي Nancy، في واحد من الحارات الديكنزية[1] المتفرعة عن تشانسري لين Chancery Lane. كان **هو** يعرف نانسي جيداً، لأنه أُقنع بعد إلحاح بمساعدتها في اختيار مخزونها من الكتب، رغم ما لديه من هواجس وشكوك، إذ أن الكتب ليست في مجال اهتمامه، فقد كان يبيع فقط الكتب النادرة، وينجح في بيعها.

أما **هي** فلم تكد تعرف نانسي على الإطلاق، ولكنها ذهبت بدلاً عن زوجها بوريس Boris، الذي وُجهت الدعوة إليه. لم يكن بوريس يذهب إلى أية حفلة أياً كان نوعها أبداً، ولكن هذا لم يوقف توجيه الدعوات إليه. وقد ذهبت وفي ذهنها هذا الغرض: أن تقابل شخصاً ما. لأنها كانت قد قررت قبل بضعة أسابيع أن ذلك يجب أن يكون تجربتها التالية. قالت لنفسها: أنا في الثانية والثلاثين، متزوجة منذ ثماني سنوات وليس لي ولد، فما هو المُخَبّأ لي؟ أنا لست بلا جاذبية، لست بلا ذكاء، ومع ذلك فلم أدخل في أي علاقة، قبل الزواج ومنذ تزوجت، وهناك عالم كامل تتحدث عنه صديقاتي والناس يكتبون، **وأنا** لا أعرف شيئاً عنه. هناك انفعالات وعواطف ومشاعر غيرة وقلق لا أفهمها. لقد حان الوقت، بالتأكيد حان الوقت . . .

وربما في الواقع ليس الأمر محدداً بهذا الشكل، ليس صادراً عن وعي كهذا، ومن المحتمل أنه كانت هناك شكوك كثيرة ولحظات من الوهم. لكن القرار قد اتخذ على نحو ما، وفيما بعد شعرت بأنها فجأة أكثر عرضة للأذى، أكثر وعياً، وكانت منفتحة على النظرات والأسئلة والتلميحات. وبعدها أصبحت المسألة مجرد مسألة وقت. وقت، والخيار الصحيح.

كانت قد وصلت إلى حفلة نانسي متوهجة وحلوة بفعل توقعاتها. وبالطبع بوريس لن يمانع أبداً. ومن المؤكد أن تأكدها الباهت أن بوريس

---

(١) نسبة إلى تشارلز ديكنز.

لن يمانع أزال عن الأمر كله شيئاً طفيفاً من ميزته. فبوريس المنشغل بكتبه في مجال التاريخ العسكري، بوريس ذو الجنود الصغيرة الرصاصية، المصفوفة على شكل كتائب تغطي طاولة السفرة بأكملها، بوريس الذي كان غريباً عنها الآن أكثر من أي من الأشخاص في حفلة نانسي – هذا هو بوريس الذي لن يمانع.

وهكذا فذلك هو المكان الذي التقيا فيه، ذات مساء في مكتبة نانسي الجديدة، ثم في اليوم التالي أيضاً، لأنه ألمح، وهي ألمحت، أنهما قد يكونان في مكان ما في المتحف البريطاني في وقت ما غداً. وقد هرعت في أرجاء ذلك الصرح الكبير، تصعد وتنزل على سلالم رخامية، إلى أن أوجعتها رجلاها، متنقلة بين جميع الطلاب الملاويين والمجموعات المدرسية من لانكاشير Lancashire، تدخل غرف المخطوطات وغرف النحت وغرف النسخ المصورة والأروقة المليئة بالمومياء المصرية وبأوعية الشرب الأنغلو سكسونية والخزف الصيني وتخرج منها، ومع ذلك لم تجده في أي مكان. فيما بعد فقط، بعد أن شربت كوباً من القهوة الرمادية وخلعت حذاءها تحت الطاولة، ثم عادت متعبة، كان هناك، ينظر إليها من خلف أحد رفوف البطاقات البريدية في قاعة المطبوعات. كانت عيناه في لون الحصى على شاطئ شتائي.

بعد ذلك، كانا يلتقيان لعدة أسابيع في المتحف البريطاني، في غرفة مختلفة كل يوم، وهي لم تشاهد في حياتها من قبل من المتحف كل ما شاهدته آنذاك، ولم تتعلم كل ما تعلمته، بالصدفة. ثم انتقلا إلى معرض الصور القومية، ثم أخذا يلتقيان في متحف تيت Tate والغرف الموسيقية في متحف فكتوريا وألبرت، حيث جلسا على عدد لا يحصى من المقاعد المغطاة بالجلد، ووقفا أمام لوحات هامة، وشربا الشاي في الغرف الموحشة، وتكلما أحدهما مع الآخر، ولمسا أحدهما الآخر بشكل رسمي إلى حد ما، واستكشفا السبل المبدئية لعلاقتهما.

وسرعان ما بدآ يبتعدان أكثر، وكأنهما شعرا بقدرتهما على توسيع حدود علاقتهما، أن ينظرا إليها على خلفية مختلفة. كان عليه في كل الأحوال أن يسافر لشراء كتبه، وكانت هي نفسها حرة من القيود، فلم يكن لديها أطفال أو عمل مما يتطلب عنايتها، وبوريس لا يهتم. ولم يبخلا بالوقت للعثور على فنادق ريفية، في البداية لتناول الغداء أو الشاي، ولكن فيما بعد، حين حل الربيع، بدآ ينامان معاً. مرات قليلة في البداية. وفي الصباح، كانت تستيقظ وتنهض من السرير لتحدق بنفسها في المرآة، وهي تتوقع أن ترى تغييراً. كانت تقول: ها أنا هنا وهو هناك ولا بد أنني الآن أعيش حقاً، فهذه هي التجربة...

وصدف أنه في هذا الوقت، أثناء بحثهما عن أماكن عامة خارج لندن، عن قلاع وأديرة ودور ريفية، وجدا فيوِّينغز Fewings. وبدت فيوينغز لهما نوعاً من المحطة المعمارية الأخيرة، بياناً مؤلفاً من أشجار البتولا والمِلاط، يتناول كلَّ ما كانا يخوضان خبرته في علاقتهما. وما أن وجدا فيوينغز والنزل المناسب لهما المسمى "أربعة في اليد" في قرية قريبة، توقفا عن الذهاب إلى أي مكان آخر.

كان فيوينغز أقبح منزل شاهده أي منهما في حياته، شطحة خيال فكتورية قوطية، مثل إحدى قلاع لدفيغ Ludwig المجنون في بافاريا، كله بروج صغيرة وكبيرة وأسوار محصنة من الآجر الزهري الوردي. وفي الواقع بُني المنزل في قلب ريف كِنْت Kent على يد كونت ألماني محب للإنغليز، اعتبره هدية منه إلى إنغلترا.

حين توفي عند حلول القرن الجديد، أوصى بفيوينغز للأمة البريطانية ومعه وَقْفٌ غني لصيانته والحفاظ عليه. والأمة – التي كانت مرغمة على قبوله – حولت الضرورة إلى منقبة، بوضع شاخصات على جميع الطرق الرئيسية وملصقات في محطات قطار مختارة. وظهرت فقرات حول فيوينغز في الأدلة السياحية المحلية، واستقدم وكيل للإشراف على المنزل وتم توظيف حدائقيين وقيّم، وأخذ الزوار يفدون من آذار إلى تشرين الأول.

ومحتوى المنزل العجيب عادَل أو تفوق على غرابة البناء وبشاعته، فالكونت كان من جامعي التحف. خُصِّص جناح كامل على سبيل المثال للأعمال الصينية: تماثيل شمع بالحجم الطبيعي ترتدي ملابس الجلادين الماندريين والكانتونزيين، تقبع عند منعطفات السلالم. وفي الأقبية توجد أدوات تعذيب، وفي أعلى البناء أروقة مليئة بالدمى وبمنازل الدمى المصغرة. وهناك المكتبات المعتادة الممتلئة بالكتب مغلفة بالجلد المراكشي في خزانات زجاجية، والبنادق والمسدسات والدروع المعتادة، اللوحات الزيتية والملونة بالألوان المائية والنسخ المطبوعة المعتادة – وأشياء أخرى بالإضافة لذلك، ليست معتادة بالدرجة نفسها وأكثر إزعاجاً. هناك شيء مشؤوم يتصف به فيوينغز، فالغرف لها رائحة معينة. وقليلون جداً هم الأشخاص الذين أتوا مرة وأرادوا العودة مرة أخرى على الإطلاق.

أما الحدائق فقد كان أمرها مختلف إلى حد ما، لأن الكونت الألماني عهد ببنائها إلى رجل إنغليزي يدعى الكابتن سمِذَرز Captain Smithers، الذي جمع بين حماسة الهاوي وجدّ المحترف وسلطته. وقد استغرق عشرين عاماً ليقيم في فيوينغز إحدى الحدائق المنسقة الكبرى في إنغلترا.

تحتوي الحديقة على كثير من أعمال تشذيب الأشجار لتأخذ أشكالاً مختلفة، بحيث تُلقَى ظلال لطيور وأسود رابضة على العشب المشرق بضوء الشمس، وتحتوي على ممرات محفوفة من جانبيها بالأشجار وحدائق رسمية منصَّفة ونوافير كبيرة، وقوس قوطي من أشجار الزان، ومروج مدورة مرفوعة. هي حديقة درامية، خالية من الجمال باستثناء شجرة أو شجرتين مخبأتين في الحديقة المشذبة هنا وهناك، تعلوان فوق أحواض الزهور الغائرة. هي بمجملها قاسية إلى حد ما، كي تكمل تطرفات المنزل، تناسباتها مُرْضية لكنها درامية بمجملها: حديقة عامة، أكبر من أي شيء يمكن أن توفره الحياة المحيطة بكنت.

والدراما المتمثلة في فيوينغز وحدائقها هي ما أغراهما. ذاك وكونها غير متوقعة. كما أنها من جانبها وجدت المكان مشؤوماً، وكانت تتعرض لكوابيس تدور حوله، وكل هذا ساهم في إحساسها بوعي معمّق، بعيش حقيقي واقعي. في كل مرة كانا يزورانه فيها يشعران بالإثارة، وكانا يكتشفان غرفاً أكثر فأكثر، وسلالم جديدة تؤدي إلى الأبراج، وممرات جديدة تقود فجأة إلى مقاعد عند النوافذ تظهر مشهداً مروّعاً للحدائق في الأسفل، وللريف الغني الواقع خلفها. كانا يَخْبُران نفسيهما من خلال خبرتهما للمنزل.

كانت تحب أن تتعرض للهلع هناك، أن تجعله يتركها وحدها في الأقبية، حيث أدوات التعذيب الفولاذية السوداء والرمادية، والجدران الباردة المطلية باللون الأبيض، ورائحة الرطوبة التي تأتي من كون المكان تحت مستوى الأرض. كان الممر الطويل يرجع صدى وقع قدميه، وهو يسير بسرعة مبتعداً عنها، وكانت مرغمة على أن تجري خائفة تبحث عنه، تتنقل مسعورة من غرفة إلى غرفة، تضيع ويصادفها أحد التماثيل الشمعية بلباسه التقليدي، إلى أن تجده في النهاية وتنتحب بدافع الارتياح. كان فيوينغز يثيرهما بالتأكيد، بشكل لا يمكن لأي مكان آخر أن يحققه. وفيما بعد، كانت تنتظرهما الغرفة الخلفية الصغيرة في نزل "أربعة في اليد."

لكنها فوق كل شيء، كانت تجذبها – بخوف وافتتان – المحمية التي بنيت في وسط البيت وكأنها باحة مغطاة ضخمة، سقفها الزجاجي مضلع بالدعامات ومقوّس على طراز محطات القطار الفكتورية. وللمحمية رواق من الحديد المزخرف تحيط بها إحاطة تامة، على مقربة من السماء. كان الكونت الألماني يمضي معظم وقته هنا في سنواته الأخيرة يدور ويدور حولها، وهو يرتدي روب دو شامبر طويلاً أحمر. يكون قد تكلم مع نفسه طوال اليوم وأرعب الخادمات إن جئن يبحثن عنه لينبئنه بوصول ضيف أو رسالة أو بموعد إحدى الوجبات. وكان أثناء سيره ينظر إلى الغابة التي صنعها في الأسفل.

وكان قد استورد جميع أنواع النباتات المدارية والنباتات المتسلقة، والتي تتسلق الآن فوق الجدران الزجاجية، ثم تتشابك معاً لتعلو فوق الممرات الضيقة، وتتدلى منها أوراق خضراء غامقة وكأنها أكفّ مسطحة ضخمة. والسوق سميكة كالأرجل والأذرع، وطوال الوقت تحمل نبتة أو أخرى أزهاراً شديدة الضخامة بألوان زاهية بعيدة الاحتمال: نيرانية وقرمزية، صفراء وزهرية أرجوانية، وكلها مخططة ومنقطة وذات أشكال رائعة. والمحمية مدفَّأة حتى درجة البخار بمُشعّات طويلة قديمة الطراز مخبأة تحت الأرض، بحيث أنه مهما جهدوا في القص من النباتات فإنها تنمو لوضعها السابق بسرعة مضاعفة، والأوراق والزهور تثور صاعدة وتغطي سطح المحمية العلوي، مما يجعل الضوء الذي يرشح من خلالها شاحباً وأخضر خضرة عجيبة.

وفي الأسفل في مركز كل شيء توجد بركة، وافرة بالقصب والنباتات المائية، التي تنساب تحتها الأسماك، أسماك بطيئة سمينة مأخوذة من أنهار أفريقيا الوسطى وأمريكا الجنوبية، وذات ألوان وعلامات درامية. يمكنك أن تجلس على الإفريز الحجري المسطح الذي يحيط بالبركة، تحت مظلة الأشجار الخضراء، وتشم رائحة الأدغال الحارة الحلوة. تكرر قدومهما إلى هذا المكان وتزايد، حيث كانا يمضيان الساعات وكتفيهما وفخذيهما متلامسة، يسحرهما الهدوء والنور الأخضر المعتدل، دون أن ينطقا بشيء على الإطلاق. على الرغم من أنها مرة، في البداية تماماً، قالت له: "هذا هو قلب المنزل، وهذا هو المكان الذي يجب أن نقصده دائماً،" وعلى الفور شعرت أنها حمقاء لقولها الذي صرّح بوضوح حقيقة معينة لم تكن تود الإقرار بها، حول بعد علاقتهما عن الحقيقة و**مرونتها**، وعادت إلى التقوقع على الفور. قالت لنفسها: لا فائدة من تحليل الأمور، ولا يجب أن نصدر أقوالاً محددة حول علاقة ما. وكانت قد قرأت ذلك بحرفيته في مكان ما قبل فترة وجيزة.

وكي تغطي حرج اللحظة، انحنت إلى الأمام وجعلت يدها تنزلق في الماء الدافئ الذي لا يخلو من الدبق. واصطدمت اليد بجسم سمكة، فصاحت رعباً ونهضت على الفور، وهي تسحبه معها، وجعلته يبتعد بها عن المحمية وعن فيوينغز كله. ولكن قبل مضي وقت طويل اضطرت للعودة، فقد بدا الآن أنها لا تستطيع الاستمتاع بعلاقتهما استمتاعاً كاملاً إلا في جو فيوينغز الغريب. أرغمت نفسها على التعرق اللطيف تحت قبة الأوراق الخضراء الغامقة، وهي تراقب الانفتاح البطيء لزهرة هولورا Hulura برتقالية، مدببة ولها نجوم وأكثر من سداة بنفسجية، تشبه الألسنة الطويلة ذات الفراء.

أما هو من طرفه، فلم يزعجه جو فيوينغز على الإطلاق، بل وجده مسلياً، لكن ما أثاره هو تأثير المنزل عليها، فقد صدمته رؤية سرورها وخوفها العنيفين. كان دائماً ينظر إلى نفسه على أنه رجل بليد، يعيش حياة بليدة، وكان من الكسل بحيث لم يبحث عن التجارب التي كان يعتقد أنه بحاجة لها، إذ لم يشأ أن تمر الحياة به دون أي التفات إليه، لكنه حتى الآن لم تكن له سوى العلاقات العادية التي يمكن التنبؤ بمجراها. لقد باغتته مباغتة عميقة بكونها سعت إليه، لكنه لم يكن قد نفض عن نفسه كسلها وبرودتها كلياً، لأنه شخصياً لم يفعل أي شيء. هي التي كانت تشكل علاقتهما كما تختار، وتعطيها نهجها وشخصيتها، وهو كان يراقب ويخضع لتحكمها به وكان ذلك كافياً.

والمحمية هي المكان الذي لمحت الصبي فيه أول مرة، وأدركت على الفور أنها سبق لها في الواقع رؤيته عدة مرات من قبل، في أنحاء المنزل – يختفي أمامهما بصعود درج ما، أو يقف في زوايا الغرف مختفياً جزئياً خلف الأثاث. حتى الآن لم يكن إدراكها قد أخذ علماً بوجوده، ولذلك لم تعره اهتماماً. والآن ها هو، في المحمية، ينظر إليهما من بين الأوراق السميكة المكتنزة، ومع ذلك لا ينظر، فعيناه تركزان على مكان آخر، أو لا تركزان على شيء على الإطلاق. تحركت فجأة، لكنه لم يجفل. بقي في مكانه عدة

لحظات، ثم استدار وأخذ بالابتعاد ببطء وهو يمشي مشية متثاقلة تلفت النظر. انغلق باب خلفه محدثاً بعض الصرير، لكن الشجيرات السفلى كتمت صوته.

خفق طائر من الطيور الاستوائية العنيفة الألوان التي تعيش قرب سطح المحمية جناحيه منخفضاً بسرعة، يجر خلفه ذيله الأزرق الفيروزي.

سحبته لينهض على قدميه وهي تقول: "أريد الذهاب. الآن، بسرعة."

في المرة الثانية التي جاءا فيها إلى فيوينغز شاهدا الصبي مرة ثانية.

كان السيد موسري وزوجته the Musrys قد أتيا كناظرين لفيوينغز فور أن عادت الأمور إلى نصابها بعد الحرب. وقد فكرا أن صحة آرثر Arthur لم تكن على ما يرام، فرجله لم تتحسن بالشكل الصحيح قط، وأن الفرصة كانت جيدة إلى حد لا يسمح بإضاعتها، إذ تضمنت العيش في الريف وشقة مستقلة بحد ذاتها، وما إلى ذلك. إنك تفكر وتعيد التفكير قبل أن ترفض وظائف تتضمن شقةً مستقلة بحد ذاتها في تلك الأيام. لذلك أتيا، رغم أنها في الحقيقة لم تكن متأكدة على الإطلاق، وفي اللحظة التي بدآ فيها بفتح جميع الغرف وبإخراج الأشياء من مخزنها، عرفت السبب.

وقد قالت: "إنه مكان مضحك جداً. مكان مضحك جداً بالتأكيد." ولكن هذا كان كل شيء، فقد بدا آرثر حريصاً، وافتتن بالمنزل، ولم يفكر كثيراً برجله ويندب حظه. لذلك احتفظت لنفسها بمشاعرها الحقيقية واستخدمت على أفضل وجه الشقة المستقلة بحد ذاتها، المحشورة بعيداً في الجناح الشرقي، دون أن تغامر بالخروج إلى أبعد مما تضطر إليه في باقي أنحاء المنزل. ومع الزمن، توفر لديها جيش من المنظفين الصباحيين، كانوا يأتون في حافلة من البلدة التي تبعد تسعة أميال، وكانت عندئذ سعيدة بمهمتها، فقد كانت تنظمهم. وكان دائماً من الممكن إرسالهم إلى تلك الأجزاء من المنزل التي لم تكن تميل إليها.

وهكذا فهما هنا منذ أربعة وعشرين عاماً، والصبي ليناردLeonard منذ ثلاثة عشر.

هو ابن أختها الأصغر منها، وقد عرفت بأمره منذ البداية، من أول يوم مرضت إيمي Amy فيه. وكان ذلك هو ما توقعوه جميعاً لإيمي عاجلاً أم آجلاً، لكنهم لم يتوقعوا أن تموت، وأن تموت والدتهم بعد ستة أيام. كان من المقرر أن تذهب إيمي للسكن في بيتهم مع أمها والطفل، وقد تم ترتيب كل شيء. ولم يعرف أحد منهم أي شيء بتاتاً عن والد الطفل.

كانا الوحيدان المتبقيان، لذلك أخذاه بنفسيهما، ومع أنه لم يكن أي منهما يعرف شيئاً عن الأطفال، فقد كيّفا حياتهما حوله دون أي صعوبة، لأنه كان صبياً طيباً، ولم يسبب المتاعب للحظة واحدة.

لم يكونا يعرفان بالضبط ما هي مشكلته، مجرد أنه في واقع الأمر كان هناك شيء غير صحيح. فالصبي بطيء جداً. وهو يمسك بشوكته وملعقته ببطء ويجد صعوبة في الإمساك بالأشياء، أو في تقسيم لعبه إلى مجموعات، أو تحديد عدد الدرجات التي عليه أن ينزل عليها، لذلك ففي البداية كان يقع دائماً. وقد بلغ التاسعة قبل أن يتأكد من فردة الحذاء الصحيحة لكل قدم، وحتى الآن لا يزال يعاني مشكلة مع ربطة الحذاء.

لكنه طفل لطيف جداً، يلمس الناس والأشياء باللمسة الناعمة الرقيقة نفسها، ويكثر من الابتسام، لكل شيء تقريباً. وكان يحب فيوينغز. كان يذهب إلى كل مكان في المنزل مع أبيه منذ كان طفلاً صغيراً – لأنهما سمّيا نفسيهما أماً وأباً له ولم يخبراه الحقيقة أبداً، فماذا سيحقق ذلك؟ فهو سينزعج ولن يفهم الأمر على النحو الصحيح أبداً. كانا يحملانه هنا وهناك، ويتركانه على المقاعد قرب النوافذ، أو المقعد المنحوت في شجرة السنديان، وكان ينتظر، ويتطلع حوله وهو راض تماماً. تأخر مشيه كثيراً، ثلاث سنوات تقريباً قبل أن يستطيع صعود الدرج، ولكن بعد ذلك كان ينطلق دائماً في أنحاء المنزل، دون أن يعرفا إلى أي مكان بالضبط. ولأنه طفل مطيع جداً ولا يلمس أي شيء بعد أن أخبراه مرة واحدة أنه لا ينبغي له فعل ذلك، فقد تركاه يمضي

بمفرده إلى حيث يشاء. وقد قلقتْ لفترة طويلة حول الأقبية، ففيها الكثير من الأشياء الرهيبة التي يمكن أن يتعرض بسببها لحادث ما، لكن أباه أخبره أن من الممكن له النزول إلى هناك والتجول والامتناع عن لمس أي شيء على الإطلاق. ولم يكن يلمس أي شيء بتاتاً.

بالطبع كان مسموحاً له أن يلمس بعض الأشياء، خاصة في الشتاء، حيث كان المنزل يخلو من الزائرين ولا يأتي القيّم إلا مرة في الشهر. سمحا له أن يأخذ الدمى ويمسك بها، وأثناء تنظيف المسدسات والبنادق، كان أبوه يضع واحداً منها متوازناً فوق يديه الممدودتين. أما الكتب فلا، لأنه مرة ترك كتاباً ينزلق من فوق ركبتيه، وأمسك به وهو في رعب من صفحة واحدة، فتمزقت. كان كتاب خرائط كبيراً. وقد انتحب لساعتين، ثم بشكل متقطع أثناء الليل، ولبضعة أسابيع بعد ذلك إذا مر قرب أبواب المكتبة.

لو أنهما كانا على استعداد لإرساله إلى مكان بعيد عنهما، لأدخلاه مدرسة خاصة داخلية في لندن، لكن كانا يعرفان أن إيمي لم تكن ستدعه يذهب، وبالإضافة إلى ذلك، ما الفائدة التي ستتحقق من ذلك؟ وما أدهشهما أنهما اكتشفا أنهما يحبانه، ولذلك دخل مدرسة القرية، حيث تعلم القليل الذي استطاع تعلمه، وكان سعيداً. وفي سن الحادية عشرة، قبلته مدرسة في البلدة التالية، ولذلك اشترى آرثر موسري دراجة نارية ذات مقعد مرفق بها وتعلم قيادتها بحذر شديد، كي يستطيع أن يأخذ الصبي ويعيده كل يوم. وكان أسوأ زمن هو الشتاء، حيث كانت حالة رجله وحالة الطقس سيئتين.

كانا يعرفان أنه سيبقى دائماً معهما في فيوينغز، أنه لن يشق طريقه بنفسه في الحياة على الإطلاق، ولم يقلقهما سوى الكيفية التي ستؤول إليها الأمور إذا حدث شيء لهما. لكنه في تلك الأثناء كان سعيداً سعادة كافية في المنزل والحدائق بعد المدرسة وطوال أيام العطل، يقوم بمهمات صغيرة، يحضر أشياء ويحمل أشياء. كان يعرف كل ممر، كل غرفة ودرج وممر، ولم يرد أي شيء

سوى أن يتاح له التجول، والنظر إلى كل شيء، والتأكد من سلامته. ولم يكن يعيق حركة الزائرين الصيفيين، بل كان يكتفي بمراقبتهم مبهوراً، وفي بعض الأحيان يدلهم على هذه الغرفة أو تلك، على مشرب الشاي أو المراحيض، وكان ذلك يسره، يجعله يشعر أنه ضروري، رغم أن كلامه ثقيل وبطيء، ولم يتمكنوا دائماً من فهمه. ولم يبدُ أبداً أنه يأخذ ضدهم ما يلي ذلك من نفاذ صبرهم.

لكن المحمية هي التي أحبها أكثر من أي شيء آخر. فهناك سحالي تختبئ بين الأحجار في النباتات السفلية، وضفادع طين صغيرة حول البركة. كان يدعها تجري فوق كفيه، دون خوف. وإطعام الأسماك هو المهمة التي يؤديها بمفرده تماماً منذ سنوات، فقد توصل القيم على الأسماك الذي يعيش في القرية إلى الوثوق به في هذا الأمر. وكانت المحمية هي المكان الأول الذي يذهب إليه الزوجان حين يريدان العثور عليه.

كان هناك، يجلس فقط، حين صادفاه في زيارتهما التالية لفيوينغز. كانت تقول شيئاً عن بوريس وعن خرائطه لميادين القتال الألمانية الممتدة من الأرض إلى السقف، وتضحك على طفوليتها، حين استدارا في الممر متجهين نحو البركة وشاهداه. وقفت ساكنة في مكانها.

قالت: "هو هناك، إنه هناك مرة أخرى." لم يعرهما الصبي انتباهاً، رغم أنها شعرت أنه واعٍ، أنه يسمع.

قالت: "إنني أراه باستمرار الآن. ما الذي يجعله يتبعنا؟"

"من المؤكد أنه لا يفعل ذلك!" كانا دائماً يتكلمان في شبه همس في المحمية، فالمكان فيه شيء يشجع على السرية. "أعتقد أنه صبي الناظر وحسب."

"لا أحبه، فهو يراقبنا. أتمنى لو يبتعد عنا."

جلسا، وبينهما وبينه مسافة، تحت الأشجار بجانب البركة. ووضعت كل إصبع من أصابعها فوق أصابعه. بدأ أحد الطيور يزقزق: كُو-وَب، كو-وَب، كو-وَب، بين الأغصان فوقهما.

فيما بعد، ذهبا إلى غرفة البرج في الطرف الشمالي البعيد من المنزل، متسلقين درجاً مظلماً. وقد سبق لهما أن وجدا المقعد، موضوعاً في فرجة ضيقة في الجدار، بمحض الصدفة، ولم يتضمن البرج سوى بضع خرائط ودروع تثير الضجر، ولا أحد غيرهما كلف نفسه عناء القدوم إلى هنا. وكان المشهد من النافذة يصيب بالدوار وهو يتجه نحو قمة النافورة على بعد مئات الأقدام إلى الأسفل. لكن هذه المرة وصلا منقطعي النفس ليجدا الصبي قد سبقهما وجلس على مقعد النافذة يحدق نحو الأسفل. قفزت إلى الوراء، مطلقة صرخة انزعاج صغيرة، ثم تملكها الغضب، فقد شعرت أنها خاضعة للتجسس، وكان الصبي يخيفها لأنها شعرت أن هناك شيء ما غير سليم. وقد أُفسِد هذا المكان بالذات تماماً بالنسبة لها. نهض الصبي وابتعد على الفور، متحركاً إلى الأمام بمشيته الغريبة البطيئة، وركبتاه مثنيتان. وكان لا يزال لم يعرهما التفاتاً. لكنها قالت بصوت هستيري: "لا أحبه، وأتمنى لو أننا غير مضطرين لرؤيته باستمرار هنا. إنه ليس على ما يرام، ولا يجب أن يتجول منفرداً، وسأجد شخصاً أشتكي إليه."

شيئاً فشيئاً تمكن من تهدئتها، ونسيا أمر الصبي، وبدآ يتحدثان عن نفسيهما وعن دهشتهما المستمرة إزاء تعقيدات علاقتهما. كانت لا تزال مستغرقة فيها، في العواطف التي تتعرض لها وفي الإحساس بالوعي الحاد، بغياب الواقع. كانت قد بدأت تكتب مذكراتها، فكل شيء بدا أكثر أهمية من أن يضيّع. والآن حين تقرأ روايات أو تشاهد مسرحيات، وتتكلم مع أصدقاءها عن هذه العلاقات، تفهم كل شيء بالضبط، فهو يؤَكِّد شخصياً، وشعرت بنفسها جزءاً من عالم خبرة البالغين الكبير. فقد قالت له إنها لم تكن قد شعرت أنها بالغة حقاً على الإطلاق قبل الآن.

كان الشيء المحبط الوحيد لها هو عدم اهتمام بوريس. ولم تتمكن من أن تعرف بالضبط ما إذا كان على علم بأمرهما أم لا، ولكن أياً كان الأمر، فقد تألمت من كونه لم يكترث، وبدأت تفكر بطرق يمكنها فيها أن تدفع الأمور

إلى مواجهة معه، فمن المؤكد أن الوقت قد حان لحدوث شيء من الغيرة، بعض الشجارات التي تنتهي بالدموع والغفران. لكن بوريس اكتفى بدفع جنوده الرصاصيين ذهاباً وإياباً على طاولة غرفة الطعام، والابتسام ابتسامة سطحية نحو نقطة خلف كتفها وهي تخرج. ولم يهتم.

قالت عصر أحد أيام تموز: "لا بد أن ترى ذلك: إنه **يتجسس** علينا. إذا نجحنا في التخلص من بقية الزائرين، فإننا لا نستطيع التخلص منه، فهو في كل مكان."

"لا، لا، بالتأكيد لا. أنت بدأت تلاحظينه، تتحسسين منه، وهذا كل شيء. أعتقد أن من المحتمل أنه كان موجوداً دائماً."

"كلا، فهو ينظر، وهو يقبع في انتظارنا."

كانا في ذلك اليوم يسيران عبر الغرف الصينية، وفجأة كان هناك، يجلس على كنبة بسكون شديد وعيناه تلمعان.

قالت: "لا ينبغي **السماح** له، فسيدمر أحد الأشياء." وحركت يديها حركة مبهمة نحو الصبي، وقطبت بصرامة بالغة، من أجل أن تُبْعِدَه.

ضحك لها، فقد أثاره الغضب والسخط. قال بلا حدة: "يا للطفل المسكين، أنا واثق أنه ليس له حيلة،" ولمس بيده ذراعها العاري ليبتعد بها. كان بوسعهما هذه المرة أن يقضيا ثلاث ليال في غرفة النوم في نزل "أربعة في اليد،" رغم أنه مضطر لتمضية جزء من كل نهار في شراء الكتب في المبيعات المنزلية.

لكنها لم تستطع التوقف عن التفكير بالصبي، حتى وهما بعيدان عن فيوينغز. وأثناء وجودهما هناك، إذا رأت ظهره وهو يختفي عبر أحد الدهاليز، أو على البعد وهو يدفع عربة يد مليئة بأعشاب مقطوعة فوق المرج، فإن ذلك يفسد ما تبقى من اليوم بالنسبة لها، إذ أنها لا تتمكن من التركيز على نفسها وعليه.

لذلك حين مضي إلى أحد مواقع المبيعات أتت بمفردها وبحثت عامدة عن شخص مسؤول.

قالت بحزم: "من المؤكد أن هذا ليس آمناً. لقد شاهدناه يتجول ويلكز هذا الشيء وذاك، ويجلس على الأثاث، ويصعد وينزل على السلالم. من المؤكد أنه يجب مراقبته بدقة أشد."

حدق آرثر موسري فيها، وهو ينزل يده ليفرك رجله المعتلة من الخلف. لم يشعر بميل نحوها، ولم يكن قد شعر بميل نحوها من قبل على الإطلاق، وكان كثيراً ما يتعجب من أمرهما، إذ يأتيان إلى هنا دائماً، وينفقان كل هذا المال على تذاكر الدخول، ويتساءل عما يفعلان في جميع فترات ما بعد الظهر في الغرف المهجورة.

"ألا يمكن أن يؤذي نفسه؟ كيف يمكن أن يكون آمناً وهو يسير بالطريقة التي يسير بها؟ إنه ليس نوع الغلام الذي يجب أن يتاح له التجول في المكان بهذا الشكل، بمفرده."

قال آرثر موسري: "إنه على ما يرام، ولا يعاني من شيء، فهو صبي طيب، ولن يلمس أي شيء. وهذا هو بيته، أليس كذلك؟ إنه على ما يرام."

ارتفع صوتها بيأس: "إنه **يتبعنا**."

"وما الذي يدفعه إلى ذلك؟"

"لا أعرف السبب. ما أعرفه هو أنه يقوم بذلك."

هز رأسه وابتعد بنظره عنها باتجاه المدخل المغطى بالحصى. ولو كان يستطيع التخلص منها ورفْض إدخالها في المرة القادمة، لفعل.

قال مرة أخرى وهو عابس: "إنه على ما يرام."

"أنا فقط لا أحب مراقبته لنا، وهو يسترق السمع. لا أحب أن يلاحقنا." كانت على وشك البكاء من الغضب، وهي تدرك أنه ليس بإمكانها أن تفعل شيئاً،

أنها كانت مخطئة ولا يمكن أبداً جعل الرجل يصدق كلامها، لا يمكن أبداً أن يبدأ الفهم.

فيما بعد، في غرفة النوم، قالت: "كان غبياً، رجل ضئيل غبي."

في المرة التالية التي ذهبا بها إلى فيوينغز، عثرت على الصبي في أحد الدهاليز المظلمة وأمسكت ذراعه بقوة، ووضعت وجهها قبالة وجهه، وطلبت منه عدم الاقتراب منهما، وأن يمضي، في تلك اللحظة، وأن يتوقف عن الملاحقة والتجسس. خطا إلى الوراء مبتعداً عنها، عيناه ضخمتان من الانزعاج، واختفى داخل الظلال، وسمعت خطواته الخالية من الثقة، مسرعة إلى أقصى ما يمكنها، على الدرج. وقد اتجه على الفور إلى المحمية، وهو أيضاً المكان الذي أتيا إليه، بعد بعض الوقت، ووجداه مختبئاً خلف بعض الأغصان، وسحلية بنّية صغيرة تقف على كفه.

نهض على الفور، وخطا إلى الوراء مبتعداً.

قالت: "هذا حسن جداً" ودارت مرة بعد مرة حول البركة، محاولة أن ترى داخل الماء، باحثة عن أسماك. "لقد ذهب. لن يكرر فعلته مرة أخرى. هذا حسن جداً." وفيما بعد قالت أيضاً. "طفل مسكين، يجب أن يكون في مكان بعيد ما، يجب أن يلقى الرعاية. كيف يمكنك لومه؟" جلست وبدأت تحدثه عن كيف أنها تريد أن تتشاجر شجاراً عنيفاً مع بوريس.

لمدة ثلاثة أسابيع، امتنع الصبي عن الخروج من الشقة، وفي الليل تبول في سريره وصرخ. لم يتمكنا من فهم ما يحدث، وأتيا بالطبيب، الذي لم يجد أية علة. كان يجلس طوال اليوم ومعه كتاب مصور، أو يشاهد التلفزيون، ويريد أن يكون على قرب منهما كليهما، وحيثما يذهبان، يذهب، وفجأة كانت فردتا حذائه على القدمين الخطأ، وارتدى قميصه الصوفي بالمقلوب إلى أن لاحظت، وساعدته في اللبس.

مر وقت طويل قبل أن يعود إلى التجول في المنزل بمفرده. اضطرا إلى ملاطفته وتملقه وكأنهما يخرجان فأراً من جحر، واضطر أباه إلى مناداته، لطمأنته. أخذ يتحسن تدريجياً، لكن كفيه استمرا في الارتجاف حين يرفع أي شيء، وبدأ يمشي في نومه كل ليلة، واعتادا أن يتوترا وهما مستلقيان على السرير يصغيان إلى ما يصدره من صوت.

خلال هذه الفترة، أصيب بوريس بذات الجنب، وانشغلت بشعورها بالذنب، وبذعرها من فكرة أنها لن تريد أن تستمر علاقتهما، إذا مات بوريس.

لكن بوريس لم يمت، بل تحسن، وذهب إلى إسكيا للنقاهة، وبعدها تمكنا من العودة لزيارة فيوينغز. كانت تجلس على السرير في وقت باكر جداً كل صباح، تكتب رسالة بريد جوي زرقاء إلى زوجها الغائب.

في فيوينغز، كانت نهاية الموسم تقترب. كانت صفوف أشجار الحور نصف عارية، نصف بنيّة، وكان آرثر مورسي في الخارج على المرج الدائري، ومعه مكنسة يقش بها أوراق الشجر.

"يجب أن نذهب إلى كل مكان،" قالت وعيناها شديدتا الإشراق، "**كل** مكان. هذه آخر مرة، وهناك الكثير الذي يجب مشاهدته وتذكره." ضحك منها وقال: "ولكن سنتوقف حتى شهر أيار فقط. هناك العام القادم بانتظارنا." لكنها لم تتح له أن يفسد إحساسها بالمفاجأة.

وتركا المحمية لتكون آخر شيء يزوراه على الإطلاق.

كان الصبي أفضل، أفضل إلى حد كبير، ما عدا أنه لم يقبل الصعود إلى المكان الذي أخافته فيه. لم يعد يتبول في سريره، أو يمسك بهما فجأة، وصار يأكل وجباته دون أن يوسخ شيئاً. لكن أمراً قد حدث، هناك شيء مختلف، كانت أمه تعرف ذلك، كما لاحظوا ذلك في المدرسة وتساءلوا عما يمكن أن يكون قد حدث، وما إذا كان سيتحسن. تذكر آرثر مورسي المرأة، ولم يقل شيئاً.

لفترة من الزمن لم يقبل الذهاب إلى المحمية أيضاً، لكنهما حدثاه عن الأسماك، وسألاه ألا يريد إطعامها؟ قال أبوه: "إن الهدف من هذا هو بناء ثقته بنفسه. إن علينا أن نقوم بهذا، فهو سيحقق النتيجة الأفضل. ليعد إلى الأسماك والحيوانات، فستساعده، وتعيده إلى الوضع السليم."

وقد ساعدته بطريقة ما، وقبل فترة طويلة بدأ يغامر بالذهاب هناك بمفرده، طالما بقي الباب مفتوحاً قليلاً.

وبعد فترة قصيرة، تعرض لنوع من النوبة، فقد وجده أحد المنظفين عند باب المكتبة من الخارج، وعيناه استدارتا في محجريهما ورجلاه ترتعشان. وقد استعاد وعيه قبل وصول الطبيب وبدا أنه في حالة جيدة، ولم يكن يظهر عليه سوى بعض الشحوب، وتحيّر حول اليد الذي يجب أن يمسك الشوكة بها. أعطوه بعض الحبوب ودخل المستشفى ليوم واحد لإجراء تحاليل، ولكن لم يخبروهما بشيء، لم يقل أحد شيئاً.

كانت تتكلم عن الشتاء، ومدى اختلاف الأشياء فيه، إذ سيتقابلان في لندن من جديد وكانت تريد أن تبدأ بزيارة شقته، لأنه صدف أنها قريبة جداً من الكلية التي يلقي فيها بوريس محاضراته العسكرية. وتنبأت بأخطار جديدة في استمرار علاقتهما، وكانت تريد أن تجازف وأن تكون في حالة تشويق وترقب، وأن يتحزّر الناس بشأنها ويتحدثون عنها.

قال لها وهو يضحك مرة أخرى: "أي شيء تريدينه." لأنه رأى مقدار تأثير مجرد توقعها للشتاء عليها وأدرك أنها ستستمر في اللعب العنيف بعواطفه.

قالت وهي تقفز: "الآن، **الآن** إلى المحمية!"

بدأت تجري نزولاً على السلالم وعبر الممرات، وأخذ يلهث ويجد صعوبة بمجاراتها، والدم يحدث صوتاً متدفقاً في أذنيه.

كانت المحمية شديدة الهدوء، وانغلق الباب الزجاجي، وشمت رائحة الغابة الكثيفة ورجفت قليلاً، وظلال خضراء تموج على جلدها من الأغصان المتدلية.

وجدا الصبي رأساً على عقب في البركة، رأسه وكتفاه تحت النباتات المائية المسطحة، ورجلاه وحدهما بارزتان ومستندتان إلى الحافة. شاهدت فردتي الحذاء مربوطتين بعناية وكل منهما على القدم الخطأ. وكانت علبة غذاء السمك الصغيرة مقلوبة على الأرض.

كان في طريقه نحو الباب بطلب المساعدة، وكان سيتركها هناك، دون أن يفكر، لولا أنها اندفعت متعثرة وراءه، مصدرة صوتاً منخفضاً غريباً من حنجرتها ومغطية وجهها بكفيها. قرقع الباب الزجاجي وهو ينغلق خلفها.

لم يعودا إلى فيوينغز مرة أخرى. كانت تعرف أنهما لن يعودا، حتى قبل أن يحدث ما حدث، مدركة أن الأحداث لا تكرر نفسها، وأنها مع نهاية الشتاء ستكون قد بدأت تمل، ستبحث عن شيء، عن شخص آخر، عن التجربة التالية.

وفي هذه الظروف، لم يكن من الممكن للعلاقة أن تستمر حتى إلى ذلك الحين، فكل شيء تغير، وقد صعدت من الأعماق مثل غطاس لتجد عالماً رمادياً وبارداً. ولمدة أسابيع، لم تستطع التفكير بشيء سوى الصبي ميتاً، بين الأسماك، في المحمية. وقد اضطرا للذهاب إلى البلدة التالية من أجل الاستجواب، لكنها جعلته يوصلها مباشرة إلى لندن حيث انتهى الأمر.

من جانبه، أحس بالتغيير، رأى أن هناك صمتاً رهيباً يحيط بها، ومدركاً أن الأمر وصل إلى نهايته، شعر بارتياح غير متوقع. لم يقع أي مشهد ختامي، لا شجار، لا افتراق درامي، كما كانت تتوقع دائماً. فقد دعاها إلى العشاء تلك الليلة، ثم أوصلها لغاية بيتها، وخرج من السيارة، وصافحها بصورة غريبة على عتبة الباب. مرة بعد شهرين، شاهدا أحدهما الآخر في قاعة الطعام في هارودز، ولوح لها نصف تلويحة، ولوحت هي نصف تلويحة، وترددت، ومضت في سبيلها. اشترت لحم عجل وقرصاً كاملاً من جبنة الشيدار، وحين حملتهما إلى المنزل، كان بوريس قد رتب كتائبه على طاولة المطبخ، بسبب وجود عمال يزخرفون غرفة الطعام.

في الحمام، نظرت إلى وجهها في المرآة وللمرة الأولى شاهدت بعض التغيير.

باع آرثر مورسي الدراجة النارية والمقعد المرتبط بها، لكن هذا كان كل شيء، فقد مكثا في فيوينغز لأنه لا يوجد مكان آخر يقصدانه، ليس بعد مضي أربعة وعشرين عاماً، حتى ولو كانت لا تحبه. سلمت أمرها ولم تقل شيئاً، مدركة أنه لن يكون من السهل في هذه الأيام العثور على شقة مستقلة بحد ذاتها.

سوزان هيل

متى يمكنني أن أغادر؟[١]

سبق التعريف بالكاتبة. وهي بالإضافة إلى كتابتها للروايات والقصص القصيرة، كانت صاحبة عمود شهري في صحيفة الديلي تلغراف *Daily Telegraph* من عام ١٩٦٣ إلى ١٩٧٧. وكتبت أيضاً كتباً غير روائية وكتباً للأطفال.

كانت السيدتان اللتان تسكنان معاً تدعيان الآنسة بارتلت Bartlett والآنسة روسكَمون Roscommon.

كانت الآنسة روسكَمون، أكبر المرأتين سناً وأكثرهما بدانة، تخفي خوفها من الحياة بالإشارة الصريحة إلى الأطفال والمراحيض ومزاوجة الفراخ في يومها الأول من الحياة. وكان من المعروف على نطاق واسع أنها سافرت كثيراً في صباها، وكانت تتحدث عن جولاتها على الأقدام في اليونان، وكيف أنها قادت سيارة إسعاف أثناء الحرب الأهلية الاسبانية.

وكانت الآنسة بارتلت، التي لم تتجاوز الأربعين، تتعهد الحياء وطمس الذات في شخصيتها بالتنمية، ونشأت عن ذلك طريقة لها في الكلام تتمثل بالتمتمة بجمل تتلاشى في الهواء دون أن تكتمل. كانت تعني بذلك: آه،

---

(١) هذه ترجمة قصة "How Soon Can I Leave?" للكاتبة Susan Hill، والترجمة الدقيقة للعنوان هي: "ما أسرع وقت يمكنني أن أغادر فيه؟". والقصة نشرت في كتاب:
Penguin Modern Short Stories 7 (Penguin Books, 1971).

لا تعر أي شيء قد أقوله **أنا** اهتماماً، فلا شيء يترتب عليه. آسفة أنني تكلمت...." لكن مع ذلك كانت تلك الجمل تجذب الانتباه إليها.

كان الناس يقولون: "ماذا قلتِ؟ أستميحك العذر، لم أسمع تماماً.... ارفعي صوتك...." وهكذا تضطر لتكرار ما قالته، وكان عليهم، وقد جلبوا ذلك لأنفسهم، أن يصغوا. كما أنها كانت تؤكد عجزها أمام الأدوات المستخدمة يومياً. فكانت الآنسة روسكَمون هي التي تقشر البطاطا كلها وتذيب الثلج العالق بالثلاجة وتفتح العلب.

كان منزلهما يدعى توسكاني Tuscany، وهو أحد بيتين ريفيين أبيضين يطلان على الخليج.

حين أتت الآنسة بارتلت في النهاية للسكن مع الآنسة روسكَمون قبل سبع سنوات، اعتقدت كل منهما أنها تسدي للأخرى معروفاً. قبل ذلك كانت الآنسة بارتلت تسكن في أحد الأكواخ الحجرية الصغيرة المواجهة للميناء، وتعمل طوال الشتاء في صنع المخزون الذي تبيعه من غرفتها الأمامية ومن طاولة منصوبة في الخارج في الصيف. من تشرين الثاني إلى آذار لم يكن الزوار يفدون إلى ماونتسي Mountsea. كانت الرياح والأمطار تصقل سطح الصخور ولا يخرج إلى البحر إلا قارب النجاة. وبدأت الآنسة روسكَمون تعتاد على دعوة الآنسة بارتلت إلى البيت الريفي لتناول الوجبات.

بدأت بالقول، وهي تملأ صحن الآنسة بارتلت بالكعك المدور ومربى الزنجبيل المصنوع منزلياً: "يجب أن يكون لك متجر، مجهز جيداً ومعدَل. لا يمكن أن يكون عرض البضاعة في غرفة جلوسك مرضياً. لِمَ لم تفكري في فتح متجر؟"

كانت الآنسة بارتلت تصنع صوراً على الخشب المرصّع تمثل الكنيسة والمنارة والميناء، ومصابيح طاولات من سلال صيد الكركند، وصخور مغطاة بالصدف. كما كانت تستورد سلال قش إيطالية وتقوم ببعض أعمال الأواني القصديرية.

سبق في الأسابيع الأولى بعد قدومها إلى ماونتسي أن خطرت لها فكرة المتجر، لكنها رفضتها على الفور، إذ أنها أكثر جبناً من أن تتخذ خطوة قاطعة من هذا النوع، فبوضع نفسها في متجر يحمل اسمها على لوحة في الخارج، ألا ترسّخ نفسها في عقول الآخرين على أنها صاحبة حانوت؟ في صباها، تركت إشارات أمها المتكررة لها بأنها فتاة حالمة ذات ميول فنية انطباعاً قوياً في نفسها، وبالتالي فهي لا تستطيع رؤية نفسها في دور صاحبة حانوت. وكذلك شعرت أنها بكتابة اسمها على تلك اللوحة تلزم نفسها على نحو ما، وبفعل ذلك فإنها في النهاية تتخلى عن آمالها بمستقبل في مكان آخر. في صباها، كانت تتطلع إلى العالم الخارجي وترى شاخصة لها أذرع تشير إلى جهات مختلفة عديدة، طرق تؤدي إلى هنا، أو هنا، أو هناك. وكانت عاجزة تماماً عن اختيار الطريق التي تريد أن تتبعه، إذ بانطلاقها على أي طريق منها، تحرم نفسها من جميع الطرق الأخرى. وكانت تفكر: وما الذي يمكن أن أخسره، ما الفرص التي ستضيع علي، لو اخترت الخيار الخاطئ؟

لذلك فهي في النهاية لم تختر قط، وإنما انجرفت عبر حياتها من هذا الشيء إلى ذاك، تستيقظ كل صباح وكلها آمال بأن حظاً سعيداً هائلاً سيهبط في حضنها.

قالت الآنسة روسكَمون: "الكوخ مليء بالرطوبة،" متيحة بذلك لحججها الإقناعية أن تتخذ لهجة أكثر شخصيةً، بعد أن ازدادت معرفة إحداهما بالأخرى. "لا أعتقد أنك تعتنين بنفسك بالشكل الصحيح. ولا يجب أن يكون مكان العمل بيتاً في الوقت نفسه."

في البداية، جفلت الآنسة بارتلت من التلميحات والحجج الإقناعية، إذ أنها تعرف نفسها سهلة القياد، وخافت من أن تجرفها أمواج قرار الآنسة روسكَمون. قالت لنفسها: إنني لا زلت في الأربعين، ولا تزال هناك فرص كثيرة لي، ولا يجب أن أتخلى عن الأمل بالتقهقر إلى الكهولة والعيش مع

امرأة أخرى. على الرغم أنها استمتعت بالتأكيد بالوجبات التي تطبخها المرأة الأخرى: نكهة فطائر اللحم المشوية منزلياً والأطعمة المسلوقة والخضراوات المتبلة محلياً.

قالت: "أخشى أنني لا أستطيع الطبخ، فأنا أقصر طعامي على الحليب والجبن والبطاطا المشوية بالفرن. وإذا دخلت المطبخ، لا أدري أين أبدأ." ولم يخطر لها أن هذا شيء يسبب الخجل، وأصدرت الآنسة روسكَمون صوت استهجان ورشت الدقيق على لوح المعجنات، وهي تشعر بالارتياح مرة أخرى لأن إحساساً دخل حياتها بوجود هدف معين.

قالت: "كانت عائلتنا تتألف من تسعة أشخاص، وكنت أنا البنت الوحيدة. في سن السابعة، كنت أعرف كيف أخبز رغيفاً ممتازاً من الخبز. وأنا قانعة جداً بأن أكون واحدة من ربات المنزل في العالم."

قالت الآنسة بارتلت لنفسها عند اقتراب نهاية الصيف: لكنني لن أذهب للسكن هناك. إنني مصممة على البقاء مستقلة، وخططي مرنة، ولديّ عملي، وإلى جانب ذلك، قد لا ننسجم معاً وعندها سيكون من المحرج لي أن أضطر للمغادرة. وقد يتكلم الناس.

رغم أنها كانت تعرف أنهم لن يتكلموا، وأن خوفها الأكبر هو من حكمها هي على نفسها، فماونتسي مليئة بنساء يصعب تحديد أعمارهن يتقاسمن المنازل معاً.

جاء الشتاء، وامتلأ الكوخ فعلاً بالرطوبة. كانت الجدران الحجرية تنفث البرد طوال النهار والليل رغم المدافئ الكهربائية الباهظة الثمن، وبدأت زيارلت الآنسة بارتلت لتوسكاني في فترة الظهيرة تطول وتطول، بل بدأت بين الحين والآخر تأخذ شيئاً من عملها معها.

في بداية كانون الأول أرسلت أولى العواصف السيئة أمواجاً تتكسر فوق الأرض المحاذية لرصيف الميناء ودخلت الغرفة الأمامية.

قالت لنفسها الآن: بالطبع، الآنسة روسكَمون تعاني الوحدة، وهي بحاجة لي، وكان يجب أن أدرك ذلك. النساء من هذا النوع اللواتي يعطين انطباعاً بالكفاءة والقوة، يشعرن بهجوم الهرم والوهن أكثر من معظم النساء، لكنها لا تستطيع أن تقول ذلك، لا تستطيع أن تستسلم للضعف الإنساني وتعترف به. وهي تخبز لي قوالب الكاتو وتقلق بسبب الرطوبة في منزلي لأنها بحاجة إلى صحبتي والقلق على نفسها.

وهكذا في اليوم السابق لعيد الميلاد، حين ملأت العاصفة الثانية غرفة جلوس الآنسة بارتلت بالماء إلى مستوى مقعد النافذة، سمحت لنفسها بأن تجليها الآنسة روسكَمون القديرة وتنقلها إلى البيت الريفي الأبيض.

قالت بقلق: "لن يكون هذا تدبيراً دائماً، فحين يتحسن الطقس سأضطر للعودة، إذ يجب علي أن أعتني بتجارتي." قالت الآنسة روسكَمون بحزم: "سنضع خططاً لفتح متجر. لدي شيء من المال. . ."

ملأت زبدية من الفخار بحساء الكراث الذي تَكَوَّن لديها إيمان بخصائصه الشافية حين أقامت مقصفاً مؤقتاً في موقع كارثة في أحد المناجم في العقد الثالث من القرن العشرين.

قَبِلت الآنسة بارتلت الحساء وكرسياً قريباً من المدفأة وبطانية كهربائية فوق سريرها، وبذلك صادقت على النسق المستقبلي للعلاقة بينهما. ومع بداية شهر شباط، وُضِعَت خطط لفتح متجر، وفي منتصف آذار اكتمل العمل. لم يعد هناك أي حديث عن انتقالها، وكانت ستبيع بضائعها في المتجر الجديد خلال أيام الصيف، لكنها ستقطن في توسكاني. وجُهِّز المرآب بالنور والتدفئة ونافذتين إضافيتين، وحُوِّل إلى استديو.

قالت الآنسة روسكَمون: "هذا تماماً أفضل ترتيب للوضع. هنا ستحصلين على الطعام والعناية المناسبين، وسأتعهد أنا ذلك."

خلال السبع سنوات التي تلت، أخذت الآنسة بارتلت تعتمد عليها في أشياء كثيرة تتجاوز وسائل الراحة في منزل يحظى بالعناية المستمرة. فقد

كانت الآنسة روسكَمون هي التي تتولى جميع الترتيبات التجارية للمتجر الجديد، وهي التي تقابل مدير المصرف وسمسار العقارات والبناء، وكانت الآنسة روسكَمون تبدي النصيحة حول الطلبات والحسابات. وخلال فصول الصيف كان المتجر يحقق أرباحاً جيدة، وبعد ثلاث سنوات، بدأت الآنسة بارتلت بناء على اقتراح صديقتها تصنع ملائكة زهرية اللون من ليف النخل ومرطبانات تحتوي على أوراق الورد المجففة، من أجل سوق عيد الميلاد البريدي.

استرخت وتوقفت عن الشعور بالخوف والاضطراب، وإذا كانت تتعرض لدفقة مفاجئة من الانزعاج لرؤية نفسها بحال جيدة جداً ولكونها استقرت حقاً، فإنها لم تقل: "ما المكان الذي سأذهب إليه غير هذا المكان؟" وإنما: "توجد حاجة لوجودي هنا. كيف ستتدبر أمورها من دوني؟ سينطوي ذهابي على القسوة." وقد تُرِكَت جميع القرارت للآنسة روسكَمون. كانت الآنسة بارتلت تقول: "أنت أفضل مني جداً بالنسبة لهذه الأمور. . ." وتنطلق إلى الاستوديو، امرأة صغيرة اللون ذات بشرة ملونة بألوان أقلام الباستيل.

وربما أن عيد ميلادها السابع والأربعين هو الذي هزها وكون لديها وعياً جديداً لوضعها. نظرت في المرآة في ذلك الصباح، وشاهدت الكهولة قد استقرت بلا رجعة على قسماتها. وذكرها ذلك باعتمادها على الآنسة روسكَمون.

فكرت: لقد قلت إنني لن أبقى هنا ولن أدع اسمي يُكتب فوق متجر دائم، فقد كان المفروض أن تبقى خططي مرنة. والآن مضت سبع سنوات، وكم عدد الفرص التي فاتتني؟ كم عدد الطرق التي أغلقت في وجهي؟

أو ربما كان السبب هو زيارة ابنة أخي الآنسة روسكَمون المدعوة أنجيلا Angela وزوجها الذي لم يمض سوى سبعة أيام على زواجها به، في يوم من أيام العطلة الأسبوعية في أوائل شهر أيلول.

قالت الآنسة روسكَمون: "سأقوم بخبز أشياء كثيرة، لأن من المؤكد أنهما سيبقيان لتناول الشاي. سنقدم كعك الجبن ومربيات وقالب كاتو متعدد الطبقات."

"لم أعرف أن لك ابنة أخ."

نهضت الآنسة روسكَمون مبتعدة عن الطاولة بتثاقل، فقد ازداد وزنها خلال السنوات السبع. كما كان هناك شك في إعتام في عدسة عينها اليسرى، وهو سبب آخر في أن الآنسة بارتلت قالت لنفسها إنها لا تستطيع تركها.

"هي ابنة أصغر إخوتي، وأنا لم أرها منذ كانت طفلة صغيرة."

هزت الآنسة بارتلت برأسها وابتعدت عن طاولة الفطور، إذ لم تحبذ أن تسأل عن سبب عدم وصول دعوة إلى الزفاف. على الرغم من مضي سبعة أعوام، فإن الآنسة روسكَمون لا زالت تحافظ على بعض أسرارها، وهناك مواضيع كانت ببساطة تمتنع عن الحديث عنها، رغم قيام الآنسة بارتلت منذ زمن طويل بتعرية روحها.

أحضرت أنجيلا ابنة الأخ وزوجها قطعة سميكة من قالب كاتو، وُضِعَت لتزيّن وسط الطاولة، على مسند من الخزف.

قالت الآنسة روسكَمون بلهجة المنتصر: "وهذه، **هذه** صديقتي الآنسة ماري بارتلت." لأن الآنسة بارتلت تخلفت في الاستديو لفترة عشر دقائق بعد وصولهما، بدافع اللياقة ولأن مقابلة أشخاص جدد كانت دائماً تثقل عليها.

كانت أمها دائماً تقول: "ماري خجولة جداً، انطوائية جداً. إنها ذات ميول فنية، كما ترون." كانت لهجتها فخورة دائماً ولذلك أخذت الآنسة بارتلت تنظر إلى إخفاقها في إقامة علاقات إنسانية كعلامة على تميزها. كانت ترعى خجلها، وتقر به بلا تردد.

جلست ابنة الأخ وزوجها على الكنبة الكبيرة، بوجهين محمرين قليلاً وبوعي للذات، في ثياب جديدة. ولدى رؤيتهما في مكانهما، لاحظت الآنسة

بارتلت للمرة الأولى أنه لم يدخل أي شبان أو شابات المنزل الريفي قط منذ قدومها إليه. لكن لم يكن شبابهما وحده الذي لفت نظرها، إذ كان يحيط بهما جو الإثارة المكبوتة، أو بريق ما، فقد أوحى منظرهما وسلوكهما بإشباع رغبات الجسد.

ترأست الآنسة روسكَمون وجبة الشاي على مائدة حافلة، ووجهها لا يزال أحمر من الفرن.

قالت لهما: "والآنسة بارتلت شديدة الذكاء، وتصنع أشياء جميلة. يجب أن تزورا المتجر لرؤية تلك الأشياء، وشراء شيء لبيتكما الجديد."

قالت أنجيلا وهي تتناول لقمة من البسكويت الغني بالزبدة: "أتصنعين أشياء؟ ما نوع تلك الأشياء؟"

قامت الآنسة بارتلت بإشارة من يدها توحي بعدم أهمية الأمر: "في الواقع، ليس الكثير، لا شيء يسبب الإثارة. مجرد بضع . . . أنا واثقة أنكما لن . . ." وتركت صوتها يتلاشى، لكن الآنسة روسكَمون وليست أنجيلا هي من تصدى لها حول هذا الموضوع.

قالت بحزم: "هذا مجرد هراء. لقد قلت لك من قبل إنه ليس في هذا التواضع المزيف أي فضيلة. بالطبع ستعجب أشياؤك أنجيلا، فلم لا؟ الكثير من الزوار يعجبون بها، ولا شيء مخجل في أن يتمتع الإنسان بموهبة."

قالت ابنة الأخ أنجيلا: "لقد ارتديت فستاناً مطرزاً يدوياً يوم عرسي."

راقبتها الآنسة بارتلت، وراقبت الزوج الجديد الذي تابعت عيناه يد أنجيلا النحيلة وهي تتحرك ذهاباً إلى صحن الكاتو وإياباً، وترتفع إلى فمها. كانت عيونهما تلتقي وتبرقان بما فيهما من أسرار عبر الطاولة. تحركت معدة الآنسة بارتلت قليلاً، من الخوف والإثارة. شعرت أنها على مسافة قريبة جداً من شيء من المعرفة بالغ الأهمية.

سأل الزوج: "إذن هل تساعدين في ذلك المتجر – ؟" لكنه سأل بدون اهتمام.

"آه، كلا! في الواقع هنا وهناك في الحسابات وما شابه، لأن ماري لا تفهم أياً من هذه الأمور، فهي شخص حالم جداً! كلا، كلا، ليس ذلك عملي، ليس ذلك ما يشغلني باستمرار. عملي بالطبع هو أن أعتني بماري. لقد ألزمت نفسي بذلك منذ فترة ليست قصيرة، حين رأيت أنه توجد حاجة لي. فهي فتاة بسيطة جداً، تعيش في عالم خاص بها، ولو لم أكن موجودة للقلق حول وجباتها ووسائل راحتها، لماتت من الجوع، أؤكد لكما، لماتت ببساطة من الجوع."

"آه، لا أعتقد أنني في الحقيقة . . . "

قالت الآنسة روسكَمون: "بالطبع ستجوعين. أعطني الآن كوبك كي أملأه."

تبادل الزوجان الشابان نظرة أخرى تنم عن الفهم والتسلية. فكرت الآنسة بارتلت: كيف تجرآن؟ والدموع تكاد تنهمر من عينيها من الغضب والإحباط، بسبب هذه النظرة المستعلية عليها والحكم عليها وإساءة فهمها. ما الذي تعرفان عن الأمر، وكيف يمكنكما أن تجلسا هناك بكل هذا الرضا والسرور؟ السبب أنكما صغيران ولا تعرفان شيئاً. وكل شيء على ما يرام بالنسبة لكما.

قالت ابنة الأخ أنجيلا وهي تسند ظهرها إلى الوراء على كرسيها: "ومع ذلك، فمن اللطيف جداً أن يعتني الآخرون بك."

ابتسمت كالقطة.

قالت الآنسة روسكَمون: "نعم، كان هذا دائماً دوري في الحياة، هذه موهبتي **أنا**، تقديم كل العناية." انحنت إلى الأمام وربتت على يد الآنسة بارتلت، وقالت لهما بثقة: "أترينا، إنها مسؤوليتي الآن. قطتي الصغيرة."

دفعت الآنسة بارتلت اليد الممدودة ووقفت على قدميها، وقد اصطبغ وجهها بالاحمرار من الخجل والضيق. "أي شيء أحمق هذا الذي تقولينه! بالطبع لستُ قطتك، وكم تجعلينني أبدو سخيفة. إنني امرأة بالغة، وأنا قادرة تماماً على العناية بنفسي."

لم تفعل الآنسة روسكَمون، التي لم تنزعج على الإطلاق، سوى أن تفرغ بقايا أوراق الشاي في حوض الفضلات وهي تبتسم.

عندما كانا على وشك المغادرة، قالت الآنسة بارتلت: "سأسير معكما إلى أسفل التل، وسنتوقف للحظة في المتجر. نعم، أنا أصرّ.... ولكن ليس من أجل أن تشتريا أي شيء. يجب أن تختارا هدية زفاف من بضاعتي، فهذا أقل ما بوسعي فعله." لأنها أرادت أن تبقيهما معها فترة أطول، وأن يراها الناس تسير بصحبتهما على التل، مبتعدين عن البيت الريفي، أرادت أن تكون في صفهما.

"تحتاجين إلى معطف دافئ، فالآن فصل الخريف والمساء يقترب. خذي معطفك الموهير."

"آه، دعيني، دعيني، ولا تبدي القلق." ومشت الآنسة بارتلت إلى نهاية الممر المغطى بالحصى، بينما كانت ابنة الأخ وزوجها الجديد يودعان العمة.

قالت بسرعة في اللحظة التي انضما فيها إليها: "أخشى أن هذا هو كل ما يمكنها أن تقلق حوله هذه الأيام. وأفترض أن مما يدخل السرور على قلبها أن تقوم بكل هذه القأقأة هنا وهناك، ولا يسمح لي قلبي بفعل أي شيء سوى مجاراتها والحفاظ على المظاهر. ولولاي لكانت تعاني من الوحدة الشديدة. وبالطبع اضطررت للتخلي عن قدر كبير من حياتي الخاصة لهذا السبب."

أمسكت ابنة الأخ أنجيلا بذراع زوجها، وقالت: "ومع ذلك، لا بد أن من اللطيف والمريح لك إلى حد كبير وجودك هناك."

أشاحت الآنسة بارتلت بوجهها ونظرت إلى البحر. فكرت: شتاء جديد وأنا الآن في السابعة والأربعين. أنت لا تفهمين.

أبقتهما في المتجر أطول فترة ممكنة، إذ أخرجت من غرفة التخزين أشياء خاصة، وتمهلت وهي تستخدم ورق التغليف. أرادت أن تقول: دعاني أكون معكما، دعاني أكون في صفكما، ألا تلاحظان أنه لا زالت فرص كثيرة

متوفرة لي، أنا لست عجوزاً، ولي معرفة بالعالم وبأساليب الحياة الحديثة. خذاني معكما.

ولكن بعد أن غادرا وقفت في المتجر الذي أخذ يعتم ورأت أنها قاما بتحديد مكانها وصرفاها عن ذهنيهما، أنه لا مكان لها معهما وأنه لم يعد هناك أمل. جلست على المقعد بجانب الصندوق وبكت، بكت على ظلم العالم وعلى الضعف في طبيعتها. لقد أصبحتُ ما كنتُ دائماً أخشى أن أكون، قالت لنفسها، وكل شيء قد انزلق من بين أصابعي.

وبعد فترة وجيزة، أنحت باللوم على الآنسة روسكَمون لكل ذلك. فكرت: لقد خنقتني، وهي تفترسني، وتعاملني وكأنني طفلتها، دميتها، **قطتها**، لقد أذلتني واستغلت اعتمادي عليها وحقيقة أنني كنت حساسة دائماً. إنها امرأة شريرة. ثم قالت: **ولكنني لست مضطرة للبقاء معها**. وتمخطت الآنسة بارتلت وقد حصنها هذا الإدراك الجديد، ومشت تتسلق التل إلى توسكاني.

قالت الآنسة روسكَمون: "لا يمكنك أن تتركي، أي هراء هذا، بالطبع لا يمكنك. ليس لك مكان آخر تقصدينه. وفضلاً عن ذلك، فخلال عشرة أيام سننطلق في إجازتنا إلى فلورنسا."

"أنت التي ستنطلق، أخشى أن خططي الآن قد تغيرت." لم تتحمل الآنسة بارتلت الآن فكرة أن يشاهدها الناس مع صديقتها في كل المتاحف والمعارض الفنية في فلورنسا، تناقشان اللوحات بصوت عال مليء بالمعرفة وتأكلان ساندويتشات الخبز الأسمر التي تخرجانها من أكياس صغيرة أنيقة مقاومة للشحوم، وتتكلمان مع الإيطاليين ببطء شديد. لا بد للآنسة روسكَمون أن تذهب بمفردها. لم تفكر بالكيفية التي ستمتع نفسها بها، إذا كانت ستُمْتِعها على الإطلاق. فكرت: إننا دائماً نسمع عن مدى جسارتها حين كانت فتاة. إذن لتكن جسورة مرة أخرى.

قالت بصوت عال: "أنا سأعود للسكن في الكوخ،" إذ أنها ابقت عليه وكانت تؤجره للزوار الصيفيين.

أدارت الآنسة روسكَمون نفسها والثوب الذي ترتقه قليلاً نحو النور. قالت بلطف: "أنت تتكلمين بحماقة شديدة، لكنني أعرف السبب؛ إنه بالطبع السن التي بَلغتِها."

روّع هذا القول الآنسة بارتلت، فتوجهت إلى غرفتها، وبدأت ترمي الأشياء بغضب عارم وبعشوائية في إحدى الحقائب. قالت: أنا سيدة نفسي، امرأة بالغة أمامي سنوات عديدة، وقد حان وقت أن أكون صارمة. لقد قدمت لها ما تريد أياً كان لفترة كافية من الزمن.

في اليوم التالي، انتقلت عائدة إلى كوخها في أسفل التل، وكانت الآنسة روسكَمون تراقبها. وقررت أنها ستبقى فيه فترة معينة، وتعطي نفسها فرصة للاعتياد على الوضع، وتجمع كل أشيائها حولها من جديد، ثم ستبحث وتخطط وتتخذ خطوات باتجاه حياتها الجديدة.

ذلك المساء، قالت وهي تسمع الريح حول جدرانها الأربعة، لقد نجوت. ومع ذلك استيقظت في الليل وهي واعية أنها وحدها تماماً في الكوخ، ولا تستطيع سماع تنفس الآنسة روسكَمون العالي الصوت في الغرفة المجاورة.

توقعت إلغاء الإجازة في إيطاليا، بذريعة ما، لكنها دهشت حين سافرت الآنسة روسكَمون في اليوم المحدد بمفردها. وقد استغلت الآنسة بارتلت الفرصة للصعود إلى توسكاني وإحضار المزيد من أشيائها، مثل أدوات العمل من الاستوديو لتشغل نفسها في المساء، وخلال ساعات النهار أيضاً، لأن الشهر الآن كان تشرين الأول ولم يشهد المتجر سوى بضعة زوار.

قالت لنفسها، أنا هنا الآن، أثناء قيامها بجدل زوايا ليف النخل، ولف الشريط حول أواني أوراق الورد المجففة، وحفر بطاقات الهدايا – أنا هنا الآن، أعيش حياتي كما أشاء وأتخذ قراراتي بنفسي. أرادت أن تدعو شخصاً

ما للبقاء معها، شابة مثلاً، وذلك كي يراها الناس وتحوز على قبولهم، لكن لم يوجد أحد. ولم يثمر بحث قامت به في أدراج البيت الريفي وخزائنه في العثور على عنوان ابنة الأخ أنجيلا. كانت سترسل لها ملاحظة قصيرة، مع هدية بمناسبة عيد الميلاد، وتخبرها بانتقالها، وتبرهن على استقلالها.

عادت الآنسة روسكَمون والتعب باد عليها ولم تكسبها الشمس سمرة كافية. جاءت ومعها نسخة مصغرة مصنوعة من الجص من تمثال لدوناتلو،[١] وبعض البطاقات البريدية التي تحمل صوراً فنية. حضّرت الآنسة بارتلت الشاي، وكانت المحادثة متكلفة جداً.

قالت الآنسة روسكَمون: "أنت لا تتمتعين بما يكفي من الدفء هنا. سأرسل لك بعض البطانيات الإضافية."

"كلا، شكراً. أرجوك ألا تفعلي ذلك."

لكن في اليوم التالي أتى صبي اللحام يحمل البطانيات وفطيرة تفاح هولندية.

اشترت الآنسة بارتلت قطعاً كبيرة جداً من الجبن وبعض البيض، الذي كان يمكنها سلقه جيداً، ومقدار كبير من البطاطا، وكانت تضع طعامها على ركبتها، وتأكل وهي تقرأ قصصاً بوليسية أثناء الأمسيات الطويلة. فكرت في إمكانية شراء جهاز تلفزيون يوفر لها شيئاً من الصحبة، رغم أنها كانت مشغولة أيضاً بالطلبات البريدية بمناسبة عيد الميلاد. قالت لنفسها: حين ينتهي هذا كله سأبدأ بالبحث حولي ووضع خططي. فكرت في جميع الأشياء التي كان من الممكن أن تقوم بها كفتاة: الاستوديو في لندن والحفر على الكليشات الخشبية لمطبعة الشِعْر، فرقة الباليه التي كان من الممكن أن يُطْلَب منها تصميم ملابس بالغة الرقة لها. قرأت في الصحيفة عن امرأة أنشأت شركة خاصة بها، مختصة في الإدارة الحاسوبية، وهي في سن الخمسين وأصبحت الآن ثرية إلى حد ما، تحظى

---

(١) Donatello فنان ونحات إيطالي من فلورنس من أوائل عصر النهضة.

باحترام كامل في عالم الرجال. نظرت الآنسة بارتلت إلى نفسها في المرآة، وقالت: أنا لم أتجاوز السابعة والأربعين.

في البيت الريفي الأبيض، انتظرت الآنسة روسكَمون، وحيدة تفتقر إلى الإحساس بوجود غاية.

في السابع من تشرين الثاني، هبت العاصفة الأولى، وجلست الآنسة بارتلت في غرفتها تسمع الريح وصخب البحر وهي في حال من الرعب. في اليوم التالي رأت أن جزءاً من الرصيف الممتد في البحر قد انكسر. أرسلت الآنسة روسكَمون مذكرة ومعها فطيرة لحم بواسطة أجير اللحام.

قالت المذكرة: "إنني قلقة عليك، فمن غير الممكن أنك تعتنين بنفسك، وأعرف أن ذلك الكوخ مشبع بالرطوبة. غرفتك هنا جاهزة لك في أي وقت."

مزقت الآنسة بارتلت المذكرة ورمت الفطيرة، لكنها فكرت بالسرير الدافئ ونار المدافئ والكنبات الطرية في توسكاني.

بعد يومين، حين بدأت الرياح الهوجاء مرة أخرى، أتت الآنسة روسكَمون بنفسها، ودقت على باب الكوخ بشدة، لكن الآنسة بارتلت اختبأت في الطابق العلوي، خلف مرآة طويلة، إلى أن رحلت. هذه المرة لم تجد أية مذكرة، بل مجرد زجاجة حافظة للحرارة مملوءة بحساء العدس على عتبة الباب.

فكرت الآنسة بارتلت: إنها تخنقني، وليس بوسعي تحمل كل هذا الاهتمام غير المطلوب، فكل ما أرغب به هو أن تتركني وشأني. إذا كانت امرأة بسنها ومواردها لا تستطيع أن تجد شيئاً آخر تشغل نفسها به، هدفاً آخر لحياتها، فهذا شيء مؤسف. لكنها شربت الحساء مرغمة، وذكرتها نكهتها ورائحة البخار الصاعد إلى وجهها بجميع الوجبات التي تناولتها في توسكاني، وبأمسيات الشتاء التي أمضتها وهي تجلس سعيدة إلى جانب المدفأة.

حين جاءت العواصف مرة أخرى، انفصل جزء آخر من الرصيف، وخرج قارب النجاة إلى البحر وغرق بكل بحارته، وفاضت الغرفة الأمامية في

كوخ الآنسة بارتلت، إذ شقت المطر طريقها عبر صدع في السطح. استلقت على سريرها طوال الليل، وقد أرعبها زئير الرياح والبحار إلى درجة أنها لم تنهض من السرير للقيام بأي شيء، بل اكتفت بأن تنشج قليلاً من البرد والخوف، وهي تفكر بمدى اقتراب الكوخ من الماء، وبمدى كونها عرضة للأذى.

في طفولتها كانت تخاف من كل العواصف والرياح الهوجاء والرعد وتفجرات السحب التي تقرع على السطح، وكانت أمها تتفهم ذلك، وتلفها ببطانية، وتأخذها إلى سريرها، سرير الأم.

كانت تقول: "السبب هو أن لك مخيلة قوية. فأنت تشعرين بأشياء لا يستطيع الأطفال الصغار الآخرون العاديون أن يشعروا بها أبداً." وبالتالي لم يُبذل أي جهد للتغلب على الخوف من العواصف الذي يستدعي المديح.

فكرت الآنسة بارتلت: أنا الآن وحيدة. لا يوجد أحد، أمي توفيت، ومن يوجد ليؤيني ويفهمني؟ أضاءت شعلة صاروخية أطلقها قارب النجاة وهو يغرق الغرفة إضاءة خافتة لمدة ثانية، وعندها عرفت مَن الموجود وأن كل شيء سيكون على ما يرام، ففي الليالي العاصفة، كانت الآنسة روسكَمون تنهض دائماً وتحضّر ساندويتشات ومشروبات ساخنة حليبية، وتأتي بها إليها وهي مستلقية غير نائمة في سريرها، ثم تجلسان وتقرآن المجلات في دائرة النور المعتدلة التي يلقيها المصباح المجاور للسرير.

فكرت الآنسة بارتلت: لقد كنت شديدة الحماقة، وسمعت نفسها وهي تقول ذلك بتواضع للآنسة روسكَمون. امرأة أنانية شديدة الحماقة، ولا أستحق أن تكوني صديقة لي.

لم تأخذ أشياء كثيرة معها وهي تصعد التل صباح اليوم التالي، مجرد حقيبة يدوية صغيرة وبعض أعمال ليف النخل. فالباقي يمكن أن يتبع فيما بعد، وسيكون من الأفضل أن تصل على هذا النحو، إذ سيكون مؤشراً حقيقياً على عجزها.

كانت الأراضي قد غُسِلت وأصبحت نظيفة وعارية وباهتة، لكن البحر أزبد وتحرك في داخله، غاضباً ورمادياً بلون السفن الحربية. فكرت الآنسة بارتلت، وقد أنعشها مرة أخرى المشوار القصير، أنه في الصيف سيحين وقت التفكير من جديد، لأنني لن ألزم نفسي بأي تدبير دائم ويجب أن تكون الأشياء الآن مختلفة إلى حد ما، فلن أسمح لنفسي بأن أُعامَل وكأنني لعبة مدللة، فهذا ينبغي أن يكون مفهوماً. لقد نَسِيَتْ في الصباح البارد الصافي مشاعر الرعب في الليلة السابقة.

تساءلت عما يجب أن تفعله: أتقرع الجرس أم تفتح ببساطة الباب الخلفي المفضي إلى المطبخ، حيث تكون الآنسة روسكَمون مشغولة بعملها، وتقف هناك والحقيبة في يدها، تنتظر الصفح عنها. أخذ قلبها يدق بسرعة أكبر قليلاً. كان توسكاني مستقراً جداً ويبعث على الاطمئنان ببياضه وانخفاضه وشكله المربع الراسخ والقوي على قمة التل. دقت الآنسة بارتلت بحياء على باب المطبخ.

مضى بعض الوقت قبل أن تتوقف عن دق الباب وقرع الجرس، ودخلت بكل بساطة. كان توسكاني بالغ الهدوء.

وجدتها في غرفة الجلوس، مستلقية بلا انتظام وبشكل أخرق على الأرض، وإحدى رجليها ملوية تحتها. كان لون وجهها فاتراً غريباً، مثل حبة بطاطا نيئة من الداخل. فتحت الآنسة بارتلت الستائر. كانت الساعة قد توقفت قبل منتصف الليل بقليل، قبل ما يقارب اثنتي عشرة ساعة.

وقفت في مكانها لحظة، وهي لا تزال ممسكة بحقيبتها الصغيرة، في الغرفة المريحة المزخرفة، ثم جثت على ركبتيها، وضمت رأس الآنسة روسكَمون إلى حضنها، وبينما أخذت الآنسة بارتلت تتأرجح وتتأرجح وتهزها وكأنها طفلة، شرعت في البكاء.

إيديث وارتون

حمى رومانية(١)

إيديث وارتون (١٨٦٢–١٩٣٧) هي أولى الكاتبات الأمريكيات اللواتي حققن نجاحاً باهراً في الأدب القصصي والروائي. وقد نشرت أولى مجموعاتها القصصية في عام ١٨٩٩ وأول رواية لها في ١٩٠٢. واعتبرها بعض النقاد تلميذة للكاتب الأمريكي الكبير هنري جيمس، الذي لا شك أنها تأثرت به تأثراً كبيراً، ولكن معظم النقاد ومؤرخي الأدب يشهدون بأنها رغم هذا التأثر استطاعت أن تحقق استقلالها الأدبي وأن تطور أسلوبها الخاص المميز. والشبه بينها وبين جيمس قد يكون في العناية الفائقة التي يوليها كل منهما لمادته، فالأسلوب في قصصهما يأخذ أهمية كبرى. وسيلحظ القارئ هذه العناية في القصة التي اخترناها هنا، حيث تكتسب التفاصيل الصغيرة التي توردها الكاتبة في أوائل القصة معاني واضحة لدى اكتمال الحبكة، ولا بد أن قراءة ثانية للقصة ستتيح للقارئ الاستمتاع بالإبداع الكامن في هذه التفاصيل وفي التلاحم العضوي الذي يتضح تماماً عند النهاية.

١

من الطاولة التي كانتا تجلسان عليها، تحركت سيدتان أمريكيتان في سن الكهولة الناضجة التي أُسنت رعايتها عبر الشرفة العالية في المطعم

(١) هذه ترجمة قصة "Roman Fever" للكاتبة Edith Wharton. نشرت هذه القصة أول مرة في "مجلة الحرية" Liberty Magazine عام ١٩٢٤. وكلمة "رومانية" في العنوان هي نسبة إلى مدينة روما.

الروماني، واستندتا إلى حاجزها ونظرت إحداهما إلى الأخرى أولاً ثم إلى الأسفل إلى أمجاد الساحة والبالاتين(١) الممتدة. ووجهاهما يعكسان التعبير نفسه عن الرضى غير المحدد والكريم في نفس الوقت.

أثناء وقوفهما هناك جاء صدى لصوت بناتي مرح من الدرج الذي يقود إلى الملعب في الأسفل. "إذن تعالي معي." صاح الصوت، لا يخاطبهما وإنما يخاطب رفيقة غير مرئية، "ولنترك الصغيرتين لحياكتهما"؛ وكرر صوت له نفس الحيوية الضحك: "آه، كوني عادلة يا بابس،(٢) إنهما لا تحيكان فعلاً – " "حسناً، إنني أتحدث بلغة البلاغة،" قال الصوت الأول: "على كل حال، إننا لم نترك لوالدتينا المسكينتين الكثير من الأشياء الأخرى التي تستطيعان القيام بها...." وعند هذه النقطة ابتلع انعطاف الدرج بقية الحوار.

نظرت كل من السيدتين إلى الأخرى مرة ثانية، هذه المرة بمسحة من الحرج الباسم، وهزت الأصغر جسماً والأكثر شحوباً بينهما رأسها واعتراها شيء من الاحمرار.

"باربرا Barbara!" تمتمت وهي ترسل تأنيباً غير مسموع وراء الصوت الساخر على الدرج.

ضحكت السيدة الأخرى – التي كانت أكثر سمنة وذات لون أكثر تميزاً وأنف صغير ينم على التصميم ويدعمه حاجبان سوداوان مليئان بالحيوية – ضحكة تنم عن مزاج حسن. "هذه فكرة ابنتينا عنا !."

أجابت رفيقتها بإشارة مستنكرة. "ليس عنا شخصياً. يجب أن نتذكر ذلك. هذه فقط الفكرة الجماعية الحديثة عن الأمهات. وكما ترين" – بشيء من الشعور بالإثم أخرجت من حقيبة يدها السوداء الأنيقة قطعة من الحرير

---

(١) الساحة Forum هي من الأماكن الأثرية الشهيرة في روما والبالاتين Palatine هي إحدى هضاب روما السبع.

(٢) Babs هو اسم التحبب لباربرا.

القرمزي غُرست فيها سنارتا حياكة دقيقتان. "لا يدري المرء أبداً،" قالت متمتمة. "لقد أعطانا النظام الجديد بالتأكيد قدراً جيداً من الوقت لنقتله؛ وأحياناً أسأم من مجرد التطلع – حتى إلى هذا." كانت إشارتها هذه المرة موجهة إلى المنظر المذهل عند قدميهما.

ضحكت السيدة السمراء من جديد، وعادتا كلتاهما إلى المنظر، تتأملانه في صمت، بنوع من الصفاء المنتشر الذي ربما كان مستعاراً من التألق الربيعي في السموات الرومانية. كانت ساعة الغداء قد مضت منذ فترة طويلة، وانفردت الاثنتان في زاويتهما من الشرفة الشاسعة. في الطرف الآخر قامت مجموعات قليلة بقيت لإلقاء نظرة مطولة على المدينة الممتدة بجمع الأدلة السياحية والبحث في الجيوب عن بقشيش. تفرقت آخر هذه المجموعات وبقيت السيدتان وحيدتين في المكان العالي الذي غسله الهواء.

"إنني لا أرى سبباً يمنعنا من البقاء هنا،" قالت السيدة سليد Slade، السيدة ذات اللون المميز والحاجبان الحيويان. كان هناك كرسيان شبكيان مهجوران على مقربة منهما، فقامت بدفعهما إلى زاوية الحاجز، ووضعت نفسها على أحدهما، ونظرتها مثبتة على البالاتين. "ففي الواقع، لا يزال هذا أجمل مشهد في العالم."

"وسيكون دائماً، بالنسبة لي،" قالت صديقتها السيدة آنسلي Ansley موافقة، بتشديد طفيف جداً على كلمة "لي" بحيث أن السيدة سليد رغم أنها لاحظته تساءلت ما إذا كان مجرد صدفة، مثل الخطوط الاعتباطية التي يضعها تحت الكلمات كاتب رسالة من الطراز القديم.

"كانت غريس Grace آنسلي دائماً من الطراز القديم،" فكرت؛ وأضافت بصوت عالٍ، وبابتسامة استرجاعية: "إنه مشهد ألفته كلتانا لعدد كبير من السنوات، حين التقينا هنا أول مرة كنا أصغر من بناتنا الآن، هل تذكرين؟."

"آه، نعم، أذكر،" تمتمت السيدة آنسلي بنفس التشديد الذي لا يمكن تحديده. – "هاهو رئيس الخدم يتساءل هنا." قالت تكمل كلامها. من الواضح أنها ثقتها بنفسها وبحقوقها في العالم أقل جداً من ثقة رفيقتها.

"سأشفيه من التساؤل،" قالت السيدة سليد وهي تمد يدها إلى حقيبة مظهرها مترف باحتشام مثل حقيبة السيدة آنسلي. منادية رئيس الخدم بصوت غنائي، شرحت له أنها وصديقتها من عشاق روما القدامى، وأنهما تودان إمضاء فترة العصر ترقبان المشهد – هذا، إذا لم يكن في ذلك من عرقلة للخدمة. انحنى رئيس الخدم برأسه لدى تناول بقشيشها وأكد لها أنه يرحب بالسيدتين أبلغ الترحيب، وأن هذا الترحيب سيكون أشد إذا ما تنازلتا وبقيتا لتناول العشاء. فالليلة ليلة قمر مكتمل، كما لا بد أنهما تذكران....

تجمع حاجبا السيدة سليد الأسودان، كما لو أن الإشارة إلى القمر لم تكن في مكانها بل وغير محبذة. لكنها استبدلت بعبوسها ابتسامة لدى تقهقر رئيس الخدم. "إذن، لم لا؟ هناك أشياء أسوأ من ذلك قد نقوم بها. لا مجال هناك، حسبما أعتقد، لمعرفة موعد عودة الفتاتين. بل هل تعرفين العودة من أين؟ أنا نفسي لا أعرف!."

تخضبت بشرة السيدة آنسلي بشكل طفيف للمرة الثانية. "أعتقد أن هذين الطيارين الإيطاليين الذين التقينا بهما في السفارة قد قاما بدعوتهما للطيران إلى تاركوينيا Tarqinina لتناول الشاي. أظن أنهما سترغبان في الانتظار والعودة طائرتين في ضوء القمر."

"ضوء القمر – ضوء القمر! أي دور لا يزال يؤديه. هل تعتقدين أنهما عاطفيتان بنفس القدر الذي كنا به"؟

"لقد توصلت إلى نتيجة هي أنني لا أعرف بتاتاً ما هما،" قالت السيدة آنسلي. "وربما لم نكن نعرف إحدانا عن الأخرى أكثر من ذلك بكثير."

"لا ، ربما لم نكن نعرف."

نظرت صديقتها إليها نظرة خجولة. "لم يكن ليخطر لي أبداً أنك كنت عاطفية يا أليدا Alida."

"إذن، ربما لم أكن." أغمضت السيدة سليد جفنيها وهي تستعيد الماضي؛ ولبضع دقائق فكرت السيدتان – اللتان كانتا صديقتين حميمتين منذ طفولتهما – ملياً في ندرة ما تعرفانه عن بعضهما. لقد كان لدى كل واحدة منهما بالطبع نعت جاهز لإلصاقه باسم الأخرى؛ فالسيدة دلفين Delphine سليد، مثلاً، ستقول لنفسها، أو لأي شخص يسألها، أن السيدة هوراس Horace آنسلي، كانت قبل خمسة وعشرين عاماً حلوة جداً – لا، لن تصدقي هذا، أليس كذلك؟... رغم أنها بالطبع لا تزال فاتنة، متميزة.... حسن في صباها كانت رائعة، أجمل من ابنتها باربرا إلى حد كبير، رغم أن بابس – على الأقل حسب المقاييس الجديدة – أكثر تأثيراً – أرقى، كما يقولون. من المضحك أن تكون كذلك، وأبواها عتيقان بهذا الشكل. نعم، لقد كان هوراس آنسلي نسخة مماثلة لزوجته. نموذجان من متاحف نيويورك القديمة. حسنا المظهر، لا انتقاد عليهما؛ مثاليان. لقد عاشت السيدة سليد والسيدة آنسلي إحداهما مواجه الأخرى – فعلياً وكذلك معنوياً لسنوات عدة. حين كان يتم تجديد ستائر غرفة الاستقبال في المنزل رقم ٢٠ بالشارع الثالث والسبعين، فإن المنزل رقم ٢٣ في الطرف المقابل كان دائماً على علم بذلك واطلاع على التبديلات والمشتريات والرحلات وأعياد الذكرى والأمراض – التاريخ الوديع لزوجين محترمين. لم يغب الكثير منه عن السيدة سليد. لكنها غدت تسأمه في الوقت الذي قام زوجها فيه بانقلابه الكبير في وول ستريت(١)، وحين اشتريا منزلاً في شارع بارك أفينو الأعلى أخذت تفكر: "إنني أفضل السكني قبالة حانة غير مرخصة من باب التغيير؛ على الأقل قد يتاح للمرء أن يشاهد الشرطة

(١) Wall Street شارع في قسم مدينة نيويورك الذي تقوم فيه المؤسسات المالية، ويطلق الاسم أيضاً على العالم المالي الأمريكي.

تهاجمها." فكرة رؤية الشرطة تهاجم منزل غريس Grace كانت مسلية بحيث إنها (قبل أن تنتقل) عرضتها في وليمة غداء نسائية. نجحت تماماً، وتنوقلت كالعادة – وقد تساءلت عما إذا كانت الفكرة قد عبرت الشارع، ووصلت إلى السيدة آنسلي. تمنت ألا تكون وصلت، ولكنها لم تهتم كثيراً. كانت تلك هي الأيام التي حدث فيها انحسار في الحرص على المظهر المحترم، ولم يكن يضير أولئك الآمنين من الانتقاد أن يكونوا هدفاً للقليل من الضحك.

بعد بضع سنوات، وبفاصل لا يزيد عن بضعة شهور، فقدت كلتا السيدتين زوجيهما. تم تبادل مناسب للباقات والتعزيات، وتجديد وجيز للألفة في ظل حدادهما؛ والآن بعد فاصل آخر، تلاقتا في روما، في الفندق نفسه، كل منهما تابعة متواضعة لابنة بارزة. جذبهما التماثل في وضعهما، الواحدة للأخرى، من جديد، مثيراً بعض النكات المعتدلة، والاعتراف المتبادل بأنه إذا كانت مجاراة البنات شيئاً متعباً في الأيام الغابرة فإنه الآن – أحياناً – من الممل عدم مجاراتهن.

لا شك – أخذت السيدة سليد تفكر – أنها كانت تشعر بفراغها أكثر مما يمكن لغريس المسكينة أن تشعر به أبداً. إن التحول من كونها زوجة دلفين سليد إلى كونها أرملته هو سقوط كبير. لقد اعتبرت دائماً نفسها (بنوع من الاعتزاز الزيجي) مساوية له في المواهب الاجتماعية، مساهمة بحصتها الكاملة في جعلهما زوجين غير عاديين مثلما كانا؛ لكن الاختلاف الذي حدث بعد موته ليس له علاج. باعتبارها زوجة لمحامي الشركات الشهير – الذي كانت دائماً بين يديه قضية عالمية أو قضيتان – كان كل يوم يجلب واجباته المثيرة وغير المتوقعة؛ الاستقبال المرتجل لزملاء بارزين من الخارج، الاندفاع المستعجل من أجل أعمال قانونية إلى لندن أو باريس أو روما، حيث كان الاستقبال يُرَدُّ بشكل بديع جداً، التسلية في أن تسمع وهي تبتعد: "ماذا، تلك السيدة ذات الملابس والعيون الجميلة هي السيدة سليد – زوجة سليد؟ حقاً؟ عادة تكون زوجات المشاهير بعيدات عن الأناقة."

نعم؛ كونها أرملة سليد كان أمراً مضجراً بعد تلك الأشياء. في مجاراتها لزوج مثل زوجها كانت كل طاقاتها مجندة؛ الآن ليس لديها من تجاريه سوى ابنتها؛ فالابن الذي بدا أنه ورث مواهب أبيه مات فجأة في صباه. لقد كافحت للتغلب على ذلك الأسى لأن زوجها كان موجوداً، يتلقى المساعدة ويقوم بالمساعدة؛ بعد موت الأب، أصبح التفكير بالابن لا يحتمل. لم يبقَ شيء سوى أن تكون أماً لابنتها؛ وجيني Jenny العزيزة ابنة مثالية لا تحتاج إلى عناية أمومية مفرطة. "لو كانت بابس آنسلي ابنتي لا أظن أنني أكون هادئة إلى هذا الحد." كانت السيدة سليد تفكر أحياناً بشيء من الحسد؛ لكن جيني – التي كانت أصغر من صديقتها اللامعة –كانت تلك الصدفة النادرة، فتاة بالغة الجمال استطاعت بطريقة ما أن تجعل الشباب والجمال يبدوان باعثاً على الطمأنينة مثل غيابهما. كان الأمر بأكمله محيراً – وبالنسبة للسيدة سليد مملاً بعض الشيء. تمنت لو أن جيني تقع في الحب – بل في حب الشخص غير المناسب؛ بحيث تحتاج لأن تكون موضع مراقبة وتخطيط معاكس وأن تُنقذ. وبدلاً عن ذلك، كانت جيني هي التي تراقب أمها وتحميها من تيارات الهواء وتتأكد من أنها تناولت دواءها المقوي....

لم تكن السيدة آنسلي في فصاحة صديقتها، وكانت صورتها العقلية للسيدة سليد أكثر ضموراً ومرسومة بلمسات أشد ضعفاً. "إن أليدا سليد لامعة جداً، ولكنها ليست لامعة إلى الدرجة التي تظنها." هذه العبارة تلخص تلك الصورة تلخيصاً وافياً؛ رغم أنها كانت تضيف، لتنوير الغرباء، إن السيدة سليد كانت في شبابها فتاة ساحرة – أكثر سحراً بكثير من ابنتها التي هي جميلة –بالطبع –وذكية نوعاً ما، ولكن ليس لديها شيء من –فلنقل "حيوية" أمها، كما وصفها أحدهم ذات مرة. كانت السيدة آنسلي عادة تتناول كلمات دارجة مثل هذه، وتستعملها بين قوسين، كتصرفات متهورة لم يسمع بها. كلا، ليست جيني مثل أمها. أحياناً كانت السيدة آنسلي تعتقد أن أديلا سليد تشعر

بخيبة الأمل؛ بالإجمال كانت حياتها حياة محزنة. مليئة بالفشل والأخطاء؛ كانت السيدة آنسلي دائماً تشعر بالرثاء نحوها....

هكذا نظرت هاتان السيدتان إلى بعضهما، كل منهما من الطرف الخاطئ من منظارها المقرب الصغير.

٢

لفترة طويلة استمرتا في الجلوس جنباً إلى جنب دون أن تتحدثا. يبدو وكأنه – بالنسبة لكليهما – كانت هناك راحة في حضرة الممنتو موري[١] الشاسع الذي واجههما. جلست السيدة سليد في سكون تام، عيناها ثابتتان على المنحدر الذهبي لقصر القياصرة، وبعد فترة توقفت السيدة آنسلي عن التنقيب في حقيبتها، وغرقت هي أيضاً في التأمل مثل الكثير من الأصدقاء الحميمين، لم تتح للسيدتين من قبل الفرصة قط أن تكونا صامتتين معاً، وشعرت السيدة آنسلي بشيء من الحرج لما بدا، بعد هذه السنوات الطويلة، مرحلة جديدة في مودتهما، ومرحلة لم تكن تدري بعد كيف تتعامل معها.

فجأة امتلأ الهواء بقعقعة الأجراس العميقة تلك التي تغطي روما بين الحين والآخر بسقف من الفضة. نظرت السيدة سليد إلى ساعة معصمها. "صارت الساعة الخامسة بهذه السرعة" قالت، كما لو دهشت لذلك.

اقترحت السيدة آنسلي بلهجة تساؤلية: "هناك اجتماع للعب البريدج في السفارة." لفترة طويلة لم تجب السيدة سليد. بدت ضائعة في تأملاتها، واعتقدت السيدة آنسلي أن العبارة فاتتها. لكن بعد برهة قالت، مثل شخص يتكلم وهو في حلم: "هل قلت بريدج؟ كلا، إلا إذا أردتِ ذلك... لكن لا أعتقد أنني سأذهب."

---

(١) Memento Mori (نصب الموت).

"كلا، كلا" سارعت السيدة آنسلي تؤكد لها. "لا رغبة لدي في ذلك على الإطلاق. المكان هنا جميل جداً؛ غاصّ بالذكريات القديمة، كما تقولين." أراحت نفسها في كرسيها، وبشبه اختلاس تناولت حياكتها. لاحظت السيدة سليد هذا العمل ملاحظة جانبية، لكن يديها اللتين تلقتا عناية جميلة بقيتا دون حراك على ركبتيها.

"كنت الآن أفكر،" قالت ببطء، "بالأشياء المختلفة التي تمثلها روما لدى كل جيل من المسافرين. بالنسبة لجداتنا: حمى رومانية؛ لأمهاتنا: أخطار عاطفية – كيف كنا تحت الحراسة! – لابنتينا: لا أخطار تزيد على ما يوجد في منتصف الشارع الرئيسي في الوطن. إنهما لا تدريان ذلك – ولكن أشياء كثيرة تفوتهما!"

كان النور الذهبي الطويل قد بدأ يشحب، ورفعت السيدة آنسلي حياكتها أقرب قليلاً إلى عينيها. "نعم؛ كم كنا تحت الحراسة !."

"لقد اعتدت دائماً أن أفكر،" تابعت السيدة سليد، "إن وظيفة أمهاتنا أصعب بكثير من جداتنا. فحين كانت الحمى الرومانية تختال في الشوارع لا بد أن جمع الفتيات في ساعة الخطر كان أمراً سهلاً نسبياً؛ لكن حين كنا أنت وأنا شابتين، ونملك ذلك القدر من الجمال، مع بهار من عدم الطاعة مضافاً إليه، وليس من خطر أكبر من الإصابة بالزكام في الساعة الرطبة بعد الغروب، كانت أمهاتنا يبذلن جهداً كبيراً لمنعنا من الخروج – أليس كذلك"؟.

التفتت ثانية نحو السيدة آنسلي، ولكن الأخيرة كانت قد وصلت إلى نقطة حساسة في حياكتها. "واحدة، اثنتان، ثلاثة – نمرر اثنتين؛ نعم لا بد أنهن فعلن،" وافقت، دون أن ترفع بصرها.

استقرت عينا السيدة سليد عليها بانتباه متعمق. "بإمكانها أن تحيك – في مكان كهذا! كم ينسجم هذا مع طبيعتها...."

انحنت السيدة سليد إلى الوراء، تفكر بكآبة، عيناها تنتقلان من الآثار التي تواجهها إلى التجويف الكبير الأخضر للساحة، والبريق الخافت لواجهات الكنائس وراءه وضخامة الكولوزيوم[1] المدرج الكبير البعيدة. فجأة، خطر لها: "من الحسن جداً القول إن بناتنا تخلصن من العاطفة وضوء القمر. ولكن إذا لم تكن بابس آنسلي تخطط للإيقاع بذلك الطيار الشاب – المركيز بينهما – فإنني لا أدرك شيئاً إذن. وليست لدى جيني أية فرصة إلى جانبها، إنني أدرك ذلك أيضاً. هل يا ترى ذلك هو السبب في أن غريس آنسلي تحب أن تذهب الاثنتان إلى كل مكان معاً؟ ابنتي جيني المسكينة تستعمل وسيلة للظهور–!" ضحكت السيدة سليد ضحكة تكاد لا تسمع، ولدى صدور ذلك الصوت تركت السيدة آنسلي حياكتها.

"نعم؟"

"إنني – آه، لا شيء. كنت فقط أفكر كيف أن ابنتك بابس تحمل كل شيء أمامها. ذلك الفتى كامبوليري Campolieri هو واحد من أفضل الشبان الصالحين للزواج في روما. لا تظهري بريئة هكذا، يا عزيزتي – أنت تعلمين أنه كذلك. وكنت ..... أتساءل كيف تدبر شخصان مثاليان مثلك ومثل هوارس إنتاج شيء له كل هذه الديناميكية." ضحكت السيدة سليد من جديد، بمسحة من القسوة.

جمدت يدا السيدة آنسلي على صنارتيها. اتجهت نظرتها مباشرة إلى حطام العاطفة والروعة العظيم المتراكم عند قدميها. لكن وجهها الصغير لم يحمل أي تعبير. بعد برهة طويلة قالت: "أعتقد أنك تبالغين في تقدير مواهب بابس، يا عزيزتي."

أعطت السيدة آنسلي صدى لضحكتها في دمدمة خافتة. "إن بابس ملاك أيضاً."

---

(١) Colosseum المدرج الكبير

"بالطبع – بالطبع! لكن لها جناحان قزحيان. وإذن، أهما تتجولان قرب البحر مع شابيهما؛ ونحن ها هنا ... وهذا كله يرجع الماضي بشكل فيه حدة زائدة قليلاً."

كانت السيدة آنسلي قد اســتأنفت حكايتها. ربما كاد المرء أن يتخيل (إذا كانت معرفته بها أقل، حسبما خطر للسيدة سليد) إنه بالنسبة لها أيضاً برزت ذكريات أكثر مما يجب من الظلال المتطاولة لهذه الآثار المهيبة. لكن كلا؛ كانت ببساطة منهمكة في عملها. ماذا كان لديها ليقلقها؟ إنها تعرف من المؤكد تقريباً أن تعود بابس وهي مخطوبة لكامبوليري المناسب جداً. "وستبيع بيتها في نيويورك، وتستقر على قرب منهما في روما، ولا تعترض طريقهما أبداً... إن لديها الكثير من اللباقة. لكن ستكون عندها طباخة ممتازة، وسيزورها فقط الناس المناسبون للعب البريدج وتناول الكوكتيل... وشيخوخة آمنة بشكل تام بين أحفادها."

انتزعت السيدة سليد نفسها من هذا الجنوح في التنبؤ منكمشة باشمئزاز من نفسها. لم يكن هناك من يستحق منها أن تفكر به تفكيراً طيباً أكثر من غريس آنسلي. ألن تشفي نفسها أبداً من الشعور بالحسد نحوها. ربما كانت قد بدأت ذلك منذ زمن أطول مما ينبغي.

نهضت وانحنت فوق الحافة، تملأ عينيها المزعوجتين بسحر تلك الساعة المسكّن. لكن بدلاً من أن يسكنها، بدا المشهد وكأنه يزيد من ضيقها وتوترها. انتقلت نظرتها إلى الكولوزيوم. كان جانبه الذهبي قد غرق في الظل البنفسجي، وتقوست السماء فوقه صافية صفاء البلور، دون ضوء أو لون. كانت اللحظة هي اللحظة التي يقف العصر والمساء في توازن في منتصف السماء.

استدارت السيدة سليد ووضعت يدها على ذراع صديقتها. كانت الحركة مفاجئة تماماً بحيث أن السيدة آنسلي رفعت بصرها مجفلة.

"لقد غربت الشمس. أنت لست خائفة، يا عزيزتي؟"

"خائفة – ؟"

"من الحمى الرومانية أو ذات الرئة؟ أذكر كم كنت مريضة ذلك الشتاء. في صباك كانت حنجرتك شديدة الحساسية، أليس كذلك؟"

"أوه، إنني على ما يرام في هذا المكان العالي. في الأسفل، في الساحة، يصير الطقس بارداً بشكل مميت، بشكل مفاجئ... لكن ليس هنا."

"آه، طبعاً أنت تعرفين، لأنه كان عليك أن تحترسي كثيراً." التفتت السيدة سليد إلى الحافة ثانيةً. فكرت: "عليّ أن أقوم بجهد إضافي جديد كي لا أكرهها." بصوت عالٍ قالت: "كلما نظرت إلى الساحة من هذا المكان العلوي، تذكرت تلك الحكاية عن عمة أبيك، أليس كذلك؟ عمة كبيرة خبيثة بشكل مرعب؟"

"أوه، نعم؛ العمة هارييت Harriet، التي يقال إنها أرسلت أختها الصغرى إلى الساحة بعد الغروب لقطف زهرة من الأزهار التي تتفتح في الليل لتضعها في ألبومها. كل عمات آبائنا وأمهاتنا وجدّاتنا كنّ يحفظن ألبومات الأزهار الجافة."

أحنت السيدة سليد رأسها موافقة. "لكنها في الواقع أرسلتها لأنهما كانت تعشقان نفس الرجل – "

"كان هذا أمراً متبعاً في الأسرة. قالوا أن العمة هارييت اعترفت بذلك بعد مضي سنين. على كل حال، أصيبت الأخت بالحمى وماتت. كانت أمي تخوفنا بهذه القصة حين كنا أطفالاً."

"وأنت خوفتني بها، في ذلك الشتاء الذي كنا فيه أنت وأنا هنا في صبانا. الشتاء الذي تمت فيه خطبتي لدلفين."

صدرت عن السيدة آنسلي ضحكة خافتة. "أوه، حقاً؟ هل أخفتك حقاً؟ لا أعتقد أن بالإمكان إخافتك بسهولة."

"لا يحدث ذلك كثيراً؛ لكني خفت حينذاك. لقد خفت بسهولة لأنني كنت سعيدة جداً. إنني أتساءل ما إذا كنت تدركين ماذا يعني ذلك؟"

"إنني – نعم..." تلعثمت السيدة آنسلي.

"حسناً، إنني أعتقد أن ذلك هو السبب أن حكاية عمتك الشريرة أحدثت فيّ ذلك التأثير. وقد خطر لي: لم يبق هناك حمى رومانية، ولكن الساحة باردة بشكل مميت بعد الغروب – خاصة بعد يوم حار. بل إن الكولوزيوم أكثر برودة ورطوبة."

"الكولوزيوم – ؟"

"نعم. لم يكن الدخول إليه سهلاً، بعد أن تقفل البوابات في المساء. لم يكن سهلاً بتاتاً. ومع ذلك، ففي تلك الأيام كان يمكن تدبر ذلك؛ كان يحدث ذلك، كثيراً. كان العشاق الذين لا يستطيعون اللقاء في مكان آخر يلتقون هناك. كنت تعلمين ذلك؟"

"إنني – أظن. لا أذكر."

"لا تذكرين؟ ألا تذكرين قيامك بزيارة إحدى هذه الآثار ذات مساء، تماماً بعد حلول الظلام، والإصابة بزكام سيء؟ المفروض أنك ذهبت لرؤية بزوغ القمر. لقد ردد الناس دائماً أن تلك المغامرة هي التي سببت مرضك."

حلت لحظة من الصمت؛ ثم أجابت السيدة آنسلي: "هل قالوا ذلك؟ لقد حدث كل هذا منذ زمن بعيد جداً."

"نعم. وتحسنت صحتك من جديد – لذا لم يكن للأمر أهمية. لكنني أظن أنه أدهش أصدقاءك –أعني السبب المعلن لمرضك – لأن الجميع كانوا يعرفون أنك كنت حصيفة جداً بسبب حنجرتك، وأن أمك اعتنت بك عناية كبيرة... لقد خرجت من البيت للتفرج في وقت متأخر، ألم تفعلي ذلك في تلك الليلة؟"

"ربما فعلت. ليست أكثر البنات حصافة حصيفات دائماً. ما الذي جعلك تفكرين بالأمر الآن؟"

لم يبد أن السيدة سليد كان لديها جواب جاهز. لكنها بعد لحظة انفجرت: "لأنني ببساطة لا أستطيع تحمله أكثر من ذلك – "

رفعت السيدة آنسلي رأسها بسرعة. كانت عيناها واسعتين وشديدتي الشحوب. "ما الذي لا تستطيعين تحمله؟"

"أستغرب أنك غير مدركة أنني كنت دائماً أعرف لم ذهبتِ."

" لِمَ ذهبتُ – ؟"

"نعم. إنك تعتقدين أنني أكذب، أليس كذلك؟ فإذن، لقد ذهبت للقاء الرجل الذي كنت أنا مخطوبة له – وأنني أستطيع أن أعيد كل كلمة من كلمات الرسالة التي دفعتك أن تذهبي هناك."

أثناء حديث السيدة سليد، وقفت السيدة آنسلي مترنحة على قدميها. انزلقت حقيبتها وحياكتها وقفازها وسقطت وكأنها كومة مذعورة على الأرض. نظرت إلى السيدة سليد كما لو كانت تنظر إلى شبح.

"لا، لا – لا تفعلي ذلك،" قالت متلعثمة.

"لم لا؟ اسمعي، إن كنت لا تصدقينني. ’حبيبتي الوحيدة، لا يمكن أن تستمر الأمور بهذا الشكل. لابد أن أراك وحدك. تعالي إلى الكولوزيوم فوراً بعد حلول الظلام غداً. سيكون هناك شخص يدخلك. لست بحاجة للخشية من ذلك الشخص‘ –لكن ربما قد نسيتِ ما جاء في الرسالة؟"

تلقت السدة آنسلي التحدي بتمالك غير متوقع. استندت مرتكزة على الكرسي ونظرت إلى صديقتها وأجابت: "لا، إنني أحفظها عن ظهر قلب أنا أيضاً."

"والتوقيع؟ ’لك وحدك، د. س.‘ أليس كذلك؟ إنني مصيبة، أليس كذلك؛ تلك كانت الرسالة التي جعلتك تخرجين بعد الظلام في ذلك المساء؟"

كانت السيدة آنسلي لا تزال تنظر إليها. بدا للسيدة سليد أن صراعاً بطيئاً يدور خلف القناع المتماسك الطوعي على وجهها الصغير الهادئ. "لم يكن ليخطر لي أنها ستتمالك نفسها إلى هذا الحد،" دار ذلك في ذهن السيدة

سليد، بشيء من الغضب. لكن في تلك اللحظة تكلمت السيدة آنسلي. "لا أعرف كيف علمتِ. لقد أحرقت تلك الرسالة في الحال."

"نعم، هذا ما يتوقع منك، بالطبع – أنت حصيفة جداً!" أصبح الهزء مكشوفاً الآن. "وبما أنك أحرقت الرسالة فأنت تتساءلين كيف بحق الله أعرف ما الذي احتوته. الأمر كذلك، أليس هذا صحيحاً؟"

انتظرت السيدة سليد، لكن السيدة آنسلي لم تتكلم.

"حسناً، يا عزيزتي، إنني أعرف ما احتوته تلك الرسالة لأنني أنا كتبتها"

"أنت كتبتها؟"

"نعم."

وقفت السيدتان لحظة تحدق الواحدة منهما في الأخرى تحت آخر شعاع ذهبي. ثم سقطت السيدة آنسلي من جديد على كرسيها. "آه،" تمتمت، وغطت وجهها بيديها.

انتظرت السيدة سليد بعصبية كلمة أو حركة أخرى. لكن لم تصدر أية كلمة أو حركة، وبعد فترة طويلة انفجرت: "إنني أرعبك."

سقطت يدا السيدة آنسلي على ركبتها. كان الوجه الذي كشفتا عنه مبللاً بالدموع. "لم أكن أفكر بك. كنت أفكر – لقد كانت الرسالة الوحيدة التي استلمتها منه على الإطلاق!"

"وأنا كتبتها. نعم؛ أنا كتبتها! لكنني كنت أنا الفتاة المخطوبة له. هل حدث أن تذكرتِ ذلك؟"

انحنى رأس السيدة آنسلي من جديد. "إنني لا أحاول تبرير نفسي... لقد تذكرت..."

"ومع ذلك ذهبتِ؟"

"مع ذلك ذهبت."

وقفت السيدة سليد تنظر نحو الأسفل إلى الشخص المنحني الضئيل إلى جانبها. كانت شعلة غضبها قد ذوت، وتساءلت لم خطر لها أنه سيكون هناك أي شعور بالرضى ناجم عن تسبيب جرح عديم المعنى بهذا الشكل لصديقتها. ولكن اضطرت أن تبرر موقفها.

"إنك تقدرين الأمر؛ لقد اكتشفتُ – وكرهتك، كرهتك. عرفت أنك مغرمة بدلفين – وشعرت بالخوف؛ بالخوف منك، من أساليبك الهادئة، عذوبتك... من... إذن، أردت إبعادك من الطريق، ذلك كل شيء. فقط لبضعة أسابيع؛ فقط إلى أن أتأكد منه. وهكذا في سورة عمياء من الغضب كتبت تلك الرسالة... لا أدري لم أخبرك بذلك الآن."

"أعتقد،" قالت السيدة آنسلي ببطء، "لأنك استمررت دائماً في كرهي."

"ربما. أو لأنني أردت أن أزيح الشيء بكليته عن تفكيري." توقفت. "يسرني أنك تخلصت من الرسالة. بالطبع لم أفكر أبداً أنك قد تموتين."

خلدت السيدة آنسلي إلى الصمت؛ وشعرت السيدة سليد بشعور غريب من العزلة، وهي تنحني فوقها، شعور بكونها انفصلت عن تيار العلاقات الإنسانية الدافئ. "أنت تفكرين أنني وحش!."

"لا أدري... إنها الرسالة الوحيدة التي استلمتها، وأنت تقولين أنه لم يكتبها."

"آه، كم أنك لا تزالين تهتمين بأمره!"

"لقد كانت تلك الذكرى تهمني،" قالت السيدة آنسلي.

استمرت السيدة سليد تنظر إليها. بدت وكأن الصدمة قد أضعفتها جسدياً – كما لو أن الريح ستبعثرها، حين تنهض، مثل نفخة من الغبار. فجأة اضطرمت غيرة السيدة سليد من جديد لرؤية ذلك. طوال هذه السنين عاشت هذه المرأة على تلك الرسالة. يا لمدى الحب الذي لا بد أنها شعرت به تجاهه،

كي تجد ذخراً في مجرد ذكرى رمادها! رسالة الرجل الذي كانت صديقتها مخطوبة له. أليست هي الوحش؟

"لقد حاولت جهدك أن تأخذيه مني، أليس كذلك؟ لكنك فشلت؛ واحتفظت أنا به. ذلك كل ما في الأمر."

"نعم. ذلك كل شيء."

"أتمنى الآن لو أنني لم أخبرك. لم تكن لدي أية فكرة أنك ستشعرين نحو القضية بهذا الشكل؛ ظننت أنها ستكون تسلية لك. لقد حدث كل شيء منذ أمد بعيد، كما تقولين؛ عليك أن تكوني عادلة نحوي بأن تتذكري أنه لم يكن لدي أي سبب لأعتقد أنك ستحملين الأمر بجدية. كيف كان بإمكاني، في حين أنك تزوجت هوراس آنسلي بعد ذلك بشهرين؟ حالما أمكنك مغادرة السرير أسرعت أمك بك إلى فلورنسا وزوجتك. لقد دهش الناس بعض الشيء – تساءلوا عن تلك العجلة بالزواج؛ لكنني ظننت أنني أفهم. ظننت أن دافعك كان الغيظ – كي تستطيعي القول إنك سبقتني أنا ودلفين. للبنات أسباب سخيفة بهذا الشكل للقيام بأكثر الأشياء جدية وزواجك بهذه السرعة أقنعني أنك في الحقيقة لم تأخذي الأمر على محمل الجد قط."

"نعم، أعتقد أنه يعطي مثل هذا الانطباع،" وافقت السدة آنسلي.

خلت السماء الصافية فوقهما من ذَهَبِها. انتشر الغسق فيها، وأعتمت الهضاب السبع بشكل مفاجئ. هنا وهناك بدأت الأضواء تبرق بين الأشجار تحت أقدامهما. كانت الخطوات تروح وتجيء على الشرفة المهجورة – خدم ينظرون من الباب عند أعلى الدرج، ثم يظهرون من جديد يحملون صوانٍ وفوطاً وزجاجات نبيذ. حُركت بعض الطاولات، وعُدل وضع الكراسي. ومض خيط واهن من الأضواء الكهربائية. أزيحت بعض المزهريات ذات الزهور الذاوية، وأعيدت وقد ملئت من جديد. فجأة ظهرت سيدة ممتلئة ترتدي معطفاً أغبر، تسأل بإيطالية مكسرة إذا كان أحد قد رأى ربطة المطاط

التي كانت تحزم بها دليلها السياحي المهترئ. تحسست بعصاها تحت الطاولة التي تناولت غداءها عليها والخدم يساعدونها.

كانت الزاوية التي جلست السيدة سليد والسيدة آنسلي فيها لا تزال مظللة، مهجورة. لم تتكلم أية منهما لفترة طويلة. أخيراً بدأت السيدة سليد من جديد: "أعتقد أنني فعلت هذا كنوع من النكتة."

"نكتة"؟

"حسناً، الفتيات شرسات أحياناً، كما تعلمين. خاصة الفتيات العاشقات. وأذكر كيف ضحكت بيني وبين نفسي على فكرة أنك تنتظرين هناك في الظلام، متحاشية الأنظار، مصغية إلى كل صوت، تحاولين الدخول – بالطبع انزعجت حين سمعت أنك مرضت إلى ذلك الحد فيما بعد."

لم تكن السيدة آنسلي قد تحركت لوقت طويل. لكنها الآن ببطء نحو صاحبتها. "لكنني لم أنتظر. كان قد دبر كل شيء. لقد كان هناك. وأدخلنا على الفور،" قالت.

نهضت السيدة سليد فجأة من وضعها المنحني. "دلفين هناك! أدخلوكما! -- آه إنك الآن تكذبين!" انفجرت بعنف.

أصبح صوت السيدة سليد فجأة أكثر وضوحاً، وممتلئاً بالدهشة. "لكنه بالطبع كان هناك. طبعاً أتى – "

"أتى؟ كيف عرف أنه سيجدك هناك؟ لا بد أنك تهذين!"

ترددت السيدة آنسلي، كما لو كانت تفكر. "لكنني أجبت على الرسالة أخبرته أنني سأكون هناك. وهكذا أتى."

قذفت السيدة سليد كفيها على وجهها. "أوه، يا إلهي – أجبتِ! لم يخطر لي قط. قيامك بالإجابة...."

"من الغريب أنك لم تفكري بذلك قط، إذا كنت كتبت الرسالة."

"نعم. كنت قد أعماني الغضب."

نهضت السيدة آنسلي، ولفت نفسها بمنديلها الفرو، "المكان بارد هنا. الأفضل أن نذهب.... إنني آسفة لك،" قالت وهي تحكم الفرو حول حنجرتها.

سببت هذه الكلمات غير المتوقعة غصة في نفس السيدة سليد. "نعم؛ الأفضل أن نذهب،" لملمت حقيبتها ورداءها. "لا أدري لم تشعرين بالأسف نحوي،" قالت متمتمة.

وقفت السيدة آنسلي تنظر بعيداً عنها إلى كتلة الكولوزيوم السرية المعتمة. "في الواقع لأنني لم أضطر للانتظار تلك الليلة."

ضحكت السيدة سليد ضحكة غير هادئة. "نعم. هُزمتُ في ذلك. لكن لا يحق لي أن أحسدك على ذلك، على ما أظن. بعد مضي كل هذه السنوات. فرغم كل ذلك، حصلت أنا على كل شيء؛ حصلت عليه لمدة خمس وعشرين سنة. ولم تحصلي أنت على شيء سوى تلك الرسالة التي لم يقم بكتابتها.

صمتت السيدة آنسلي من جديد. في النهاية استدارت نحو باب الشرفة. خطت خطوة والتفت من جديد، مواجهة رفيقتها.

"لقد حصلت على باربرا،" قالت، وبدأت تسير أمام السيدة سليد نحو الدرج.

يودورا ولتي

موت بائع متجوّل[(١)]

ولدت يودورا ولتي عام ١٩٠٩ في جاكسون بولاية مسيسيبي في جنوب الولايات المتحدة. بدأت بكتابة القصة عام ١٩٣٦، وقد أثارت أعمالها الأولى إعجاب الكاتبة كاثرين آن بورتر، التي أصبحت بمثابة المرشد الأدبي لولتي، وكتبت مقدمة أوّل مجموعة قصصية تنشرها ولتي، وهي **ستارة خضراء** ***A Curtain of Green***. وتتألف مجموعة أعمالها من أكثر من أربعين قصة قصيرة وخمس روايات وثلاثة أعمال غير قصصية وكتاب للأطفال. فازت ولتي بجائزة بوليتزر للأدب القصصي عام ١٩٧٣ عن روايتها **ابنة المتفائل** ***The Optimist's Daughter*** ومنحت وسام الحرية الصادر عن رئاسة الجمهورية. والقصة المترجمة هنا هي أول أعمال ولتي المنشورة.

قاد ر. ج. بومان R. J. Bowman، الذي أمضى أربعة عشر عاماً يتجول من مكان لآخر في ولاية مسيسبي كممثل لشركة أحذية، سيارته الفورد على ممر ترابي كثير الحفر. كان اليوم طويلاً! وبدا الوقت وكأنه لا ينوي اجتياز

---

(١) هذه ترجمة قصة "Death of a Traveling Salesman" للكاتبة Eudora Welty. والقصة نشرت لأول مرة عام ١٩٣٦ في مجلة أدبية تدعى **المخطوطة** *Manuscript*. ثم نشرت مجدداً في مجموعة الكاتبة **ستارة خضراء عام ١٩٤١**.

حاجز الظهر ليستقر في عصر مريح. مكثت الشمس، التي تحتفظ بوهجها حتى أثناء الشتاء، في أعلى السماء، وكلما أخرج بومان رأسه من السيارة المغبرة ليحدق في الطريق، أمامه بدت الشمس وكأنها تمد ذراعاً طويلة إلى الأسفل وتدفع أشعتها فوق قبة رأسه، مخترقة القبعة – مثل مزاح بائع هرم، أمضى زمناً طويلاً في السفر. جعله هذا يشعر بمقدار أكبر من الغضب والعجز. كانت حرارته مرتفعة، ولم يكن واثقاً تماماً من معرفته للطريق.

كان هذا يومه الأول الذي يعود فيه إلى السفر بعد فترة طويلة من الأنفلونزا، انتابته خلالها حمى طويلة جداً وأحلام وأصبح ضعيفاً وشاحباً إلى حد أنه يستطيع إدراك ذلك من النظرة الأولى إلى وجهه في المرآة، ولم يكن قادراً على التفكير بوضوح.... طيلة فترة ما بعد الظهر، في أثناء ثورة غضبه، وبدون أي سبب، أخذ يفكر بجدته الميتة. لقد كانت إنسانة تحب الراحة. مرة أخرى تمنى بومان لو أنه يستلقي في السرير الكبير المحشو بالريش الذي كان في غرفة نومها.... ثم نسيها مرة أخرى.

يا لمنطقة التلال الخاوية هذه! وبدا له أنه يمضي في الاتجاه الخاطئ – كما لو أنه يعود إلى الخلف، إلى الخلف البعيد. لم يكن هناك أي بيت على مدى البصر.... ولكن لم تكن هناك أية فائدة في أن يتمنى لو أنه يعود إلى سريره. فبدفعه فاتورة طبيب الفندق برهن أنه قد استعاد صحته. بل إنه حتى لم يشعر بالأسف حين ودعته الممرضة المدربة الجميلة. فهو لا يحب المرض، ولا يثق به، مثل عدم ثقته بالطريق الخالي من اللافتات. مثل هذا الطريق يجعله بشعر بالغضب. لقد أهدى الممرضة إسوارة باهظة حقاً، لمجرد أنها كانت تحزم أمتعتها استعداداً للرحيل.

ولكن الآن – ماذا يعني كونه خلال أربعة عشر عاماً من التجوال لم يمرض قط ولم يتعرض لأي حادث؟ لقد تشوه سجله، بل إنه بدأ يطرح علامات الاستفهام حول هذا السجل.... كان تدريجياً قد أخذ ينزل في فنادق

أفضل، وفي مدن أكبر، ولكن ألم تكن جميعها – بصورة سرمدية – خانقة في الصيف باردة في الشتاء؟ النساء؟ لم يستطع أن يتذكر سوى غرف صغيرة داخل عرف صغيرة، مثل عش من صناديق الورق الصينية، وإذا ما فكر بامرأة معينة تراءت له الوحدة المهترئة التي كان أثاث الغرفة يبدو مصنوعاً منها. وهو نفسه – كان رجلاً يرتدي دائماً قبعات سود عريضة الحافة إلى حد ما، وفي مرايا الفندق المتماوجة بدا شكله شبيهاً بشكل مصارع ثيران، وذلك حين يتوقف في تلك اللحظة المحتومة على فسحة الدرج، أثناء نزوله في طريقه لتناول العشاء.... مال برأسه خارج نافذة السيارة مرة أخرى، ومرة أخرى أخذت الشمس تدفع أشعتها على رأسه.

كانت نية بومان أن يصل إلى بيولا Beulah لدى حلول الظلام، أن يأوي إلى الفراش ويداوي إنهاكه بالنوم. كانت بيولا حسبما يتذكر تبعد خمسين ميلاً عن آخر بلدة مر بها على الطريق الممتلئ بالحصى. لم يكن هذا سوى طريق للبقر. ما الذي جاء به إلى مثل هذا المكان. مسحت إحدى يديه العرق عن وجه، وتابع قيادة السيارة.

لقد قام بالسفر إلى بيولا من قبل. لكنه لم يرَ قط هذه الهضبة أو هذا الممر المتلاشي من قبل – أو تلك السحابة، كما خطر في ذهنه باستحياء، وهو ينظر إلى الأعلى ثم إلى الأسفل بسرعة – كما أنه لم يرَ هذا اليوم من قبل. لم لا يعترف بأنه بكل بساطة ضائع وأن ضياعه بدأ منذ عدة أميال؟.... لم يكن من عادته أن يسأل الغرباء عن الطريق، وعادة لم يكن هؤلاء يعرفون إلى أين تؤدي الطريق نفسها التي كانت بيوتهم عليها، ولكن من جهة أخرى لم يتقرب من أي شخص اقتراباً كافياً لأن يناديه ويسأله. فالأشخاص الواقفون في الحقول بين الفينة والأخرى، أو فوق أكوام التبن، كانوا بعيدين جداً، بحيث بدوا كعصي أو كأعشاب محنية، ويلتفتون قليلاً لدى سماع صوت سيارته الوحيد وهي تعبر ريفهم ويراقبون الغبار الشتائي الباهت الذي أثارته وهو

يموج خلفها على الطريق. لقد تبعته نظرات هؤلاء الأشخاص البعيدين بثبات كجدار لا يمكن اختراقه، ثم عادوا إلى مكانهم وراءه بعد أن مر.

طفت السحابة إلى أحد الجانبين مثل الوسادة على سرير جدته. مضت فوق كوخ على حافة الهضبة حيث تطاولت شجرتا أزادرخت نحو السماء. ساق السيارة فوق كوم من أوراق السنديان الميتة، وعجلات سيارته تثير جوانبها العديمة الوزن محدثة صفيراً كئيباً فضياً أثناء مرور السيارة فوق حوضها. لم تجتز هذا الطريق أية سيارة من قبل. ثم رأى أنه فوق حافة هوة منحدرة، وأن هذه كانت بالتأكيد نهاية الطريق.

شد المكبح. لكنه لم يستجب، رغم أنه شد عليه بكل ما فيه من قوة. مالت السيارة باتجاه الحافة وتدحرجت قليلاً. لم يكن هناك شك في أنها ستهوي.

خرج بسرعة، كما لو أن شيئاً من الأذى قد وجه إليه وأن عليه أن يفكر بكرامته. أخرج حقيبة سفره وحقيبة العينات ، ووضعها على الأرض، وتقهقر إلى الوراء ليراقب السيارة وهي تتدحرج فوق الحافة. سمع شيئاً ما – لم يكن صوت الاصطدام الذي انتظره، وإنما طقطقة بطيئة غير صاخبة. بشيء من القرف مضى ليشاهد ما حدث، ورأى أن سيارته وقعت في تشابك من الدوالي الضخمة التي يعادل سمكها ثخن ذراعه، وأن هذه الدوالي أمسكت بالسيارة وحفظتها، وهزهزتها مثل طفل غريب الشكل في مهد مظلم، ثم، بينما كان يراقب، أفلتتها بلطف لتهبط إلى الأرض.

تنهد.

أين أنا؟ تساءل مصدوماً. لِمَ لم أقم بفعل شيء ما؟ بدا أن كل غضبه قد تسرب منه. كان المنزل هناك، خلفه على الهضبة. أمسك حقيبة بكل يديه وبتلقائية كادت أن تكون طفولية مضى نحو المنزل. لكن تنفسه كان يتم بصعوبة واضطر إلى التوقف ليستريح.

كان بيتاً متقشفاً – غرفتان وممر مفتوح بينهما – قابعاً فوق الهضبة. وقد مال الكوخ بأكمله قليلاً تحت ضغط الدالية المتكومة الثقيلة التي تغطي السقف، باهتة خضراء، كأنها منسية منذ الصيف . كانت امرأة تقف في الممر.

توقف بلا حراك. ثم بصورة مفاجئة تماماً أخذ قلبه يتصرف على نحو غريب مثل صاروخ أُطلق، أخذ يقفز ويتوسع في أنساق متفاوتة من الخفقان تدفقت إلى دماغه، ففقد قدرته على التفكير. ولكن قلبه في تنوعه وسقوطه لم يحدث أية ضجة. وإنما اندفع إلى الأعلى بقوة كبيرة، بنشوة تقريباً، وهوى برفق، كبهلوانات السيرك في سقوطهم فوق الشبكة. بدأ يدق بعمق، ثم يتوقف منتظراً بطيش، يضرب بنوع من الاستهزاء الداخلي على ضلوعه في البداية، ثم على عينيه، ثم تحت عظمتي كتفيه، وعلى سقف حلقه حين حاول أن يقول: "مساء الخير يا سيدتي." لكنه لم يتمكن من سماع قلبه –كان ساكناً مثل الرماد المتساقط. وكان هذا مطمئناً بعض الشيء، ومع ذلك فقد شعر بومان بصدمة لمجرد شعوره بخفقان قلبه.

أسقط حقيبته، وهو واقف بلا حراك في تشوشه، وبدت الحقيبتان وكأنهما تطفوان في كتلتين بطيئتين برشاقة عبر الهواء وتتوسدان العشب الممتد قرب درجة الباب.

أما بالنسبة للمرأة الواقفة هناك، فقد رأى على الفور أنها عجوز، ولما لم يكن بإمكانها بأية حال أن تسمع قلبه، فقد تجاهل الخفقان ونظر إليها الآن بإمعان، ولكن وهو متشتت الذهن ونظرته حالمة وفمه فاغر.

كانت تنظف المصباح، وتمسك به، نصفه مسود ونصفه نظيف، أمامها. رآها والممر المعتم خلفها. كانت ضخمة ذات وجه أبلاه الطقس ولكنه غير متغضن! وكانت شفتاها مغلقتين بإحكام وعيناها تنظران ببريق باهت غريب إلى عينيه. نظر إلى حذائها، الذي كان مثل حزمتين. لو أن الوقت صيفاً لكانت حافية.... قدر بومان، الذي كان بصورة آلية يقدر عمر النساء من أول

نظرة، أنها في الخمسين. كانت ترتدي رداءً عديم الشكل مصنوعاُ من مادة خشنة رمادية، جف دون كي بعد أن غسل، وقد ظهر ذراعاها منه أحمرين ومستديرين على نحو غير متوقع. حين لم تنطق بأية كلمة، وحافظت على وضعها الهادئ ممسكة المصباح. تشكلت لديه قناعة بقوة جسمها.

قال: "مساء الخير يا سيدتي."

تابعت التحديق، ولم يكن بإمكانه معرفة ما إذا كانت تحدق به أو بالهواء المحيط به، ولكن بعد لحظة خفضت بصرها دلالة على أنها ستستمع إلى أي شيء لديه يقوله.

قام بمحاولة ثانية: "هل يا ترى يهمك الأمر – حادثة – سيارتي..." برز صوتها منخفضاً ونائياً، مثل صوت يأتي عبر بحيرة. "سني Sonny ليس هنا."

"سني؟"

ابنها – شخص قادر على استرجاع سيارتي، خمن بارتياح مشوش. أشار إلى سفح الهضبة. "سيارتي في قعر الحفرة. سأحتاج إلى مساعدة؟"

"سني ليس هنا، لكنه سيأتي."

أخذت تتضح له بشكل أفضل وصوتها يغدو أكثر قوة، وأدرك بومان أنها غبية.

لم يدهشه التأجيل المتزايد والمشقة اللذين تعرضت لهما رحلته إلا بقدر ضئيل. تنفس، وسمع صوته يتكلم متجاوزاً ضربات قلبه الصامتة. "لقد كنت مريضاً ولم أستعد قوتي بعد . . . هل لي أن أدخل؟"

انحنى ووضع قبعته السوداء الكبيرة فوق قبضة حقيبته. كانت حركة متذللة، تكاد تكون ركوعاً، بدت له في الحال أنها مضحكة وتنم عن كل ضعفه. رفع بصره إلى المرأة، والريح تعبث بشعره. كان من المحتمل أن يستمر وقتاً طويلاً في هذا الموقف غير المعتاد، وهو لم يكن قط رجلاً

صبوراً، ولكنه حين مرض تعلم أن يغوص بخنوع بين الوسائد وأن ينتظر دواءه. وقف ينتظر المرأة.

ثم قامت بالالتفات وهي تنظر إليه بعينين زرقاوين، وفتحت الباب، وبعد لحظة، انتصب بومان، كما لو كان مقتنعاً بتصرفه، وتبعها إلى الداخل.

في الداخل، لمسه ظلام الغرفة كما لو كان يداً محترقة، يد الطبيب. وضعت المرأة المصباح الذي نظّف جزئياً على طاولة في منتصف الغرفة وأشارت أيضاً مثل شخص محترف، مثل دليل، إلى كرسي ذي مقعد أصفر من جلد البقر. وقبعت هي إلى جانب الموقد، وقد رفعت ركبتيها تحت الثوب العديم الشكل.

في البداية شعر بالأمان على نحو متفائل. أصبح قلبه أكثر هدوءاً. كانت الغرفة مطوقة داخل العتمة الناجمة عن ألواح الصنوبر الصفراء. واستطاع أن يرى الغرفة الأخرى عبر الممر، حيث كانت رجل سرير حديدي ظاهرة. وكان السرير مغطى بلحاف من رقع قماش حمراء وصفراء بدت وكأنها خريطة أو صورة، تشبه بعض الشيء الصورة التي رسمتها جدته في صباها لروما وهي تحترق.

كان قد شعر بحاجة ملحة إلى شيء من الرطوبة، لكن الجو في هذه الغرفة كان بارداً. حدق بالموقد الذي احتوى فحماً بارداً وأواني طبخ عند الزوايا. كانت المدفأة والمدخنة مبنيتين من الحجر الذي رآه في التلال، معظمه من الأردواز. وتساءل لِمَ لم تكن النار مشتعلة.

وكان هناك هدوء شديد. بدا أن صمت الحقول دخل المنزل وأخذ يتجول في داخله بحرية. شعر بومان أنه معرض لخطر غامض ساكن بارد. ما الذي كان من الضروري أن يفعله؟ . . . . أن يتكلم.

قال: "لدي مجموعة جديدة من الأحذية النسائية الرخيصة الثمن."

ولكن المرأة أجابت: "سوف يرجع سَني. إنه قوي. سيحرك سَني سيارتك."

"أين هو الآن؟"

"إنه يفلح لدى السيد ردموند Redmond."

السيد ردموند. السيد ردموند. ذلك الشخص لن يضطر لمقابلته أبداً، وقد سره ذلك. فبطريقة ما لم يرتح قلبه لهذا الاسم.... وفي نوبة الحساسية والقلق، تمنى أن يتحاشى حتى مجرد ذكر أشخاص مجهولين ومزارعهم المجهولة.

"هل تعيشان هنا وحيدين؟" اندهش لسماع صوته الثرثار المدرب على بيع الأحذية يلقي سؤالاً كهذا – عن شيء لم يكن حتى يرغب في معرفته.

"نعم. إننا وحيدان."

اندهش من طريقة إجابتها. لقد استغرق منها قول ذلك زمناً طويلاً. وقد هزت رأسها إيجاباً بصورة شديدة أيضاً. هل أردت أن توجه إليه نوعاً من التحذير؟ تساءل بتعاسة. أو هل أن المسألة فقط هي أنها لن تساعده بالتحدث معه؟ فهو لم يكن على قدر كافٍ من القوة ليتلقى تأثير الأشياء غير المألوفة دون حديث قصير يلطف وقعها. لقد عاش شهراً لم يحدث فيه شيء إلا في عقله وجسمه – حياة لم تكد تكون مسموعة من دقات القلب والأحلام التي عادت، حياة من الحمى والسرية، حياة هشة جعلته ضعيفاً إلى درجة – ماذا ؟ إلى درجة التوسل. قفز النبض إلى راحة يده مثل سمكة في جدول.

تساءل مرة بعد مرة لِمَ لم تتابع المرأة تنظيف المصباح، ما الذي دفعها لأن تبقى هناك في الطرف الآخر من الغرفة، مضفية حضورها عليه بصمت؟ أدرك أن هذا الوقت لم يكن بالنسبة لها وقتاً يصلح للقيام بالواجبات الصغيرة. وكان وجهها وقوراً، كانت تشعر بمدى صواب فعلها. ربما كان الأمر مجرد لباقة. وبطواعية أبقى عينيه مفتوحتين على نحو متصلب، مركزتين على يدي المرأة المتشابكتين كما لو أنها تمسك الخيط الذي يضمهما.

ثم قالت: "سني قادم."

لم يسمع هو أي شيء، ولكن رجلاً أتى ماراً بالنافذة ثم مندفعاً عبر الباب وكلبان إلى جانبه. كان سني رجلاً ضخماً إلى حد كافٍ، وحزامه يتدلى منخفضاً محيطاً بردفيه. بدا أنه لا يصغر عن الثلاثين. كان ذا وجه حار أحمر لا يزال الصمت يملؤه. وكان يرتدي سروالاً أزرق ملطخاً بالوحل ومعطفاً عسكرياً قديماً. مليئاً بالبقع والرقع. تساءل بومان: الحرب العالمية؟ رباه، لقد كان معطفاً كونفدرالياً.(١) عند مؤخرة شعره الخفيف كان مرتدياً قبعة سوداء عريضة قذرة بدت وكأنها إهانة لقبعة بومان. دفع الكلبين عن صدره. كان قوياً، وفي طريقته في التحرك هيبة وثقل.... كان هذا هو الشبه بينه وبين أمه.

وقفا جنباً إلى جنب. . . . لا بد له من أن يشرح مرة أخرى وجوده هنا. قالت المرأة بعد بضع دقائق: "سني، هذا الرجل سقطت سياراته في الهوة ويريد أن يعرف إذا كنت ستخرجها له."

لم يستطع بومان أن يشرح قضيته.

وقع بصر سني عليه

كان يعرف أن عليه أن يقدم تفسيرات وأن يعرض نقوداً – على الأقل أن يبدو إما بمظهر النادم أو ذي السلطة. ولكن كل ما استطاع أن يفعله هو أن يهز كتفيه على نحو طفيف.

لامسه "سني" وهو يمضي إلى النافذة، يتبعه الكلبان المتوثبان، وهو ينظر من خلالها. كان هناك جهد حتى في طريقته في النظر، كما لو أنه يستطيع أن يرمي بصره من عينيه مثل حبل. شعر بومان، دون أن يتلفت، أن عينيه هو لم تكونا لتستطيعا رؤية شيء: كانت الهوة شديدة البعد.

"لدي بغل هناك في الخارج ولدي بكرة وحبال،" قال سني بلهجة ذات معنى. أستطيع أن آخذ بغلي وحبالي، وقبل مضي زمن طويل أخرج سيارتك من الوادي."

---

(١) نسبة إلى الجيش الكونفدرالي الذي حشدته الولايات الجنوبية في الحرب الأهلية الأمريكية.

نظر إلى جميع أنحاء الغرفة، كما لو كان يمعن التفكير، وعيناه تدوران في مآقيهما. ثم ضغط شفتيه على بعضهما بشدة ولكن باستحياء، ثم والكلبان يسبقانه هذه المرة خفض رأسه وخرج بخطوات واسعة. صدر صوت عن الأرض الصلبة وهي تميد بفعل طريقته الجبارة في السير التي تكاد تكون مترنحة.

بخبث وبإيحاء من هذه الأصوات، قفز قلب بومان مرة أخرى. بدا أنه يسير هنا وهناك في داخله.

قالت المرأة: "سيقوم سني بالمهمة." كررت قولها، وهي تكاد أن تجعل منه أغنية. كانت جالسة في مكانها قرب الموقد.

دون أن ينظر، سمع بعض الصرخات وسمع الكلبين ينبحان وصوت خبط حوافر في خطوات قصيرة على الهضبة. وبعد بضع دقائق مر سني تحت النافذة يحمل حبلاً، وكان هناك بغل بني اللون ذو أذنين مرتعشتين لامعتين بدتا وكأن لونهما بنفسجي. ونظر البغل فعلاً عبر النافذة من تحت جفنيه. وجّه عينين تشبهان دريئتين إلى عيني بومان الذي أشاح بوجهه ورأى المرأة تبادل البغل النظر بصفاء، والرضا وحده يلوح في وجهها.

تابعت الغناء قليلاً بصوت خافت. خطر له، وبدا ذلك رائعاً تماماً، أنها لم تكن حقاً تتحدث إليه، وإنما تتابع الشيء الذي يحدث بكلمات لاشعورية بينما جزء منها يتابع النظر.

لذا لم يقل أي شيء، وحين لم يجب هذه المرة شعر بانفعال غريب وقوي، غير الخوف، يعتمل في نفسه.

حين قفز قلبه هذه المرة، بدا أن شيئاً آخر – روحه – يقفز أيضاً، مثل مهر صغير سمح له بالخروج من الحظيرة. حدق في المرأة بينما سرعة أحاسيسه المحمومة جعلت رأسه يدور. لم يستطع التحرك؛ لم يكن هناك شيء يستطيع فعله، إلاّ ربما أن يعانق هذه المرأة الجالسة هناك تمعن في الهرم وتزداد فقداناً لشكلها أمام ناظريه.

لكنه أراد أن يقفز واقفاً، أن يقول لها، لقد كنت مريضاً وقد اكتشفت حينذاك، حينذاك فقط، كم أعاني الوحدة. هل فات الوقت؟ إن قلبي يقيم صراعاً في داخلي، وقد تكونين سمعته، يحتج على الخواء. . . . ينبغي له أن يكون ممتلئاً وسيتابع قوله لها بسرعة – وهو يفكر بقلبه الآن كبحيرة عميقة، يجب أن تحتوي على الحب مثل القلوب الأخرى. يجب أن يغمرها الحب. سيأتي يوم دافئ من أيام الربيع. . . . تعالي قفي في قلبي، أيما كنتِ، ويغطي نهر بأكمله قدميك ويرتفع إلى الأعلى ويغمر ركبتيك في دوامات، ويجرك إلى ذاته، جسمك بأكمله، قلبك أيضاً.

لكنه حرك يداً مرتعشة أمام عينيه، ونظر إلى المرأة القابعة الهادئة في الطرف الآخر من الغرفة. كانت ساكنة مثل تمثال. شعر بالخجل والإنهاك من فكرة أنه كان من الممكن، في دقيقة واحدة أخرى، أن يكون قد حاول بكلمات وعناقات بسيطة أن يفشي شيئاً غريباً – شيئاً بدا دائماً أنه فاته لتوه....

لمس نور الشمس أبعد قدر على الموقد، كان الوقت بعد العصر. في مثل هذا الوقت غداً سيكون على طريق معبد جيد، يسوق سيارته مجتازاً أشياء تحدث للناس الآخرين بسرعة أكبر من سرعة حدوثها. رؤيته المسبقة ليوم الغد جعلته يشعر بالسرور، وأدرك أن هذا لم يكن الوقت المناسب لعناق امرأة عجوز، كان باستطاعته أن يشعر في صدغيه النابضين استعداد دمه للحركة وللإسراع في الابتعاد.

قالت المرأة: "سيكون سني قد ربط سيارتك الآن. سيخرجها من الوادي خلال فترة قصيرة."

"عظيم!" صاح بحماسه المعتاد.

ومع ذلك بدا الوقت الذي أمضياه في الانتظار طويلاً. بدأ الظلام يخيم. كان بومان متشنجاً في كرسيه. ينبغي لكل إنسان أن يكون لديه إدراك كافٍ

لأن ينهض ويتمشى هنا وهناك أثناء الانتظار. كان هناك شيء يشبه الذنب في مثل هذا السكون والصمت.

لكنه بدلاً من أن ينهض أصغى. . . . أصغى باضطراب، وتنفسه مكتوم وعيناه عاجزتان في الظلمة المتزايدة، يتوقع صوتاً محذراً، وقد نسي في حذره ما سيكون هذا الصوت. قبل مضي زمن طويل سمع شيئاً: خافتاً، مستمراً، يثير الشك.

سأل: "ماهذا الصوت؟" وقفز صوته إلى الظلمة. ثم شعر بخوف شديد من أن يكون قلبه يخفق بوضوح زائد في الغرفة الهادئة، وأن تخبره بذلك.

قالت متذمرة: "ربما كنت تسمع الجدول."

كان صوتها أكثر قرباً منه. كانت واقفة إلى جانب الطاولة. تساءل عن سبب عدم إضاءتها للمصباح. لقد وقفت هناك في الظلمة ولم تشعله.

لن يتحدث بومان إليها الآن أبداً، فقد فات الوقت. أخذ يفكر: سأنام في الظلمة، وفي حيرته أشفق على نفسه.

تابعت حركتها بثقل إلى النافذة. ارتفع ذراعها، أبيض على نحو غير واضح، باستقامة من جانبها الممتلئ وأشارت إلى العتمة في الخارج.

قالت تحدث نفسها: "تلك النقطة البيضاء هي سَني."

التفت رغم إرادته ونظر من فوق كتفها؛ تردد في أن ينهض ويقف إلى جانبها. بحثت عيناه في الهواء المعتم. سبحت النقطة البيضاء برشاقة نحو إصبعها، مثل ورقة شجر في نهر، وبياضها يزداد في العتمة. كان الأمر كما لو أنها أرته شيئاً سرياً، جزءاً من حياتها، لكنها لم تقدم أي تفسير. أشاح ببصره. أثاره الأمر إلى حد الدموع تقريباً، وهو يشعر دون سبب أنها قد أدلت بتصريح صامت يعادل تصريحه. انتظرت يده فوق صدره.

ثم هزت خطوةٌ الغرفةَ، وصار سني داخل الغرفة. شعر بومان كيف تركته المرأة هناك ومضت إلى جانب الرجل الآخر.

قال صوت سني في العتمة: "لقد قمت بإخراج سيارتك أيها السيد. إنها واقفة تنتظر على الطريق، وقد استدارت لتعود من حيث أتت."

"عظيم!" قال بومان، وهو يدفع صوته كي يصبح عالياً. "إنني بالتأكيد كثير الامتنان – لم أكن لأستطيع فعل ذلك بنفسي – لقد كنت مريضاً. . . . "

قال سني: "استطعت فعل ذلك بسهولة."

استطاع بومان أن يشعر بهما كليهما ينتظران في الظلام، واستطاع أن يسمع الكلبين يلهثان في الباحة الخارجية، ينتظران كي ينبحا حين يحين وقت ذهابه. شعر بالعجز والامتعاض بصورة غريبة. الآن وقد صار بإمكانه أن يذهب، تاق لأن يبقى. مم كان يتعرض الآن للحرمان؟ اهتز صدره بقسوة بفعل عنف قلبه. كان هناك شيء عزيز على هذين الشخصين لم يتمكن من رؤيته، كانت هناك مؤامرة ما بين الاثنين. فكر بالطريقة التي ابتعدت فيها عنه وذهبت إلى سني، لقد انسابت نحوه. ارتجف من البرد، كان تعباً، ولم يكن الأمر عادلاً. أدخل يده في جيبه بِذِلَّة ولكن بغضب.

"بالطبع سوف أدفع لك عن كل شيء –"

"إننا لا نأخذ نقوداً عن شيء كهذا،" قال صوت سني بعداء.

"أريد أن أدفع. ولكن افعلا شيئاً آخر.... دعاني أبقى – الليلة...." خطا خطوة أخرى نحوهما. لو أنهما فقط يستطيعان رؤيته، لأدركا صدقه، حقيقة حاجته! تابع صوته القول: "لم أستعد قوتي بعد، وليس بإمكاني أن أمشي مسافة كبيرة، حتى أعود إلى سيارتي، ربما، لست أدري – لست أدري أين أنا بالضبط –"

توقف. شعر أنه قد ينفجر باكياً. ما الذي سيظنانه به!

أقبل سني ووضع يديه على بومان. واستطاع أن يحس بعيني سني تنظران إليه في الظلام.

"أنت لست محصل ضرائب جئت تتسلل هنا، أيها السيد، ألا تحمل مسدساً؟" إلى نهاية اللامكان هذه! ومع ذلك فقد جاء هو. وأجاب جواباً رصيناً: "كلاّ."

"بإمكانك البقاء."

قالت المرأة: "سني سيكون عليك أن تستعير شعلة من النار."

"سآتي بها من عند ردموند،" قال سني.

"ماذا؟" أجهد بومان أذنيه ليسمع كلامهما.

قالت: "لقد نفذت نارنا وعلى سني أن يستعير شعلة، بسبب الظلمة والبرد."

"ولكن الكبريت – معي كبريت."

قالت بكبرياء: "ليست لدينا حاجة به. سيحضر سني شعلته الخاصة."

قال سني بلهجة تنبئ عن الأهمية: "إنني ذاهب إلى ردموند،" وخرج. بعد أن انتظرا فترة، تطلع بومان من النافذة ورأى نوراً يتحرك فوق الهضبة. مدد النور نفسه مثل مروحة صغيرة. تحرك بخط متكسر فوق الحقل، مندفعاً وسريعاً، بشكل لا يشبه طريقة سني على الإطلاق. . . . ثم سرعان ما دخل سني مترنحاً، يحمل بملقط قضيباً مشتعلاً وراءه، والنار تتدفق في أثره، تضيء أرجاء الغرفة.

قالت المرأة وهي تأخذ الشعلة: "سنشعل ناراً الآن."

بعد أن فعلت ذلك أشعلت المصباح. أظهر النور جزأه المظلم وجزأه المضيء. انقلبت الغرفة بأسرها إلى لون أصفر ذهبي مثل زهرة من نوع ما، وصدرت رائحتها من الجدران التي بدت وكأنها ترتعش مع اندفاع النار الهادئ ومع تموج فتيلة المصباح المشتعلة داخل قمع النور الذي يحتويها.

تحركت المرأة بين القدور الحديدية. وضعت بالملقط فحماً مشتعلاً فوق الأغطية الحديدية، التي أصدرت سلسلة من الاهتزازات الخافتة. مثل صوت جرس قادم من بعيد.

ورفعت بصرها إلى بومان، ولكنه لم يستطع الاستجابة. كان يرتعش.

"هل تريد أن تشرب أيها السيد" سأل سني. كان قد أحضر كرسياً من الغرفة الأخرى وجلس منفرج الساقين عليه ويداه مشتبكتان فوق ظهر الكرسي. فكر بومان: الآن كل واحد منا يستطيع رؤية الآخر وصاح: "نعم يا سيدي، بالتأكيد، شكراً"

قال سني: "اتبعني وافعل تماماً مثلما أفعل"

كانت رحلة أخرى في الظلمة. اجتازا الممر وخرجا إلى خلف المنزل مارين بكوخ وبئر مغطى. وصلا إلى برية من الشجيرات.

قال سني: "على ركبتيك."

"ماذا؟" وتصبب العرق على جبينه.

فهم المقصود حين بدأ سني يزحف عبر ما يشبه نفقاً صنعته الشجيرات فوق الأرض. تبعه، وأجفل رغماً عنه لدى كل لمسة غصن أو شوكة.

توقف سني عن الزحف وبدأ وهو قابع على ركبتيه يحفر التراب بكلتا يديه. بخجل أشعل بومان عود كبريت للحصول على النور. بعد بضعة دقائق أخرج سني جرة. صب بعض الويسكي في زجاجة أخرجها من جيب معطفه، وأعاد دفن الجرة. "لا يعرف المرء أبداً من يُحتمل أن يطرق بابه،" قال وضحك. "لنبدأ العودة،" قال بصورة تكاد تكون رسمية. "لا حاجة بنا أن نشرب في الخارج، مثل الخنازير."

على الطاولة قرب النار، جلس سني وبومان متواجهين على كرسييهما يتناولان الشراب من الزجاجة، يمررها كل منهما للآخر فوق الطاولة. نام الكلبان؛ كان أحدهما يرى حلماً.

قال بومان: "هذا شراب جيد. هذا ما كنت بحاجة له." شعر وكأنه يشرب النار من الموقد.

قالت المرأة بفخر هادئ: "هو الذي يصنعه."

كانت تدفع الفحم، وروائح خبز الذرة والقهوة، تملأ أرجاء الغرفة.

وضعت كل شيء على المائدة أمام الرجلين، مع سكين ذات قبضة عظيمة مغروسة في إحدى حبات البطاطا، تشطر لبّها الذهبي. ثم وقفت دقيقة تنظر إليهما، وهي تنتصب طويلة إلى جانبهما حيث يجلسان. انحنت نحوهما قليلاً.

قالت: "تستطيعان الآن أن تأكلا،" وابتسمت فجأة.

صدف أن بومان كان قبل لحظة قد أخذ ينظر إليها. أعاد فنجانه إلى الطاولة في احتجاج غير مصدق. وشعر بألم يكبس عينيه. لقد رأى أنها لم تكن عجوزاً. كانت صبية، لا تزال صبية، لا تزال صبية. لم يستطع أن يفكر بعدد السنين الذي يناسبها. كانت في نفس عمر سني، وكانت زوجته. وقفت وزاوية الغرفة البعيدة المعتمة وراءها، والضوء الأصفر المتبدل ينتشر فوق رأسها وثوبها العديم الشكل، ويرتجف فوق جسمها الطويل حين انحنى فوقهما في تصريحه المفاجئ. كانت صبية. أسنانها لامعة وعيناها براقة. استدارت ومشت ببطء وثقل إلى خارج الغرفة، وسمعها تجلس على السرير ثم تضطجع.

قال سني وهو يضع لقمة داخل فمه: "إنها على وشك أن تضع طفلاً."

لم يستطع بومان أن يتكلم. شعر بصدمة لمعرفته حقيقة ما ينطوي عليه هذا المنزل، زواج مثمر. ذاك الشيء البسيط. بإمكان أي امرئ الحصول على ذلك.

شعر على نحو ما أنه غير قادر على الشعور بالسخط أو الاحتجاج. رغم أن لعبة من نوع ما قد لُعبت عليه بالتأكيد. لم يكن هناك أي شيء بعيد أو غامض هنا – بل مجرد شيء خاص. السر الوحيد كان التفاهم القديم بين شخصين. لكن تذكر انتظار المرأة الصامت قرب الموقد البارد. وعناد الرجل في ذهابه مسافة ميل للحصول على النار، وكيف أخرجا أخيراً طعامهما وشرابهما وملآ الغرفة بفخر بكل ما لديهما.

قال سَني: "لستَ جائعاً بقدر ما يبدو عليك."

خرجت المرأة من غرفة النوم حالما انتهى الرجلان، وأكلت عشاءها بينما كان زوجها يحدق بسلام في النار.

ثم أخرجا الكلبين وأعطياهما الطعام المتبقي.

قال بومان: "أعتقد أنه من الأفضل أن أنام هنا إلى جانب النار."

شعر أنه قد خُدع، وأن بإمكانه الآن أن يكون كريماً. على الرغم من مرضه، لم ينوِ أن يطلب منهما التخلي عن سريرهما. لقد طلب من المعروف في هذا المنزل ما يكفي، ولن يطلب شيئاً جديداً الآن بعد أن فهم حقيقة الأمر.

"كما تريد، أيها السيد."

لكنه لم يكن قد عرف بعد مدى بطئه في الفهم. فهم لم ينويا إعطاءه سريرهما. بعد فترة قصيرة نهضا وبعد أن نظرا إليه برصانة ذهبا إلى الغرفة الأخرى.

استلقى متمدداً قرب النار. إلى أن بدأت تخمد. راقب كل لسان من ألسنة اللهب ينهي احتراقه ويختفي. وجد نفسه يكرر بهدوء، "ستكون هناك أسعار خاصة مخفضة على جميع الأحذية خلال شهر كانون الثاني." ثم استلقى وشفتاه مغلقتان بإحكام.

كم ثمة من أصوات في الليل! سمع الجدول يجري، والنار تخمد، وكان متأكداً الآن أنه يسمع قلبه يدق أيضاً، أي يسمع الصوت لذي يصدره تحت أضلاعه. سمع التنفس المتناوب للرجل وزوجته في الغرفة الواقعة على الطرف الآخر من الممر. وكان هذا كل شيء. لكن الانفعال جاش بصبر في داخله، وتمنى لو أن الطفل يكون طفله.

لا بد له أن يعود إلى حيث كان من قبل. وقف بضعف أمام الجمر وارتدى معطفه. شعر به شديد الثقل فوق كتفيه. حين انطلق ليخرج نظر

ورأى أن المرأة لم تكمل قط تنظيف المصباح. تحت تأثير حافز ما وضع جميع النقود الموجودة في محفظته تحت قاعدته الزجاجية المحززة، بشعور من أتى عملاً يدعو للفخر.

وبخجل حمل حقيبته وخرج بعد أن هز كتفيه قليلاً ثم ارتجف. بدت برودة الجو كأنها ترقى به جسمياً. كان القمر يشع في السماء.

عند المنحدر بدأ يركض، دون أن يستطيع التحكم بنفسه. وتماماً حين وصل إلى الطريق، حيث بدت سيارته جالسة في ضوء القمر مثل قارب، بدأ قلبه يصدر انفجارات هائلة وكأنه بندقية.

غطس خائفاً في الطريق وسقطت حقيبتاه حوله. شعر كأن كل هذا قد حدث من قبل. غطى قلبه بكلتا يديه ليمنع إي إنسان من سماع الضجة التي أحدثها.

لكن لم يسمعها أحد.

يودورا ولتي

زيارة بدافع الصدقة[١]

في جميع قصص ولتي، يكتسب المكان أهمية خاصة، لأنه في اعتقادها هو الذي يجعل الرواية والقصة تبدوان واقعيتان، وهذا واضح في هذه القصة. وتغطي قصصها طيفاً واسعاً من الأفراد والمواضيع والأساليب، كما تغطي أجناساً أدبية متعددة.

كان الوقت منتصف الصباح في يوم مشرق شديد البرودة. قفزت فتاة في الرابعة عشرة تحمل نبتة في أصيص من الحافلة أمام "بيت العجائز" على تخوم البلدة. كانت ترتدي معطفاً أحمر وشعرها الأصفر المسبل يتدلى سائباً من القبعة البيضاء المدببة التي كانت جميع الفتيات الصغيرات يرتدين مثلها في ذلك العام. توقفت لحظة إلى جانب شجيرة من الشجيرات القاتمة الشوكية التي جمّلت إدارة المدينة الملجأ بها، ثم مضت ببطء نحو المبنى، الذي بني من الآجر المكلس الأبيض وكان يعكس نور الشمس الشتائية وكأنه كتلة من الجليد. أثناء صعودها بدون تركيز على الدرجات نقلت الأصيص من يد إلى أخرى، ثم اضطرت أن تضعها من يدها وأن تنزع قفازيها كي تستطيع فتح الباب الثقيل.

---

(١) هذه ترجمة قصة "A Visit of Charity" للكاتبة Eudora Welty. والقصة نشرت لأول مرة عام ١٩٤١ في مجلة أدبية محدودة التداول. ثم نشرت مجدداً في مجموعة الكاتبة **ستارة خضراء**.

"إنني من فتيات الكشاف . . . وعليّ أن أقوم بزيارة لإحدى السيدات العجائز،" قالت للممرضة الجالسة وراء المكتب. وكانت هذه امرأة في زي أبيض بدت وكأنها تشعر بالبرد، ذات شعر شديد القصر انتصب فوق قمة رأسها تماماً مثل موجة بحرية. لم تقل ماريان Marian – الفتاة الصغيرة – لها إن هذه الزيارة ستكسبها ثلاث نقاط على الأقل في مجموع علاماتها.

"هل تعرفين أيّاً من المقيمات لدينا؟" سألت الممرضة، وهي ترفع أحد حاجبيها وتتكلم كرجل.

"أيَّ واحدة من السيدات العجائز؟ كلا – ولكن – أعني ستكون أية واحدة منهم مناسبة،" قالت ماريان وهي تتعلثم. وبيدها الطليقة دفعت شعرها خلف أذنيها، كما كانت عادتها حين يحين وقت دراسة العلوم.

هزت الممرضة كتفيها ونهضت. وعلقت وهي تسبق الفتاة عبر ممر من الأبواب المغلقة لانتقاء العجائز قائلة: "أرى أنك تحملين نبتة رماد متعددة الألوان جميلة."

كانت الأرض مغطاة بمشمع رخو. شعرت ماريان كما لو أنها تسير فوق الأمواج، ولكن الممرضة لم تعره اهتماماً، وكانت هناك رائحة الممر تشبه رائحة ساعة من الداخل. ران الصمت على كل شيء إلى تنحنحت واحدة من العجائز خلف أحد الأبواب، كشاة تثغو. وهذا ما جعل الممرضة تتخذ قرارها. فبعد أن توقفت عن سيرها، مدت أولاً ذراعيها ولوت مرفقها وانحنت إلى الأمام من الردفين – كل ذلك لتتفحص الساعة المشدودة إلى رسغها، ثم طرقت الباب طرقة عالية مزدوجة.

علقت الممرضة وهي تتكلم من فوق كتفها: "هناك اثنتان في كل غرفة."

"اثنتان ماذا؟" سألت ماريان دون تفكير. كاد الصوت الشبيه بالثغاء أن يجعلها تستدير وتجري عائدة على أعقابها.

كانت سيدة عجوز تشد الباب لتفتحه في هزات قصيرة تدريجية، وحين رأت الممرضة طغت على وجهها ابتسامة غريبة جعلته مائلاً على نحو ينذر بالخطر. ثم رأت ماريان، وقد دفعها فجأة ذراع الممرضة القوي النافذ الصبر، الطرف الجانبي من وجه عجوز أخرى، أكبر سناً، مستلقية على ظهرها في السرير وهي ترتدي قلنسوة وتتدثر بلحاف حتى ذقنها.

قالت الممرضة: "زائرة،" وبعد دفعة عنيفة أخرى مضت في طريقها عبر الممر.

وقفت ماريان وقد انعقد لسانها، وكلتا يديها تمسك بأصيص النبات.

وكانت العجوز تنتظر، والابتسامة العريضة الرهيبة (التي هي ابتسامة ترحيب) مازالت مطبوعة على وجهها البارز العظام . . . ربما قالت شيئاً ما. أما العجوز المستلقية على السرير فلم تقل شيئاً على الإطلاق ولم تلتفت.

فجأة رأت ماريان يداً، سريعة كمخالب الطيور، تمتد عبر الهواء وتنتزع القبعة البيضاء عن رأسها. وفي نفس الوقت، سحبها مخلب آخر مماثل إلى داخل الغرفة، وفي اللحظة التالية أغلق الباب وراءها.

"الله، الله" قالت العجوز الواقفة إلى جانبها.

وقفت ماريان وقد أحاط بها سرير ومغسلة وكرسي، فالغرفة البالغة الصغر كانت تحتوي على قدر زائد من الأثاث. وفاحت رائحة البلل من كل شيء – حتى من الأرض العارية. تمسكت الفتاة بمسند الكرسي، الذي كان من قش السلال وشعرت بنعومة ورطوبة. أخذ قلبها يتباطأ في خفقانه، وأخذت يداها تزدادان برودة، ولم تستطع أن تسمع ما إذا كانت العجوز تتكلم أم لا. لم تستطع أن تراهما بوضوح كبير. كم كانت الغرفة معتمةً! كان ستار النافذة مسدلاً والباب الوحيد مغلقاً. نظرت ماريان إلى السقف . . . كان الوضع أشبه بشخص حبيس في كهف قطاع طرق قبيل أن يتم قتله.

قالت قاطعة الطريق الأولى: "هل أتيت لتكوني فتاتنا الصغيرة ساعةً من الزمن؟"

ثم انتزع شيء من يد ماريان – أصيص النبات الصغير.

صاحت العجوز: "أزهار! وقفت ممسكة بالأصيص بطريقة تنبئ بالحيرة. أضافت: "أزهار جميلة."

عندها تنحنحت العجوز المستلقية في السرير وتكلمت. "ليست جميلة،" قالت دون أن تلتفت ولكن بوضوح شديد.

فجأة ارتمت ماريان على الكرسي وجلست.

صاحت العجوز الأولى بإصرار: "أزهار جميلة. جميلة – جميلة . . ."

تمنت ماريان لو تسترجع الأصيص للحظة فقط، فقد نسيت أن تلقي نظرة على النبتة قبل تقديمها. كيف كانت تبدو؟

قالت العجوز الأخرى بحدة: "حشائش عفنة" كانت ذات جبهة منفخة وعينين حمراوين كأعين الخراف. وقد التفتت بهما الآن نحو ماريان. ويبدو أن حنجرتها بدأت تحتبس من جديد، وهي تثغو: "من – أنت"؟.

أدهش ماريان أنها لم تستطع تذكر اسمها. أخيراً قالت: "إنني من فتيات الكشاف." قالت العجوز وكأنها شاة دون أن توجه كلامها لشخص معين: "حذار من الجراثيم."

وقالت العجوز الأولى: "لقد أتت واحدة لرؤيتنا في الشهر الماضي."

شاة أم جرثومة؟ تساءلت ماريان في نفسها وكأنها في حلم، ويدها تشد على الكرسي.

صاحت العجوز الأخرى: "لم تأتِ!."

صرخت الأولى: "بل أتت! قرأت لنا من الكتاب المقدس، واستمتعنا بذلك!"

"من استمتع بذلك!" قالت العجوز المستلقية في السرير، وقد بدا فمها بصورة غير متوقعة صغيراً يبدو عليه الأسى كفم حيوان مدلل.

قالت الأخرى بإصرار: "نحن استمتعنا بذلك. أنت استمتعت بذلك – أنا استمتعت بذلك."

قالت ماريان: "نحن جميعاً استمتعنا بذلك،" دون أن تلاحظ أنها تفوهت بأية كلمة.

كانت العجوز الأولى قد فرغت لتوها من وضع أصيص النبات على سقف الخزانة الشديد العلو، حيث كاد أن يختفي عن النظر إذا ما تطلع المرء من الأسفل. وتساءلت ماريان كيف أمكنها وضعه هناك، كيف أمكنها الوصول إلى مثل هذا العلو.

"يجب ألا تعيري آدي Addie الهرمة أي اهتمام،" قالت الآن مخاطبة الفتاة الصغيرة. "إنها مريضة اليوم."

قالت المرأة المستلقية في السرير: "هلا خرست" لست أشكو شيئاً."

"أنت في حالة يرثى لها."

قالت ماريان فجأة: "لا أستطيع البقاء أكثر من دقيقة – حقاً لا أستطيع." ونظرت إلى الأرض المبللة وخطر لها أنها إذا شعرت بالدوار هنا أو تقيأت فستضطران إلى إطلاق سراحها.

بكثير من التكلف جلست العجوز الأولى على كرسي هزاز – قطعة أخرى من الأثاث! – وبدأت تهز الكرسي، وبأصابع إحدى يديها لمست دبوساً شديد القذارة من حجر كريم مثبت على صدرها، وسألت: "ما الذي تقومين به في المدرسة"؟

قالت ماريان: "لست أدري . . ." حاوت أن تفكر لكنها لم تستطع ذلك.

همست العجوز: "آه ، ولكن الزهور جميلة." بدا أن اهتزازها يتسارع أكثر فأكثر، ولم تستطعه ماريان أن تفهم كيف يمكن لأي شخص أن يتحرك بهذه السرعة.

"بشعة،" قالت المرأة المستلقية على السرير.

بدأت ماريان تقول: "إذا جئنا بزهور –" ثم صمتت. كادت أن تقول إنه إذا ما أحضرت فتيات الكشاف زهوراً إلى "بيت العجائز" فإن نقطة أخرى تضاف إلى نقاط الزيارة، وإذا أخذن كتاباً مقدساً معهن في الباص وقرأن منه للعجائز، فإن نقاط الزيارة تتضاعف. ولكن العجوز لم تكن قد أصغت على أية حال، فقد كانت تهز الكرسي وتتأمل العجوز الأخرى، التي بادلتها التحديق من سريرها.

"آدي المسكينة مريضة. وقد اضطرت إلى تناول دواء. . . أتفهمين"؟ قالت وهي تشير بإصبع قرنية إلى صف من الزجاجات على الطاولة، وتهز مرتفعة إلى علو جعل حذاءها البيتي الأسود يرتفع عن الأرض كحذاء طفل صغير.

قالت المرأة المستلقية على السرير: "لست أكثر مرضاً منك."

"بل أنت مريضة حقاًً!"

قالت العجوز الأخرى، وهي تهز رأسها: "كل ما في الأمر أن لدي قدر أكبر من الفهم مما لديك."

قالت العجوز الأولى بود مفاجئ: "هذه ليست إلا الطريقة المشاكسة التي تتحدث بها حين تأتين جميعكن." أوقفت الكرسي الهزاز بضربة متقنة من قدميها وانحنت نحو ماريان. امتدت يدها نحو الفتاة – كان ملمسها كملمس ورقة "البتونيا" يعلق وفيه شيء من الدبق.

صاحت الأخرى: "هلاّ سكنتَ! هلاّ سكنتِ!"

انحنت ماريان إلى الوراء متصلبة على كرسيها.

قالت العجوز بنفس الصوت المتودد المتوعد: "حين كنت بنتاً صغيرة مثلك، ذهبت إلى المدرسة وكل شيء. ليس هنا – في بلدة أخرى . . . "

"اسكتي!" قالت المرأة المريضة. "لم تذهبي إلى المدرسة قط. لم تأتِ قط ولم تذهبي قط. لم تكوني في أي مكان قط – فقط هنا. إنك لم تولدي قط! أنت لا تعرفين شيئاً. رأسك فارغ، ويداك وحقيبة يدك السوداء القديمة كلها فارغة، وحتى الصندوق القديم الصغير الذي أحضرته معك، جئت به فارغاً – فقد أطلعتني عليه. ومع ذلك فإنك تتكلمين وتتكلمين وتتكلمين وتتكلمين وتتكلمين طيلة الوقت حتى أخال أنني أفقد عقلي. من أنت؟ أنت غريبة – غريبة كلياً! ألا تعرفين أنك غريبة؟ هل من الممكن أن يفعلوا شيئاً كهذا لأي إنسان- أن يرسلوا لهم امرأة غريبة لتتكلم وتنفث هراءها الطويل بأكمله؟ هل يعتقدون جدياً أنني أستطيع الاستمرار في تحمل ذلك يوماً بعد يوم وليلة بعد ليلة، أسكن في نفس الغرفة مع عجوز رهيبة – إلى الأبد؟"

رأت ماريان عيني العجوز تكتسبان بريقاً وتلتفان إليها. كانت هذه العجوز تنظر إليها واليأس والتفكير يبدوان في وجهها. وفجأة تباعدت شفتاها الصغيرتان وكشفت عن نصف دائرة من الأسنان الاصطناعية ذات اللثة السمراء.

همست: "تعالي هنا، أريد أن أخبرك شيئاً. تعالي هنا."

كانت ماريان ترتجف، وكاد قلبها أن يتوقف عن الخفقان كلياً للحظة من الزمن.

قالت العجوز الأولى: "حسبك، حسبك يا آدي. هذا ليس من اللباقة بشيء. أتدرين ما هي مشكلة آدي العجوز الحقيقية اليوم؟" هي أيضاً نظرت إلى ماريان، وانخفض أحد جفونها.

"مشكلتها؟" كررت الطفلة بغباء. "ما هي مشكلتها؟"

"آه، إنها غاضبة لأن اليوم عيد ميلادها!" قالت العجوز الأولى وقد بدأت تهز كرسيها من جديد، وصدرت عنها صيحة ظفر خافتة كما لو أنها نجحت في الإجابة على الأحجية التي طرحتها هي نفسها.

صرخت العجوز المستلقية على السرير: "كلا إنه ليس عيد ميلادي، ليس عيد ميلادي، فلا أحد يعرف تاريخه سواي. وأرجوك، هلاّ هدأت وتوقفت عن قول أي شيء آخر، أو إنني سأفقد عقلي فوراً!" أدارت بصرها نحو ماريان مرة أخرى، وعلى الفور قالت بصوتها المحشرج الخافت: "حين تسوء الأمور إلى حد بالغ فإنني أقرع هذا الجرس فتأتي الممرضة." كانت إحدى يديها ممدودة من تحت اللحاف المرقع – يد صغيرة نحيفة ذات نمش أسود ضخم. وبإصبع لا يمكنها التوقف عن الحركة أشارت إلى جرس صغير على الطاولة بين الزجاجات.

همست ماريان: "ما عمرك؟" كان الآن باستطاعتها أن ترى العجوز المستلقية في السرير عن قرب شديد وبوضوح كبير، وبشكل مفاجئ جداً، من جميع الجوانب، كما يحدث في الأحلام. وكانت تتساءل – عن هذه العجوز – تتساءل للحظة كما لو أنه لم يكن هناك في العالم شيء آخر تتساءل عنه. وكانت هذه أول مرة يحدث فيها شيء من هذا القبيل لماريان.

"لن أخبرك"!

وببطء استجمع الوجه الهرم نفسه على الوسادة، حيث كانت ماريان تنحتني فوقه، ثم تداعى. صدرت أنات خافتة على الفم الصغير المفتوح. وكان صوتها كصوت شاة – صوت حمل صغير. اقترب وجه ماريان اقتراباً شديداً، وتدلى الشعر الأصفر إلى الأمام.

"إنها تبكي"! والتفتت بوجه مشرق ملتهب نحو العجوز الأولى.

"هذه طبيعة آدي كما تشاهدينها،" قالت العجوز بكيد.

قفزت ماريان وتحركت نحو الباب،. وللمرة الثانية كاد المخلب أن يلمس شعرها، ولكن سرعته لم تكن كافية. وارتدت الفتاة الصغيرة قبعتها.

قالت العجوز وهي تتبع ماريان عبر الباب وحتى الممر: "آه، لقد كانت زيارة حقيقية." ثم فجأة أنشبت أصابعها الصغيرة الحادة بالطفلة من الخلف.

وبنحيب مصطنع عالي الطبقة الصوتية صاحت آه، "أيتها الصغيرة، هل لديك سنت تستطعين الاستغناء عنه من أجل عجوز مسكينة لا تملك شيئاً خاصاً بها؟ ليس لدينا في هذه الدنيا أي شيء – ولا حتى سنت واحد نشتري به سكاكر – لا شيء! أيتها الفتاة الصغيرة، فقط خمسة سنتات – سنت واحد –"

شدّت ماريان نفسها بعنف للحظة قبل أن تفلت من اليدين الهرمتين. ثم ركضت عبر الممر، دون الالتفات إلى الوراء ودون أن تنظر إلى الممرضة، التي كانت تقرأ مجلة **الحقل والجدول** وراء طاولتها. سألت الممرضة، بعد حركة ثلاثية أخرى قامت بها لتتفحص الساعة في رسغها، السؤال الذي يطرح بصورة آلية على الزوار في جميع الملاجئ والمشافي:: "ألا تبقين لتناول الغداء معنا"؟

لم تجب ماريان على الإطلاق. فتحت الباب الثقيل بدفعة خرجت إلى الهواء البارد وركضت تنزل الدرجات.

توقفت تحت الشجيرة الشوكية وبسرعة، دون أن يراها أحد، استعادت تفاحة حمراء كانت قد أخفتها هناك.

شعرها الأصفر تحت قبعتها، معطفها القرمزي، ركبتاها العاريتان – جميع هذه الأشياء ومضت في نور الشمس أثناء جري الفتاة لاستقبال الباص الكبير المسرع عبر الشارع.

صاحت: "انتظرني"! وكما لو أنه تلقى أمراً ملكياً، توقف الباص محدثاً صريراً عالياً.

قفزت الفتاة تركب الباص وقضمت قطعة كبيرة من التفاحة.

فرجينيا وولف

حدائق كيو[(١)]

فرجينيا وولف كاتبة بريطانية غنية عن التعريف، وربما كان تأثيرها على غيرها من الكتاب يفوق إنجازها الأدبي الخاص. ولدت عام ١٨٨٢ في لندن ونشأت في بيئة منزلية أدبية، فقد كان عدد من أشهر أدباء العصر يزورون والدها باستمرار، باعتباره مؤرخاً وناقداً شهيراً. تتميز بنزعتها التجريبية وبأسلوبها الشاعري جداً وبقدرتها على رفع مستوى الأشياء العادية بل والتافهة إلى مستوى يسترعي الاهتمام. نشرت روايتها الأولى عام ١٩١٥، لكن رواية **السيدة دالواي** (١٩٢٧) هي أولى رواياتها الأكثر شهرة. وفرجينيا وولف هي واحدة من كبار الكتاب الذين استخدموا أسلوب "تيار الوعي" في السرد الروائي كما يتضح في روايتها المذكورة.

من حوض الزهور البيضوي الشكل ارتفعت مئة ساق تقريباً وامتدت منها عند منتصف المسافة إلى الأعلى أوراق على شكل قلوب أو على شكل

---

(١) هذه ترجمة قصة "Kew Gardens" للكاتبة Virginia Wolf، التي نشرت عام ١٩٢١ في مجموعتها القصصية **الاثنين أو الثلاثاء**. كما نشرت القصة في كتاب:

The Norton Anthology of Short Fiction. Third Edition. R. V. Cassill, ed. New York: W. W. Norton & Co., 1978. Pp. 1015-18.

تأسست حدائق كيو كمؤسسة عامة بريطانية عام ١٨٤١. وهي تتضمن الحدائق النباتية الملكية. وموقعها هو ضاحية كيو من ضواحي لندن.

ألسنة تتجلى عند رأسها وريقات حمراء أو زرقاء أو صفراء عليها بقع من الألوان ترتفع فوق السطح، ومن عتمة الحنجرة الحمراء أو الزرقاء أو الصفراء يرتفع قضيب مستقيم خشن بغباره الذهبي منتفخ قليلاً كالهراوة عند نهايته. كانت الوريقات ذات حجم كاف لأن يحركها نسيم الصيف، وحين تتحرك كانت الأضواء الحمراء والزرقاء والصفراء تمر بعضها فوق بعض، تاركة على بوصة من الأرض البنية اللون تحتها بقعة من أكثر الألوان استعصاء على الوصف. نزل النور إما على السطح الخلفي الرمادي لحصاة، أو صدفة حلزون بعروقها البنية الدائرية، أو حين ينزل على قطرة من المطر، كان يوسَّع بكثافة من الحمرة والزرقة والصفرة جدران الماء الرقيقة إلى درجة أن المرء يتوقعها أن تنفجر أو تختفي. بدلاً عن ذلك، كانت القطرة تعود مرة أخرى خلال ثانية إلى اللون الرمادي الفضي، واستقر النور الآن على جسم ورقة، كاشفاً خيط النسيج المتفرع تحت السطح، ثم مضى قدماً مرة أخرى ونشر إضاءته في المساحات الخضراء الشاسعة تحت قبة الأوراق ذات أشكال القلوب أو أشكال الألسنة. ثم تحرك النسيم في الأعلى بقدر من الرشاقة أكبر قليلاً وومض في الهواء أعلاه، في عيون الرجال والنساء الذين يمشون في حدائق كيو في تموز.

جاهدت الأشكال البشرية لهؤلاء الرجال والنساء وهي تتعدى حوض الزهور بحركة غير منتظمة تثير الاستغراب لا تختلف عن حركة الفراشات البيضاء والزرقاء التي تعبر المرج وهي تطير طيراناً متعرجاً من حوض إلى حوض. كان الرجل يسبق المرأة بحوالي ست بوصات، يتمشى بلا مبالاة، بينما مضت هي بتصميم أكبر، لا تلتفت برأسها إلا بين الحين والآخر لتتأكد أن الولدين ليسا بعيدين خلفهما. أبقى الرجل على المسافة التي تفصله عن المرأة عمداً، ولكن ربما بلا وعي، لأنه أراد أن يمضي بأفكاره.

فكّر لنفسه: "قبل خمسة عشر عاماً أتيت هنا مع ليلي Lily. جلسنا في مكان ما هناك قرب بحيرة وأخذت أتوسل إليها أن تتزوجني طوال فترتي

الظهر والعصر الحارتين. كيف استمر اليعسوب بالدوران حولنا: إنني أرى بوضوح اليعسوب وحذائها ذي الإبزيم الفضي المربع عند الإصبع. طوال الوقت وأنا أتكلم كنت أرى حذاءها وحين كان يتحرك بنفاذ صبر كنت أعرف دون أن أرفع نظري ما ستقوله: كان يبدو أن كيانها بأكمله في حذائها. وحبي، رغبتي، كانتا في اليعسوب؛ لسبب ما اعتقدت أنه إذا استقر هناك، على تلك الورقة، الورقة العريضة التي في وسطها زهرة حمراء، إذا استقر اليعسوب على الورقة ستقول "نعم" على الفور. لكن اليعسوب دار ودار: لم يستقر في أي مكان، بالطبع لا، ومما يُسْعِد أنه لم يستقر، وإلا فما كنت لأمشي هنا الآن مع إليانور Eleanor والولدين. أخبريني يا إليانور، هل تفكرين بالماضي قط؟"

"لِمَ تسأل، يا سايمون Simon؟"

"لأنني كنت أفكر في الماضي. كنت أفكر بليلي، المرأة التي كان من الممكن أن أتزوجها....

حسن، لم أنت صامتة؟ هل تمانعين في أن أفكر بالماضي؟"

"ما الذي يجعلني أمانع، يا سايمون؟ ألا يفكر الإنسان دائماً بالماضي، في حديقة فيها رجال ونساء مستلقين تحت الأشجار،... سعادة الإنسان، واقعه؟"

"بالنسبة لي إبزيم حذاء فضي مربع ويعسوب."

"بالنسبة لي قبلة. تخيل ست فتيات صغيرات تجلس كل منهن أمام حامل لوحة للرسم قبل عشرين سنة، على حافة بحيرة، يرسمن زنبق الماء، أول أزهار زنبق الماء الحمراء التي رأيتها في حياتي. وفجأة قبلة، على مؤخرة رقبتي. وارتعشت يدي طوال فترة الظهر مما أوقف قدرتي على الرسم. وقد أخرجت ساعتي وحددت الوقت لأتيح لنفسي عدم التفكير بالقبلة أكثر من خمس دقائق لكن كانت قبلة امرأة هرمة رمادية الشعر لها ثؤلل فوق أنفها ثمينة جداً، أمَّ جميع القبلات في حياتي. تعالي يا كارولاين Caroline. تعال يا هيوبرت Hubert."

تابعوا سيرهم وتعدوا حوض الزهور، يسيرون الآن هم الأربعة جنباً إلى جنب، وسرعان ما نقص حجمهم بين الأشجار وبدوا وكأنهم نصف شفافين بينما كان ضوء الشمس والظل يسبحان فوق ظهورهم في بقع كبيرة مرتجفة غير منتظمة.

في حوض الزهور البيضوي بدا الحلزون الآن – الذي تلطخت صدفته بالأحمر والأزرق والأصفر لمدة دقيقتين – وكأنه يتحرك في صدفته حركة ضئيلة جداً، وبعدها بدأ يجهد فوق فتافيت التربة الرخوة التي انفصلت وتدحرجت أثناء مروره فوقها. بدا أن لديه هدفاً محدداً أمامه، مختلفاً في هذه الناحية عن الحشرة الخضراء الحادة الزوايا الفريدة العالية الخطوات التي حاولت أن تمر أمامه، وانتظرت لمدة ثانية وقرنا استشعارها يرتعشان وكأنها تفكر، ثم ابتعدت بنفس السرعة والغرابة في الاتجاه المعاكس. صخور بنية اللون تحتوي على بحيرات خضراء عميقة في تجاويفها، وأشجار مسطحة كالشفرة تلوح من جذرها إلى رأسها، وجلاميد صخرية مستديرة من الحجر الرمادي، وسطوح متغضنة ذات بنية متجزعة: جميع هذه الأشياء قبعت معارضةً لتقدّم الحلزون بين ساق وأخرى إلى هدفه. وقبل أن يقرر ما إذا كان سيدور حول الخيمة المقوسة التي شكلتها ورقة شجر ميتة أو سيواجهها، مرت بجانب الحوض أقدام أشخاص آخرين من البشر.

كان كلاهما هذه المرة من الرجال. كان على وجه الأصغر منهما تعبير عن هدوء قد لا يكون طبيعياُ؛ رفع عينيه وثبتهما أمامه دون أن يحركهما بتاتاً بينما كان رفيقه يتكلم، وفور أن انتهى رفيقه من الكلام نظر إلى الأرض مرة أخرى وأحياناً كان يفتح شفتيه فقط بعد وقفة طويلة وأحياناً لا يفتحهما على الإطلاق. كانت للرجل الأكبر سناً طريقة في المشي غريبة من حيث عدم انتظامها واهتزازها، يقذف يده إلى الأمام ويرفع رأسه بسرعة وبصورة مفاجئة، بطريقة لا تخلو من الشبه بحصان عربة نافذ الصبر أتعبه الانتظار خارج أحد البيوت، لكن لدى الرجل كانت هذه الحركات مترددة وبلا معنى. كان يتكلم بلا

توقف تقريباً؛ ابتسم لنفسه وبدأ يتكلم من جديد، كما لو أن الابتسامة كانت جواباً. كان يتحدث عن الأرواح – أرواح الموتى، التي كانت حسب قوله تخبره حتى في تلك اللحظة بجميع أنواع الأشياء الغريبة عن تجاربها في السماء.

"كانت السماء معروفة للقدامى باسم ثيسالي Thessaly، يا وليام William، والآن، مع هذه الحرب، فإن مادة الروح تتأرجح بين التلال كالرعد. توقف، وبدا أنه يصغي، وابتسم، وقذف برأسه، وتابع:

"لديك بطارية كهربائية صغيرة وقطعة من المطاط لعزل السلك – انعزال؟ - عزل؟ - سنتجاوز التفاصيل، لا فائدة من الدخول في تفاصيل لن تفهم، وباختصار تقف الآلة الصغيرة في أي وضعية مناسبة عند رأس السرير، ولنقل، على منضدة صغيرة مرتبة مصنوعة من خشب الماهوغاني. جميع الترتيبات تتخذ على النحو الصحيح من قبل العمال تحت إشرافي، وتستخدم الأرملة أذنها وتستدعي الروح بواسطة الإشارة المتفق عليها. نساء! أرامل! نساء يرتدين السواد –"

عند هذه النقطة بدا وكأنه قد لمح فستان امرأة عن بعد، ظهر في الظل أنه أسود بنفسجي. رفع قبعته عن رأسه، ووضع يده على قلبه، وأسرع نحوها وهو يتمتم ويومئ بشكل محموم. لكن وليام أمسك به من كمه ولمس زهرة بطرف عكازه لكي يحول انتباه الرجل الكبير في السن. وبعد النظر إليها للحظة بشيء من التشوش حنى الرجل الكبير في السن أذنه نحوها وبدا أنه يجيب صوتاً يتكلم منها، لأنه بدأ يتحدث عن غابات الأورغواي التي سبق أن زارها قبل مئات السنين بصحبة أجمل شابة في أوروبا. وكان من الممكن سماعه يتمتم حول غابات الأوروغواي المغطاة بوريقات شمعية من الأزهار الاستوائية، وعنادل، وشواطئ بحرية، وحوريات البحر، ونساء غرقن في البحر، أثناء ما كان يسمح لوليام أن يحركه إلى الأمام، وقد أخذ تعبير الصبر الرواقي على وجه الأخير يزداد عمقاً ببطء وباستمرار.

أتت امرأتان مسنتان من الطبقة الوسطى الفقيرة تتبعان خطواته عن قرب كاف لكي تحيرهما حركاته قليلاً، إحداهما بدينة وثقيلة الحركة، والثانية ذات وجنتين ورديتين ورشيقة. مثل كثير من الأشخاص في مركزهما الاجتماعي كانتا تفتتان بصراحة بأية علامات على غرابة الأطوار تتم عن عقل مضطرب، خاصة بين الميسورين، لكنهما كانتا أبعد من أن تتأكدا ما إذا كانت الإشارات غريبة الطور فحسب أو تتم عن جنون حقيقي. وبعد أن تفحصتا ظهر الرجل الكبير في السن بصمت للحظة وتبادلتا نظرة غريبة ماكرة، وتابعتا بنشاط تجميع حوارهما الشديد التعقيد:

"نِل، برت، لوت، سِس، فيل، بابا، يقول، أقول، تقول، أقول، أقول، أقول –"

"برت، أختي، بيل،[١] جدي، العجوز، سكر

سكر، طحين، سلمون، خضار،

سكر، سكر، سكر."

نظرت المرأة الثقيلة الحركة عبر نسق الكلمات المتساقطة إلى الأزهار الواقفة باردة وثابتة ومستقيمة في الأرض، بتعبير غريب على وجهها. رأتها كنائم يستيقظ من نوم عميق ويرى شمعداناً نحاسياً يعكس الضوء بطريقة غير مألوفة، ويغلق عينيه ويفتحهما، ويرى الشمعدان النحاسي من جديد، فيستيقظ أخيراً استيقاظاً كاملاً ويحدق بالشمعدان بكل قواه. هكذا توقفت المرأة في مكانها قبالة حوض الزهور البيضوي الشكل وتوقفت حتى عن التظاهر بأنها تستمع لما تقوله المرأة الأخرى. وقفت هناك تاركة الكلمات تقع فوقها، وهي تأرجح الجزء العلوي من جسدها ببطء إلى الخلف وإلى الأمام، وتنظر إلى الأزهار. ثم اقترحت أن تمضيا لتجدا مقعداً وتتناولا وجبة الشاي.

كان الحلزون الآن قد تأمل جميع الطرق الممكنة للوصول إلى هدفه بدون الالتفاف حول الورقة الميتة أو التسلق فوقها. فبغض النظر عن الجهد

(١) تهجئة الأسماء الواردة هنا بالحروف اللاتينية هي: Nell, Bert, Lot, Cess, Phil, Bill.

الذي يحتاجه تسلق ورقة، لم يكن متأكداً مما إذا كان النسيج الرقيق الذي اهتز مصدراً طقطقة شديدة الإزعاج من مجرد رأسي قرنيه سيتحمل ثقله؛ وهذا جعله يصمم في النهاية على الزحف تحتها، إذ توجد نقطة تتقوس الورقة فيها إلى ارتفاع كاف عن الأرض لإدخاله. كان قد أدخل رأسه لتوه في الفتحة وأخذ يفحص السقف البني العالي ويعتاد على النور البني البارد حين مر شخصان آخران في الخارج فوق المرج. هذه المرة كانا شابين كليهما، شاب وشابة. كانا كلاهما في عنفوان الشباب بل في ذلك الموسم الذي يسبق عنفوان الشباب، الموسم الذي تكون فيه الطيات الزهرية اللون للزهرة قد انطلقت من محفظتها التي تشبه نيرة الأسنان، حين يكون جناحا الفراشة رغم اكتمال نموهما ساكنان تحت الشمس.

علق قائلاً: "من حسن الحظ أن اليوم ليس الجمعة."

"لم؟ هل تؤمن بالحظ؟"

"إنهم يتقاضون منك ستة بنسات أيام الجمعة."

"ما هي الستة بنسات على كل حال؟ أليست تستحق ستة بنسات؟"

"إلام تشيرين – ما المعني بضمير التأنيث في 'أليست'؟"

"آه أي شيء – ماعنيته – أنت تدري ما عنيته."

قاطعت فترات طويلة من التوقف هذه الملاحظات. وقد صدرت بصوتين رتيبين لا نبرة فيهما. وقف الاثنان ساكنين على حافة حوض الزهور، وضغطا معاً على رأس مظلتها الذي دخل عميقاُ في التربة الطرية. هذا العمل وكون يده استراحت فوق يدها عبرا عن مشاعر الاثنين بطريقة غريبة، مثلما عبرت هذه الكلمات القصيرة الخالية من المغزى عن شيء ما، كلمات قصيرة الأجنحة بالنسبة لثقل معناها، غير كافية للمضي بها بعيداً ولذلك كانت تحط بصورة خرقاء على الأشياء العادية المحيطة بها، وكانت بالنسبة للمستهما التي تخلو من الخبرة هائلة الحجم، ولكن من يدري (هكذا

فكرا وهما يضغطان على المظلة داخل التربة) ما هي الجروف المختفي في تلك الكلمات، أو أية منحدرات ثلجية لا تبرق في الشمس على الطرف الآخر؟ من يدري؟ من رأى هذا من قبل على الإطلاق؟ حتى وهي تتساءل عن نوع وجبة الشاي التي يقدموها لك في الحدائق، شعر بأن شيئاً يلوح خلف كلماتها، ويقف شاسعاً وصلباً خلف تلك الكلمات، وصعد الضباب الرقيق ببطء وكشف – يا للسماوات، ما هي هذه الأشكال – عن طاولات بيضاء ونادلات نظرن أولاً إليها ثم إليه: وكان توجد قائمة حساب سيدفعها بقطعة شلنين حقيقية، وكان ذلك حقيقياً، كله حقيقي، كما أكد لنفسه، وهو يلمس قطعة النقود في جيبه، حقيقي للجميع ما عداهما هو وهي؛ بل حتى بالنسبة له بدأ الأمر يبدو حقيقياً؛ ثم بعد ذلك – لكن الأمر كان أكثر إثارة من أن يسمح بالمزيد من الوقوف والتفكير، وسحب المظلة من التربة بشدة ولم يكن لديه صبر للعثور على المكان الذي يتناول المرء الشاي فيه مع أشخاص آخرين، مثل الأشخاص الآخرين.

"هيا يا تيسي Tissie؛ حان وقت تناول الشاي."

"أين يتناول المرء الشاي؟" سألت بأغرب رعشة من الإثارة في صوتها، وهي تنظر بلا تركيز حولها وتسمح له أن يجرها على الممر العشبي، تجرجر مظلتها، وتلتفت برأسها في هذا الاتجاه وذاك الاتجاه، ناسية الشاي، ترغب في أن تمضي إلى ذلك المكان ثم إلى ذلك المكان، تتذكر أزهار الأوركيد وطيور الكركي بين الزهور البرية، وهيكل صيني وطائر عُرْفُه قرمزي؛ لكنه قادها إلى الأمام.

وهكذا مر بحوض الزهور زوج من الأشخاص بعد زوج وهم إلى حد كبير يتحركون بالطريقة نفسها البعيدة عن الانتظام والخالية من الهدف وغلفتهم طبقة بعد طبقة من البخار الأخضر الأزرق، كان للأجساد فيها في البداية جوهر ولمسة من اللون، لكن فيما بعد تلاشى كلا الجوهر واللون في

الجو الأخضر-الأزرق. كانت الحرارة شديدة! شديدة إلى درجة جعلت حتى طائر السمَّن يختار أن يقفز، وكأنه طائر ميكانيكي، في ظل الأزهار، مع وقفات طويلة بين الحركة والحركة التالية؛ بدلاً من أن تهيم الفراشات البيض بغموض، رقصت بعضها مع بعض، مشكلة برقائقها المتنقلة البيضاء الشكل الخارجي لعمود رخامي محطم فوق أطول الأزهار؛ ولمعت السقوف الزجاجية لبيت النخيل كما لو أن سوقاً كاملة من المظلات الخضراء اللامعة انفتحت تحت الشمس؛ وفي أزيز الطائرة دمدم صوت سماء الصيف في الروح الضارية. كان من الممكن لفترة ثانية رؤية أشكال على الأفق من جميع هذه الألوان: الأصفر والأسود، والزهري والأبيض بياض الثلج، أشكال لرجال ونساء وأطفال، وبعد ذلك، لدى رؤية اتساع اللون الأصفر فوق العشب، ترددوا والتمسوا الظل تحت الأشجار، يتلاشون كقطرات الماء في الجو الأصفر والأخضر، الذي أخذوا يلطخونه بالأحمر والأزرق. بدا وكأن جميع الأجسام الضخمة والثقيلة قد غاصت في الحرارة بلا حركة، متجمعة ومستلقية على الأرض، لكن أصواتهم صدرت عنهم مترددة وكأنها ألسنة لهب تتأرجح بتكاسل خارجة من أجسام الشموع الثخينة. أصوات. نعم، أصوات. أصوات بلا كلمات، تكسر الصمت فجأة بعمق كبير من القناعة، أو بقدر كبير من عاطفة الشهوة، أو، في أصوات الأطفال، بقدر كبير من نضارة المفاجأة؛ تكسر الصمت؟ ولكن لم يكن هناك صمت؛ فطوال الوقت كانت الحافلات ذات المحركات تحرك عجلاتها وتغير سرعتها؛ ومثل شبكة شاسعة من العلب الصينية جميعها من الصلب المزخرف تدور بلا اهتمام إحداها داخل الأخرى، تمتمت المدينة؛ وفوق ذلك صاحت الأصوات عالياً وأرسلت وريقات أعداد ضخمة من الأزهار نور ألوانها إلى الهواء.

قائمة القصص حسب الترتيب الزمني

الكاتبة	القصة	الجنسية	عام النشر	الصفحة
إليزابيث غاسكل	زوجان من مانشستر	بريطانية	١٨٥٨	١٤٩
وِلا كيثـــر	جنازة النحّات	أمريكية	١٩٠٥	٢٣٤
فرجينيا وولف	حدائق كيو	بريطانية	١٩٢١	٤٥٢
كاثرين مانسفيلد	حفلة الحديقة	نيوزلندية	١٩٢٢	٢٩٨
إيلين غلاسغو	جوردانز إند	أمريكية	١٩٢٣	٢١٣
إيديث وارتون	حمى رومانية	أمريكية	١٩٢٤	٤٠٦
كاترين آن بورتر	هجران الجدّة وِذَرول	أمريكية	١٩٢٩	٨٦
يودورا ولتي	موت بائع متجوّل	أمريكية	١٩٣٦	٤٢٥
يودورا ولتي	زيارة بدافع الصدقة	أمريكية	١٩٤١	٤٤٣
شيرلي جاكسون	اليانصيب	أمريكية	١٩٤٨	٩٩
فلانري أوكونر	الزنجي الاصطناعي	أمريكية	١٩٥٥	٣٨
دوريس ليسنغ	عبر النفق	بريطانية	١٩٥٥	٢٨٥
ماري لافن	الأحياء	أيرلندية	١٩٥٨	٢٥٤
ميفس غالنت	قلبي محطم	كندية	١٩٦١	١٨٥
فلانري أوكونر	لا بد لكل شيء يرتفع أن يتلاقى	أمريكية	١٩٦٤	٦٥
شيرلي جاكسون	الشر المحتمل	أمريكية	١٩٦٥	١١٢
شيرلي آن غراو	حفلة الشاطئ	أمريكية	١٩٦٥	١٩٦

كارسون مكلَرز	شجرة. صخرة. سحابة	أمريكية	١٩٦٥	٣٥٨
مارغريت لورنس	طيور الغطّاس	كندية	١٩٦٦	٢٧
ماغي رُس	فعل مهيمن من الخلق، أو التدمير	بريطانية	١٩٧٠	١٢٦
سوزان هيل	في المحميّة	بريطانية	١٩٧١	٣٥٨
سوزان هيل	متى يمكنني أن أغادر؟	بريطانية	١٩٧١	٣٧٠
جانيس إليوت	الضجة الصادرة عن حديقة الحيوانات	بريطانية	١٩٧٢	٢٩
جين ستَبْز	استدعِ لي من جديد اليوم الذي فات	بريطانية	١٩٧٢	١٣٥
أوليفياماننغ	سيدتان بدون مرافقة	بريطانية	١٩٧٢	٣١٩
تشيماندا نغوزي أديتشي	الزنزانة رقم ١	نيجيرية	٢٠٠٣	١١

n

الصفحة

تشيماندا نغوزي أديتشي **الزنزانة رقم ١** ١١

جانيس إليوت **الضجة الصادرة عن حديقة الحيوانات** ٢٩

فلانري أوكونر **الزنجي الاصطناعي** ٣٨

فلانري أوكونر **لا بد لكل شيء يرتفع أن يتلاقى** ٦٥

كاترين آن بورتر **هجران الجدّة وذَرول** ٨٦

شيرلي جاكسون **اليانصيب** ٩٩

شيرلي جاكسون **الشر المحتمل** ١١٢

ماغي رُس **فعل مهيمن من الخلق، أو التدمير** ١٢٦

جين سْتَبْز **استدعِ لي من جديد اليوم الذي فات** ١٣٥

إليزابيث غاسكل **زوجان من مانشستر** ١٤٩

ميفس غالنت **قلبي محطم** ١٨٥

شيرلي آن غراو **حفلة الشاطئ** ١٩٦

إيلين غلاسغو **جوردانز إند** ٢١٣

وِلا كيثــر **جنازة النحّات** ٢٣٤

ماري لافن **الأحياء** ٢٥٤

مارغريت لورنس **طيور الغطّاس** ٢٧٠

دوريس ليسنغ **عبر النفق** ٢٨٥

الصفحة

كاثرين مانسفيلد **حفلة الحديقة** ٢٩٨

أوليفياماننغ **سيدتان بدون مرافقة** ٣١٩

كارسون مكَلَرز **شجرة. صخرة. سحابة** ٣٥٨

سوزان هيل **في المحميّة** ٣٧٠

سوزان هيل **متى يمكنني أن أغادر؟** ٣٩٠

إيديث وارتون **حمى رومانية** ٤٠٦

يودورا ولتي **موت بائع متجوّل** ٤٢٥

يودورا ولتي **زيارة بدافع الصدقة** ٤٤٣

فرجينيا وولف **حدائق كيو** ٤٥٢

قائمة القصص حسب الترتيب الزمني ٤٦١

الطبعة الأولى / ٢٠١٢م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

www.syrbook.gov.sy

مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٢م

سعر النسخة ٣٤٠ ل.س أو ما يعادلها